

القسم الأول

تَفُوقُ الحَضَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ

(من القرن الخامس إلى القرن العاشر)

الفصل الأول

انهيار العالم الروماني: الغرب

(من القرن الخامس الى السابع)

حوالي عام ٤٠٠ ، احتفل رجال الفكر وجمهرة من كتاب اللاتين ومؤلفيهم ، بعيد عظمة روما ، هذه المدينة التي جمعت تحت مسمى واحد ، كل « الجنس البشري » وأتاحت للناس أجمع : « ان يعيشوا مواطنين ورعايا مدينة واحدة ، كأعضاء أسرة واحدة » ، وفتحت المجال واسعا امام الشعوب ليتعارفوا ويتأججوا وينصهروا معا ، عن طريق الاتجار والحضارة والمصاهرة ، بينما اخذ الشعراء المسيحيون بينهم يطوبون روما ويعظمونها لأنها هيأت العالم أجمع ، بعد ان نشرت فوقه ألوية السلام ، وجمته كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ، ليشاركوا معا في شراكة واحدة وإيمان واحد . وهذه العبارات انطلقت ألسنة روتيلوس نمتيانوس وكلوديانوس ، وبرودانس ، معبرين عن مشاعر الارستوقراطية الرومانية بأجمعها ، بحماسة دافقة الشعور اندفعت من أغوار النفس المطمئنة . وقد آمنوا جميعهم وطيدا بأن حدود الامبراطورية لن تلبث ان تحتلط بحدود العالم المتمدن اذ ذلك ، بينما ينعم من هم ضمن هذه الحدود ، بوحدة شاملة لمت منهم السمث . وهذه الوحدة هي مادية ، في الدرجة الاولى . فقد اختلفت هذه المنازعات الاقليمية ، وزالت هذه المشادات السياسية وما جرت اليه من دفع وجذب ، وقطع ووصل ، وارتفعت الحواجز التي كانت تباعد بين الاطراف المتضادة ، ويرى أعضاء الطبقة المسيحية ، أينما وقع منهم النظر ، في أي من هذه البلدان المحيطة بالبحر المتوسط إحاطة السوار بالمعصم ، أقارب لهم وأصدقاء ، ومصالح وأطيانا وأملاكا . وكلهم ينهج النهج الواحد ، سواء أقاموا على حدود الرين ، او سكنوا دارة من هذه الدارات الشارقة التي عمرت بها بريطانيا ، وينعمون بمستوى عيش رضي رغيد . وهذه الوحدة المادية فتحت ، من جهة اخرى ، عن وحدة ثقافية . ففي كل حواضر المقاطعات الرومانية وقواعدها ومراكز أفضيتها ، مدارس توزع نعمة العلم والمعرفة على الراغبين فيها ، حتى اذا ما صقلت نفوسهم ، عاشوا معا الاجداد التاريخية الواحدة ، وتذوقوا الروائع الادبية الواحدة وهاموا بهذه الصور والمحسنات اللفظية والبيانية التي وردت على أقلام

الخطباء ، وهاموا بروائع الفن الهليني . وهي ، الى هذا ، وحدة دينية ايضا بعد ان تغلغلت المسيحية بين طبقات المجتمع الروماني العليا ، فلقحت المناهج الدراسية بقوالب جديدة اتسمت بالعمق الفلسفي ، وهو العنصر الذي كانت تفتقر اليه من قبل ، كما انها اقتبست ، من هذا المجتمع ، ما كان عليه من تنظيم فكري وذهني ، بدون انه لم يكن في مقدور النخبة الرومانية ، ان تقبل على هذه الديانة الشرقية الجديدة . فالذين عاصروا القديس اوغسطينوس وايرونيوموس تحسوا الروابط ذاتها ، وهجست نفوسهم بالهواجس ذاتها التي أثارها فيهم مصائر الامبراطورية ، قبل ذلك بمائتي سنة ، في عهد أباطرة الاسرة الانطونية . فلم يكن ليخطر لهم على بال حتى ولا ان يتصوروا بأن حادثاً طارئاً مهما بلغ من شدته ، سيزعزع أركان النظام الامبراطوري فيحول دون مواصلة روما للرسالة السامية التي أعدتها لها التقادير الإلهية وهيات لها أسباب النهوض بها ، فتحققت على يدها وحدة العالم ، ووحدة الثقافة ، والوحدة الدينية .

أخذت هذه الوحدة تتم ، والحق يقال ، منذ أواسط القرن الثالث في ظروف قاسية كانت تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم . فالجهد الذي بذل بسخاء للحد من غزوات البرابرة ، او بالأحرى لتحويل اتجاهها وللتخفيف من أهوالها ، بعد ان طعموا بحجرات الامبراطورية وسال لعاهم في حلوقهم لما خبروا من نعمائها ورأوا من ازدهارها وما بذل من جهد للمحافظة على استقرار الادارة الامبراطورية في الداخل بعد اضطراب حبل الامن لكثرة الثورات العسكرية يقوم بها الطامعون في السلطة والمحاولون اغتصابها والاستئثار بها ، كل ذلك وما اليه أرهق البلاد وأهبط الادارة وعطل جانباً كبيراً من نشاطها ففي أواخر القرن الرابع ، كانت الامبراطورية لا تزال تثير الاعجاب في النفوس وتستبد بالخواطر لرحابة رقعتها ، وهيبة عظمتها ، وهو وضع لا يستطيع المؤرخ إلا ان يلاحظ فيه بعض النزعات الخطيرة . فمن جهة اخذ شطرا الامبراطورية : الشرقي والغربي ، ينزعان منذ وفاة الامبراطور قسطنطين الكبير ، عام ٣٣٧ ، أكثر فأكثر ، للاستقلال التام ، بمزلة الواحد عن الآخر ، بحيث قام في كل منها امبراطور خاص . ومن جهة اخرى ، لما كانت كل القوى الناشطة في الامبراطورية ، من سياسية واقتصادية وثقافية ودينية تتركز حول الشرق اليوناني ، اخذ الغرب اللاتيني يشاهد اثر الاعراض التي انتابته ، انحلال النظم السياسية التي ورثها من التاريخ القديم .

اول ما يطالنا من عوارض هذا الانحطاط تدهور الروح
انحطاط الامبراطورية الرومانية
الوطنية وتحللها . فبعد ان كانت الامبراطورية في بدء أمرها ، عبارة عن اتحاد عدد من المدن ، تتمتع بالاستقلال على أنساب وأقدار متفاوتة ، اذ بها تتحول الى ملكية مطلقة من الجنس الفرعوني ، معقدة الادارة . فالاعباء التي كانت البلديات تضطلع بها من قبل او متروك أمرها للبادرة الفردية ، أصبحت الآن من خصائص الادارة العامة ، او عبئاً على دوائرها المعقدة الكثيرة النفقات ، فاثقلت كاهل الشعب وأرزحته تحت وطأتها . وهذه الروح الوطنية الرومانية التي كانت تبث النشاط والحماسة في قلب كلوديانوس كما أثارته حماسة القديس

ايرونيوموس ، استعالت شيئاً من التعلق الصوري او الشكلي بهذه المدينة التي رفعت روما منارها عالياً ، ولم تلبث هذه الروح ان شابها عاطفة من الزهد وعدم الاكتراث بالحكم الامبراطوري والموظفين الذين يؤمنون الادارة ويصرفون الاعمال . فامام موظفين جشعين ، لا يهتم سوى تأمين جباية رسوم هم اول من يفيدون منها ، نرى المواطن الروماني يلتزم جانب السلبية ويحاول كلما استطاع الى ذلك سبيلاً ، التهرب من التزاماته المدنية والتسلص منها . فمن عضتهم الفاقة بينهم اعتصموا بالهرب او أعلنوا العصيان المكشوف . وبينما يحاول الأغنياء وسرارة القوم الحصول على المزيد من الاعفاءات والاستثناءات القانونية ، تجيش نفوس الجميع بروح العصيان والتمرد . وتمثل هذه الروح ، على أشدها ، في هذه الحركات العسكرية التي تكرررت حوادثها : فالناس يتملصون من الخدمة العسكرية . فبدلاً من هذه الفرق العسكرية التي لا شأن لها ولا كبير وزن ، تفضل الدولة عوضاً عنها وبديلاً لها ، كمية من النقود ، تكبر أو تصغر ، تنقص أو تزيد ، على نسبة الفرصة السانحة والحاجة الطارئة ، تتيح لها تجنيد فرق من متطوعة البربر أقوى على الحرب وحمل السلاح . ففي اواخر القرن الرابع ، ليس الجيش الروماني ، حتى في ملاكاته العليا ، سوى فريق ليم من الاغراب المرتزقة . فهم ، في الغالب ، جنود ملء وفاضهم الحماسة ، يتجنّدون للدفاع عن الدولة التي تدفع لهم المرتبات والأعطيات ، وعن مدينة يتمنون استمرارها وامتداد حقلها وتمثل نظمها . ومن دواعي القلق الذي يشغل البال ويقلق الخاطر هو ان المنظمة السياسية الوحيدة الناشطة ، والقوة الفعالة الوحيدة لدى هذا الشعب الروماني الذي يعاني الجلود ، هي بيد البرابرة أنفسهم .

وهذا الاضطراب الذي أصاب الجيش واوهنه ، نراه يخلخل مرافق التجارة ويذهب برواء الحياة في المدن ويشل فيها كل حركة . ففي الغرب ، ولا سيما في غالبا حيث كان للسلام الروماني اكبر الاثر في تنشيط عوامل الزراعة وانهاض مرافقها ، اخذت الحركة الاقتصادية والتجارية التي قامت في القرنين الاول والثاني على قواعد اصطناعية واهية ، بالانحطاط تدريجياً واعتراها الذبول ، فالطبقة الارستوقراطية كانت تهوّل على الاغريق في الحصول على ما ترغب فيه من اسباب البذخ والترف يؤمن توفيرها لهم ، تجار شرقيون ، سيطروا على حركة الاستيراد ، يبيعون الرومان اكثار بكثير مما يشترون منهم ، وبذلك اخذوا يمتصون ، شيئاً فشيئاً ، ما تراكم من احتياطي المعادن الثمينة في الغرب ، خلال الفتوحات الرومانية . فقد اشتدت حاجة الناس الى الذهب ، منذ اواخر القرن الرابع ، الامر الذي أضر ، الى حد كبير وشلّ حركة المقايضات التجارية ، وترك بالتالي ، اثرأ عميقاً على الحركة التجارية بين الاقطار النائية ، فأدّى الى تقهقر الحياة الاقتصادية في المدن وترديها . وقد انكمشت المدن الكبرى خلف اسوار اقامتها حولها على عجل لتلقي شر الاضطرابات التي نشبت خلال القرن الثالث في الامبراطورية ، واستعالت الى حصون وقلاع حصينة لم تلبث ان فارقتها معالم الحياة وغامت عنها كل مظاهر النشاط . وكان من جراء هبوط قيمة النقد الفضي ، ان تمطلت حركة المقايضات في المدن واصبحت المواد الغذائية عسيرة المنال ، الامر الذي دفع الاثرياء من سكان المدن الى مبارحتها والاعتصام بالدارات

يشيدونها لهم في الارياف، حيث كان من السهل عليهم تأمين حاجتهم من المواد الغذائية، وحاجة ذويهم . وهكذا اخذوا يتذوقون السكى في الريف ، كما يستدل من رسوم الفسيفساء التي يعود تاريخها الى القرن الرابع ، فيستسلمون للاذم . وراحوا يستعوضون عن الكماليات المستوردة من الشرق بمصنوعات محلية ، وان كانت دون الاولى دقة صنعة ، الا انها دونها بكثير كلفة وثمناً . وقد خضعت جميعات التجار والصناع التي ازدهرت من قبل في المدن ، لمضايقات جبابة الضرائب والرسوم ، بعد ان تفننوا في ابتزازها ، واخذت بالانحلال ، بعد الذي عانت من ركود الاعمال والاشغال اثر تناقص عدد زبائنهم من ذوي اليسار . وهكذا توجهت البلاد نحو نظام من المعاملات الاقتصادية قصى على الزراعة ، فبارت الارض واجدبت ، وهكذا راحت المدن واسواقها والطرق القائمة في الريف تزول معالمها شيئاً فشيئاً ، كما ضاقت فيها سبل العيش على الاهلين ، بعد ان قل النقد المتداول بين الناس ، كما تمطلت الطرق التجارية ، الأمر الذي لم يكن ليسهل مهمة الدولة في جباية الضرائب وتحصيل الرسوم المفروضة على المحاصيل الزراعية ، وأصبحت لا تمول إلا على ضريبة الخراج والأعناق التي كثيراً ما كانت تجبى عيناً ، الأمر الذي كان يعقد امور الجباية ويجعل من المتعذر الانتفاع من الرسوم الجبابة . وكان من جراء اعتماد الامبراطورية المتزايد على الريف ، ان اخذت الدولة الاعتماد على كبار الملاكين مباشرة ، فعولت على المصادرة والسخرة في تأمين أود الجيش والموظفين الاداريين والحاميات العسكرية ، فهيات بذلك تفتيت السلطة وتشعبها .

وهكذا ساعدت الدولة على خلق نظام اجتماعي جديد بالرغم من الجهود التي بذلتها الامبراطورية التي رأت ، تبسيطاً لمهمتها ولتأمين الاستقرار في تحصيل الضرائب ، ان تربط ، بصورة وراثية ، كل رجل حر بوضعه الاجتماعي فيلزمه ويتقيد به ولا يجيد عنه . فالحطاط المدن واشتداد وطأة الضرائب تسببا في انهيار طبقة صغار الملاكين الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال ، وحملهم على طلب حماية من تتوفر لهم القوة والبأس ، ليردوا عنهم غائلة المستبدين وجشع المستغلين ، وبذلك قضي تماماً على الطبقة الوسطى ، كما ازدادت الطبقة الارستوقراطية والطبقة المشيخية الاخرى نفوذاً على نفوذ ، بعد ان اقتصرت الوظائف الحكومية عليها . وهكذا لم يلبث رب الارض الذي اتخذ من قصره حصناً حصيناً ، ونصب حوله الحراس يسهرون على سلامته وامنه ان أصبح السيد المطلق على هؤلاء المعمرين الذي يعملون في ارضه ويحرقون مزارعه ، ويضطرم لدفع رسوم خاصة له او تأدية بعض أعمال السخرة مقابل حمايته لهم وتحمل مسؤولياتهم امام اصحاب الشأن . وهكذا لم يعم المزارعون والفلاحون الذين يعملون في جواره ان وضعوا ، هم ايضاً ، أنفسهم تحت حمايته ، وقدموا له بكل اخلاص ، ما يلزم من الخدمات . والى جانب هذه الاقطاعات التي نشأت في البلاد وكانت بأمن من مضايقات ذوي الشأن لما تعيمنت به من حماية المزعمين ، اخذ المجتمع اذ ذلك ، بالتفتت والتفسخ ، فاقفرت المدن من سكانها بعد ان ساءت الاحوال الاقتصادية وأخذت المجتمعات الريفية تتمتع بالمزيد من الاستقلال

وهي على أتم استعداد للدخول تحت طاعة من يؤمن لها الرعاية والحماية ، وعاشت في طول البلاد وعرضها جماعات من المتمردين ، وانتشرت في أرجاء البلاد طوائف من الأرقاء الفارين والفلاحين الذين يرحلون تحت وطأة الضرائب والرسوم المتركمة عليهم سنة بعد سنة .

وهذه القيم الروحية للحضارة في الغرب ، تبدو في أواخر القرن الرابع ، تداعي الحضارة وانهارها على شتى مظاهرها : الدينية والثقافية والفنية ، وكأنها أقسل تأثراً بهذا الانهيار . فتحت تأثير المسيحية ، وبفضل ما للديانة الجديدة من جذور شرقية وشعبية ، أخذ الفن والفكر يبتعدان شيئاً فشيئاً ، عن مظاهرها الكلاسيكية ويتلبسان أشكالاً وصوراً جديدة ، فتحت تأثير الفلسفة الاقلاطونية الجديدة التي أخذ بها كل من امبروسيوس واوغسطينوس ، ارتدى الرسم على الزجاج المذهب ، والتصوير على الالواح العاجية المزوجة التي كثر استعمالها في شمالي ايطاليا ، طابعاً ثم عما بلغه التجريد الروحي . فاذا ما رأينا الفنانين يكثرلون من حفر صور بشرية على جوانب النواويس ، بارزة غضوننا ، ظاهرة تجاعيدها ، فبحسبنا منهم بالاحرى ، عن أنماط فنية جديدة وليس عن قلة دربة فنية في الصناعة ، اذ كانوا يحاولون التعبير ليس عن الجمال الصوري بل بالاكتر ، عن العنصر الفائق الطبيعة الذي جاءت الديانة الجديدة تعلن للانسان عن وجوده ، وتُفعم به قلبه .

ومع ذلك ، فلا بد من ان نلاحظ ظهور بعض امارات التقهقر في هذا المجال . فالهبوط عن المستوى الذي لا بد من تسجيله هنا ، جاء نتيجة لانتشار القيم الدينية والثقافية بين الطبقات الشعبية . فكلما انتشرت المسيحية بين طبقات المجتمع الروماني الارستوقراطي ، وتغلغلت بين ثناياه ، فقدت من سموها بنسبة ما حققته من سعة وانتشار . فالروح الدينية التي نالها لدى النبيل بولان ده بيللا ، احد سراة القوم في مقاطعة البوردوليه ، هي روح دينية ميسرة ، مريحة جاءت على مقياس نهج الحياة والعيش الرخي الذي انتهجته الطبقة المشيخية ، اذ ذلك . وهبوط المستوى الثقافي يرتبط ، الى حد بعيد ، بهذا الانكماش الذي خلخل الوضع الاقتصادي وقضى على حياة المدينة ، وذهب ببهاجها . فقلة الطلب او انعدامه لدى الطبقة الارستوقراطية التي أخذت تأتلف ، أكثر فأكثر ، مع حياة الريف وعادات أهله ، أدت بالتالي الى التقليل من الانفاق ، والى اقفال المصانع الفنية ، كما أدى هذا كله الى هبوط ملحوظ في الاساليب والمناهج الفنية نفسها ، كما يبدو ذلك واضحاً في معالم الفن الجنائزي ، في مدينة آرل ، عام ٣٩٠ . فالمدن يهجرها سكانها ، كما تحبب فيها جذرة الحياة الفكرية ، ممثلة بالمدرسة رمز النشاط الثقافي ، اذ ان المدرسة هي مكان لمطالعة الآثار الادبية ودرسها . وعندما يهجر هؤلاء الناس المدينة ويقطعون كل صلة لهم بها ، يألون حياة الريف دون ان يقطعوا ، مع ذلك ، كل انعطاف نحو النشاط الفكري . فهم يعتقدون اجتماعات لهم دورية كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، فيتعاورون الكتب ، ويتبادلون الرسائل مع بعضهم ، فتبقى المراسلة أنشط وسائل الاتصال ، ويمهدون بتربية أولادهم لمربين من الخاصة . ومع ذلك فكما استحالت التربية نشاطاً عائلياً او عملية بيتية ، وكلما ضعفت او قلت الاتصالات

مع الخارج ، ضمرت ، بالتالي ، الاعراف الثقافية والتقاليد الحضارية ، تحت تأثير الوسط الريفي المحشوشن . فالاهتمام بالثقافة الكلاسيكية القديمة ، في اخريات القرن الرابع ، أصبح وقفاً على نخبة مختارة . فطالما استطاعت هذه النخبة ان تثبت وجودها في الوسط الحضاري وفي المدينة ، استطاع بالتالي ، الفن والفكر معاً ، ان يحافظا على شعلتها مشبوبة وهاجة . اما اذا ما تفرق شمل هذه القلة المختارة وراح كل من أفرادها يقبع بين أملاكه وأقطانه الواسعة ، في عشرة موصولة مع الفلاحين ، فلا بد من ان تنقلب الحال غيرها . وهكذا بابتعاد المثقفين عن المدينة وانقطاعهم في شبه عزلة في الريف ، لم يلبثوا ان يفقدوا كل رواء المدينة وان تحشوشن طبائهم وتغلظ أرواحهم .

وهكذا ما كادت شمس القرن الرابع تميل نحو الغروب ، حتى رأينا التحول يخيم على المدينة في الغرب دون ان يشعر الناس فعلاً بحقيقة ما يجري امامهم او يقع حولهم . ففي الوقت الذي تنعدم ، في الدولة ، كل وسائل العمل والتنفيذ ، ويتعاضد السلطة الفعلية كبار الاقطاعيين وقادة الجيش ، وجلهم أغراب ، لا تثبت تقاليد الريف وعاداته ان تنشط وتستبد بالاذواق والاخلاق والاعراف ، فتضعف ، بالتالي مباحج حياة المدينة وهذه الحياة الرهيفة التي سادت أجواء المدن وعمرت بها الحياة في ظل اقتصاد نشيط وتجارة مزدهرة . وسيحدث قريباً ما يجعل من هذا الانهيار ويسير بهذا الوضع الذي صورنا الى النهاية المحتمومة التي رسمت لها في هذه الموجات المتتالية من الغزوات تشنها القبائل الجرمانية .

الموجات الجرمانية وقع وراء نهري الرين والدانوب ما اصطلحوا على تسميته بالعالم البربري او الهمجي ، أي هذا القسم شبه المجهول من العالم الذي لم يكتب له ان ينم ولا قيض له ان يسهم بالحضارة الرومانية . وهؤلاء الاقوام البرابرة الذين يعيشون على حدود الامبراطورية هم الجرمان ، وهم قبائل من سكان الارياف ، ما ان يستقروا فوق تربة ممسكة شحيحة حتى يعالجوها بأساليب بدائية . الوحدة الاجتماعية عندهم هي الاسرة ويؤلف مجموع الأسر من صلب واحد قبيلة تتوزع الى بطون وأفخاذ ، يتألف من بعضها احلاف عسكرية تعرف عندهم بأقوام او شعوب . من هذه الشعوب مثلاً : الفرنج *Francs* وهم على فرعين او شعبتين : *Saliens* و *Ripuaires* ، والألامان ، والبورغونيون *Burgondes* والفندال ، والاستروغوط والفيزيغوط ، تحت امرة رؤساء او قادة حرب ، هم على الفصالب ملوكهم وأصحاب الكلمة النافذة ، والحل والربط عندهم . والحدود التي كانت تفصل بين هذه الاقوام الجرمانية والامبراطورية الرومانية ليست ، على كل حال ، صعبة النفاذ ، ولا من العسير التسرب عبرها والانسراح في المناطق الرومانية ، فقد سبق لمبشرين ان حملوا الى بعض هذه الشعوب ، النصرانية ، انما على مقالة الآريوسية *Arianisme* ، كما حدث للجرمان ان اجتازوا ، بأعداد كبيرة متراصة ، هذه الحدود ، ليعملوا مزارعين في بعض الاقاليم الرومانية ، او ليؤلفوا فرقاً مرتزقة في الجيش الروماني . وقد استطاعت روما ، منذ عام ٢٨٠ ، ان تهيمن على هذه الحدود

بنجاح وتتشدد بمراقبتها . إلا ان الضغط على هذه الفواصل اخذ يشتد، في أواخر القرن الرابع، بدافع من ضاغوط او كابوس لا يقاوم، من قبل هذه الشعوب التي اخذت تتمثل وتمطى وتتهناج في هذه الفيافي الشاسعة الممتدة من أواسط القارة الآسيوية . فلم تستطع الحدود الرومانية وما عليها من قلاع وحصون ، الصمود في وجه هذا الضغط ولا احتمال شدة الصدمة الدافعة ، فانهارت أمام سيل جراف من هذه الاقوام تدافعت من الثغرات التي انفتحت امامها ، فاكتمسحت في اندفاعها اوروبا الغربية ودكت منها المعالم .

وأول من اجتاز حدود الامبراطورية على الدانوب ، من هذه الشعوب ، قبائل الفيزيغوط ، وثاروا في وجه الامبراطور فالنس عام ٣٧٨ . وقد استطاعت حكومة الامبراطور تغيير وجهة هذه الموجة البشرية وتحولها نحو الغرب ، فلم يلبث ملكهم آلاريق ان فتح مدينة روما ، عام ٤١٠ ، واحتلت جحافلها ، عام ٤١٢ ، غالبا الجنوبية في الوقت الذي اجتازت فيه قبائل الفندال حدود اليرين تجر وراءها لميماً من القبائل الجرمانية الاخرى كالألين *Alains* والسوييف *Suèves* ، وذلك في اليوم الاخير من سنة ٤٠٦ ؛ ومن اسبانيا التي استباحتها شعوب الفندال واقامت فيها ردهاً من الزمن تستعيد عافيتها وقوتها ، راح ملكهم جنسريق يفتح لهم ، عام ٤٢٩ ، مقاطعة افريقيا . أما شمالي غاليا ، فقد راح غنيمة باردة للفرنح والألمان والبورغونيين الذين انتهى بهم مطاف الغزو، الى مقاطعة سافوى ، عام ٤٤٣ . وبين ٤٠٠ - ٤٣٠ ، اضطرت الفيالق الرومانية لاختلاء بريطانيا وترك شؤون الجزيرة لسكانها من اقوام الكلتيين الذين لم يلبثوا ان عانوا الأمرين من غزوات السكسون ومهاجمتهم المتكررة ، محاولين من وراء ذلك ، اقتطاع الأراضي الواقعة على شواطئ بحر الشمال وخليج المانش . وتمكن الكلتيون من الصمود في وجه هؤلاء الغزاة حتى اواخر القرن الخامس . الا ان الجرمان توصلوا الى طرد سكان البلاد الاصليين ، الى الشمال والغرب منها . وجلا قسم من البريطانيين الى شبه جزيرة الارموريك ، في غاليا، هرباً مما تعرضوا له من ضغط السكسون . ومنذ عام ٤٥١ - ٤٥٢ انطلقت موجة الهونز بقيادة أثيلا، من سهول بانونيا تدك تحت سنبك خيلها غاليا وسهل البو في ايطاليا الشمالية . وفي عام ٤٨٨ ، دخل ثيودوريك ملك الاوستروغوط ايطاليا ، على رأس جيش لجب . وهكذا في أقل من قرن واحد ، استباحت موجات عارمة متواصلة من اقوام الجرمان وشعوبهم ، معظم مقاطعات الامبراطورية الرومانية في الغرب بينما بقي شطرها الآخر ، في الشرق ، سليماً مصوناً الى حين . والرأي المعول عليه لدى المؤرخين هو ان يعملوا من هذه الحقبة حداً ينتهي عنده التاريخ القديم، ويبتدىء معه تاريخ الأجيال الوسطى . فما هي لعمري ، النتائج التي ترتبت على هذا الحادث الطارئ الذي أفسر عميقاً في تاريخ الحضارة ؟

فالانشاءات الرومانية المثلة في هذه الدساكر والقرى والمزارع والحاميات المتناثرة حباياتها على الحدود ، في ابعاد متفاوتة ، مما وطأه الغزاة الطارثون بارجالهم ، زالت معالمها تماماً من الوجود دون ان يبقى منها اثر بعد عين . فتقاسمت أقوام من السكسون والبريطانيين سكان

البلاد الأصليين ، مقاطعات بريطانيا . وسيطر على مقاطعة الفلاندر واقليم رينانيا بين الدانوب وجبال الألب ، قبائل الفرنج والألمان والبلغاريون المنتصرة ، وراحت تستعمر بوسائلها ، هذه المقاطعات وتستغلها ، بينما نزح عدد كبير من الرومان عن هذه الارحاء ، واقاموا بعيداً الى الجنوب ، بينهم سلفيان التريفني *Salvien de Trèves* الذي جاء وسكن مدينة مرسيليا . ووقعت اطلاق الفن وروائمه ، والمباني التي كانت تزهي بها هذه المدن ، والرياش الفاخرة التي ازدانت به صروح سراة القوم ، وداراتهم الجميلة في الارياف ، كل هذا ذهب فريسة للغزاة الفاتحين . فلم يباليوا قط بما لهذه الدرر والغرر الفنية من قيمة وشأن فاهملوا امرها ولم يلبث ان عفا الكثير من معالمها فاصبحت نسياً منسياً . وهكذا زال من الوجود ما كان قائماً فيها من مدارس وكنائس ، كما بادت فيها الجوالي والجماعات المسيحية ، وارتفع كل اثر للحدود الرومانية ، واقتسمت هذه القبائل الجرمانية الاقاليم الرومانية الواقعة اليها فوزعتها على ما عندها من بطون وافخاذ ، فانتهبتها الجماعة وحولتها الى مزارع ومراع فسادت فيها اخلاق الوثنيين وعاداتهم . وقد حدث شيء شبيه بهذا، في مقاطعة الاموريك التي نزلت بها جاليات من بريطانيا هرباً من وطأة الغزاة السكسون ، وفي جبال كنتبريا الى الشال الغربي من اسبانيا حيث عاد السكان الى طبائعهم البربرية في المناطق التي لم تدرج فيها اللهجات الرومانية ، انما سادت فيها لغات البشق *Basques* والكلتيين وغيرها من اللغات الجرمانية .

اما في الجنوب من هذه المنطقة فنتائج الغزوات البربرية كانت اخف وقلماً . فقد كان عدد البرابرة الذين انساحوا في بعض اطراف البحر المتوسط الغربية كاسبانيا وافريقيا ، قليلاً نسبياً ، اذ لم يعبر مضيق جبل طارق ، الى افريقيا ، بصحبة جنسريق اكثر من ٨٠ الفاً كما لم يدخل اسبانيا تحت قيادة ثيودوريق ، سوى ٢٠ الفاً من الاستروغوط ، حيث اخذوا يستمرئون تدريجياً ، المدنية الرومانية ، اذ اعتنق السواد الاعظم منهم النصرانية . صحيح انهم كانوا مدججين بالسلاح ، قساة القلوب جشعين وكان عبورهم خلال ايطاليا وغاليا واسبانيا في طريقهم الى افريقيا كارثة هزت اركان العالم اللاتيني وهددته بالحاق ، لما انزلوا في هذه البلدان من خراب ودمار ، ونهب وسلب ، وما اضرمو فيها من حرائق ضروس اكلت الاخضر واليابس . فهذه الكنوز التي طمرها اصحابها من الاغنياء وسراة القوم في الأرض ، إستبقاء لها وجعلها في منجى من عبث العابثين ، لم تَرَ النور ثانية ولم يعد اليها اصحابها ، بعد ان ارتفعت القمة وانقضت الغمامة السوداء ، مما يدل على ان عدداً كبيراً من اغنياء الرومان لقوا حتفهم خلال النكبة ، أو جلكوا عن اوطانهم دونما رجعة . وبين الذين آثروا البقاء حيث هم ، أو لم تقتلعهم العاصفة ، من آل امرم الى الخراب والدمار ، كما وقع مثلاً لبولان ده بيلا الذي جرب ان يتعاون مع الغزاة وآثر العيش بينهم محافظة منه على مقتنياته واملاكه وثروته الطائلة ، مع انه كان من الميسور له ان ينجو بنفسه مع ذويه ، الى املاكه الواسعة في الشرق . وعمت الفوضى البلاد لكثرة

الاضطرابات والانتفاضات الشعبية . فقد ثار العبيد وتمردوا على اسيادهم ، وراح البائسون من الفلاحين والمزارعين يناصرون جحافل البرابرة الغزاة ويشدون من ازرهم . وعمت الفوضى مرافق البلاد الاقتصادية : اذ اختل حبل الأمن واختلت بالتالي الحركة التجارية ، وانقطعت وسائل الاتصال والانتقل كما انقطع استيراد المواد الغذائية من الخارج . ومما هو انكى من هذا كله وأحز في النفس وواقع ، سقوط روما عام ٤١٠ ، بيد البرابرة . فكان لهذا الحادث دوي بعيد في النفوس انزل الهلع في قلوب العالم المتمدن ، حتى ان القديس ايزوذيوس انقطع حيناً عن متابعة عمله ، في عزلة في بلاد اليهودية . اما الوثنيون من اعضاء الطبقة المشيخية ، فراحوا يردون هذا الحادث الى عمل انتقامي من جانب الالهة بعد الذي اصابها من زهد الناس بعبادتها وانصرافهم عنها ، كما رأوا في هذه النكبة النكباء نتيجة وخيمة لزواج المسيحية ونواهيها . وغشيت قلوب المسيحيين هواجس مؤرقة من القلق والاضطراب ، فأخذوا يتساءلون بشيء من الحيرة : لماذا لم يصن الله مدينة القديس بطرس ؟ وراح فريق منهم ، بعد ان وقعوا فريسة الرساوس يتقربون من الأصنام التي رذلوها من عهد بعيد ، وأطرحوها جانباً يعفرون أمامها رؤوسهم مستغفرين ، قارعين صدورهم ندماً راسفاً ، كما اخذوا يروجون الشوائع بقرب نهاية العالم . واسمع ما قاله هذا الشأن بروسير الاكويثاني : « فارق السلام ارضنا هذه ، فاصبح كل ما تقع عليه العين سائراً للزوال . » ولكي يرد القديس اوغسط طينوس شماتة الشامتين ودعاة السوء والشائنين ويقوي ضعاف الايمان وضع كتابه : « مدينة الله » *Cité de Dieu* . ومع ذلك فما كادت العاصفة تمر حتى تناسى الناس ويلاتها ونتائجها المشؤومة ، كما عادت الثقة الى النفوس . وما ان اطل عام ٤١٧ حتى راح روتيلوس ناتيانوس *Rutilius Namatianus* يشيد عالياً ويتغنى بعودة البحبوحة والرفاه ، وعودة النشاط التجاري وحركة المبادلات وحياة اللهو . اما الكاتب اوروز *roz* (فعلتق على الحادث قائلاً : فالغزو حادث طارئ ، وانقضى . فقد سمحت به العناية الإلهية لتتيح للبرابرة الانسراح في الامبراطورية الرومانية المظفرة ، وليفقدوا مما فيها من حضارة ومدنية ونصرانية . وقد ارتفعت في روما بين ٤٢٢ - ٤٤٠ كنيسة : الأولى باسم القديسة ساينا والثانية باسم القديسة ماريا الكبرى (ماجور) ، وفرشت جدرانها بالفسيفساء ، سيراً مع التقاليد الفنية المرعية منذ عهد قسطنطين .

التشكيلات الجديدة لم يترك غزو القبائل الجرمانية ، للبلدان الواقعة حول البحر الابيض المتوسط ، أثراً عميقاً ، إلا في البنيان السياسي وتنظيماته . فبعد الغزو بمدة قصيرة ، راحت الحكومة الامبراطورية تحاول اعطاء صبغة شرعية لإقامة البرابرة في المقاطعات التابعة لروما . فقد اعتادت الامبراطورية ، منذ عهد بعيد ، استقبال رجال الحرب من بين البرابرة . فلم تكن جحافل الغزاة لتختلف كثيراً في الأصل عن فيالق الجيش الرسمي ، اذ ذاك . ففي توزيعهم على الأقاليم والمقاطعات ، دمج لهم في الملاكات والأطر العسكرية المعمول بها في البلاد ، بعد ربطهم والاستيثاق منهم بالمواثيق . فقبل ان يطأ الأريث ايطاليا بسنابك خيله ، كان

ضابطاً كبيراً في الجيش الروماني برتبة *Magister Militum* ، كما ان احلاف الفيزيغوط أقطعوا ، بموجب معاهدة 'عقدت معهم ، عام ٤١٥ ، مقاطعة الاكويتان . وجرت اتفاقات مماثلة مع غير هؤلاء الشعوب أضفت الشرعية على استيطان الحلفاء الجدد من الفنلاند ، ان لم يكن في اسبانيا ، عام ٤١١ ، أقلته في إقليم نوميديا ، عام ٤٣٥ ، وفي افريقيا عام ٤٤٢ ، كما أضفت الشرعية على اقتطاع قبائل البورغونيين ، مقاطعة السافوى ، عام ٤٤٣ . وثيودوريق نفسه الذي كان رئيس هؤلاء الاحلاف ، أصبح ، منذ عام ٤٨٣ ، بطريقاً وقائداً للجيش . وقد احتفظ هؤلاء الحلفاء بقوانينهم الوطنية وبما لهم من تشكيلات مستقلة اختصوا بها . فملكهم وحده ، حق التفاوض مع روما ، وله وحده حق ابرام الموائيق ، التي يتعهد بموجبها تقديم كل مساعدة عسكرية مقابل القيام بأوَد رجاله .

وتنفيذاً لمسؤولياتها من هذا القبيل ، راحت الامبراطورية تطبق ، بعد ان تبنتها وأخذت تعمل بموجبها ، الاساليب ذاتها والمناهج نفسها التي كانت متمعة من قبل ، لتوفير السكن وأسباب الراحة لموظفيها وأفراد جيوشها . فكانت الدولة تسلمهم أذونات بالسكن ، وباستلام ما هم بحاجة اليه من المواد الغذائية ، من مستودعات التموين العامة ومخازن الإعاشة . وأمام انتشار حركة العيش في الريف التي نشطت أسبابها ، اذ ذلك ، ومواجهة ضرورة توفير مقومات السكنى الطويلة ، رأت الدولة نفسها مضطرة لتعديل قانون « الضيافة » المعمول به ، اذ طلب الى الملاكين التخلي عن ثلث او ثلثي بعض ممتلكاتهم ، لقواد هذا الجيش الذين راحوا يوزعونها بدورهم ، بين كبار الرؤساء والضباط . والظاهر ان العملية تمت دون ان تثير صعوبات كثيرة ، اضافة عدد البرابرة الذين اقتضى تدبير سكنهم ، نسبياً ، ومن جهة اخرى ، فقد جرت العادة ان يقيم بعض أعضاء الطبقة المشيخية حاميات عسكرية على ممتلكاتهم ، وحداتها من البرابرة . ولم يتمعض لهذا التدبير التعسفي سوى قلة من أصحاب الذوق الرفيه ، أمثال سدوان ابولينير *Sidoine Apollinaire* الذي لم يكن ليطبق او ليحتمل خشونة هؤلاء النزلاء الحشاش الطباع ومضايقاتهم . وبقيت الدوائر الادارية العامة ماضية في سيرها كالعتاد ، لم يزعجها كثيراً ، تحمل أعباء جديدة نزلت على المدنيين من جراء تأمين أوَد جيش احتلال بصورة مستمرة ، وهو عبء جديد أضيف الى الاعباء الثقيلة الاخرى المترتبة على سكان بعض المقاطعات الرومانية ، من هذا القبيل .

كانت السلطة الفعلية ، والحق يقال ، في هذه الولايات ، في يد ملك البرابرة الذي كان الشعب يختاره رئيساً عليهم . والقوة التي له ، والسلطة التي كان يمارس صلاحياتها بتفويض رسمي من ممثلي الشعب ، اتاحت له : مراقبة الادارة والاشراف عليها عن طريق نوابه الذين كانوا يلقبون بـ - كونت - وهو لقب مصطلح عليه في مراتب الجيش ، في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ، فيسهرتون على سلامة الأمن في الاقضية الواقعة تحت اشرافهم المباشر . وهكذا لم تلبث تشكيلات الجيش وانظمت ان حلت محل النظم الادارية ، بعد ما اعتراها من تحلل واسترخاء ، في جميع أنحاء الامبراطورية . وهكذا لن تعتم المقاطعة ان تصبح مملكة يخضع من

فيها من رومان وبرابرة للقائد العسكري المتولي شؤون الحرب . وكثيراً ما حاول هذا القائد الملك بسط نفوذه وسيطرته الى ما وراء حدود المنطقة التي تخضع لادارته العسكرية، الامر الذي كثيراً ما اضطر معه الامبراطور على الانكفاء نحو الشرق فتنقلص رقعة الامبراطورية وينكمش سلطانه . وقد سبق ان تم نقل مركز العاصمة في القسم الغربي من الامبراطورية من مدينة تريف ، الى مدينة ميلانو ، فالى مدينة رافينا ، عام ٤٠٣ ، وهي مرفأ معزول منقطع يقع بين الفياض والمستنقعات وينفتح على البحار اليونانية . وعندما ثار الجيش الروماني ، عام ٤٧٦ مطالباً لنفسه بذات الامتيازات والمنافع التي كان ينعم بها جيش الشعوب المتحالفة ، قام قائده ادواكر *Odoacre* يخلع الامبراطور ويحتل القصر الامبراطوري في رافينا ويسكن فيه ، ويبعث بشارات الملك الى بيزنطية . وكان من شأن هذه الحركة ان اعادت الى الامبراطورية وحدتها ، اذ لم يصبح لها من بعد العاصمة واحدة هي القسطنطينية . اما الغرب فقد بقي شرعاً وقانوناً، مرتبطاً بالشرق يحكمه باسم الامبراطور قادة القبائل البربرية باعتبارهم ممثلي الامبراطور ومفوضين سامين في هذه المناطق . وجاء في رسالة بعث بها سيجموند ، ملك البورغونيين ، الى الامبراطور أنستاس في مطلع القرن السادس : « اني اظهر بمظهر الملوك وشاراتهم ، بين رعيتي ، بينا انا جندي من جنودك » . وهكذا نرى كيف ان الشطر اللاتيني من الامبراطورية كان يتقاسمه عدد من الممالك تنعم كل واحدة منها ، بالفعل ، باستقلالها التام .

وعلى نقيض ما حدث في المقاطعات الواقعة على الحدود ، لم يتسبب الترتيب الجديد الذي سارت عليه العلاقات السياسية ، باي انقطاع أو انقسام في استمرار سير الحضارة وتطورها . فالبرابرة لم يؤلفوا سوى اقلية ضعيفة حتى في المقاطعات التي استقلوا بامورها على ساحل البحر المتوسط ، حيث تم لهم ملء السلطة المطلقة ، كما انهم لبثوا ، مدة طويلة ، موزعين جماعات صغيرة معزولة عن سواد الرومان الأكبر . فقد احتل الاستروغوط ، في المدن الايطالية احياء معينة اختصوا بها . فالرؤساء الجرمان ، وخدمهم ، اخذوا ينتمون اتصالاتهم بالطبقة المشيخية ، فيشايعون النظام الجديد ويسيرون معه بنسبة ما يمكنهم من العيش على هواهم ، ويستمرون في تادية الوظائف الادارية التي يقتضيها نظام الحكم . وقد اخذ الغزاة يستمرقون حضارة سكان البلاد . فالاخلاق والعادات والاعراف والتقاليد التي حملوها معهم كانت من الانحطاط والتأخر ، ما منع الارستوقراطية اللاتينية من الاكتراث بها ، فاعرضوا عنها واذلوهها ، باستثناء بعض أشكال وصور من البذل والعطاء الشخصي التي ما لبثت ان تغلغلت بين الاعراف والتقاليد المعمول بها .

وعلى خلاف ذلك ، أقبل البرابرة بشوق من يقبسون أوضاع الحياة المهذبة المصقولة وهم على يقين بان علامة النبيل الوحيدة ، وسمة الشرف المثلى ، هي اقبال المرء بكلية ، على الآداب الرفيعة والعب منها ، كما يقول سدوان ابواينير . وهكذا راح الكثيرون يتلمذون على مدرسة الرومان وينهمجون نهجهم .

فبالرغم من الحراب والدمار ونهب كنوز البلاد وغير ذلك من الاستباحة والأعمال الوحشية التي رافقت غزوات البربر أو عقبها، فقد كان من جراء دخول عناصر خشنة ، فظة بين النخبة المثقفة ، ان تدنى كثيراً المستوى الحضاري العام، فساعد هذا التقهقر على الانتقال من حضارة مدن ناعمة الى حضارة ريف غليظة، فظة، مخشوشنة دون ان يحدث او يقع أي انقطاع في سير الحضارة واستمرارها . ويستدل من رسائل سدوان ابولينير الذي عاد مأخوذاً من زيارة قام بها لبلاد ملك الفيزيغوط ، في مدينة تولوز ، ان هذه الثقافة الحضارية لم تتأثر قط في بعض الأجواء الارستوقراطية الرفيعة ، عند منتصف القرن الخامس ، ولم تفقد شيئاً يذكر من نموها وتهذيبها ورهافتها . وبعد ذلك بمدة وجيزة ، نرى قصر ملك الفندال ، في افريقيا ، يصبح مركزاً مرموقاً للاشعاع الثقافي والحضاري في تلك البلاد ، كما نرى الملك ثيودوريق يحاول ، في القرن السادس ، ان يعيد الى سالف عزمها ، الحضارة الرومانية في ايطاليا ، اذ أخذ يعرض معالم هذه الحضارة ، ويعنى بصيانة المباني في روما وترميمها ، كما شيد ، في مدينة رافينا ، عدداً من الكنائس والمعابر وفقاً للطراز المعهاري المعمول به في الامبراطورية البيزنطية ، وأجرى عطاياه بسخاء على المدارس ومعاهد الفصاحة والبيان القائمة في المدن الكبرى ، هذه المدارس التي لم يطرأ عليها ما غيرت من مناهجها وأساليبها ، بينما أهل القلم ورجال الادب يحاصرون باب قصره ، طمعاً منهم بصلاته السخية . ففي الحين الذي راح فيه الاسقف اينود *Ennod* ، أسقف مدينة بافي *Pavie* ، يُطري عالياً ، ويشي عاطراً ، في خطبه البليغة المحبوكة على قواعد الفصاحة والبيان ، ويمتدح الملك « البربري » لكونه رومانياً بقلبه وعقله وروحه ، أخذ الكاتب الشاعر ورجل الدولة بوسوس *Boèce* (٤٨٠ - ٥٢٤) ، يحاول ان يوسع من أذهان معاصريه ويشحذ أذواقهم لتذوق الروائع الفكرية والأدبية الكلاسيكية التي طلع بها الفكر اليوناني الخلاق ، بعد ان تعذر عليهم قراءتها بلفتها الاصلية ، كل ذلك ايماناً منه واعتقاداً بأن الجمهورية الرومانية باقية أبد الدهر ، وانه لا بد من العمل على إحياء آدابها . وكسيودوروس *Cassiodore* نفسه ، الذي ولد رومانياً وتولى رئاسة الديوان الملكي ، يحاول ، عندما يدعو للتساهل والتسامح المتبادل ، ان يهيء انصهار الفوط والرومان انصهاراً كلياً كاملاً .

وهذا الانصهار ، هل كان وشيك الوقوع ، بعد ان انثنت المدنية الرومانية عن حدودها الشمالية وانكفأت الى الجنوب حتى مشارف البحر الابيض المتوسط ، فعادت بذلك وتبدأ ، سيرتها الاولى ، ضمن الملاكات والأطر الجديدة التي طلعت اذ ذاك ، على البلاد ؟ لا لعمري ، وذلك لأنه لا يزال هنالك حاجز يفصل بين الزعماء الجرمان ورعاياهم يتمثل بحاجز الدين . فالشعوب البربرية كانت اعتنقت المسيحية ، انما على مقالة الآريوسيين وتعليمهم ، أي انهم يرسفون في الهرطقة . فقد كانت لهم كنائسهم ومعابدهم واكليروسهم ، كما ان حزبيتهم الدينية هذه كانت مدعاة لتوعيتهم من الوجهة القومية . فبدلاً من ان يعودوا الى الرأي القويم ، الى الارثوذكسية ، أخذوا باضطهاد الكاثوليك وراحوا يطردونهم من كنائسهم ويحلونهم زرافات عن أوطانهم . وفي الواقع ، فقد كانت روما في نظر جميع المسيحيين رمزاً للوحدة في

الايان الواحد ، ولهذا تولى الاساقفة الذين أصبحوا بعد هزيمة الادارة الرومانية وانحطاطها ، الناطقين الرسميين بلسان السكان والمدافعين الشرعيين عنهم وعن مصالحهم ، كما أخذوا ينظمون حركة مقاومة طابعها ديني ، راحت تنتظم وتشتد ضد الدخلاء المحتلين . وهذه المقاومة تبدو على أبرزها ، في غالبا ، بزعامة سدوان ابولينير الذي أصبح أسقفاً لمدينة كليرمونت ، فسعى جاهداً ، بعد عام ٤٧٠ ، يحاول منع اريتي *Eric* ، ملك الفيزيغوط ، من ضم مقاطعة اوفيري في ، الى ممتلكاته ، وهي مقاطعة معظم سكانها كاثوليك . ومقاومة مماثلة في افريقيا يحرّض عليها ويدفع اليها مواعظ الاساقفة المبعدين عن كراسي ابرشياتهم ، وأخرى في روما نفسها حيث أخذت المؤامرات والدسائس تحاك بكثرة ضد الملك ثيودوريق . واذ رأى الملك نفسه في خطر يترصده ، حزم أمره على الشدة ، والتزم موقف الدفاع العنيف . فقد قضى بوسيسوس والبابا يوحنا الاول نجسها أسيرين في بلاط ملك الأوستروغوط . واشتد الضغط وازداد أواراً بحيث اخذ يهدد ، جدياً ، المملك التي أنشأها البرابرة ، من الاساس . ولكي يتخلص الشعب من سيطرة لا تطاق ، خارجه على الدين ، راح الكاثوليك يؤيدون ، من جهة ، الدسائس التي كان الامبراطور يمحكمها في بيزنطية ، طمعاً منه باسترداد سلطته على البلاد ، ومن جهة اخرى ، كان تقدم برابرة الشمال ، وهم الفرنج الذين لا يزالون على عبادة الاوثان ، يغذي في النفوس ، الايمان بإمكان اعتناقهم المسيحية على الرأي المستقيم . وهكذا ، بعد مائة سنة على بدء الفزوات ، ساعدت المعارضة الدينية التي قام بها الرومان ضد ملوكهم من الغوط والفندال ، على طلوع وضع سياسي جديد في الغرب ، يفصل سواحل البحر المتوسط المرتبطة بالدولة اليونانية ، عن القارة التي وقعت فريسة بيد أكثر الجرمان همجية وبربرية ، كان شأنه ان يرسم اتجاهها جديداً لتطور الحضارة في الغرب ويرسم خط سير جديد لتاريخها .

استطاع الامبراطور يوستينيانوس ، عام ٥٢٣ ، ان يجرر بسهولة كلبية بلدان البحر المتوسط افريقيا ويستخلصها بيسر من مفتصبيها الفندال ، كما تمكن ، فيما بعد ، أي في سنة ٥٥٤ ، من ان يجرر مقاطعة بتيك *Bétique* (الاسم الذي عرفت به مقاطعة الاندلس في عهد الرومان وهو مشتق من اسم نهر بتيك *Bétis* او نهر وادي الكبير اليوم) ، وبذلك تم له الاشراف على شطري البحر الابيض ، والسيطرة على معاربه ومجازاته ومضايقه . غير انه لم يكن له من الوسائل الحربية ما يساعده على الايغال بيمداً داخل البلاد ، عن سيف البحر . وهكذا بقيت في المغرب مناطق شاسعة لم تخضع له ، كما بقيت في داخل اسبانيا مناطق تخضع للفيزيغوط . ولم تجر أية محاولة ضد بلاد غالبا ومقاطعة البروفانس فيها فتركت وشأنها ، لتروح فريسة بيد الفرنج . ولكي يعيدوا ايطاليا الى سيطرة الامبراطورية ، مباشرة ، اضطر قواد يوستينيانوس ان يخوضوا غمار حروب دامية استنزفت الكثير من الجهد المرير ، والدماء المطبولة ، والتضحيات الغالية والوقت الطويل ، اذ ان حروب الفتح هذه ضد الأوستروغوط ابتدأت ، عام ٥٣٥ ، واستمرت حتى عام ٥٦٣ ، فاضطر عندها العدو ان يلقي سلاحه ويستسلم ، بعد حروب ومعارك طاحنة

جرت معها الخراب والدمار .

وبالرغم من الشوايب التي اعطورت هذه الحملات العسكرية ، فقد ساعد الفتح على ضم بعض المقاطعات المطلة على البحر، الى الامبراطورية الشرقية التي يقع معظم أقاليمها الشرقية على مقربة من البحر وتتقبل مفاعلات الشرق ومؤثراته . ومنذ ذلك الحين ، أخذت النماذج الفنية تغزو هذه البلاد متغلغلة فيها عن طريق المرافئ الإيطالية الكبرى ، أمثال : رافينا ، ونابولي ، وقرطاجة ، يشجع على الأخذ بها، وعلى التزيين لها، هذه الجاليات اليونانية التي سبقت واستقرت فيها منذ القرن السادس ، ممثلة بأفراد الجند والموظفين الإداريين وغيرهم من سُذَّاذ الآفاق والتجار القادمين من بيزنطية ، كما انتقل إليها ، في القرن السابع ، عدد كبير من رجال الدين والرهبان الذين فروا أمام الفتح الإسلامي . وهذا التغلغل البشري الذي صحبه تغلغل في آخر ، يتمثل بهذه المباني التي شيدت في مدينة رافينا بعد ان تم جلاء الغوط عن البلاد يشهد عالياً على روعة هذا الفن الذي كان تأثيره عميقاً ، كما يبدو من خلال هذه الرسوم الجدارية التي تزين تلك المباني ، ولا سيما كنيسة كاستل - سبريو الصغيرة على مقربة من مدينة ميلانو ، منها الى الشمال قليلاً . وكان من جراء ذلك تليق الفن الشعبي في البلاد بالاشكال والنماذج الفنية البيزنطية التي ، بعد ان تمازجت بالفنون المعمول بها في تلك البلاد، كما نشاهد ذلك في فسيفساء الكنيسة الرومانية المشادة على اسم القديسين كوزموس وديميانوس ، وساعدت على انتاج روائع فنية قفرض الاعجاب ، طبعت الفن الايطالي طيلة الاجيال الوسطى .

والاتصالات الوثيقة التي ربطت هذه المقاطعات التي تم تحريرها بالمراكز الثقافية والحضارية الكبرى في الشرق الأدنى ، ساعدت كثيراً على اذكاء شعلة الحضارة فيها . إلا ان محاولة الامبراطور يوستينيانوس القيام بما قام به من فتوح جرت الدمار والخراب على تلك المقاطعات ، وازرحتها تحت ما اتاخذت عليها من ارزاء فهوت الى الحضيض . وهزّت الخراب الذي نزل بها ، ما تبقى من معالم المدينة الرومانية التي حاول ثيودوريق ، من قبل ، صيانتها والحفاظ عليها . والى هذه الحقبة يعود بالفعل الانحطاط الذي أصاب روما . فقد الغيت فيها ، عام ٥٤١ ، وظيفة القنصلية ، كما ابطلت فيها ألعاب المصارعة عام ٥٤٩ ، وألعاب الظفر عام ٥٥٢ . وآخر اجتماع لمجلس الشيوخ *Sénat* يعود لسنة ٥٧٩ . وقد دُهِك الريف في هذه الحروب وقضي على الكثير من النخبة بين صفوف الطبقة الارستوقراطية ، كما امتلأت النفوس وأفعمت القلوب حقداً وضيفنة على البيزنطيين الذين لم يكن لهم من هم سوى استثمار ظفرهم الى اقصى حد . فلا عجب ان تصبح هذه المقاطعات ، بعد ان اتاخ عليها الدهر بكل كلكله ، لقمة سائغة للطامعين اليها والراغبين فيها ، اذ لم يمض سوى خمس سنوات على استسلام آخر المحاربين من الاستروغوط ، حتى اجتاز ، عام ٥٦٨ ، شعب جرمانى جديد ، هم المبارديون ، جبال الألب وانقض على شمالي ايطاليا التي كانت استنزفت كل دماغها . وبعد ذلك بنحو قرن ، راحت خيول المسلمين تدك بسنابكها أرض افريقيا ، فيغمر الاسلام شمالي القارة فتفرق تحت سيله الجارف . فبدلاً من ان يعيد الفتح

البيزنطي الوحدة الى الامبراطورية الرومانية ويوظد منها الدعائم ، ساعده بعكس ذلك تماماً على عزل هذا القطاع الجغرافي الواقع بين شواطئ البحر المتوسط الشمالية وجبال الابينين ومجرى نهر البو الاسفل ، كما ساعد على فصل شبه الجزيرة الايطالية وما اليها من جزر ، عن شمالي افريقيا وامتداداتها حتى اسبانيا من الغرب والحقها بالشرق . وبذلك حيل بين القارة الاوروبية وبين هذا البحر اللاتيني وما يمثله من تراث ، قديم ، خالد ، فارتمى بين احضان البربرية الجرمانية وهمجيتها وراح ينظم نفسه تدريجياً متخذاً من استقلال غاليا الفرنجية محوره ونقطة دائرته .

احتل الفرنج الساليون *Francs Saliens* المقاطعة الواقعة بين الرين ، شرقاً ، وغاليا الفرنجية ونهر السوم ، غرباً . فانشأوا ، منذ منتصف القرن الخامس علاقات تحالف مع الدولة الرومانية الصغيرة المقنطرة رقعتها على مقاطعة إيل ده فرانس ، هي البقية الباقية من الامبراطورية الرومانية في غاليا ، يدفعون عنها ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، عوادي الدهر ، وتمديدات الهونز والفيزيغوط وقراصنة السكسون . وحوالي عام ٤٧٠ ، حل أوفر امراء قبائل الفرنج نشاطاً ، هو الملك شلدريق ، في مدينة تورنيه ، محل الحكام الرومانيين . وتمكن ابنه كلوفيس من التغلب ، عام ٥٨٦ ، على سياغريوس *Syagrius* ، آخر هؤلاء الحكام الرومانيين ، في معركة سواستون واستولى على كنوزه ومجوهراته ، ثم راح يصقّي ، تباعاً ، ملوك القبائل السالية الاخرى ، الواحد بعد الآخر ، وتغلب على قبائل الألامان وقلّم اظفارهم ، واخضع لسلطانة النامي ، كل المقاطعات الواقعة بين نهر الموز *Meuse* واللوار *La Loire* . واستطاع في السنوات الاخيرة من القرن الخامس طرد الفيزيغوط بعيداً عن مدينة تورس ، فوقع تحت تأثير مطرانا القديس مرتينوس فاحسن وفادته ، وتأثر بالخرقات والمجائب التي تمت على يده ، فقرر اعتناق المسيحية ، ليس على مقالة الأريوسيين كغيره من برابرة الجرمان ، بل على المذهب الكاثوليكي ، وتمت حفلة تنصيبه في مدينة ريمس *Reims* ، بين ٤٩٦ و ٥٠٦ ، فاصبح كلوفيس بذلك الرئيس الاوحد للدولة الكاثوليكية الوحيدة في الغرب . فكان لهذا الحادث صده الداوي في جميع الارحاء ، تبلغه بارتياح كل اساقفة غاليا حتى ان احدهم هو المطران أفيت *Avit* ، أسقف مدينة فيينا عبّر باسم الجميع عن ارتياحه لهذا التطور العظيم ، وراح يحث الملك الجديد على ان يشرف بنفسه على أعمال الرسالات التي تتولى الكرازة والتبشير بالدين الجديد . ففي هذا دعوة صريحة لمباشرته بتطهير جنوبي غاليا من طغيان هرطقة الأريوسيين . وبالفعل أرسل كلوفيس جيشه لمهاجمة الفيزيغوط ، فكسروهم وهزمهم شر هزيمة في موقعة فوييه *Fouillé* ، عام ٥٠٧ ، وقتل الملك الأريقي ، وطارد فلول جيوشه الى ما وراء جبال البيرانيس . وبعد غزوه المظفرة هذه ، ارتدى في مدينته تورس ، وشاح القنصلية الذي أرسله له الامبراطور انستاسيوس . ومنذ ذلك الحين ، كما يؤكد القديس غزيغوريوس التورسي أخذوا يلقبونه بـ «قنصل واوغسطس» . ثم اخضع قبائل الفرنج المعروفين بـ «*Ripuaires*» على الرين ، وجاء واستوطن باريس وفيها توفي

عام ٥١١ ، بعد ان ترأس ، في مدينة اورليانس ، أول جمع وطني عقدته كنيسة غاليا الفرنجية واكمل بنوه عمله ، واتموا الرسالة التي شرع بها ، فضموا الى ممتلكاته مملكة البورغونيين ، عام ٥٣٤ ، واخضعوا مقاطعة تورانج . والمملك ثيبرت ، الذي وقف الى جانب الامبراطور يوستينيانوس وآزره في حروبه في ايطاليا ، يُقطع مقاطعة بروفانس ، وضرب السكة الذهب ، فكان أول ملك « بربري » يضرب السكة باسمه . وهكذا ما كاد ينتصف القرن السادس حتى أصبحت كل غاليا ، باستثناء مقاطعة بريتانيا والبشق منها ، ومقاطعة سبتيانيا الفيزيغوطية ، مع قسم من جرمانيا ، تؤلف معاً مملكة واحدة ، هي مملكة الفرنج .

انه لنظام سياسي غريب : فالامبراطورية لم ترعَ تكوين هذه الدولة ولا نشأتها ، فتم هذا كله بمعزل عن الأعراف والأطر الشرعية « للتحالف » واصول « الضيافة » والإقراء ، دون ان يحصل شيء من الخراب ، وربما بدون أي مصادرة بالجملة لأملاك الدولة . وليس ما يؤكد أو يثبت ان زعماء الفرنج استولوا على جانب من الأرضين التي كانت ملكاً للاستوقراطية الرومانية في غاليا ، هذا لو سلمنا فرضاً انهم صادروا قسماً من الاملاك العامة . زقد سهلت وحدة الايمان المشترك عملية تمثّل الطبقات العالية في المجتمع ، اذ ذاك . ففي الربع الأخير من القرن السادس يُغنّسي غريغوريوس التورسي باعتزاز كلي ، وهو سليل الطبقة المشيخية ، المجد الأثيل الذي يملأ برديته لانتسابه الى أمة الفرنج . فلم يكن في هذه المرة ، دخول أي من البرابرة في حوزة العالم الروماني ، بل على عكس ذلك تماماً ، اذ ان جانباً من العالم الروماني دخل بين ممتلكات امة مسيحية ، لا تشدها الى بيزنطية صلة ما . من حواضرها الكبرى ومراكز الجذب والثقل فيها مدن مشهورة كباريس واورليان وريمس وسواسون ، وكلها واقع على مشارف العالم المتحضر ، كما ان قسماً من ممتلكاتها كان يمتد بعيداً ، سواء من الشرق أو من الشمال ، ليصل الى قلب البربرية الجرمانية . ففي هذا الإطار الجغرافي الاثنوغرافي نرى التقاليد الرومانية تندمج بالمادات وتتمازج بالأعراف التي حملها معهم الغزاة الطارئون ليخرج من هذا الانصهار البطيء وهذا التمازج الوئيد ، حضارة كل ما فيها أُصيّل .

تميز هذا المركّب ، منذ بدء أمره ، والحق يقال ، بانخفاض ملحوظ في المستوى الحياتي والثقافي والحضاري ، ثمّ عن هذا الفارق العظيم القائم بين القارة والقسم الجنوبي منها : ايطاليا وافريقيا الشمالية الذي نشطت فيه الحياة من جراء الاتصالات المستمرة مع الشرق . وهذا الانحطاط الذي استطل حبله حتى مطلع القرن السابع ، طبع بدوره النظم السياسية القائمة اذ ذاك ، كما ترك طابعه على الوضع الاجتماعي ، والحركة الاقتصادية والفكرية والدينية ، في المملكة .

لم يكن كلوفيس وخلفاؤه من بعده ، بعكس الممالك الاولى التي أنشأها المجتمع البروفنجي البرابرة ، من أحلاف الامبراطورية ، ومازمن بالتالي ، مثلهم ، بالولاء للدولة الرومانية واحترام نظمها ومؤسستها ، بعد ان أولتهم رعايتها وأدخلتهم في خدمتها ، فاتحين ، أحراراً ، متحررين من كل التزام نحوها . فقد أخذوا السلطة عنوةً وغلاباً ، بعد ان قضوا على

منافسهم وأزالوا مزاحمتهم . فقد رأوا في السيطرة التي آلت اليهم صاغرةً ، حقاً من حقوقهم الشخصية ، وجزءاً من تركة لم يكونوا ليؤدوا عن ادارتهم لها حساباً لأحد ، يتصرفون بها كيفما يشاؤون ، ويلتدبون لها من يرغبون من الانصار والمهايسب ، يتقاسمها ورثتهم وفقاً للأعراف المتبعة . وهكذا قسمت مملكة كلوفيس ، عند وفاته عام ٥١١ ، بين أولاده الاربعة . فنظر الملوك الميروفنجيون ، الى المقاطعات التي آلت اليهم ، نظرة بدائية ، واعتبروها نوعاً من الاقطاع التابع ، لهم عليها ملء السلطة ، أخذوا منهم بالتقاليد التي سار عليها أجدادهم ملوك تورنيه . فكانوا يعتبرون أنفسهم قادة حرب يقودون جيوشهم لحوض المارك ، ويسهرن ، باسم الشعب ، على استتباب أسباب السلام والطمأنينة ، وترؤس الاجتماعات العامة ، يعقدونها لإجراء العدل وإقامة القضاء فيما بينهم ، ويحرصون على حسن تنفيذ قراراتهم وأوامرهم . فبعد ان نشروا سلطانهم على كل أطراف غاليا ، فرضوا على رعاياهم : رومانيسين كانوا أم برابرة ، الخدمة العسكرية والولاء للتاج . ولم يخطر لهم على بال انه يترتب عليهم مسؤوليات او مهام أخرى ، كإنفاذ الرسالة التي قامت بها روما من قبل ، مثلاً ، ونشر أسباب الحضارة في أطراف البلاد ، كما تمنى ذلك وراح يحققه الملك ثيودوريق نفسه . وكان يكفيمهم ان ينعموا بالسلطان . فالملك أو الحكيم ، في نظرهم ليس سوى وجه من وجوه الاستثمار الشخصي . للملك وحده دون سواه ، حق الاستمتاع به ، على هواه ، دونما رقيب أو حسيب . وكان يتولى الادارة باسمهم ، في المقاطعات ، نواب الملك ، فيشهد اليهم بحماية الرسوم والضرائب التي تؤمن نفقة المقر الملكي وما في المقر من حاشية عريضة . وكان جل ما يطعمون به ، توفير النقد المتداول بين الناس ، ولذا حرصوا الحريص كله ، على صيانة النظم والمحافظة على المؤسسات التي توفر لهم حاجتهم من المال . وكانت جباية الخراج وضريبة الاعناق معقدة للغاية لما كانت تقتضيه من الجهد الموصول لتأمين الدقة في سجلات المساحة والاحصاء . وكانوا يجهلون جهلاً تاماً كل ما يتصل بالضرائب المباشرة التي لم تألفها طباع القبائل الجرمانية وأعرافهم المتوارثة . فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان يُعْرِضَ الملوك بسهولة كلية عن هذه الرسوم والحقوق المرتفعة التي كانت تؤمن دخلاً ضميماً لهم ، فاستبدلوا برسوم فرضوها على التنقل والانتقال ، وعلى معارض التجار وأسواقهم ، لما في جباية رسومها من سهولة وسرعة . وهكذا أهملت تدريجياً النظم الادارية التي تُعْمَلُ بها طويلاً وروعي جانباها أبان الادارة الرومانية ، فلم تلبث ان تنويسي أمرها وعفي ذكرها . اما الادارة المحلية في القضاء او الدائرة *رايخ* ، فكانت من صلاحيات حاكم اداري ، من خاصة الملك يحمل لقب « كونت » تركت له أعباء السلطة الادارية والعسكرية ، هم الأكبر ان يوصل الى القصر الملكي ، المائدات التي جباها رسوماً او مخالفات ، فيحتفظ بقسم ضئيل منها كترتب له ولرجالهم ومعاونيه .

والمعنى الجرد او الاسمي للدولة ، فتقد كل مدلوله في الوقت الذي اتسعت فيه رقعة الدولة ورحبت آفاقها ، فتغلخلت العلاقات التقليدية التي شددت ، من قبل ، الاحرار من الشعب

السالي ، الى ملوكهم ، فرأى الملوك الميروفنجيون أنفسهم مضطرين ، لإبقاء على السلطة المطلقة التي وقعت في قبضة أيديهم ، ان يفوزوا بأيد هذه الطبقة المتنفذة ، ويجوزوا على نُصراء لهم عن طريق اشراكهم بمنافع السلطة . وفي هذا السبيل أخذوا يوزعون على من أنسوا منهم الولاء ، الذهب ، ويقطعونهم الاراضي الواسعة ، جذبا لهم ، واستدانة ، لقاء تعهد بتقديم الولاء يقطعونه لهم . وآثروا لمناصرتهم والشدة من أزرهم ، هذا الفريق من الاحرار الذين تعهدوا بالولاء للملك ، فجعلوهم في عداد رجال حرسهم ؛ وأنعموا عليهم بلقب كونت ، وأولوهم شيئا من سلطانهم ، وأقطعوهم بعض الارضين ، وعهدوا اليهم ببعض الوظائف ، من بينهم أساقفة رأوا من حقهم وحدهم اختيارهم وترشيحهم لإدارة الابشيات والاسقفيات . وهكذا ساعدت الهبات التي أعدها هؤلاء الملوك ، والأعطيات التي أسبلوها اصطناعا للانصار ، على إنشاء طبقة جديدة من الاشراف ، توارث أصحابها هذه المناصب خلما عن سلف ، وهي طبقة لم تكن معروفة من قبل ، في المجتمع الفرنجي حيث لم يكن ما يميز ، اجتماعيا ، الاغنياء عن الفقراء . وهكذا لم تلبث بعض أسر الفرنج ، على أثر ما أقطعت من ارض وسلطان ، وعلى أثر المصاهرات التي تمت بينها وبين الطبقة المشيخية من الغالو-الرومانيين ، ان نعمت بامتيازات خاصة ، من بينها « فدية الدم » المترتبة للقائمين على خدمة الملك ، وهي فدية كانت ثلاثة اضعاف الفدية المترتبة لغيرهم من الاحرار وأزود .

طالما عرف الميروفنجيون ان يحافظوا على قوة بأسهم ، استطاعوا ان يحتفظوا بأعنة السلطة ، عن طريق توزيع عوارفهم وإنعاماتهم ، بدقة وحكمة وتدبر ، على من يصفطونهم . فأطفأوا بالدم والنار كل محاولة عصيان أو انتفاضة على السلطان ، وبذلك عرفوا ان يؤمنوا ولاء كساد القوم ، وبواسطتهم ، السيطرة على البلاد . وعلى إثر وفاة ملكهم داغوبير *Dagobert* ، عام ٦٣٩ ، توالى على أريكة الملك ، عدد من الملوك ، مات كثير من بينهم وهم في ميعة العمر وشرخ الشباب بعد ان انهكهم الاسترسال الباكر وراء لذائذ الحياة ومباهجها بينما تولى نفر منهم ، مخبول معتوه ، منحط ، مهام الملك ، فأناطوا امره وسياسته بغيرهم . فعاد ذلك على الطبقة الارستوقراطية بالمزيد من النفوذ والسلطان ، وراح النبلاء ، في كل من المقاطعات الثلاث التي توزعت اليها املاك التاج ، وهي نوستريا *Neustrie* واوسترازيا *Austrasie* وبورغونيا ، ينظمون أمورهم ويضبطون شؤونهم على شكل يؤمن لهم استثمار هذه الإيالات لحسابهم الخاص واستخلاص خيراتها ومواردها لانفسهم ، لهم في البلاط الملكي ممثل أو مندوب هو رئيس الخدم ، أو قيم القصر *Muire du palais* الذي كان ، أصلا ، المتصرف بخدم القصر وحشمه ، يقوم بأخط الخدمات وأخسها . وكان يشرف ، بحكم وظيفته ، على مصارفات الملك وحاشيته ، ويتولى تنظيم تنقلاته بين دارة واخرى ، ومن قصر الى قصر ، جامعا في قبضة يده موارد المملكة ويقرر وجوه إنفاقها . فهو المسؤول الأول عن الترحيب بزائري القصر من أبناء الأسر الشريفة يستجدون منه التوسية ويطمعون على يده ، بكسب العطف ونيل الرعاية للعمل في حاشية الملك ، يتدربون في المعية على الوظائف التي لا بد

من ان ينتدبوا يوماً لها . فليس من عجب ، والأمر كما ذكرنا ، ان يصبح سادس القصر *Le maire du palais* ، بعدما آلت اليه الاسرة المالكة من الحطاط ، الشخصية المرموقة الأولى ، في البلاد ، مع ان وظيفته كانت ، في الاساس ، جد متواضعة . وهكذا تقع ، في اواخر القرن السابع ، حركة واسعة في ميدان التطور السياسي والاجتماعي ، اخذت بوادرها تطل ، منذ أواخر عهد الامبراطورية الرومانية ، فقد تُتوسمى كل ما هو مصلحة عامة *Respublica* وبهم مفهوم هذا المصطلح ، وألغيت الضرائب عن الرجال الاحرار ، واستميض عنها بفرض خدمات شخصية ، عليهم ان يؤديها خدمة فعلية في الجيش أو في القضاء والمحاكم . فلهذا السلطة المدنية صارت الى فئة صغيرة من كبار الملاكين من النبلاء الذين يحوزون اعداداً كبيرة من الارقام والمبيد والاجراء العاملين في الارض ، والى مقدمي الفرنج ، ممن هم دونهم ثروة وجاهاً ، يعملون تحت إشرافهم .

وفي الوقت ذاته ، انتفت من مملكة الفرنج معالم هذه النظم الاقتصادية المتوارثة عن التاريخ القديم . فقد نشطت الى هذا العهد ، الحركة التجارية ولا سيما حركة استيراد المنتجات والمحاصيل الشرقية . فقد كان سبق للملك كلوتير الثالث ، ان أنعم ، في حدود عام ٦٦٩ ، على رهبان دير كوربي *Corbie* ، بحق الامتياز والتموين من المخازن الرسمية في دائرة المكس ، القائم في مرفأ فوس *Fos* ، من اعمال مقاطعة بروفانس ، كما أعطوا الحق ان يثناولوا من المخازن المذكورة ، حاجتهم من الطيوب والأفاويه ، والتمور والتين المجفف ، وكميات كبيرة من زيت الزيتون ، اذ كان رهبان الدير المذكور يستهلكون ، يومياً ، كميات كبيرة من هذه المواد التي كان يُؤتى بها من بلدان البحر المتوسط والشرق الادنى . وكان يقوم في حواضر البلاد الكبرى ، جاليات سورية من يهود ونصاري ، حذق اصحابها اليونانية ، وليس بمعجب ، واحتكروا تجارة هذه المواد الاجنبية ، وكان من وفرة النقد الذهبي العائد للملك الدولة الميروفنجية من جباية الرسوم المفروضة على بضائع التجار وسلمهم ، ما يقيم الدليل عالياً على رواج هذه التجارة وازدهارها . غير ان هذه الحركة التجارية اخذت تضعف مع الزمن ، وما عثمت ان زالت معالمها تماماً واندرس كل اثر لها ، في فجر القرن الثامن . فعلت المحاصيل الوطنية محل البضائع المستوردة من الشرق والجنوب . وفي الحقبة الواقعة بين ٦٦٠ - ٦٨٠ ، اخذ الديوان الملكي يُهمل استعمال ورق البردى ، المصري الاصل والصنع ، ويستميض عنه بالرقوق ، كما حل في مقاطعات الشبال ، الشمع محل الزيت ، في ائارة الكنائس . والمعادن الثمينة راحت تستعمل ، في الاكثر ، في صناعة الحلبي والمجوهرات التي كان يحرص الملوك على جمعها وتكوين مجموعات طائلة منها ، كما حرصت الرهبانيات وانباء الطبقات الارستوقراطية على ادخارها والإكثار منها . وتوقفوا عن سبك العملة الذهبية بينما تكاثر سك الفضة بعد خلطها بالرصاص بنسبة عالية ، مما افقدها الكثير من قيمتها الذاتية . ومن تدني قيمة النقد في عهد الدولة الميروفنجية نستطيع ان نتبين الى اي حد بلغت الحركة التجارية في الطوائف وانكاشها في هذه الحقبة بالذات .

تدهور الحضارة
وهذا التدهور الاقتصادي ، كان من بعض نتائج انحطاط الحضارة الكلاسيكية . فقد عرفت ان تحافظ على مستواها ، مدة أطول ، في المقاطعات الجنوبية من المملكة الميروفنجية ، ولا سيما في مقاطعة البروفانس . فقد عين الملك ، في اواسط القرن السادس ، احد رجال الاكليروس ، في باريس ، اسقفاً على مدينة أفنيون ، فقد شعر الاسقف الجديد في صميم نفسه واعماق قلبه انه لا يليق بتولي رعي هذه الاسقفية ورعاية المؤمنين فيها ، لما كان عليه من خشونة الطباع وقلة البضاعة الثقافية اذا ما قارن نفسه بما بلغه مسيحيو منطقة الجنوب من درجة عالية في مدنيتهن . كذلك نرى مشاغل الحفر والنقش في مقاطعة الاكويتان ، تصدر ، في القرن السابع ، نقوشها الفنية ومحفوراتها ، الى كل انحاء المملكة . ولكن هذه المقاطعات التي اغرقت فيها اصول التقاليد الرومانية ، وضربت جذورها بعيداً في الأرض منذ عهد سحيق ، كانت تقع على اطراف المملكة الميروفنجية ، في الجنوب ، وقمت بالتالي فريسة للنهب والسلب - ولا سيما مقاطعة اكويتانيا منها - من قبل جيوش الفرنج التي لا عمل لها . وهكذا تعطلت عندها ، على مر الزمان ، كل قدرة على الاشعاع ، الى ما يقع وراء نهر اللوار ، فغلبت على اهلها النزعة البربرية ، وخشنت بالتالي طباعهم وبهّمت افهامهم ، وندرت فيها وسائل العلم وضمرت النوازع الى طلبه والسعي وراءه ، باستثناء بعض مبادئ بدائية ، ساذجة ، كان يتلقاها الرهبان ورجال الاكليروس ، في المدارس الاسقفية . وقد اختصرت الادارة الملكية واستهانت بحيث كانت تقع بمواطنيين اداريين على مستوى واطر من التعليم . فانعدمت القراءة ، وتضامل جداً عدد الذين يحسنون مبادئ الخط ، وتباعدت جداً لغة التخاطب ، عن اللاتينية الكلاسيكية ، لتستقر منها على لهجات هي بالاحرى لفي . والشاعر فورتونا Fortunat الذي تخرج على مدرسة رافينا ، وفيها نبه ذكره وعلا شأنه وامره ، وجد في اواسط القرن السادس ، من يتبادل معهم الرسائل من اعضاء الطبقة المشيخية القديمة في غالبا . وفي هذه الحقبة بالذات تقريباً ، نرى غريغوريوس التورسي يكتب بلغة لاتينية مهلهلة ، ويوم زمانه الذي أصاره ليشهد ذبول الادب وأقول الثقافة . ففي القرن السابع ، يكاد الاسقف ديديه الكاهوري Didier de Cahors يكون الشخص الوحيد الذي تمت له مسحة من الثقافة القديمة . ونرى صاحب Chronique de Frédé guire يشكو زمانه ، ويلوم دهره ، لكثرة ما يمتور تاريخه من شوائب ونواقص ، مسؤولة عنها هذه البربرية التي صارت اليها البلاد .

وهذه القهقري العامة تظهر على انها في التنظيم البدائي الذي بدت عليه النصرانية ، اذ ذاك . صحيح ان غالبا حققت وحدة الايمان في عهد الدولة الميروفنجية . فلم يرتفع فيها ، خلال هذا العهد ، أي صوت ناشز ، ولا ارتفع فيها هذا الجدل الديني الذي يثيره ظهور المشاقين الهراطقة ، الامر الذي يكون ، والحق يقال ، دليلاً قاطعاً على ما بلغه الفكر اذ ذاك ، من تبلتد وتبهتم وتحجر . صحيح ان الملك يرعى جانب المسيحية ويكأل بعنايته الكنائس والمعابد فيغدق عليها

عوارفه بسخاء ، ويعترف للديار بانعامات وامتيازات كثيرة ، ويعفي املاكها من الضرائب والرسوم . وليس من شك في ان ثروة الديارات والمؤسسات الدينية والرهانية نمت نمواً كبيراً في وقت ساد فيه الاعتقاد ان الخلاص الابدي وقف على الاحسان والتصدق . إلا ان هذه المؤسسات أصيبت تدريجياً ، هي الاخرى ، بالمخاطات ذريع كغيرها من المؤسسات التي يرجع عهدا للمدينة الرومانية في العهد الامبراطوري . فقد كان الاساقفة يُنتسَقون ، في القرن السادس ، من بين أعضاء الأسر الارستوقراطية الغالو - الرومانية المحافظة ، ممن تم لهم شيء من الثقافة وكانوا من ذوي السيرة الحميدة ومكارم الاخلاق . ولذا أُلْتَف المصف الاسقفي ، في هذه الحقبة المعروفة بتفسيخ الاخلاق وتحلل المبادئ القوية ، أنشط الطبقات الاجتماعية وأنقاها على الاطلاق ، في عهد الدولة الميروفنجية . إلا ان ملوك هذه الدولة بالذات ، لم يعتموا ان رفعوا للمنصب الاسقفي الذي يتمتع بانعامات ومنافع عديدة ، عدداً من أنصارهم والمقربين اليهم من العلمانيين ، ممن لا قيمة خلقية او أدبية لهم ، ولا هم لهم غير استثمار مناصبهم الجديدة في ما يؤمن لهم المزيد من الربح . والجامع الكنسية القومية التي كانت تنعقد من وقت الى آخر وتضم أساقفة البلاد ، تحت رئاسة الملك ، ويتخذ انعقادها رمزاً لوحدة الكنيسة بكامل ما يتصل بالايان والعقيدة ، أخذ انعقادها يقل ، شيئاً فشيئاً ، في القرن السابع ، الى ان انقطع تماماً بعد عام ٦٩٦ ، وبعد هذا التاريخ أصبح عدد من الابريشيات شاغراً ينتظر عبثاً من يملأه باستحقاق ، ولا سيما في الجنوب .

وفي الواقع ، ان ما اصيبت به الحبرية من وهن والمخاطات ، وهي ما هي في النظام الكنسي ، كان شديد الخطر في نتائجه . فالوثنية كان لا يزال لها ، في الإيالات والمقاطعات الواقعة في شمالي البلاد ، عدد كبير من الانصار والاتباع . ففي كل اطراف المملكة ، تسرب الى صفوف المسيحيين كثير من أعراف الغزاة والبرابرة الفاتحين ، كما نشط الاخذ بالاساطير والحرافات الوثنية القديمة ، كما يبدو ذلك واضحاً من معالم المدافن والطقوس الجنائزية ، اذ ذلك . وهذا أدى بدوره الى تأخر الحياة الروحية ، وبالتالي الى تخلخل الاخلاق وتفسخها . وبلغ من انهيار الوازع الديني في الطبقة الارستوقراطية ما ترتعد لهوله الفرائض وتتشعر له الابدان ، فانثقت الاخلاق من الحياة الزوجية ، وشاعت أيما شيوع ، عادة التسري والمعاشرة الجنسية غير المشروعة ، وأهمل العدل واستبيحت العدالة ، فصارت الكلمة للقوة ، ومقاضاة الحقوق للسيف بهمجية لا تعرف الرحمة . وتبدو على الهياكل البشرية التي نبشت من أجدانها ، آثار الكلوم والجروح التي أصابت أصحابها وجرت عليهم الشوّه او الكساح ، وكلها تنطق عالياً بارتفاع معدل الوفيات بين الاطفال وانخفاض نسبة المراهقين . وفي هذا كله ، دليل ناصع وبرهان قاطع على صحة ما تنوّه به النصوص والوثائق التاريخية ، من عنف الكبار في معاملة مرؤوسيههم ، وبؤس الطبقات السفلى وما تعانيه من سوء التغذية . وظواهر هذا الوضع الزري ، تبدو على أمتها ، في كل مرافق المدينة ، اذ ذاك : فساد التقاليد القديمة المتوارثة من أقدم العصور وتفسخها ، وتغلغل العادات والذهنية الجرمانية ، والانتقال الى الهمجية المرعبة .

ومثل هذا التحول والقهرى ، حدث في اسبانيا ، في القرن الرابع ابان حكم الاوستروغوط على البلاد . فقد اعتنقت قبائل الاوستروغوط فيها العقيدة الكاثوليكية ، بعد ان تخلى ملكهم ريكاريد *Récarède* ، عام ٥٨٩ ، عن القول بمقالة الأريوسية ، الأمر الذي سهل كثيراً ، حركة التقارب فانصهار البرابرة ، بالمجتمع الاسباني الروماني . فنجم عن هذا الانسحاق الاثنوغرافي ، تحلل في المقومات الحضارية وتفسخها . وقد رسم لنا ايزيدوروس الاشبيلي الذي توفي عام ٦٣٦ ، في كتابه الموسوم : «*Etymologies*» صورة عن التراث الادبي للحضارة الرومانية التي زهد الناس في قراءة روائعها الفكرية وأعرضوا عنها أيما إعراض ، كما زهدوا بقراءة روائع الأدب الكلاسيكي ، وتوسيت اللاتينية ، وبطل استعمالها بين الناس ، كما نلاحظ انهيار السلطة الملكية وبروز الطبقة الارستوقراطية . إلا ان العنصر الجرمانى الذي اندس في شبه الجزيرة الايبيرية وانساح في أرجائها ، كان اعجز من ان يلحقها بعوامل ومؤثرات جديدة تؤمن لها شيئاً من التجدد والانبعاث ولو كان فيه ما يؤول الى إفساد الحضارة الرومانية وتبقيها . وقد تسبب الرجوع الى الهمجية وجاهلية الجرمان ، في هذه البلاد ، عن انهيار عام امتد افقياً وعمودياً ، بحيث ان السرايا العربية الاسلامية القليلة العتدّ والعُدّة التي هاجمت البلاد ، عام ٧١١ ، استطاعت على ضآلتها ، فتح البلاد وتصفيتها بسرعة فائقة ، بعد معارك قليلة دون ان تلاقي فيها مقاومة كبيرة . اما الوضع في غالبا ، فقد كان على عكس ذلك تماماً ، ولا سيما في هذه المنطقة الواقعة بين نهري اللوار والموز ، وبين البحر الشمالي ، نقطة الاتصال بين البلدان الرومانية القديمة وبين البلدان الجرمانية . فالتقهقر التدريجي الذي اصيبت به النظم الحضارية في هذه المنطقة ، وتدهور الثقافة والاخلاق والعلوم التي تلبستها من الاجيال القديمة ، كل ذلك أمكن تعويضه ، الى حد بعيد ، عن طريق العناصر الاصلية التي نقلها معه العالم البربري . فانصهار الشعوب والاقوام في هذه الرقعة من العالم جاء بنتائج طيبة وأعطى أشهى الثمار . ففي وسط أكبر انهيار حضاري ، وأعرق المحطاط فكري وخلقي شهده التاريخ ، بدا من خلال القرن السابع ، مع ذلك ، رسيس حركة بشرٍ طلعتها ببدء نهضة جديدة مباركة .

وهكذا ، فالحركة التجارية التي كادت تتوقف وتنقطع تماماً بين بوادير يقظة تلوح في الافق
بلدان البحر المتوسط ، اخذت تستعيد شيئاً من نشاطها وتنظم تدريجياً في أطُر جديدة ، وذلك بسلوها طرقاً تتجه شواطئها غالباً الغربية والجزر البريطانية . فالملاحة نشطت أكثر فأكثر على مجاري السين واللوار وعبر الهانص صوب بحر الشمال ، تنتقل السفن بين مرافئ المحيط الاطلسي الاوروبية وقد نشطت حركة التجارة والمقايضات في مرافئ روان ومرافئ كنتوفيك *Quentovic* الذي قام من عهد قريب على مجرى الكانش *Qanche* في مقاطعة أرتواي . وبفضل تجار من قبائل الفريزون *Frisons* الذين كانوا يؤمّن الاسواق التجارية في سان دنيس *St. Denis* ، وأسواق لندن وبورك التجارية ، قامت علاقات بين غالبا ورينانيا الجرمانية والبلدان الواقعة على البحر البلطيق . ففي الوقت الذي قلت فيه

العملة الذهبية ، احدى وسائل المقايضات التجارية الكبرى ، في العهد الروماني ، درج استعمال النقد الفضي في جميع أنحاء غالبا ، وهو نقد أُلِف الانكلو سكسون ضربه ، كل ذلك جاء دليلا على رسيس اليقظة التي دبت في الحركة التجارية واتجاهها ، اذ ذلك .

ومن بوادر هذه الحركة التجديدية، انتشار الديانة المسيحية . فبعد ان رسخت الديانة الجديدة ، في المدن وحواضر البلاد الكبرى ، اخذت تمتد الى الريف وتنتشر فيه على نطاق واسع ، لا سيما بعد انتقال الطبقات الطافرة اليه واقامتها فيه . وأماكن العبادة التي أقامها الاساقفة في القرى والداكر الريفية ، والكنائس الخاصة التي شيدها كبار الملاكين في ممتلكاتهم الواسعة على مقربة من الدور والصروح والفيلات التي قامت لهم فيها ، لم تلبث ان اصبحت مراكز اشعاع ديني ، وقواعد للكراسة والتبشير يتجندها لها عدد كبير من الرهبان والرهبانيات ، كما اصبحت بعد قليل ، مراكز لجماعات مسيحية تألفت منها رعويات وخورانيات جديدة . واخذت هذه الحركة التطورية تسير بخطى واسعة . فأبرشية مدينة بروج مثلا ، التي لم تكن لتعد في اواخر القرن السادس سوى خمسين بيعة او كنيسة ، رأت هذا العدد يرتفع بعد خمسين سنة من تاريخه الى أكثر من مائة كنيسة . ومن جهة اخرى ، راح كبار الاساقفة الذين عاصروا الملك داغوبير ، أمثال القديس إيلوا ، والقديس أوان (Ouan) والقديس سولبيس ، يقومون دوريا برحلات راعوية ، يهدمون خلالها ويتلفون ما تقع عليه عيونهم من آثار الوثنية والصنمية ، كما يصادرون مراكز عبادة الاصنام بعد ان يغيروا منها الأسماء والمسميات ، ويضعوها تحت حماية او شفاعة احد الشهداء القديسين ، او على اسم احد رؤساء الملائكة ، كما أطلقوا مسميات مسيحية ، على مراكز العبادة ومواقع الحج الوثنية ، وألبسوا صيغا وأشكالا مسيحية ، المراسم الطقسية التي كانت تقام في الارياف ، ناشرين على هذه الكيفية الرمز الصوري او الحرفي ، على الأقل ، للديانة المسيحية . وقسدهم قام أساقفة المراكز المتقدمة في الشمال ، في نويون وكمبريه وريمس ، يساعدهم مرسلون قديموا ، هم ايضا ، من مقاطعة اكويتانيا ، بينهم القديس اماند Amand ، بكراسة الدين الجديد في المقاطعات الواقعة الى الشمال من غالبا ، بعد ان اكتسحتها موجة الفرنج وتوثنت منها العادات والاعراف . وهكذا تم لهم ان يرفعوا راية الصليب فوق معالم نهري الموزن والإسكو . وفي القرن السابع ، اخذنا نرى الرموز والشارات المسيحية تحمل في مقاطعة اللورين ، محل الرموز والشارات القبرية الوثنية فيها .

وهناك رسيس حركة تجدد تبدو ، هي الاخرى ، على الفنون ، بعد ان حملت الغزوات الجرمانية معها فناً جديداً يحمل كل مقومات النشاط بحيث عم كل البلدان المتليئة في غربي اوربا ، وهو فن ملازم للبداءة والأهل الظعن ، يستوحى ملهاته من هذه الحضارة الجانية ، مع ميل قوي للتركيز الصوري ونزعة شديدة لاستنطاق الأشكال الحيوانية ، هو فن مهرة الحدادين في صناعة الاسلحة وشغل المعادن وتصنيعها ، أوّل ما اخذوا في تطبيقه ، على صناعة الحلي والجمهرات الدقيقة الصنع ، أخذت مادتها من أثمن العناصر وأجملها وأندرها ، كالذهب والحجارة الكريمة .

ففي زخارفه المستطيلة الأشكال التي تشبه ، الى حد بعيد ، زخارف القبور الجرمانية في الغرب التي تظهر على قبر شلدريك الميروفنجي ، المدفون في مدينة تورنيه ، عام ٤٨١ ، أو على القبور والمدافن الانكلوسكسونية أو قبور الفيزيغوط في اسبانيا . وهو فن طارىء ، جاء من الخارج ، مغاير في مقوماته الجمالية ، للجمالية الرومانية ، يتميز باحتقاره التصنع ، همه ان يرسم الأشياء كما تبدو في الطبيعة . وهذا الفن الدخيل على البلاد مغاير تماماً للمبادئ الجمالية التي التزم الرومان جانبها وعملوا بها ، فوجد في شمالي غاليا ، في القرن السابع ، مرتعاً خصباً وتربة صالحة للازدهار وللتطور . فقد صنع الصاغة في بدء أمرهم مصوغات من الحجم الكبير ، اختفى تقريباً كل أثر لها اليوم ويمكن مع ذلك ان تتبين غناها من بعض فقرات من سيرة القديس إيلوا . فقد بلغت بعض وجوه الصناعة على أيديهم ، درجة عالية من الاجادة والاتقان ، كما طبقوا أساليب جديدة في افراخ الشهبان وصناعة الحديد والتفنن في شغله ، في منطقة باريس ، واستطاع الصاغة ان يحدوا من وسائل إلهامهم ، فحاولوا ، دون ان يتخلوا تماماً عن التجريد ، ان يرسموا على أشكال واطواع معينة ، صوراً بشرية . ففي الحين الذي راح فيه الفن الجرمانى يوسع من أفقه في المناطق الجاورة لنهر السين ، شهد الناس نهضة حقيقية وبعثاً صحيحاً للأساليب الفنية الرومانية والحفر والنحت ونقش الحجر ، وذلك تحت تأثير المؤسسات والمباني الدينية وما رفلت به من غنى الزخارف وعناصر التحلية . وقد بلغ من شهرة بعض المهندسين والبنائين ما حمل الرهبان في انكلترا على استدعائهم ليشرفوا على زخرفة كنائسهم وتحليتها ، ولكي يبنوا لهم معابد جديدة تحلّت واجهاتها بهذه المسلات التي ميزت المباني الغالية الكلفة في هذه الحقبة . وكان من زخرفة هذه الكنائس وتحليتها ان نهض فن النقش والحفر الذي تركز اول ما تركز ، على مقربة من المهاجر والمقالع الرخامية في جبال البرانيس ، وراح يقلد بعض النماذج الواردة من الشرق ، الهلابة بالنقوش والتعاريف النباتية ، ثم لم تلبث ان انتقلت ، في اواخر القرن السابع ، الى مقاطعة إيل ده فرانس ، لتكون من ثمة على اتصال مباشر ، بدكاكين الصاغة الذين يستوحون للفن البربري . وهنا أخذ الرسامون المعنيون برسم الصور البشرية ، يحددون ، على شاكلة الحفارين الذين نقشوا نواويس كنيسة جوير *Jouerre* الحفر الناتئ للصور البشرية ، في الحجر الكلسي الطري .

ان اقتباس الرموز المسيحية وتطبيقها على مشاهد حياة الانسان وفقاً لعقليات سكان الريف ، ورسيس الحركة التجارية الذي اخذ يظهر ويقوى ، ومهارة الرسامين الفنية ، كل هذا وما اليه ، كان بشير نهضة واضحة المعالم . ولكي تشتد هذه النهضة وتنطلق في غالبا الميروفنجية كان لا بد لها من وضع سياسي يغيّر الوضع القائم يسمح بقبولة الأطر الارستوقراطية . غير ان انتشار العادات والطبائع الجرمانية ، كالولاء الشخصي ، ورفاقة السلاح ، كل ذلك هياً الأخذ بحركة تجدد النظم والاطواع السياسية في البلاد . وقد اخذنا نرى في مقاطعة اوسترازيا ، التي كانت تعتبر أشد مقاطعات الفرنج إيغالاً في الهمجية ، وأبعدها ذهاباً في البربرية ، تظهر حول قيسم القصر او سادنه *Le Maire du palais* مكونات الولاء والبذل والتضحية وكلها من ميزات نظام جديد .

وكانت غالباً بحاجة ماسة الى أطر ثقافية وفكرية ، ولا سيما لنظام منهجي لتعليم اللاتينية الكلاسيكية تساعد رجال الاكليروس وتوفر لهم الاسباب والوسائل ، لفهم الكتب المقدسة ، وتليح في الوقت ذاته ، لإصلاح المصنف الاسقفي ، وشد أزر رجال الدين في أعمالهم التبشيرية ورسالتهم ، كما تساعدهم على محاربة أباطيل الوثنية وشجب زهاتها ورذها . وقد أخذنا نشاهد في اخريات القرن السابع ، يفتد على مرافء المانش الجديدة ، مبشرون انكلو سكسون الذين استطاعوا ان يحافظوا على التراث القديم كاملاً ، نقياً ، وان يحتفظوا بديانة أنصع رسولية ، وأنقى تعليماً ، وأكثر فعالية ، واثق ارتباطاً بالكرسي الرسولي .

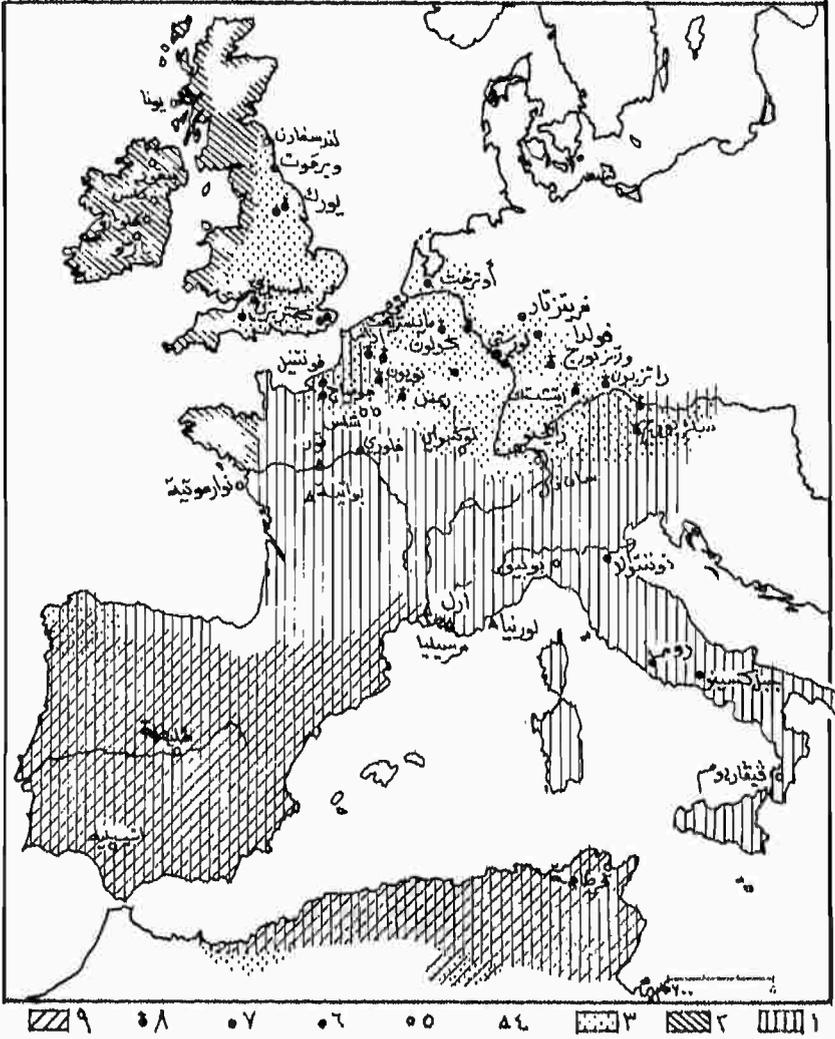
تلقت الكنيسة ، خارج مملكة غاليا ، التراث الروحي لروما ،
الرهبان وعمل المبشرين الرسولي
بمعالم جديدة طبعت الحياة الرهبانية والاسقفية والتبشيرية .

وهذه الحياة الرهبانية التي كانت ظهرت ، في وقت مبكر ، في مصر ، انتقلت عاداتها الى الغرب وتركزت أسسها على شواطئ مقاطعة البروفانس ، حيث تأسس عام ٤١٠ و ٤١٨ ، ديران : أولها دير لارينس *Lerins* ، والآخر دير سانت فكتور ، في مرسيليا . ومن هناك انتشرت الحياة الرهبانية في ارلندا ، عام ٤٢٥ ، على يد القديس باتريك وتلاميذه الغيّر . ورسخت الديانة المسيحية والحياة الرهبانية في هذه الجزيرة بحيث أصبحت محور كل حياة دينية فعالة ، حية ، محيية ، ومنها شعت وانتشرت في بلدان اخرى . واستقر في خلد رهبان الجزيرة ان الاغتراب والترحال الى الخارج ، من احسن الوسائل التي تؤول الى تقديس النفس وتدينها أكثر فأكثر ، من الله سبحانه وتعالى ، وتزيدها تقريباً من الكمال المسيحي . وهكذا انتشر الرهبان المرسلون من ارلندا في كل البلدان الكلتية الاصل واللسان : في ايكوسيا والشمال الغربي من انكلترا والاموريك . وفي اواخر القرن الخامس ، رحل الرهبان الايكوسيون ، بقيادة رئيسهم ومدبرهم القديس كولبان ، الى مملكة الفرنج والى غيرم من الشعوب الجرمانية ، فأسسوا تباهاً ، أدياراً عديدة ، منها دير لوكسويل *Luxeuil* ، عام ٦١٠ ، ودير سان غال ، عام ٦١٢ ، ودير بوبيو ، في لبرديا ، عام ٦١٥ . وهكذا وضعت معالم اتجاه التيار الروحي الذي بلغ أقاصي البلدان المسيحية في الغرب ، حتى بلغ قلب جرمانيا وادخل فيها انماطاً مختلفة من الحياة الرهبانية ، ومناهج متنوعة . غير ان الحياة الرهبانية في ارلندا لم تلبث ان عرفت صوراً وارتدت مظاهر قاسية متزمتة ، وبدائية في مظهرها ، اذ ان منطلق الحياة الرهبانية كان في الكتب المقدسة ، وعلى مجموعة من النصوص والآيات المقدسة تفرض في ملتزمها ، تعليماً ابتدائياً ومعرفة اللغة المكتوبة بها الكتب المنزلة والطقوس الليتورجية ، وهي لغة أحسنها رهبان ايكوسيا واتقنوا استعمالها ، وعرفوا ان يحافظوا على نقائها ، لا سيما وان لغة الأهلين الدارجة الاستعمال ، كانت ، بخلاف لغة المسيحيين في غاليا ، مغايرة لها تماماً ، لا يخشون البتة من افسادها ، والظاهر انهم لم يكونوا ليكثرثوا كثيراً بالثقافة العلمانية او الدنيوية ،

لا سيما وقد لبست الحركة الدينية مسحة من الزهد المزمته والتنسك المجافي لواقع الحياة . كما صوروا المغفرة وخلص النفوس على اسس منقّرة ، لا تصلح ابدأ ركيزة للتمدن والتحضر . الا انه اخذ يظهر ، في الربع الثاني من القرن السادس ، صورة جديدة للحياة الرهبانية ، انتشرت في ايطاليا التي استباحتها الحروب والغزوات الغوطية . فقد نشأ في مقاطعة نورسي الايطالية راهب هو الراهب بندكتوس ، من اسرة ثرية من سكان الريف ، أتيح له ان يتلقى في روما ، قديراً ملحوظاً من الآداب اللاتينية . فقد وضع عام ٥٢٥ للرهبان الذين تحلقوا عليه والنفوا حوله ، في دير جبل كستينو ، فرائض للحياة الرهبانية اتخذت قسطاساً لها الاعتدال . فقد رأى هذا المرشد الحكيم ان الاسرة الرهبانية التي يتولى رئاستها رئيس مسؤول ، يجب ان تبرز وكأنها مليشيا أو جمعية لها نظام فرقة عسكرية ، يقوم أفرادها معاً ، بالصلاة الواحدة المشتركة ، أولى وصايا الله الكبرى واسماها . وعلى اعضاء هذه الاسرة ان يوقعوا علناً وخطياً تمهداً كالتعهد الذي يقطعه رجال الحرب ، بان ينهجوا ، في حياتهم اليومية ، نهجاً سوياً ، متزناً ، يقسم يومياً ، بين العمل اليدوي دونما إرهاق مضر للجسم أو تخرج ، تشبه ملابسهم ونظام عيشهم ، وطريقة إشفالهم الوقت وملء الفراغ ، نظام الجند العاملين في الريف ، اذ ذلك . فالدير هو مكان عزلة وانقطاع عن حياة العالم ، ينعم ويتصرف باملاك واسعة ، تجعل ساكنيه ، ومن فيه ، بآمن من العوز والسؤل ، ومع ذلك ، منفتح للجميع بحيث لا يبعث في الناس النفور من النظام الذي يسير عليه ، ولا يجعل نمط العيش المتبع فيه ، الناس تجفّل منه او ترغب عنه او تسخر به ، اذا ما عنّ لأحدهم اعتناقه والعمل به . ولم يدُر في خلد القديس بندكتوس قط ان يعهد الى الدير برسالة الكرازة والتبشير أو العمل على نشر الحياة الروحية والمسيحية . فالدير في نظره ، لم يكن سوى ملاذ منكمفء على نفسه ، منطو على ذاته ، في هذا العالم المضطرب الكثير الصخب والنهار على نفسه . وكان من اختصاص البابوية المشعة ، في أواخر القرن السادس ، ان تجعل الحياة الرهبانية ، كما وضعها القديس بندكتوس وقيدتها بفرائض بيتنة ، صريحة ، تكوّن اداة طيبة لنشر المسيحية بين الناس .

منذ فتح بوسنيابوس لايطاليا ، في القرن السادس ، كان الكرسي الرسولي ، في الامبراطورية البيزنطية ، ابرشية محورية أو دائرية تخضع لرعاية الامبراطور الضيقة . وكان تأثير نفوذ البطارقة الشرقيين ، في الكنيسة اليونانية المتصاعد ، يهدد جدياً ، رئاسته الروحية واولويته . وكان البابا ، على عكس ذلك ، يحتل مركزاً مرموقاً في إيطاليا التي مزقتها غزوات البرابرة والحروب التي جرت فيها ، شر ممزق وارهقتها ، وتخلت الامبراطورية المهيضة الجناح ، والمنهوك القوى ، عن مهمة الدفاع عنها . فقد أصبح البابا ، على إثر انهيار النظم والمؤسسات المدنية والادارية ، سيد روما ورئيسها غير المنازع . وكانت املاك السدة البطرسيّة ، وهي اغنى عقارات من نوعها ، في ايطاليا ، تدرّ عليه موارد طائلة . فاضطره هذا الوضع بالذات ليتولى بنفسه الدفاع عن روما ، لصد الهجمات المتتالية التي شنّها عليها البارديون ، كما انه رأى نفسه مسؤولاً عن تنظيم الأمن والسر على استتبابه . واذ كان يمثل على احسن وجه الوطنية الرومانية

كانت سلطته هي السلطة الحققة التي يتوجب عليها الدفاع عن المصلحة الرومانية العامة . فلا عجب ، والحالة هذه ، من ان ينظر اليه الحجاج والرحالة البرابرة ، نظرتهم الى الممثل الحقيقي



الشكل (رقم ١) - المسيحية اللاتينية في القرنين السادس والسابع

الوحيد لروما ولفكرة الامبراطورية التي بقيت عالقة في اذهان الناس وجمهرة السكان . وهذا لعمرى شيء طبيعي وتفكير في محله ، لبعدهم عن بيزنطية والعالم اليوناني ، اذ ذلك . وهذا الوضع المتحيز على هذا الشكل ، عرف الباب غريغوريوس الكبير ٥٩٠ - ٦٠٤ اعظم بابوات الاجيال الوسطى واشهرهم على الاطلاق ، ان يستغله وينتفع منه على الوجه الامثل ، لمصلحة الكرسي

الرسولي . وهذا الروماني الذي كان يقرّ ويعترف متواضعاً ، يجله اللغة اليونانية ، والذي كان اسس في دارته ، على هضبة التشيلوس *Caelius* نظاماً رهبانياً ، سار على وتيرة القانون الرهباني الذي وضعه القديس بندكتوس ، ادرك جيداً انه يتحتم على البابا ، ليصبح في مأمن من القيصرية البابوية البيزنطية وطوارئها ، ان يكون رأس الغرب البربري ، وراعيه . فالكتب التي وضعها وانتشرت بسرعة ساعدت على توطيد الكرسي الرسولي وإشاعة هيئته . فقد هيأ وأعدّ اعتناق المباردين للديانة المسيحية في ايطاليا ، وتبادل مع اساقفة غاليا واسبانيا ، عدداً من الرسائل التعليمية التنظيمية ، وراح يعمل على تشجيع الكرازة بالدين المسيحي ، بين الوثنيين في الغرب . فقد راودته بين ٥٨٦ - ٥٨٨ فكرة تبشير الانكلوسكسون بالمسيحية . وقد تم له ذلك ، عام ٥٩٦ ، عندما ارسل الى الجزيرة البريطانية ، عدداً من الرهبان البندكتيين برئاسة الراهب اوغسطينوس .

وكانت انكلترا السكسونية ما تزال على الوثنية والصنمية بعد ان حنق الرهبان الايكوسيون حنقاً شديداً على الغزاة . والبعثة الدينية التي جاءت برئاسة اوغسطينوس ، اسست لها ديراً في كنتوربري ، كان اول دير تؤسس الرهبانية البندكتية خارج ايطاليا . فقد لقيت في بادىء امرها ، نجاحاً عظيماً بحيث شهدت تنصير معظم ملوك الدول السكسونية القائمة في انكلترا ، اذ ذلك . وحدث على إثر ذلك ، ردة فعل وثنية اوشكت تؤذي بكل شيء وتذهب بالنجاحات التي حققتها البعثة الدينية ، هباءً منثوراً . واستؤنف العمل التبشيري الديني ، في البلاد ، على يد رهبان إيرلنديين استقروا ، عام ٦٣٤ ، في لندسفارن بحيث رأت انكلترا نفسها ، التي أصبحت كلها مسيحية ، على نهجين في الحياة الرهبانية ، مختلفين متباينين ، هما نهج الرهبان الايكوسيين ، والنهج الروماني .

في خدمة البابوية ، وبعد تعرفهم على النهج الرهباني المتجول الارلندي ، تحول الرهبان البندكتيون ، الى مبشرين . الا انهم لم يكونوا ليكاثرتوا ، وهم بعد في اواسط القرن السابع ، لأمر الفكر والثقافة . ففي الكنيسة الغربية ، كان العهد الكلاسيكي ومن يثله من الكتب ورجال الفكر ، يقابل بالازدراء ، كما كان الناس يشعرون برهبة أو يتهيبون العناية والاهتمام بالأثار الفكرية الكلاسيكية التي لا تزال تحمل اجمل ما في الوثنية من غذاء ادبي . وقد راح عامل من الزهد والتخرج يجعلهم يستنكرون كثيراً هذه المتعة الفكرية التي توفرها قراءة آثارهم العلمانية الدنيوية . أفلم بتعرض الاسقف ديزيه ، مطران فيينا ، للشجب الشديد والتنديد العنيف ، من قبل البابا غريغوريوس الكبير لانه راح يعلم اجرومية النحو والغراماطيق . وقد ظهرت ضد هذا الوضع الشاذ المتحرج ، اول ردة فعل ، في اواسط القرن السادس . فبعد موت ثيودوريق ، راح وزيره كسيودوروس يحاول ، بالاتفاق مع البابا اغابي ، فتح مدرسة لتعليم الآداب في روما ، تكون على شاكلة مدرسة نصيبين ، واخذ في تكوين مكتبة في روما وجمع نواة طيبة لها عندما سقطت روما بيد جيوش الامبراطور يوستينيانوس ، ففضي على المشروع وهو في المهد . وكان كسيودوروس

التجأ الى ساحل كلابريا وسكن دارة له جميلة للغاية في مدينة فيفاروم، ودخل الدير بعد ان نهج الحياة الرهبانية . وهذا النهج الجديد الذي ارتضاه في حياته ولرفاقه كان نهج قوم من السراة ذوي ثقافة عالية ، تحرروا من المهام المادية وجموا حولهم طائفة من الكتب . اما عملهم الرئيسي فانصرف للاهتمام بامور الفكر والثقافة ، يقضون اوقاتهم بين استنساخ المخطوطات ومطالعة الكتب المقدسة . وخلافاً للتقاليد المتبعة من عهد إيرونيوس التي كانت تقتصر من قيم الثقافة الكلاسيكية ، رأى كسيودوروس انه لكي يتفهم الانسان الكتب المقدسة حتى فهمها ، كان لا بد له من الاستعانة بالآداب الرفيعة . وراح ، في آخر ايامه ، يمد في هذا السبيل ، برنامجاً موحداً يجمع بين الدراسات الكتابية والعلوم الدنيوية ، وهو منهاج بسطه باستفاضة في الحلقتين اللتين يتألف منها كتابه المعنون : « النظم » وبفضله 'كتيب' للدرسة القديمة البقاء بعد ان كادت تفقد كل اثر لها وتضمحل ، لو لم تجد لها في الدير والحياة الرهبانية خير معوان لها وخير مسعف . غير ان المحيط لم يكن حليماً ولا مسعفاً . فالحاقلة جاءت في غير اوانها ، ولم تتخذ لها الظروف المهيئة ، كما ان الاهتمام بامور العقل والفكر لم يكن تملك بعد الاديار البندكتية .

وهذا الموقف يقفه الاكليروس من الثقافة الكلاسيكية تبدل تماماً ، بعد هذا ، بنحو قرن من الزمن ، وذلك بتأثير من رهبان مشاركة لجأوا الى ايطاليا وافريقيا . ففي البلاد اليونانية ، راحت المسيحية بعد ان رسخت أصولها وأعقرت في الأرض ، تتمثل جانباً كبيراً من الثقافة اليونانية ، واخذ الناس يتذوقون التراث الادبي القديم . فزاد اقبال الناس على تلتف هذا الادب ، في روما أولاً ثم في انكلترا التي تنصرت منذ عهد قريب . فالبعثة الرسولية الثانية التي عهد اليها ، عام ٦٣٩ ، في استكمال تنظيم الكنيسة الانكلو سكسونية كانت تحت ادارة رجلين تشبعا من الثقافة الشرقية العالية ، هما ثيودوروس الطرسوسي الذي قد يكون من خريجي مدارس اثينا ، وهديانوس ، وهو رجل افريقي الاصل تخرج بالآداب اليونانية واللاتينية في قرطاجة البيزنطية . ففي الوقت الذي سربلا فيه الكنيسة الانكليزية بهذه المزاي ، منحهاها تنظيمياً أسقياً شديداً الأسر وشدأها الى البابوية بروابط متينة وأدخلا على المدارس الابتدائية القائمة في الاديار ، حيث كان المرقدون الى الدين المسيحي ، يتلقون مبادئ اللاتينية التي لا بد منها لتفهم الكتاب المقدس ، برنامجاً تعليمياً أقوى بكثير من البرنامج المعمول به ، الى ذلك الحين ، يضم على شاكلة البرنامج الذي سبق لكسيودوروس ان وضعه من قبل ، وكان يتوخى التعمق بأسرار اللغة اللاتينية وآدابها ، « ساكباً » ، كما جاء على لسان الطوبواوي باد المحترم ، وهو أبرز من خلفها وأشهرهم على الاطلاق : « على القلوب ، العلم دِفاقاً » . فلم تعتم الدياتر البندكتية الجديدة ، أمثال دير ويرماوث ويارو ، ان اصيحت منائر للثقافة في تلك البلاد وراح مؤسسها بندكتوس بسكوب ينشئ فيها مكثبات ، اذ جاء روما زائراً ست مرات متوالية ، وكان يعود في كل مرة منها عملاً بالمخطوطات ، ولم يلبث ان قام في مدينة يورك ، أكبر مركز للتعليم في المسيحية جماء . وتحت تأثير هذا الازدهار غير المتوقع على هذا الشكل الذي عرفته الثقافة الكتابية في ديارت ارلندا

وانكلترا الشرقية والغربية ، ظهرت عام ٧٠٠ ، في الجزيرة رسوم التحلية والتزاويق البديعة التي تزين روائع المخطوطات واعلاقتها ، في هذه الحقبة ، منها مثلاً كتاب مزامير دير كنتوربري الذي يحمل صوراً ورسوماً مستوحاة من نماذج قديمة جيء بها من ايطاليا ومن افريقيا ؛ ومنها ايضاً المجيل لندسفارن الذي استعار رسوماً حيوانية وأشكالاً زخرفية استعملت في مجوهرات بربرية بعد ان جرى تكبير حجمها .

وفي أواخر القرن السابع ، في الوقت الذي أغرق الفتح العربي تحت سيده الجارف ، الممتلكات البيزنطية في افريقيا وكادت أمواجه الطامية تهدد الفيزيغوط في اسبانيا ، غادر مبشرون ، الأديار الاتكلو سكسونية ليقوموا بتأسيس ارساليات تبشيرية ، في الاطراف الشرقية للمملكة الفرنجية حيث كان لا يزال يوجد بعد جماعات من المشركين . وهكذا أقاموا من جهة ، صلات وطيدة ، بين البابوية الرومانية وأقوى الدول من الوجهة السياسية اذ ذلك ، حيث كان لسدنة القصر أكبر شأن في مقاطعة أوسترازايا ، ومن جهة اخرى ، بين وجوه الثقافة اللاتينية الأكثر حيوية ونشاطاً ، هي الثقافة التي وطئد أركانها الطوباوي باد المحترم في البلاد وتمهدها تلاميذه . من بعده ، وبين الفن الفالو - الروماني في منطقة باريس . وعن طريق هذه الاتصالات الرباعية الاطراف ، تمهد السبيل امام طلوع حضارة الاجيال الوسطى .

الفصل الثاني

انهيار العالم الروماني: الشرق

لا يتوهم أحد ان الشرق ، في الحقبة الواقعة بين القرن الخامس والسابع ، اختلف عن الغرب كثيراً ، من حيث الوضع الاساسي . ففي الوقت الذي قامت في الغرب دول جرمانية سحلت محل الامبراطورية الرومانية ، قامت في الشرق ، واستمرت قائمة حتى عام ١٤٥٣ ، دولة نعتت نفسها « رومانية » ، هي الامبراطورية « البيزنطية » باسم عاصمتها بيزنطية التي عرفت في عهد قسطنطين الكبير باسم « القسطنطينية » . فلم يكن وضعها ، وهي على منتصف الطريق من الاجيال الوسطى ، ليختلف كثيراً عن الوضع الذي لابس سميتها في الغرب ، بعد ان جدد شارلمان واوتون ، شباهها ونفخا فيها دماً جديداً . فالقطيعة جاءت اقل مفاجأة في الشرق منها في الغرب ، بينما سارت حركة التطور والتبدل لدى كليهما ، باتجاه واحد حتى في المراحل الاولى من هذا التطور .

تألفت هذه الامبراطورية من مقاطعات مختلفة كل الاختلاف .
الامبراطورية الرومانية الشرقية
فشبه الجزيرة البلقانية ، باستثناء بلاد اليونان منها ، هي اقرب شهما الى الغرب الاوروبي ، من آسيا ، كما ان مصر تميزت ، هي الاخرى ، عن باقي اجزاء آسيا الرومانية ؛ اذ كثيراً ما يحلو لنا ان نطبق على كل اجزاء الامبراطورية الرومانية ، الصورة المغربية الجذابة ، التي رسمها لها الوثائق التاريخية ولا سيما البرديات منها . صحيح ان هذه الاقاليم نعمت ببيروقراطية ونظام اداري ومالي افتقر الغرب الى أمثاله مع ما يستتبع من نتائج الا وهي كره الناس والسكان لشكل الدولة . فقد قام في الشرق والغرب على السواء ، اقطاعية عرفت بأملاكها وأقطانها الواسعة ، كاسرة آل ابيون في مصر ، بينما زالت طبقة الفلاحين الاحرار من الوجود او كادت ، اذ استحالت قسم منها عبيداً او شبه عبيد علقوا بالارض وارتبطوا بها ونجا القسم الآخر بنفسه هرباً من فداحة الضرائب او من قسوة اسيا دهم الى حيث استطاعوا سبيلاً . أما في المدن والقرى فقد راحت الدولة تجوز كذلك على اوضاع الحياصة الاجتماعية عن طريق إلزام الناس البقاء في المهنة التي ورثوها عن آباءهم ، والتمرس بالمسؤوليات العامة التي عهدت اليهم ، فأحصيت عليهم الانفاس في كل صناعة احترفوها او متجر فتحوه ؛ فاحتكرت الدولة صناعة

الاسلحة والمنسوجات الغالية الثمن، كما تسلمت بنفسها امور تكوين المدن الكبيرة وتزويدها بوسائل العيش ، منها العاصمة القسطنطينية ، وذلك عن طريق المصادرة او الشراء بأبخس الاسعار . والجيش نفسه يتألف ، كما هو في الغرب ، من « برابرة » محترفين ، لم يلبث قواده ان استأثروا بالسلطة ، كما استأثر زملاؤهم بها ، في غالبا وايطاليا واسبانيا وافريقيا ، بينما يستقر رجالهم في أراضي الامبراطورية بشكل يشبه ، من وجوه كثيرة حتى « الضيافة » المعمول به في الغرب ، وضرورة محاربة الغزاة الطارئین وفقاً لأساليبهم المتبعة في فرقة الخيالة ، كل ذلك وما اليه ، عقدت جداً تنظيم الجيش وطريقة تشكيله وجعلت تكاليفه باهظة مرهقة .

فما هي ، يا ترى ، الاسباب التي جعلت الامبراطورية الشرقية تصمد بنجاح ، للعوامل الهدامة التي هددتها ، فمكنتها ، أكثر مما مكنت الغرب ، من المقاومة والوقوف بوجهها ؟ لفترة قصيرة لعمرى ، كما يجب ان نعلم ، اذ ان الولايات الاوروبية لم تلبث ان اكتسحتها في القرن السابع ، قبائل من « البربر » أكثر شراسة وضراوة من قبائل الجرمان ، كما ان معظم القسم الآسيوي والافريقي منها سيذهب فريسة غزاة جدد لم يكونوا في الحسبان . فقد أمكن تقادي شر موجات البرابرة الاولى عن طريق تحويلهم شطراً آخر ، او بادماجهم في الجيش ، في حال تمدد امتصاصهم وتمثلهم . فالسر يمكن رده ، والحالة هذه ، لسبب خارجي ، في بعض وجوهه . فالامبراطورية لم تتعرض لضغط ملموس إلا في اوروبا . فالولايات الآسيوية المعروفة بغنى مواردها بقيت سليمة ، تتعرض الفينة بعد الفينة ، لحروب يشنها عليها الفرس ، وهي حروب لم تتسم بالخطر الذي تمثل على أشده ، في تغفل البربر وانسراهم في جميع ارجاء اوروبا ، اذ ان الاخطار التي كانت تهدد الدولة الساسانية من الشمال ، كانت تحول دون توغل جيوشها بعيداً ، داخل الامبراطورية ، مع العلم ان هذه الحروب لم تكن لتهدف إلا للسيطرة سياسياً ، على بعض الولايات الشرقية وليس الى ضمها واقتطاعها نهائياً . وهناك سبب آخر يقوم أساساً في القوة الكامنة في قلب الامبراطورية الشرقية التي حالت دون اكتساح البرابرة لمدينة القسطنطينية والاستئثار بالسلطة ، اذا ما حالهم الحظ وعبروا مضائق البوسفور والدردينيل ، اذ كانوا يفضلون ، لدى سnoch الفرصة الملائمة ، التوطن في مقاطعات الغرب .

تفوق الشرق اقتصادياً واجتماعياً
وتفوق الشرق على الغرب كان يتمثل ، قبل كل شيء ، في التجارة والصناعة التي أدت بدورها الى ازدهار المدن ، وإلى

تكثيف عدد السكان في الريف . صحيح ان التجارة الدولية كانت تقتصر على بعض السلع الثمينة التي كانت تقي برغائب الطبقة الارستوقراطية ، فلا تأثير لها ، والحالة هذه ، على الجماهير والطبقات الشعبية ، بينما انحصرت حركة النقل في الداخل على محاصيل زراعية بالاكثـر ، ذات طابع اداري محض اكثر مما هو تجاري . وبالرغم من هذا ، فقد كانت لهذه الحركة التجارية اهمية كبرى ، كما كان لها تأثير كبير على الطبقة البورجوازية الغنية في المدن وبالتالي ، على سكان المدن ، اذ كانت تؤمن لهم أسباب العمل وأود العيش . فالحركة التجارية تنبج بالاكثـر شطر آسيا : الهند

وحق الصين . فقد فقدت هذه الحركة البساطة التي طبعت المعاملات المالية خلال الاجيال المنصرمة ، اذ كان التجار الرومان يبلغون بيسر المراكز والاسواق التجارية في الهند والصين . اما الآن ، وقد عزف الساسانيون ان يربطوا بقوافلهم البرية اقطار آسيا الوسطى بسواحل البحر المتوسط الشرقية ، وان يؤمنوا الاتصال بحرياً بالهند وموانئها بعد ان عزلوا البحر الاحمر لخير الخليج الفارسي ، فقد سيطروا تماماً واحتكروا حركة النقل فكان ذلك مورد ربح عظيم لهم كما سبب القلق والازعاج للامبراطورية « الرومانية » . قد يتنطح البعض للقول فيزعمون ان الشرق المتوسطي ، كان بالنسبة لآسيا القصية النائية ، في وضع يشبه ، الى حد بعيد ، وضع الغرب بالنسبة لهذا الشرق الادنى ، يعاني مريراً كما كانت تعاني اوروبا ، من استنزاف الذهب . انه استنتاج لا يخلو لعمري من الغلو والشطط ، مع ان هنالك حوادث ثابتة لا تدحض لتسرب كميات من الذهب « الروماني » . فالصناعة التي عثر على بعض انتاجها في الصين ، كان باستطاعتها ان تؤمن التوازن ، مع انه لا يزال سرّاً من الاسرار كيف استطاع النقد البيزنطي ان يحافظ ، اجيالاً متطاولة ، على متانته وقوته على الشراء ، بحيث اصبح النقد الدولي المتعارف ، وهي متانة لا تأتلف ولا تنسجم البتة مع افتراض افتقار البلاد للنقد أو القول باختلال الميزان التجاري .

ولكن ما عسى ان تمثله ، في أعين تجار البحر المتوسط الشرقي ، هذه التجارة مع الغرب ؟ فاذا ما انعمنا النظر ملياً في احوال الغرب ، في هذه الحقبة ، كان لا بد من الاعتراف ، بالدليل القاطع والحجة المؤيدة ، باستمرار هذه العلائق التجارية في قلب الدول « البربرية » واطحاطها في آن واحد ، وذلك لقصور الغرب عن الشراء بعد ان ضمرت وسائله وضعفت ، وبعد ان قام اسطول الفندال باعمال القرصنة في البحر ، ولو بصورة مؤقتة . وقد يتغير الوضع تماماً اذا ما نظرنا اليه من الشرق . فقد استطاعت الحركة التجارية ان تحافظ على مسنوها وعلى اهميتها ، بالرغم مما كان عليه الغرب من ضعف في اقتصادياته ، دون ان يملق اهل الشرق كبير اهمية على هذا الوضع ، بالرغم مما اصطلمحوا اجيالاً على تأمينه من الارباح الطائلة . والشيء الثابت الذي لا يوجهه البشك هو ان الامبراطورية الشرقية ، تمكنت ، منذ اواخر القرن الخامس ، ان تنشئ لها عمارة قوية ، وان تؤمن سيطرتها على البحر في الوقت الذي بدا لنا فيه انها في سبيل التخلي للبربر ، عن سلطتها على البر . وبفضل هذا الاسطول ، ستتمكن من استرجاع اقاليمها المغتصبة من قبل ، قائمة بالشواطىء البحرية ، بعد ان استرجعت افريقيا واسبانيا وشبه جزيرة ايطاليا ، مكنتية بما عليها من موانىء ومرافىء تنفذ منها الى الداخل دون ان تتوغل فيه كثيراً مع ذلك ، مما يؤمن لها أسباب الدفاع عنها ، نزولاً منها عند مقتضيات الدفاع . ومع ذلك من يستطيع ان يزعم ان حركة الاتجار مع اقطار « البرابرة » كانت اكثر صعوبة مع الولايات « الرومانية » فالمنصوعات البيزنطية كانت تصل ، حتى اواخر القرن السابع ، الاقطار الواقعة حول الدانوب أو في اوروبا الشرقية لتبلغ منها شواطىء البحر البلطقي ، على يد زعماء وطنيين مقابل الفراء والرقيق

يردم عن طريق القبائل او عن طريق مسلوبات الحرب أو كانت تجدد بها هبات واعطيات الديبلوماسية البيزنطية ، استدعاءً لزعماء القبائل والشعوب البربرية . وليس ما يثبت البتة أو يؤيد بشكل من الاشكال ، ان الاوساط التجارية في القسطنطينية أو في سوريا دعت الى الحروب او حبذت قيامها بنية عرقلة الحركة التجارية ، أو طمعاً باسترجاع اراضٍ طالما تعرضت للغزو ، وتأملت مما وقع عليها من نهب وسلب ، وذلك طمعاً منهم في استثمار هذه الحروب والاستفادة من الفتوحات الحربية . فاذا ما اتفق واعرض الامبراطور يوستينيانوس عن هذه وضرب بها عرض الحائط وقام بعجلاته العسكرية المعروفة للسيطرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط في الشمال والغرب والجنوب ، فنزولاً منه وامتنالاً لدوافع ونوازع مالية ، ملحّة ، لا ترحم . فكم من مرة تحكمت بالسياسة البيزنطية العليا ، الرغبة الملحفة بفرض رسوم وضرائب جديدة وتنظيم احتكارات جديدة ، وذلك بالرغم من معارضة كبار الملاكين وارباب الاعمال والتجارة الذين لم يكونوا ليساهموا كثيراً بهذه المنافع الحكومية . ولذا كان على الدولة ان تؤمن ، بجميع الوسائل ، مقتضيات الدفاع وما يحتاج اليه من وسائل الاغراء ، لاصطناع الانصار ، وقطع اللسنة ، وإثارة البرابرة ، وتأليبهم بعضاً على بعض ، وتوفير اسباب البذخ للبلاط وحاشيته ، وتأمين أود الفوغاء في العاصمة ، وعدم تهيجها بشيء . وهكذا ، اذ عرف الشرق ان يضحي بمقاطعاته الدائرية في الغرب ويتخلى عنها للقبائل الجرمانية ، استطاع بما لديه من موارد ، ان يؤمن أسباب وجوده وان يستمر حياً ، وان يقوم بهجوم معاكس ، ويحقق في الداخل الاصلاح المنشود .

والتعبير الاجتماعي عن الحركة الاقتصادية التجارية ظهر ، على أتمه ، في ازدهار المدن . فقد نشأ في الغرب من آسيا الصغرى ، وسوريا وأهالي الجزيرة ، في ما بين النهرين ، مدن عظيمة ، كانطاكية مثلاً ، وشيء آخر له مغزاه ومدلوله الواضح ، عدد كبير من المدن الوسطى والصغرى برزت كالقنطرة في هذه البقاع ، أوجبت على أولي الامر ، مسؤولية تأمين أسباب العيش لسكانها وأدت بالتالي الى انشاءات هندسية ، زراعية ، لاستثمار خيرات هذه الارضين كما يستدل من الحفريات الحديثة ، واستغلال سهول سوريا الداخلية . ومن المدن الكبرى الاخرى في هذه المنطقة ، مدينة الاسكندرية التي خلافاً للمألوف من هذه المدائن ، قامت وازدهرت على سواحل بلاد ظلت ريفية في الصميم . ومن بينها أيضاً مدينة القسطنطينية العاصمة الاولى للامبراطورية ، ومرفاً جميل الموقع حصينه ، ملاذ البلقانيين يكتنون اليها هرباً من غزوات البرابرة ونجاة بأنفسهم من المخاطر التي تتهدمهم باستمرار ، فاتسعت بذلك رقعتها وتضخم عدد السكان فيها متجاوزين المليون ، فارضة على أولياء الشأن مسؤوليات جساماً لتأمين أسباب المحافظة على النظام ، والمواد الأولية لتموين السكان واعاشتهم وأسباب الدفاع التي أصبحت أكثر حرجاً . ولذا كنا نرى - وهذا من بعض سمات هذا العصر المميزة - الاسوار وأعمال التحصين تقام حول هذه المدن تزيدها منعة وقوة مقاومة ، ولا سيما في عهد الامبراطور يوستينيانوس . فجبال المباني العامة وأبهة

الصروح الخاصة تشهد عالياً على ما عرفت الامبراطورية ، اذ ذاك ، من نعمة سابغة وازدهار حق ولو كان آتياً ، موقوتاً ، وغير مستقر ، ولو قامت على أنقاض من الخرائب . وكأصحاب هذه العقارات يسكنون تلك المباني ، وان لم يكن دائماً في ممتلكاتهم العقارية . وقام حول المدن مباشرة ، طبقة بورجوازية متوسطة الغنى ، عدلت من شأن اصحاب الاقطان الكبرى الأبعد الى الورا . والملكية القروية الصغيرة نفسها ، بدت راسخة ، في بعض الاماكن ، وتساهم بدورها في تموين المدن الكبيرة . فالطبقة الصناعية نفسها في المدن تتوزع الى فئتين كبيرتين هما : الفئة الزرقاء والفئة الخضراء . ولقد لعبتا دوراً بارزاً في تنشيط الالعاب الرياضية ، عن طريق المباريات التي تنظمها من آن لآخر ، وهي ألعاب كانت من الحيوية والنشاط ما نسينا معه ان نتذكر بأنها كانت تؤلف جزءاً من الحرس الوطني المسؤول عن النظام العام ، كما كانت تؤلف بنميات نجهل الكثير من دقائقها تنعكس عليها الحزبيات التي انتابت الطبقات الاجتماعية ، اذ ذاك ، وعلى هذه الكيفية يمكن لنا ان ندرك جيداً ان الانتفاضات الشعبية التي كانت تؤول الى اسقاط الأباطرة كانت ، على الغالب ، تركز على احدي هذه الفئات . وقد يحدث أحياناً ان اكثر من واحد من هذه الاحزاب كان يشترك في التآمر على صاحب السلطان ، كما حدث ذلك تماماً في الفتنة التي أثارها نيكلا على الامبراطور يوستينيانوس ، ولم يتمكن من اخادها إلا بمذابح هائلة ، مريعة ، عهد بتنفيذها الى المرتزقة من جنود البرابرة .

اصطلاح المؤرخون على ان يروا في عهد الامبراطور يوستينيانوس (٥٢٧ - ٥٦٥)
 يوستينيانوس
 العصر الذهبي للمدينة البيزنطية . وهذا خطل في الرأي وهم لا سند له ولا دليل عليه ، يجب رده اصلاً ، الى الاثر الذي تركته فتوحاته الحربية ، والى غنى المباني التي شيدها ، وما كانت عليه من فخامة وأبهة ، وطائفة محترمة من الأدباء والشعراء عمر بهم البلاط الامبراطوري . ومع ذلك ، فلم تحل هذه الاعتبارات كلها ، دون تخرج الوضع وتأزمه بحيث كاد يستحيل كراهة ، لما حف به من ضعف وأخطار . وعلينا ان نعترف هنا ، مع ذلك ، ان ماتم له من ارادة حازمة ، شأها لعمري ، شهوة جارفة للبخ والاسراف ، مكثته كثيراً من حشد القوى والطاقت التي كانت له خير معوان على انجاز المآتي التي تمت على عهده وأقامت له الشهرة العالية التي يتمتع بها وحفظها له التاريخ .

كان عليه قبل كل شيء ، ان يقبض بيد من حديد ، على أداة الحكم والادارة ويهيمن على المجتمع . لنس الآن الفشل الذريع الذي آل اليه . باشر حكمه بتوسيع محاولة بُدئ بها من قرن ماض ، تتمثل بالقانون الشيرودوسي ، وهي موسوعة قانونية ضمت ما يمكن الانتفاع به من التشريع الروماني ، على ضوء التطور الذي لحق بالاخلاق والعادات ، وانتصار المسيحية النهائي وفوزها المبين . فالقانون اليوستينياني هو المعين الذي استقت منه كل الشعوب اللاتينية شرائعها وقوانينها . فهو الاثر الخالد الذي يعتمده المؤرخون والفقهاء في تصويرهم ملامح التاريخ القديم . ويعد هذا القانون تكملته في المجموعة المعروفة بـ *Digeste* ، وهي مجموعة أضيفت اليه فيما

بعد ، وهيمن على وضعها الروح الذي سيطر على من قاموا بجمع الموسوعة الاولى ، تتألف من اجتهادات رجال القانون ونظرياتهم الفقهية .

ومنذ ذلك الحين اكتسبت الدولة البيزنطية بعض السمات التي لازمتها ، وهي سمات كانت ، والحق يقال ، نتيجة حركة تطويرية طلعت مع عهد قسطنطين ، تبدو ، قبل كل شيء ، في دمج الكنيسة بالدولة . فقد أظهرت الكنيسة ، في الغرب ، العدا ، للولوك والامراء الجرمانيين لضواعهم بالهرطقة الآريوسية ، وانتقصت من شأنهم لما كانوا عليه من وضاعة الثقافة ، ومسكنة في الحضارة وعجز في الادارة ، ولذا نفرت من وصايتهم ولم ترضَ منهم بأي رعاية . اما في الشرق ، فالدولة هي تجسيم لارادة الحكومة ، قسطاسها الدين حيث تنعم الكنيسة برعاية الدولة التي لا تغل عن الكنيسة نفسها ، مسيحية . وهذه الكنيسة ، تلتقت من أبنائها المؤمنين ومن الدولة نفسها ما أفاء عليها الفنى والسلطان . فبطاركتها ، ولا سيما بطريرك القسطنطينية بينهم ، هم اقطاب جذب ووزن . انما الكلمة الاخيرة للامبراطور ، حق في ما هو من امور الدين ، مما كان رأي البابا القابع بعيداً ، في روما . وفي هذا يقوم ما اصطلاحوا على تسميته بالقيصرية البابوية .

فالامبراطور او الفاسيلفس هو السيد السند المطلق ، من أي اصل نشأ ، وأياً تكون السلطة العسكرية التي افترعته ، والسلطان الذي آل اليه على الأكثر ، غلاباً واقتداراً . يعزله عن عامة الشعب وحتى عن رجال حاشيته ما نشهد له من غنى لا يتصوره عقل ، ومراسم يجب التقيد بها والعمل بموجبها في قصر أشبه ما يكون بمدينة مقفلة على نفسها تشبهاً ، من بعض الوجوه ، بالتقاليد التي سارت عليها هذه الاسر الملكية الشرقية ، والتي جاءت وفقاً لحركة تطويرية داخلية . وقد خشي بعضهم في مطلع القرن الخامس ان يزهده الفاسيلفس بالحكم فيتخلى عن أزمته ، كما حدث في الغرب . فما هو يصبح في نهاية القرن ، ويبقى ابدأ : القائد الاعلى الذي يرئس الجيوش ، ورئيساً يدير كل شيء ويشرف على كل شيء . وقد احتشد في مميته رهط كبير من المساعدين عمرت بهم مكاتب الحكومة المركزية ودواوينها ، او تولوا قيادة الجيوش في الولايات ، كما يشرف على المصالح العامة موظفون كبار ، لهم مكاتبتهم الشخصية . ومع ذلك ليس هنالك من ارادة واعية منظمة تؤمن التعاون بين هذا الشئيت من الدوائر والدواوين ، غير ارادة الفاسيلفس والكل مصيره اليه وحده ، في نظام مسلسل من الالقاب والرتب ، بعضها شرفي محض يشير الى وضع خاص في المجتمع ، والبعض الآخر يتباور في وظائف وصلاحيات فعلية واقعية . وكل هؤلاء الموظفين علمانيون ، سيصبحون تدريجياً ، مع الزمن موظفين في الدولة يتقاضون منها المرتبات والاجور ، بعد ان استبدلوا بهم الحكام المحليين الذين يحاولون دوماً التهرب من الاعمال الشاقة . وهكذا نرى ان المركزية في أبان ذروتها .

وتتمثل لنا نزعة يوستينيانوس الى الابهة والعظمة في هذه العماز التي شيدها وتأخذ الالباب بعظمتها ، رامياً منها الى تمجيد الله عز وجل واعلاء شأن الامبراطور . والمهم في هذا كله ان اطل من هذه الرغبة التي نزلت من الشعب منزلة التقدير والرضى فتنبناها ، اثر في جديد هو من

اروع و اوقع ما عرفت البشرية من امثاله ، ممثلاً بكنيسة الحكمة أو آجيا صوفيا التي يفرق اليوم في ظلها الظليلة الوارفة ، هذا الجلي من استانبول الواقع الى الغرب من مدخل القرن الذهبي ، مع ان ليس في مظهرها الخارجي من روعة الجمال ما يصدم الرائي أو يصدعه . ولكن ما ان يدخل المرء الى صحن الكنيسة حتى يدهش لضخامة المبنى ولفن ما تقع عليه العين من الرخام المتعدد الألوان ، ومن هذا البذخ في الزخرف الذي لا تشوبه شائبة ، وارتفاع قبته التي تملأ القلب روعة ورهبة من هذه الجراءة التي راودت المهندسين اللذين أشرفا على هندسة هذه الكنيسة ، هما ايزيدوروس الميلي وانثيموس الترابي . فكان عملها الفني هذا ملهماً بعد ألف سنة للمهندسين الاتراك العثمانيين والروس من بعدهم . فالمآسي البشرية التي توالى فيها بعد ، لم تترك شيئاً يستحق الذكر او التنويه به من هذه الكنائس الاخرى ، التي زانت العاصمة بهندستها المتنوعة ، اذ كان بعضها يرسم لنا بازيليكاً مستطيلة الشكل ، كما يرسم البعض الآخر شكل صليب يوناني . ففي مدينة رافينا ، احدى مدن ايطاليا الشمالية الغربية التي أعيد فتحها من جديد ، يستطيع المرء ان يتذوق أجمل الفسيفساء وأحفظها التي تخلد صورة الامبراطور وزوجته الامبراطورة ثيودورا يحيط بها كبار الموظفين . صحيح ان فن الحفر والنقش كان اذ ذاك ، في ابان المحطاطه ، غير ان فن الزركشة وتزيين المباني لم يبلغ يوماً من الدقة ما بلغه اذ ذاك . فالمرء لا يزال يتذوق النقوش الفنية الجميلة التي أودعها الفنانون البيزنطيون الحشيب والعاج . ولا تقل عنها جمالاً هذه المدسوجات المشرقية المتداخلة الالوان ، الشرقية الطراز ، والتزاويق البديعة التي كانت تحلّي المخطوطات . وهذا الذي يبدو لنا اليوم على شيء من الجمود في الايكونوغرافيا ، قد يكون سببه الالمحطاط الفني ، انما يجب رده بالاكتر الى نظرية أسمى في رسالة الفن .

فالفن « البيزنطي » مدن لعوامل اخرى غير يونانية ، تتصل بسوريا وارمينيا . وهو أعجز من ان يلمخص او يمثل كل فنون الشرق الادنى . علينا مع ذلك ان نتجنب المغالاة لثلاث نفع في الجهة الماكسة التي وقع فيها بعض من كشفوا عن هذه الفنون . فباستطاعة عاصمة امبراطورية كبرى وحدها ان تفرغ مثل هذا العدد العديد من المؤثرات المتباينة في بوتقة واحدة . وفي مقدور دولة كبيرة قوية ان تبني وحدها كنيسة على مثال كنيسة آجيا صوفيا . وهذا الفن البيزنطي لم يقتصر في اشاعه على الذين أسهموا في العثور على الاكتشافات التي حققوها وعلى من جاء بعدهم . فمن قبل يوستنيانوس ، استقدم أسيا رافينا وحكامها ، من بيزنطية ، مهرة الصناع الذين نقف اليوم مشدوهين امام انجازاتهم الفنية . وعلى بيزنطية عولت القرون العليا من تاريخ الاجيال الوسطى في استلهاهم أسرار الفن واستيحائه .

وقد نهجت الآداب البيزنطية ، هي الاخرى ، النهج الذي ارتضته لها مسلكتها ، وبقيت محافظة عليه ، بمسكة به . فالايحاء الفلسفي والعلمي ضاقت منه الانفاس ، لعمرى ، مع انه بقي محافظاً على تقاليده التي اعتمدها مدرسة الاسكندرية ومن ثم « الجامعة » الجديدة التي تأسست في القسطنطينية . وفي المقابل ، ازدهر علم التاريخ الذي وجد مادة جديدة له في الاجناد

العالية التي حققتها المدنية البيزنطية ، وفي هذه الحروب التي نهضت بها . في طليعتهم المؤرخ بروكوبوس (+ ٥٦٢) الذي انتقد الامبراطور يوستينيانوس بعد ان كالم له المدح والثناء ، وذلك في كتبه المتعددة : « حروب الفرس » و « الفندال » ، و « الاوستروغوط » و كتابه الآخر : « رسالة في المباني » وفي كتابه : « التاريخ الخفي » (الذي اقل ما يقال فيه انه يزرع الشكوك) .
فمع ما يتصف به من صفات الخلق ، فهو شديد الملاحظة ، كاتب مجيد ، زودنا بمعلومات من الطبقة الاولى حول عهده . وقد عاصر بروكوبوس جمهرة من المؤرخين من علمانيين وكنسيين ، بعضهم من اصل شرقي . ومن الشرق خرج ايضا هؤلاء الفقهاء الذين عاونوا الامبراطور يوستينيانوس في موسوعته القانونية وفي *Digeste* . كل هذا وما اليه ، ادب يتجه بالطبع ، من الارستقراطية وقد افسحت الديانة الجديدة المجال ، في هذا التعاون الذي قام بين المؤمنين ورجال الاكليروس ، لظهور شعر ديني ، مقفى ، طلع له اول من طلع رومانوس ، وعلى شعره ومدائحه تغذت تقوى الشعب اليوناني طيلة اجيال متطاولة .

هذه المدنية التي كان محورها على البوسفور ، راحت تعمل نفسها مع المطالبة والنزعات الاخلاقية ذلك بانها « رومانية » . فالفكرة التي تجسمها روما وتمثلها قيماً تسمو بكثير فوق هذه الصور الزائلة التي تبلورت على شاشة المجتمع ، عاشت طويلاً بعد انهيار الوحدة الرومانية وزوالها . ومن ثم ، فالاعتقاد الوطيد بان تراث روما القديمة انتقل الى القسطنطينية ، روما الجديدة ، جعلها رأس العالم المتمدن الاوحد . وهذا الايمان لم يأت يوماً اقوى وأرسخ تشد عليه الدولة بالتواجد ، الا عندما ترى نفسها مرغمة للتخلي عن احدى مقاطعاتها للبرابرة . فلم يكن اقوى من هذه العاطفة يمحش بها قلب يوستينيانوس ، هذا اللاتيني الايليري الاصل والمتمدن فتحمله على القيام بسلسلة من الحروب لاسترجاع الولايات المنفصلة ، فتسول له نفسه بتحقيق هذا الحلم المعسول . ومع ذلك فقد ادارت بيزنطية ظهرها لروما ، وعندما سقطت ولاية الإليريكوم بيد البرابرة واستباحوا باحتها ، لم يكن احد من رعايا الامبراطورية ، باستثناء سكان ايطاليا ، يعبر عن افكاره وخواطره باللاتينية . ولم يكن من ادب معروف رائج الا الآداب اليونانية والآداب الشرقية . ويوستينيانوس نفسه الذي عمل على جمع النصوص القانونية والتشريعية الخاصة بالحق الروماني ، باللاتينية ، اضطر ان يصدر باليونانية القوانين التشريعية التي اصدرها فيما بعد ، وتسمى عندهم بـ *Novelles* . فالانحطاط الذي أصاب في الغرب ، منذ القرن الثالث ، الطبقة الارستوقراطية نصف المثلهية ، قضى تماماً على كل انتشار للثقافة الاغريقية ، فليس من الغرابة بشيء ان تتسع الهوة في الممالك البربرية كما سنتبين ذلك عما قريب : فلم يعد الشرق والغرب يتفاهمان .

وهذه الوحدة البديعة المنظر التي كانت تبدو على الشرق في الظاهر ، اخذت هي الاخرى بالتصدع شيئاً فشيئاً بعد المشاكل الاجتماعية والقومية التي تحالفت عليه ، فمزقتها كل ممزق . وهذه الدولة « الرومانية » التي عجزت الفينة بعد الفينة ، عن تأمين حماية مقاطعاتها الشرقية والدفاع عنها ضد تعديات اعدائها الاقوياء ورد كيدهم الى محورهم ، والتحوط للأزمات الاخرى

التي اشتدت فيها جبالة الضرائب ، وغير ذلك من الاسباب كالمركزية الادارية والدينية ، كل ذلك وما اليه ، قوى النزعات القومية ، وقد اخذت الشعوب الآسيوية ومصر على الاخص تعمي ، أكثر فأكثر ، الدور العظيم الذي لعبته في اقتصاديات الامبراطورية الرومانية وترسيخ حضارتها ، وهو دور زاد خطره وشأنه بعد سقوط الامبراطورية الغربية . ومن جهة اخرى ، فقد كان لهذا اللقاء التدريجي الذي تم بين الارستوقراطية القيسية على التراث الهليني وبين المسيحية المختلفة بين الطبقات الشعبية الواسعة التي لم تفقد الشعور بقوميتها ، ان زاد في ازدهار الحضارات الوطنية التي غشيتها مسحة دقيقة من الطلاء اليوناني . ولذا ، فقد بدت الدولة البيزنطية والنظام السياسي الذي انشأته بعيداً عن محور سوريا ومصر ، وكأنها سيطرة اجنبية دخيلة على البلاد ، ليس ما يبررها ، والانتظار البرم الطويل الذي اضطرت إلى الاعتصام به عناصر قومية متمدة كالاقباط والساميين والارمن ، اخذت من عضد الدولة ويخلخل وحدتها . فما ان جاء الاسلام وظهرت موجاته الاولى حتى راح يستثمر بنجاح ، هذا الوضع الملائم .

المشاجرات الدينية والشقاق المذهبي وهذا التفسخ بدا على اشده في هذه المشاجرات الدينية التي ادى اليها اختلاف العقيدة وتباين تعاليم بعض الشيع والهرطقات التي شجرت بين المسيحيين . ويصعب على المؤرخ تصور ما بلغته هذه المشاقات من العنف والبهضاء حول القضايا اللاهوتية وما اثارته من انشاقات بين الطوائف الكثيرة التي طلعت في الاجيال الثلاثة الاولى للمسيحية . قد يكون في اهمية الادب الكنسي ما يطبع بالفلو هذه الحدة . ومع ذلك ، فالروح الدينية الشرقية تسيطر عليها ، اكثر مما تسيطر على الروح الدينية الغربية التي تهتم ، قبل كل شيء بمشكلة سلوك الانسان ، النظرية القائلة بان الخلاص يقوم ، قبل كل شيء ، في تفهم النظام الالهي بحيث يفنى فيه الانسان بصورة سلبية او يتدبر امره معه بصورة تكاد تقارب السحر . ولم يعتم ان اصبح واضحاً بان وراء علماء اللاهوت ، الجماهير التي كانت تخضع لمؤثرات اجتماعية وقومية اكثر من خضوعها لمؤثرات دينية صرفة . ومع ذلك يبدو من اللازم ان نعرض هنا بايجاز ، القضايا الدينية التي ادت الى مثل هذا الوضع الحرج ، اذ انها كانت بالفعل سبباً مباشراً لهذه الانفصالات التي لا يزال بعضها قائماً لليوم .

فالاختلاف الجوهرى يقوم اصلاً على الصعيد الديني ، ويتناول وجود طبيعتين في السيد المسيح : الطبيعة البشرية والطبيعة الالهية . ففي نظر البعض الذين كان يهمهم في الدرجة الاولى ، المحافظة على الوحدة الالهية او الجانب الالهي في شخصية المسيح ، فظهور السيد المسيح بلحمه ودمه ، وآلامه وصلبه ، لم يكن الا تشبيهاً . وهذا قال اتباع الطبيعة الواحدة . اما خصومهم ، فقد رأوا في هذه كلها حقائق مطلقة ووقائع لا يواجمها الشك ، تختلف عن الطبيعة الالهية بحيث ان الآلام التي تخمّلها احداها لا تمس كمال الثانية بشيء . وصاحب هذه المقالة هو نسطور يوس ، بطريرك القسطنطينية في القرن الخامس ، ولذا عرف اتباعه بالنساطرة او النسطوريين .

والحقيقة ان كلا التلميذين ، في جعلها الله بمزول عن الألم عرّضا عمل الفداء للخطر . بحيث ان ما اصبح فيما بعد الارثوذكسية اليونانية - الرومانية كان قوامه القول بالحماد الطيبتين ، وهذا امر عظيم لا ينفذ اليه عقل الانسان . فبعد ان حال النفوذ القوي لاصحاب العقيدة المونوفيزية في القرن الخامس ، دون انطلاق العقيدة النسطورية ، استطاع النساطرة ان يحدوا لهم منطلقاً واسعاً في الدولة الساسانية . وانتشرت مقالة الغائلين بالطبيعة الواحدة بين الساميين ، بعد ان رأوا في هذه العقيدة استمراراً للتقاليد والتعاليم بوحدانية الله كما انتشرت كذلك بين الاقباط ، وبين الارمن ايضاً ، على شيء من التخفف والتسامح . اما « الارثوذكسية » فاحتفظت باليونان الى جانب روما ، والعالم اللاتيني ، واخذ اصحاب الطبيعة الواحدة ، ينظرون اليها نظرم الى ديانة اسيا دبلاد الغرباء اصلاً عنها . وقد تبنى بطاركة انطاكية والاسكندرية ، ولا سيما كيرلس الاسكندري ، في القرن الخامس ، مقالة المونوفيزية . ووقفوا الى جانبها ، نكايه بزميلهم بطريك القسطنطينية ، للمركز السامي الذي كان ينعم به لدى السلطة العليا . وقد مضوا في موقفهم هذا بعد الذي نالوه من تأييد الشعب لهم ومؤازرة الرهبان لهذا الموقف المتشدد .

عرف الشرق قبل الغرب بكثير ، الحياة الرهبانية التي ازدهرت فيه وازهرت على اشكال وألوان مختلفة ، على السواء ان في اليونان أو عند الارمن والاقباط . وكانت الحياة الرهبانية تعتمد قاعدة لها القوانين التي وضعها القديس باسيليوس فاتخذها الرهبان دستوراً لهم ، سواء انقطعوا للحياة النسكية التقيسية أو لحياة التأمل والذوبان في الله . فبعضهم عاش حياة مشتركة بين جمهورهم كرهبان دير القديس سابا الذي انشئ في القرن الخامس ، على مقربة من القدس ، اما البعض الآخر فقد ارتضى لنفسه حياة نسلك وتوحد فانعزلوا عن الناس وانقطعوا للتأمل ، شأن رهبان القديس سمعان العمودي ، الذين كانوا على شاكلة معلمهم ومرشدهم ، يقضون حياتهم في التأملات وهم قابعون على رأس عمود لا يفارقونه ليلاً أو نهاراً ، ولا صيفاً أو شتاءً ، متجهجين لله في شبه الخطاف مها بلغ من حمارة القيظ او زمهرير البرد . وقد أحاطت برجال الله هؤلاء هالة من القداسة والتقدس حلت في قلوب الشعب ، فتكاثر عددهم ونما بحيث بلغوا عدة آلاف في منطقة واحدة ، مما حدا بالكثيرين الى الكفر بالعالم ، والالتحاق بهم ، 'ممرضين طوعاً واختياراً ، عن ملذات هذه الفانية وبهاج الحياة . فقد كانت حياتهم كما كانت اقوالهم وتعاليمهم شجبا للشر وسوء السلوك والغنى والسلطة . واذ كانوا يفتقرون الى سلطة اسقفية حازمة ، فكثيراً ما كانوا اداة طيبة لانهارة الفتنة اذ كانوا غالباً وراء كل سجس او انتفاضة شعبية تقوم بها الجماهير بمناسبة المشاجرات اللاهوتية وما تجر اليه من اعمال العنف . وكانت هذه الخصومات الدينية سبب تنفص الحياة في جميع اطراف الامبراطورية البيزنطية وتسمم العلاقات بين مختلف طبقات الشعب ، جالبة على البلاد جماء ادهى المخاطر ، طيلة قرنين كاملين ، حتى اذا ما جاء الفتح العربي قضى على اسباب الفتنة الكامنة تحت الرماد ، بعد ان سلخ عن السيطرة البيزنطية الولايات التي كان معظم سكانها من المشاقة ، فوضعهم بأمن من طفيان الكنيسة اليونانية .

ويمكن إيجاز المراحل الحاسمة في هذه الحقبة على الوجه التالي ففي عام ٤٣١ انعقد مجمع أفقسس وحترّم الهرطقة النسطورية ، فراح اتباعها يلجأون الى الدولة الساسانية . وفي سنة ٤٥١ ، انعقد مجمع خلقيدونيا ورذّل هرطقة القائلين بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح . ومع ذلك بقيت مقالاتهم تلعب دوراً بارزاً في سوريا ومصر ، وكان تأثيرها بالفاً على الاوساط الحاكمة حتى في القسطنطينية . وتردد الاباطرة في اتخاذ سياسة ترمي الى تهدئة اصحاب البدعة المونوفيزية واشاعة السلام في طول البلاد وعرضها ، وذلك عن طريق تنازلات وامتيازات خاصة . وقد فشلت هذه السياسة ولم تأتِ اكلها المرغى كما انها خلقت للدولة صعوبات مع روما نفسها ، تلتها محاولة المحاد بين الكنيستين ، كما ادت من جهة ثانية الى اعتماد سياسة البطش والقسوة ضد اتباع الهرطقة المونوفيزية . وقد اصلام الامبراطور يوستينيانوس حرباً حامية اصاب رذاذها جميع الطوائف والبيسّ المشاقسة وجميع الخارجين على الارثوذكسية : كالآريوسيين والمشركين ، والغائلين بالمناوية واليهود على السواء . وراح اتباع المونوفيزية من جهتهم ، ينظمون جبهتهم وصفوفهم بصورة نهائية عن طريق إنشاء كنائس مستقلة لهم : كالكنيسة القبطية والنسطورية واليعقوبية ، نسبة الى مؤسسها يعقوب البرادعي ومن ثم ارمينية ، لكل منها ليتورجيتها الخاصة بلغتها القومية واساقفتها . وهكذا اصبح لكل من هذه القوميات كنيستها « الوطنية » الخاصة بها .

وعبثاً حاول الامبراطور هرقل ، في القرن السابع ، وهو يواجه ادهى الاخطار والغزوات من قبل الفرس والآفار والعرب ، إيجاد مجال لاحلال التفاهم والسلام ، عن طريق صيغ عقائدية جديدة . وهذه المحاولات تصدر عن الامبراطور انما تلبثق عما يعتقد من حقه بالتشريع في ما يختص بالايان . وانتهى به الامر الى تحريم الحديث عن طبيعة أو طبيعتين في السيد المسيح ، محاولاً اللجوء للقول بمشيئة واحدة فقط (هرطقة القائلين بمشيئة واحدة في السيد المسيح *Monothélisme*) دون ان يتمكن من اقناع احد على القول بمقالته هذه . وكان من نتيجة هذه المحاولة ان ادت في عهد خلفه الامبراطور قنسطان الثاني ، الى اثاره ازمة حادة مع البابوية كان من بعض نتائجها ان اثار ضده رعاياه اليونان في ايطاليا بزعامة الراهب مكسيموس المعترف ، وما عثم ان جاء الفتح العربي يسليخ عن بيزنطية رعاياها في الشرق ، فتوول هرطقة المشيئة الواحدة في السيد المسيح الى هزيمة نكراء وفشل ذريع اضطرت معه الحكومة الامبراطورية ، في النصف الثاني من القرن السابع ، للتراجع والتنكر لهذه العقيدة .

وفي وسط هذا المصطرع العنيف اخذت حضارات جديدة تنظم نفسها على المذنبات القومية
 أساس من الثقافات القومية كالسريانية والقبطية والارمنية والكرجبية
 والمصرية ، وهي ثقافات معظمها نقول وترجمات واقتباسات عن اليونانية امتزجت بآثار قومي
 ساعدت شعوب الشرق الادنى على ترسيخ دعائم استقلالها الروحي والكلسي . ولم تلبث ارمينيا
 التي وقع معظمها تحت نفوذ الساسانيين ان ألتمت جزءاً من اصل هذه المجموعة من القوميات ذات

الثقافة المسيحية في آسيا الغربية فقد أدت مساعي رئيسها الديني ساهاك والكاهن مسروب ، في القرن الخامس ، الى تزويد لغة البلاد بأبجدية خاصة بها ، ساعدت على تكوين أدب قومي ارمني، هو ، في الغالب ، ادب ديني مسيحي ، منقول ، والى وضع عدد من كتب التاريخ تحلّد ذكر الامجاد الوطنية . ولعل أشهر هؤلاء الكتاب هرموس خورين الذي تجمله تقاليدهم من رجال القرن الخامس، بينما يُرجّح انه عاش حوالي ٧٠٠ ، والى جانب ارمينيا قامت بلاد الكرج التي، مع بقائها على الارثوذكسية ، تأثرت كثيراً بالنفوذ الارمني واليوناني على السواء .

اما الادب القبطي ، ومعظمه ديني ، فهو قليل الشأن . والادب الحبشي الذي اشتق من الادب القبطي ، لا يزال اذ ذاك في القمط . وآم من هذه الآداب بكثير ، الادب السرياني . فالعلوم الدينية تؤلف منه السواد الأعظم ، وهو على جانب كبير من التنوع : كلالهوت والحق القانوني الكنسي، والليتورجيا والادب الروحي، ولا عجب في ذلك اذ ان معظمه ادب رهباني. وينقسم الادب السرياني الى قسمين تجمع بينهما حدود سياسية واحدة : الادب الغربي والشرقي ، وذلك نسبة الى مواطن الشعب الذي كان يزاوله . فالادب السرياني الغربي ازدهر بين القائلين بالطبيعة الواحدة ، ومركزهم العلمي هو الرها ومدرستها اللاهوتية المشهورة التي أنشئت في أواسط القرن الثالث . اما الادب الشرقي فتألف من أتباع الكنيسة النسطورية ، ومراكز العلم عندهم نصيبين من مدن الجزيرة في سوريا ، وجنديسابور ، في العراق ، وكلاهما يقعان ضمن نفوذ الدولة الساسانية . والذي يهم المؤرخ بنوع خاص هو الكتب التاريخية التي وضعها اصحاب الطبيعة الواحدة (يشوع العمودي ويوحنا الافسسي ، المتوفى سنة ٥٨٧) وهي مؤلفات يشهد لها بالجودة والبراعة اللغوية . والجدير بالذكر هنا التنويه عالياً بمرحلة الترجمة والنقل التي نشطت عند السريان ولا سيما الناصرة منهم ، اذ تم على يدهم نقل معظم الروائع الفكرية الفلسفية التي وضعها اليونان . وعن طريق هذه الترجمات وصل الى الاسلام ، وعنهم الى اوربوا الغربية ، معظم التراث الفكري الهليني وفي مقدمتهم آثار ارسطو والافلاطونية الجديدة ، وبطليموس وهيبوقراتيس وجالينوس . وقد اشتهرت جنديسابور بمدرستها الطبية وببيارستانها ، كما اهتمت بالهندسة (إقليدس) والكيمياء . وقد تكاثرت في هذا العهد ، الكتب المنحولة مما خلق مشكلة امام الاجيال الطالعة في التمييز بين الاصيل منها والمدخول . غير اننا لا نرى في هذا الادب ، باستثناء الادب المسيحي منه ، محلاً للتاريخ القديم ولا للادب اليوناني الدنيوي، ولا بالاحرى للادب اللاتيني باستثناء « رواية الاسكندر » . وقد أدى السريان ، في هذا المجال ، خدمة عظيمة للعالم بعد الذي عُرف من اعراض الغرب المسيحي حتى وبيزنطية عن كل ما ينضج بالوثنية ، وازدراؤها له .

كذلك وقع على الحدود الفاصلة بين بيزنطية والدولة الساسانية ، اليهود الذين ، بالرغم مما تعرضوا له من اضطهادات وتشريد ، عرفت آدابهم ، في هذه الحقبة التاريخية فترة من الازدهار . يرئس الطائفة ، في المنفى ، زعيم روحي ، مسؤول في نظر أولياء الامر ويمثلي السلطة العليا ،

عن امور طائفته ، كالبطاركة انفسهم . ولما زهدوا في كل مطمع سياسي كان اكابر القوم في هذه الملة ، هم العلماء الذين كانوا ينصرفون لدرس الكتب المقدسة والشريعة الموسوية ، الذين ألفوا طبقة الربانية يتقدمهم المعلم الاكبر المسمى : غاؤون . وقد كانوا يتحسون ، منذ عهد قديم ، بضرورة جمع الاجتهادات الدينية والاحكام والسنة الفقهية المتعلقة بالعقيدة او المنظمة لشؤون الحياة . وقد ابتدأت حركة التجميع هذه ، في القدس ، منذ القرن الثاني ، وانتهى العمل منه في المدارس المشهورة : سورا وبومبديتا الواقعة على مقربة من مدينة طيسفون ، في القرن الخامس فتألف من ذلك ، التلمود المعروف بالتلمود البابلي . وهو يتألف من مجموعة ضخمة من النصوص والاحكام والاجتهادات التي تنتظم التقاليد اليهودية ، بعد ان انكش هذا الشعب على نفسه وانطوى على ذاته امام ما لاقى من اضطهادات ، وبعد غلبة المسيحية وانتصارها وانتشارها . وقد كان اليهود في الغرب يمولون على اخوتهم في الشرق اجيالاً عديدة ، في كل ما يتعلق بأموالهم الدينية يستفتونهم في كل معضلة عقائدية .

وليس اقل جدارة بالاعجاب والتقدير ، اهتمام هذه الكنائس المسيحية بالفنون الجميلة . فقد اخذت ارمينيا بنشيد الكنائس العديدة بعد ان اعتمدت على عدد كبير من ابناءها المهندسين انتشروا في انحاء الامبراطورية البيزنطية . ولعلمهم ساهموا في نقل مميزات الهندسة المعمارية الكنسية الى الغرب لما بين هذه الكنائس او البيسج من تشابه ومحاكاة ، وعنها اخذ الفن المعماري الروماني اولى مفارقاته المميزة . وقد كان لكنيسة الكرج ، هي الاخرى طرازها المعماري الذي طبع مدرستها . وقد اعطى الفن المعماري الكنسي في سوريا عمائر بديعة لا تزال مقوماتها الجميلة بادية للعيان في خرائب هذه الكنائس والادبار في القرنين الخامس والسادس التي رادها روعة ومهابة انها قامت في بقاع اقفر اليوم واصبحت هجراً منسياً ، منها : قلب اللوزة ، وطور مانين ، ومار سيمان العمودي . وقد ازدانت هذه الكنائس بالكثير من الوشي الزخرفي الشرقي الطابع واللون . وازدانت باشكال متنوعة من الرسوم الهندسية التي تحاكي ضرباً متنوعاً من نبات وحيوان تألف مع المجموع الهندسي . كذلك ازدهر في مصر فن مستقل من الهندسة المعمارية الكنسية ، امتاز بانسجام الالوان الزخرفية ، وبامانته لاصول الفن الهليني مميزة بهذه الصور البشرية وبالعالج المحفور والاقمشة المزركشة ، مما عاد على هذه الانجازات المعمارية بالشهرة الواسعة .

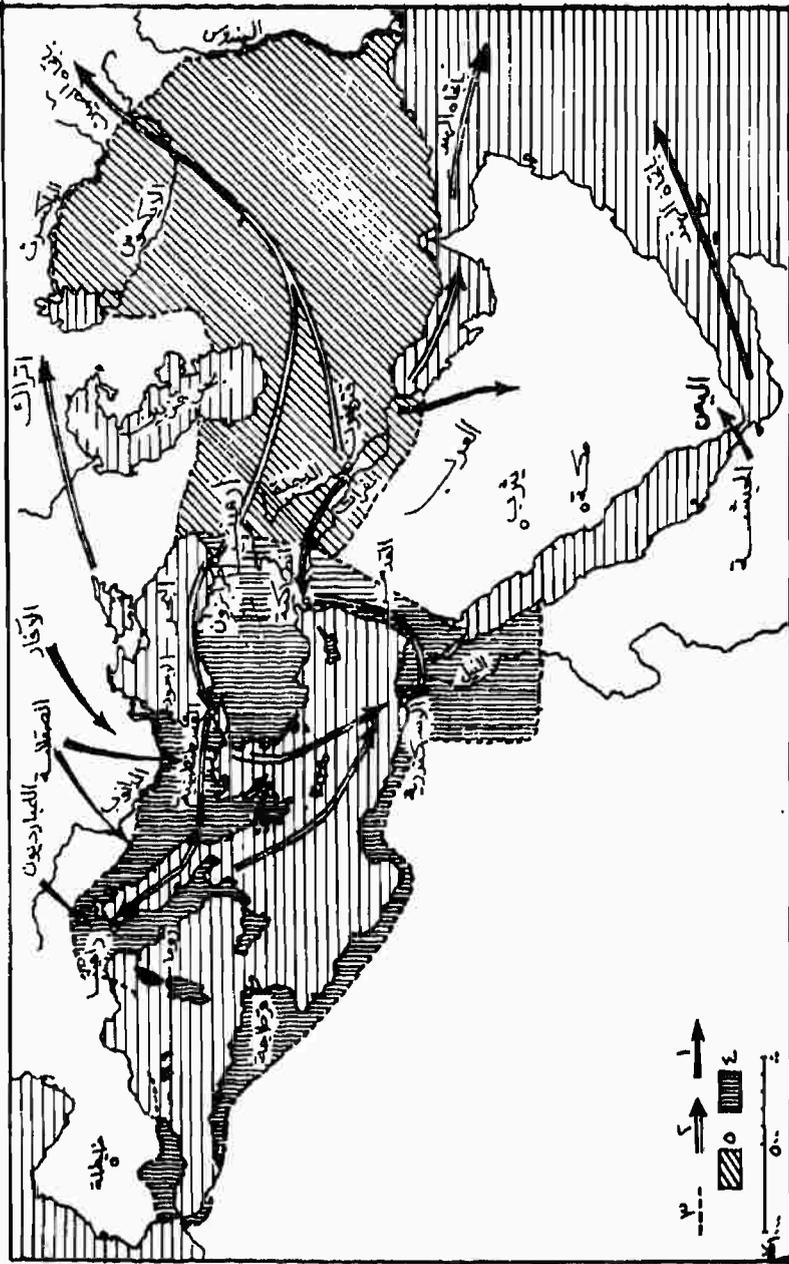
الدولة الساسانية
كم من مرة تجاوزنا ، ونحن نستعرض صورة هذا الشرق في واقعه المهيض ، في هذه الحقبة التاريخية ، حدود الامبراطورية الساسانية ، اذ من الصعب جداً ، ان لم نقل من المستحيل ، ان نفترض على الامبراطورية البيزنطية في درسنا لتاريخ الشرق الادنى في مطلع الاجيال الوسطى . وهذه الدولة الساسانية التي قامت منذ القرن الثاني ، خصماً عنيداً ، ومنافساً خطيراً للامبراطورية البيزنطية ، يمكن مضارعتها ومقارنتها ببيزنطية من عدة وجوه . فقد ضمت ، فيما ضمته بين ممتلكاتها ، ايران برمتها حتى مشارف الهند ، وجانباً كبيراً من بلاد

ما بين النهرين واربينيا ، كما ضمت ما وراء النهر من بلاد الصفد وبكتريا ، وخوارزم وخراسان (بحر آرال) والمجازات المفضية الى التركستان الصيني . ووصف هذه الدولة « بالقومية او الوطنية ، فيه تجاوز لا يسوغه مسوِّغ : فسكان ما بين النهرين والارمن ليسوا بايرانيين اكثر منهم بينظيين . ومع ذلك ، فما من شك ان هذه الدولة عرفت ان تحقق ، بالنسبة للدول التي تعاقبت على الحكم من قبل ، تمازجا اكبر ، وتلاحما اشد واغوى ، عند الاكثرية الايرانية او اقله عند الطبقة الارستقراطية فيها .

قامت هذه الدولة على توازن متأرجح بين المقومات الثلاثة التي تألفت منها : طبقة الاشراف وهي طبقة قديمة قوية في البلاد ، إقطاعية حاكمة ، وطبقة رجال الدين ، وهي طبقة غنية متدرجة المراتب ، مسلسلتها ، تنعم بعطف الدولة وسندها ، وادارة مركزية بحكمة السبك والحبك ، وفوق الجميع نظام ملكي مهيب يفرض الاحترام . وفي اسفل السلم الاجتماعي طبقة الشعب تعنى بالفلاحة وحرث الارض ينتظمها طبقة وسطى من صفار الملاكين . وتكتظ حواضر البلاد الكبرى ولا سيما عاصمتها طيسفون الواقعة على نهر دجلة ، بطبقة من الصناع المهرة النشيطين . وهذه الطبقات لها ما للطبقات في الهند من تماسك ان لم نقل من تجرر وتمدد ، تتحسس الى حد بعيد ، بالروابط العائلية المتوارثة التي حاولت الدولة في روما ، النهج عليها والنسج على منوالها . وقد تمكنت الدولة ، بعد ان اعترضت محاولتها صعوبات عديدة ، من بينها الاخطار التي تهدد ، كما لدى بينظية ، حدودها الشمالية لاستهدافها لغزوات البرابرة الطارئة ، من ابقاء سيطرتها على الطبقة الارستقراطية العليا التي كانت تصطرع مع طبقة الفلاحين . ولعل محاولة الاصلاح المالي والضرائبي التي قام بها الملك قواد وانوشروان (سنة ٥٠٠) كانت ترمي من جهة الى تأمين المزيد من الفعالية ، كما رمت من جهة اخرى ، الى تأمين المزيد من العدالة ، في توزيع ضريبة الخراج . وليس من المستبعد ولا من الخطل بشيء ان نفترض بان السياسة الحربية العدائية التي انتهجتها الدولة الساسانية كانت تحفي وراءها رغبة شديدة في كبح جماح كبار النبلاء وما عرف عنهم من جشع وقلة انقياد .

وعلى هذا الجيش الذي يؤلف النبلاء اطره وملاكه الاساسية ، تهيمن روح الدولة الاخمينية التي عرّفت بشهوتها الجارحة للفتح والتوسع . ويردف الجيش وحدات من المرتزقة ، سوادهم من الارمن . اما فرقة المشاة التي كان افرادها من بين طبقة الشعب ، فقد فقدت الشأن الذي كان لها في الماضي كما خسرت بالتالي ، الكثير من نفوذها الاجتماعي .

والمسك الساساني الذي يلقب بملك الملوك ، كان يتولى بالفعل قيادة الحرب كما كان رأس الحكومة والادارة ، وله شخصية تحف بها المهابة والعظمة والقدسية ، ويعيش في جو من البذخ والغنى والاسراف لا يمكن ان يتصوره عقل ، يعود اليه الملك بحق الوراثة ، بعكس الامر في بينظية . وهذه الابهة والعدالة ، وحسن التدبير والادارة الرشيدة ، والاقدام في الحرب ، والثقافة الواسعة ، هي كلها من بعض قسماص الصورة التي رسمها لنا المؤرخون عن بهرام غور



الشكل (رقم - ٢) الدولتان البيزنطية والساسانية في القرن السادس

١ - التوسع الجغرافي ٢ - الطرق التجارية ٣ - الحدود الفاصلة ٤ - الدولة البيزنطية ٥ - الدولة الساسانية

وكسرى انوشروان . وعاشت في اذهان الاجيال اللاحقة ، بعد ان ضفرت حولها التقاليد ما ضفرت من وشي الخيال المنح ، بعد زوال الدولة الساسانية بكثير ، وهي قسما لونها لنا بالوان أخاذا زاهية ، الفردوسي في ملحنته الخالدة «الشاهنامة» او كتاب الملوك ، التي وضمها في حدود سنة الف . وفي عهد فراهمدار الكبير ، الصورة المثالية لمنصب الوزارة في الاسلام ، نعمت الادارة الملكية بكثير من الشهرة . فالادارة قبهى بما لها من قوانين ادارية دقيقة كما تفخر بما لها من خبرة عملية في تدبير شؤون الدولة ، وهي تؤلف من ذاتها طبقة خاصة ، عرفت في عهد الدولة العباسية ان تستعيد سبق وكان لها من نفوذ واسع .

وخلافاً للدولة الفرية ، اصبحت الديانة المزدكية أو الزرادشتية ، دين الدولة الرسمي ، تشدها الى النظام الملكي اوثق الروابط . وهي ديانة تتدرج فيها الرتب وتتسلسل المراتب ، يأتي في المرتبة الأولى منها الموبدان أو الجوس الاكبر ، تطالعك هياكل النار ايننا وقع مأتى العين . وتم في القرنين الخامس والسادس استنباط يمجدية جديدة ساعدت على وضع الأفستا وما اليه من أدب ضخم ، يعدل آداب الديانات الاخرى التي عرفت الكتابة . ومع ذلك ، جرت ، من وقت لآخر ، اضطهادات شبيهة بما كان يجري منها في الامبراطورية «الرومانية» اخذت بها الدولة من ليسوا على دين ملوكهم ، وبذلك شهادة ضمنية على ان هذه الديانة ليست قوة لا اعتراض عليها او مسلماً بها من الجميع . والسبب في ذلك ، انما يعود أصلاً : لعلاقتها بالنظام القائم ، وبالطبقة الارستوقراطية . وباعتبار هذه الديانة دين الدولة الرسمي ، لم تحاول يوماً ان تتجه في دعوتها من غير الايرانيين ، وان تعاليمها بالرغم مما تحمله من عوامل «العلم» والحق التي تقول بها بقيت ، بالنسبة للديانات المسكونية الاخرى التي تسمى للانتشار وجمع المريدين والانصار ، غامضة ، مبهمه ، تعاني من الجفاف والقحط ، وتبقى اعجز من ان تحور جواباً عن القضايا والاسئلة التي يوجهها اليها ابن العصر . ولذا أطل على ايران في القرن الثالث ، ديانة جديدة ، كتب لها ، بالرغم مما تعرضت له من عنف واضطهاد ، ان تعرف بعض الشهرة ، هي الديانة المانوية ، التي عرفت رواجاً اكبر بين الطبقات الشعبية ، وعثت نفسها بقضية اخلاص ، وتقدمت من اذهان الناس بكونها تأليفاً للديانات الاخرى ، محلم بالذوب والانتشار وكسب الانصار . وفي القرن الخامس نرى المانويين ، اتباع الديانة الجديدة ، منتشرين ليس في الامبراطورية الساسانية فحسب ، بل أيضاً في شمالي افريقيا ، ومصر ، وروما والقسطنطينية حيث لم يستطيعوا البقاء طويلاً اذ ان هرطقة الالبيجين ستظهر بعد ذلك بزمن طويل ، ولا سيما في اواسط آسيا ، حيث اعترفت بالديانة الجديدة رسمياً احدى ممالك الاتراك ، في القرن الثامن ، وبقيت تقريباً شبه ديانة رسمية في تلك البلاد ، الى ما بعد الفتوحات الاسلامية ، في القرن الثالث عشر .

وفي الولايات الشمالية والشمالية الغربية من الامبراطورية الساسانية المفتوحة للثقافة الهندية ، بعض أتابع البوذية . كذلك نشاهد لدى الشعوب غير الايرانية التي تقطن الولايات الغربية ، النصرانية تنعم بحرية كاملة . فمقاطعة طور عابدين الواقعة الى الشمال الغربي من مدينة الموصل

تفصّل بأديار السريان، كما نرى طوائف من النسطوريين تلتجئ إلى الدولة الساسانية، أمر القطيعة الثامة بينها وبين الحكومة البيزنطية، وتعمل على تنظيم نفسها ككنيسة مستقلة تحت رعاية الدولة، وتتشبه لها مقراً بطريكيًا في طيسفون، ومدارس عرفت بنشاطها وازدهار الآداب فيها، كما مرّ معنا ذلك. وتقوم الكنيسة النسطورية بدعاية واسعة لكسب الانصار والمريدين. إلا ان المراقيل التي ثارت في وجهها في المناطق التي سواد سكانها على الزردشتية، وفي الاقاليم التابعة لبيزنطية، جعلتها تتجه بأنظارها نحو آسيا الوسطى، ضمن الدولة الساسانية وخارج حدودها. وسيلعب المرسلون النسطوريون دوراً بارزاً بين الاثراك، وفي ما وراءهم الكهم، طيلة الاجيال الوسطى. وكان لليهود جوال في الدولة الساسانية، كما رأينا ذلك في حديثنا عن «التفود البابلي».

وعند نهاية القرن الخامس، ظهرت في ايران، دعوة إلى ديانة جديدة، هي المزدكية، كانت في حقيقتها، أكثر من كل دعوة دينية سابقة، استنكاراً صارخاً للوضع الاجتماعي في البلاد. وقد امتازت الديانة الجديدة عن المانوية التي اشتقت منها وصدرت عنها، بالدعوة إلى شيء من الاشتراكية في مقاسمة خيرات هذه الارض ونعماتها بالسوية، وهي دعوة طالما تردد صداها في الاجيال الوسطى. وينسب خصوم هذه المقالة، إلى اتباعها، الشطط والمروق، ويتهمونهم بالمطالبة باشتراكية المرأة، ليس لعمري انسياقاً منهم مع شهوة الجسد بعد الذي عرفوا به من مفالاتهم باحترام الظواهر، بل احتجاجاً منهم على عادة التسري المتبعة على نطاق واسع بين عظماء البلاد الذين كانوا يحشدون في حرمهم، من النساء ما يشاؤون، وتحطيماً منهم للفوارق الاجتماعية. وقد أخذ الملك قواد مدة، بتعاليم مزدك، إذ رأى فيه عوناً له على الارستوقراطية، إلا انه عاد وتخلى عنه وأسلمه للعذاب والتنكيل به. وسنتبين اثر المزدكية في بعض الحركات الدينية والاجتماعية التي ظهرت، فيما بعد، في العهد الاسلامي.

فالادب الديني ايمد من ان يمثل وحده حضارة الايرانيين. ففي بلد
الادب والفنون في عهد
هي نقطة التقاء الحضارات وتقاطع الطرقات التجارية - وهو امر
الدولة الساسانية
لا يلتفافي مع الخلق الاصيل والابداع - تلتقي معاً: التقاليد القومية،
والمؤثرات الهندية، والتفاعلات اليونانية والسريانية، حتى و «الطورانية» وتترك اثرها ظاهراً
في آداب البلاد وفنونها، على نسبة ما يسمح بتقديره وتقويمه، ما تبقى من حطام هذه المدنية
التي وصلت الينا بالرغم مما انتابها من تقلبات الدهر ودوله وصروفه. فالتاريخ الرسمي،
والحكايات على لسان الحيوان التي وصلت الينا شعراً أو نثراً، وبعضها من الهند، والقصص
الملحمي أو العاطفي، كل ذلك فيه ما يرضي الطبقة الارستوقراطية، والطبقة الوسطى، وفئة
الموظفين. فمن طريق ترجمة هذه الآثار إلى العربية أو إلى الفارسية، لغة البلاد في عهد الفتح
الاسلامي، وإلى الارمنية، واليونانية والكرجيسية والسريانية، وفي الاقتباس منها والتعليق
عليها، وصلنا صدر طيب من تاريخ الدولة الساسانية الذي علق به شيء من الاسطورة، كما
وصلتنا آثار هي على كل شفة ولسان، كقصص برلعمام ويوشافاط التي فيها استعادة حياة بوذا،

وكتاب كلية ودمنة ، وهو من كتب الحكايات على لسان الحيوان مشهور ، كلاهما منقول عن الادب الهندي ، على يد احد علماء الفساطرة المدعو برزويه . وطالما تعنى الشغراء بحب خسرو الثاني وشيرين . ويروي لنا الرواة نكات تبين الدور الذي لعبه اثنان من رجال الطرب هما سرلاك وبرباد فكانا مصدر وحي للموسيقين « العرب » فيما بعد . وقد جاء اكتشاف لعبة الشطرنج وسيلة تسلية وجرفيه نقلها الصليبيون معهم الى الغرب ، بعد ذلك بنحو ٥٥٠ سنة ، وشاع استعمالها في الديار المسيحية . وقد برز الى جانب فضل اليونان على تقدم العلوم ، ما للهند من تأثير في هذا المجال ، ولا سيما على الطب ، وعلم الفلك والرياضيات . ولم يكن اثر الهند على الفنون الجميلة باقل من ذلك ، في الولايات الشرقية .

وقد ظهر في غربي ايران فن جديد ، ساساني الطابع والنشأة ، عرف ان يمازج بين المؤثرات الفنية من العصر الهليني والفارسي وبين تقاليد قديمة تعود لمهد الدولة الاخمينية . وفي جملة ما وصل الينا من معالم هذا الفن ، باستثناء ابراج النار ، القصور الواسعة الابهاء المعقودة (إيران) ، والنقوش المحفورة حتى في قلب الصخر الاصم والتي تميد الى الازهان ، المآتي الجميدة التي سجلها احد الملوك فيما مضى ، والفيسفساء ، والالواح الموشاة بالميناء ، وغير ذلك من مصنوعات البلور الصخري ، وانسجة الديباج المزركش حيث يرسم الفنان ، على هواه ، صور النقوش المحفورة او الصور التي تكون صاغتها غيلة شاعر جموح . وقد اثر هذا الفن بعيداً في جميع اقطار الشرق الادنى ، ودخلت بعض عناصره هندسة بعض الكنائس دون ان يفقه الناس لها معنى ، حتى ان بعض هذه المصنوعات الفنية بلغت اوروبا الغربية على يد فنانيين قدموا من الشرق .

واسس ملوك الدولة الساسانية في آسيا الوسطى وفي الغرب من ايران وبلاد ما بين النهرين ، مدناً عديدة عرفت ازدهار بفضل الحركة التجارية الناشطة التي تحولت بعض مسالكها للقادمة من الهند ، عن مصر ، واتجهت الى موانئ البحر المتوسط الشرقية - ناهيك عن القوافل البرية التي كانت تؤمن الاتجار مع الصين . أما كون النقد المستعمل في هذه المملكة هو الفضة وليس الذهب ، فمردد الى افتقار الامبراطورية الساسانية لهذا المعدن ، ولا تأثير له البتة على توازن الميزان التجاري ، اذ ذلك . وكان لحركة التجارة بين الصين وموانئ البحر الابيض المتوسط من الشأن ما اثار خصومات عنيفة بين بيزنطية وايران ، فتحاول الاولى الافلات من الطوق الذي نصبته الثانية لتجارتها ، كما تحاول التخفيف من حدة الاحتكار لطرق التجارة فتتحكم بدورها بمرافئ البحر الابيض المتوسط للقضاء على هذه المحاولات .

كان أمام بيزنطية وسيلتارت لا غير ، لتفادي الطوق الذي ضربته بيزنطية وآسيا
الامبراطورية الساسانية حول تجارة الامبراطورية الرومانية ، اولها ايجاد طرق مواصلات جديدة لتجارتها الدولية مع اواسط آسيا . فاتجهت انظارها شطر البحر الاحمر ، اذ اخذت تشتهر وتُدْرَف عنده دولة جديدة اعتنقت المسيحية منذ عهد قريب عند الطرف الجنوبي لجودود مصر ، عرفت باسم ملكة اكسوم ، هي الحبشة اليوم . فبعد ان فتحت اليمن

واخضعت لسيطرتها البيزنيين الذين كان لهم فضل يذكر في تأسيس هذه المملكة ، راحت تكسر من حدة احتكار البحارة والتجار العرب للحركة التجارية في هذه المنطقة ولا سيما مع الهند ، كما ان الامبراطور يوستينيانوس اخذ يجرّهم على مزاحمة الايرانيين في هذا المجال . فلم تأت المحاولة أكلها المرجحى في هذا الباب ، الا انها تركت اثراً طيباً وخدمة علمية جلى ، اذ انها اتاحت لبحار هندي يدعى *Cosmas Indocopleustes* ان يضع جغرافية حشاشا بالمعلومات والفوائد العلمية جمعها من مصادرها الوثيقة . وقد رأى البيزنطيون في الدولة التركية التي قامت في آسيا الوسطى ، حوالي منتصف القرن السادس ، فرصة سانحة افادوا منها واستخدموها بنجاح لكسر حدة الطوق المضروب على تجارتهم . فبالاضافة الى موثيق الصداقة والتحالف التي عقدها بيسر ، بين بيزنطية والاتراك ، حاولوا في عهد الامبراطور يوستينيس الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨) ان يفتحوا طريقاً جديداً امام التجارة الدولية مع آسيا قمر عبر القوقاس ، متفادية بذلك المرور بالبلاد الايرانية . لا نعلم بصورة قاطعة ما الذي ادت اليه هذه المحاولة . ومما لا شك فيه البتة ، ان حركة من المقايضات التجارية انطلقت من الصين نحو الشرق ، مرت بمقاطعات روسيا الجنوبية والبحر الاسود ، على اثر سقوط المقاطعات الواقعة بين نهر الفولغا والبحر الاسود ، بيد الخزر الذين اسسوا دولة تركية الاصل ، في هذه المنطقة ، في القرن التالي .

ولكي تتحرر من ايران وتحفف من شدة قبضتها على التجارة ، راحت بيزنطية تحاول أقلّمة بعض السلع والمحصل الغالية الثمن التي تستوردها من الخارج ، وذلك عن طريق توطين زراعتها في بعض الاقاليم الصالحة ضمن الامبراطورية . واستطاع رهبان من الذساطرة ، في اواخر عهد يوستينيانوس ان يطلعوا ، ليس على اسرار صناعة الحرير فحسب ، بل ايضاً ان يجلبوا معهم الى القسطنطينية ، كمية من الفياليج مع ما يلزم من المعلومات والفوائد والخبرة اللازمة لتربية دودة الحرير . ولم تلبث تربية الحرير ان دخلت سوريا واليونان وكيليكيا . صحيح ان الحرير البيزنطي لم يُغنِ قط عن استيراده عن طريق الصين وايران ، لا من حيث الكمية ولا من حيث النوع او الجودة ، فقد رأى فيه الايرانيون ، مع ذلك منافساً خطراً حسبوا له الف حساب .

وهذه المنافسة الشديدة بين بيزنطية وطيستون ، تلبست وجهاً جديداً ودخلت مجالاً جديداً هو مجال الدين . فبالرغم مما عرّف وشاع عن تجرد المبشرين وكرازتهم للدين الجديد ، فاعتناق المسيحية ، انما كان يعني ، في نظر الساسانيين ، تقدماً محسوساً لصالح بيزنطية وربحاً لها في بلاد « بربرية » والسير على نظام سياسي واجتماعي وفقاً للنهج البيزنطي ، الا اذا كان النظام الكنسي الجديد والبيعة التي ادى اليها ، كنيسة لا تمثل لنواهي الفاسادفس واوامره . ولذا اخذ الساسانيون ينظرون شزراً ، لانتشار المسيحية بين قبائل الهونز ، في جنوبي روسيا او في الجزيرة العربية ، ما لم تكن على النسطورية ، كما هي الحال مع حلفاء اللخمين في الحيرة ، ولم يكن من الممكن محاربة المسيحية عن طريق المزدية او الاتحاد منها يداً ، في هذا المجال . فالوضع الحربي او العسكري بين الدولتين ازداد حرجاً وحدة لاشتراكها بحدود واحدة .

والمناقسة التجارية التي استخدمت بينها ، والدساتير التي حاكها من كلا الجانبين : الأرمن والسريان ، والمزاج الحربي الذي عُرفت به الأرستقراطية الإيرانية ، والموقف الذي وقفته منها الحكومة الساسانية ، كل ذلك وما إليه ، يفسر لنا ، حالة الحرب المزمعة التي قامت باستمرار بين بيزنطية وطيستون أو بين « الرومان » والإيرانيين ، منذ القرن الثالث . فالضغط الذي استهدفت له إيران من قبل « البرابرة » في القرن الخامس ، أودى ، ان لم يكن الى زوال هذه العداوة الزرقاء التي اقامتها بعضاً على بعض ، فالى التخفيف ، أقله ، من حدة هذا العداء وكسر شوكته ، لخير بيزنطية . غير ان شعور إيران بالأخطار التي تتهددها ، وازدياد كلا الدولتين ، مقدرة أكبر على الحرب ، كان من شأنه ان يزيد الوضع اضطراباً ، والحرب اندلاعاً بصورة اقوى واعنف . وقد بلغ الوضع الذروة ، في مطلع القرن السابع ، اذ استحال الشرق الأدنى شعله واحدة ، وكأنه بركان نار اندلعت حمه على آسيا الصغرى وسوريا بما فيها فلسطين . وقد شده العالم المسيحي لهول الصدمة ، اذ سقطت هذه البلدان فريسة في يد الفرس ، واصبحت مصر نفسها في خطر ماحق ، حتى انهم أُجلبوا الاحباش عن اليمن وحلبوا فيها عليهم . وفي عام ٦٢٦ اشتركت جيوش الساسانيين والآفار بحصار القسطنطينية والكل يتحسس قلبه في مكانه من احتمال سقوطها بأيدي الفرس وحلفائهم . وقد قام الامبراطور هرقل بهجوم معاكس اضطر معه العدو الى التقهقر والنكوص على اعقابهم والتراجع الى ما وراء حدوده التي اصبحت هدفاً لهجوم الروم . غير ان هذا الجهد الحربي الكبير انكسرت قوى الجانبين لكثرة ما استنزف من دمائه الغريقيين . وراح آخر ملوك الساسانيين يحاولون عبثاً الخلاص من الورطة التي سقطوا فيها والازمة التي استهدفوا لها . اما في بيزنطية فقد كان يُعوز الحكومة لحل الشعوب المستقلة على الاخذ بوجهة نظرها ، كثير من الذوق والمقدرة في اجتذاب الناس ، اذ ان الكنيسة اليونانية على الاخص ، كانت اكثر تصلباً واشد تعصباً من اي وقت مضى . وعلى بال من الناس خطر يوماً او تصور احد انه سيخرج من الجزيرة العربية خصم جديد سيرمي بكل ثقله على الدولتين المتخاصمتين وهما اعجز من التصدي له او الوقوف بوجهه؟ وقبل ان تنزل بكلا الطرفين مثل هذه الكارثة الدهماء ، كانت حروب الفرس سبباً لذهاب الشطر الآخر من الامبراطورية البيزنطية الا وهو شبه جزيرة البلقان ، فريسة بين البرابرة يتصرفون به على هواهم ، بعد ان عاثوا به طويلاً واستنزفوا خيراتهم .

يجب ان نطرح جانباً الوم القائل ، بان التساريخ ، ولا سيما تاريخ
برابرة افريقيا واسبانيا
الحضارة ، يجب ان يقف عند حدود الدول التي تعرف النظام وتمسك
باسبابه . فالتفوق غير المتنازع الذي تم لهذه الدول ، لا يعني البتة انه عم جميع الميادين ، وانه تم للجميع
على السواء وبنسبة واحدة ، وان الانحطاط الذي أبطل به البعض او ان الرقي الذي حققه البعض
الآخر ، قد ازال الفوارق وذهب بالمسافات ، كما انه ليس من الممكن ان نتصور الواحد
دون الآخر من هذين العالمين : عالم « الروم » وعالم إيران ، او عالم « البرابرة » . فكم بالاحرى

ان يكون الوضع على مثل ما وصفنا عندما تداعت الحدود العسكرية للخراب وانهارت .
فالفقر شبه المدقع الذي نعانيه لجهة المصادر والمراجع ، لا يسمح لنا بان نذكر شيئاً عن هذه
الاقطار الافريقية الواقعة ما وراء الصحراء الكبرى او على حدود السودان . واقل ما يمكن
ان نؤكد هو ان المجتمعات الزنجية التي كانت تـؤـر في هذه الساسب ، لم يربطها بشعوب البحر
المتوسط ، روابط وثيقة بحيث تتفاعل بعضها ببعض وتتفاعل . فالجمل ، مركبة الصحراء ، كان
يتيح للبرابرة الرحل ، التفلفل مع ما اليهم من السلع ، داخل الصحراء ليلفوا مشارف النيجر . وتمتـع
الأحباش في مواطنهم الجبلية بمدنية اتصلوا معها بيسر ، مع مصر واليمن ، كما التـف من قام منهم على
سواحل البحر الاحمر ، مملكة تعرف بمملكة اكسوم ، اتينا على ذكرها من قبل . اما ما تبقى من
اقطار افريقيا الاخرى ، فلن يدخل التاريخ العام الا بعد مجيء فاسكو ده غاما .

ومقابل ذلك ، فقد دخل في القسم الشرقي من جغرافية اوروبا الحديثة قبائل وشعوب
جديدة ، او بالاحرى ، شعوب بقيت حتى هذا العهد بمزول عن الدول « المتمدية » . وسنروي
فيما بعد بالتفصيل والتبسيط اللازمين ، قصة الشعوب التي وطئت اوروبا الشرقية او اوروبا
الوسطى منذ القرن الرابع ، واستقرت بها ، بينهم شعوب من الاتراك والمغول والفنلنديين ، الذين
يؤلف تاريخهم شطراً من تاريخ اوروبا ، والهونز الذين لم يبق منهم شيء يذكر في اوروبا الوسطى بعد
ان توارى عنهم أتتيلاً ، ومنهم ينحدر مع عروق اخرى ، البلغار (دولة الكوبرى) ، في مطلع القرن
السابع (الذين انقسموا فيما بعد على انفسهم الى شطرين ، اقام احدهما على نهر الفولغا الاوسط
بينما استوطن الشطر الآخر ، مقاطعات الدانوب الاسفل ، ومن بينهم شعوب الآفار القادمين من
البلدان الواقعة حول الدانوب (القرن السادس والسابع) الذين لم يبق من عرقهم شيء يذكر ؛
والهنغارويون الذين استقروا بعد طول المطاف ، في القرن العاشر في هذه المقاطعة التي لا تزال
تحمل اسمهم لليوم ؛ والاتراك بمصر المعنى ، الذين تركوا ، ما وراء آسيا الوسطى ، بين الفولغا
والقرم ، بعد ان اختلطوا مع غيرهم من هذه الاقوام ، مملكة الخزر التي قامت ، بين القرنين
السابع والعاشر ، وذلك قبل ان ييمثوا ، ابتداءً من القرن العاشر بصحبة *Petchinègues*
والاوغوز ، قبائل واقواماً أقل منهم تطوراً ؛ واخيراً المغول ، ابتداءً من القرن الثالث عشر .
والشيء المشترك بين هذه الممالك ويميزها عن سواها ، سواء أبلغت في تطورها درجة عالية أم لا ، هو
سيطرة طبقة ارسوقراطية محاربة ، رحالة ، وتحكمها يجانب من سكان البلاد الاصليين ، يرسف
معظمهم في الرق والعبودية ، ييرونهم وراهم كيفما تجهوا ويستقرون حيث انتهى بهم المطاف ،
بعد زوال قائدهم ، بحيث ان الرواة والمؤرخين لا يذكرون شيئاً عن مقاماتهم ، بل يكتفون
بذكر مآتي القادة والرؤساء ، ضاربين كشحاً عن بروز الصقالبة وتوسعمهم في الأرض ، فلا يشمر
الكتساب بوجودهم بعد ان يكون استفحل شأنهم ونبه ذكـرهم .

فسيطرة البدو كانت ابدأً مسترخية الحلقات ، خفيفة من الوجة السياسية ، اذ كانوا يؤلفون
أصلاً ، أحلافاً من القبائل تشد بينها أواصر القرى او قراخى ، لا يمارسون على الشعوب التي

أخضعوها ، سوى سيادة خارجية يقنعون منها بدفع الخراج وشد الازريوم الوغى ، فلا تؤثر بشيء على وضعهم الاجتماعي والنظم التي ينهجون عليها ، بقطع النظر ، طبعاً ، عن الاشخاص الذين يفشلون في حركة عصيان او تمرد فيفرضون عليهم ذل العبودية . وأقل ما يمكن ان يكونوا أدوة لهؤلاء الاقوام الخاضعين لسيطرتهم ، ان نمّوا فيهم عادات جديدة كركوب الخيل ، او المحافظة على أسباب التجارة والنقل في اخشن مظاهرها ، وقد توارثها جيلاً بعد جيل ، من التاريخ القديم ، وساعدوم على احلال بعض التشكيلات السياسية محل نظمهم القبلية التي كانت تترأخى أو أصرها مع التنقل والظعن . ومع ذلك ، علينا ألا نغلو في الامر فنقع في النقيض ، كما جرى لبعضهم في تقديم المفهوم السياسي عند الجرمان ، بعد ان خضع فريق منهم ، كالصقالبة مثلاً ، لنير العنصر الأصفر ، فاستتجوا من ذلك عدم عجز الصقالبة السياسي الذين عرفوا ، مع هذا ، ان يتطوروا كجرمان انفسهم ، عندما كانت الظروف تسمح لهم بذلك .

انتشار الصقالبة وتوسعهم
ان توسع الصقالبة في شرقي اوربا وانسياحهم في أقطارها ، لا يقل أهمية في التاريخ عن انتشار الجرمان في غربي اوربا . ولذا ترتب علينا ان نتعرض لهذه القضية بأسباب في دراستنا هذه ، اسوة بالجرمان . والواقع انه قلما يأتي الامر على هذا النحو ، حتى لدى المؤلفات التي تسهب في وصف الغزوات التي أدت الى تبديل الوضع في اوربا ، بينما تقتصر هذه المؤلفات نفسها على التعرض بايجاز ، للصقالبة وتحركاتهم ، ان لم تضرب صفحاً عن ذكرهم بالكلية . يمكن ان نرد ذلك لفقر مصادرنا وندرتها . ومع ذلك ، لا بد من ايراد ما هو معروف ثابت في هذا المجال ، ليس في فصل عابر مجزوء ، بل كجزء أساسي ، اصيل من تاريخ اوربا المشترك .

تضاربت آراء المؤرخين حول أرومة الشعوب الصقلبية واصلهم الاول . فهم يرجعون ، من حيث اللغة ، الى العرق الهند - الاوربي ، ابناء عمومة الليتوانيين ، ولو تميزوا عنهم واختلفوا . ففي بسده النصرانية ، نراهم يسكنون البقاع الواقعة الى الشرق من نهر الفستول ، كما نراهم ، في العصور المتأخرة للامبراطورية الرومانية ، قد يعموا بتأثير من موجات الغوط ، بعضهم شطر جبال الكربات ، والبعض الآخر الذين عرفوا باسم *Antes* ، شطر القسم الجنوبي من روسيا اليوم . ان انتقال الجرمان وارتحالهم غرباً اوجد فراغاً شغله الصقالبة بعد ان قاموا بحركة التفاف ، وراء الكربات فاحتلوا بقاع الدانوب الاسفل ونهر إلاب . كذلك حمل سيل غزوات الهونز والبلغار والآفار ، قسماً منهم . وكان من جراء فناء قبائل *Gépides* وارتحال المبارديين ان حدث فراغ آخر في سهول الدانوب ، لم يكن في وسع الآفار ملأه وحدهم ؛ ولذا جاءت قبائل صقلبية عبر الكربات واحتلتها ، وبلغت في تقدمها نهر الساف ، وجبال الألب الشرقية ، كما اطلت على مشارق بافاريا ومقاطعة التورنج ، واشرفت على سواحل البحر البلطقي ، ونهري دنير والدونا حيث كان يسيطر ، الى الجنوب ، قبائل من الاتراك ، والى الشمال ، قبائل الفنز او الفنلنديين غير المتراسة الافراد . وقاموا ، على مثال البلغار والآفار ، باعمال الغزو والسلب

كما قاموا بأعمال السلب والنهب في الأقاليم الواقعة عبر نهري الساف والدانوب بعد ان اجتازوهما، في مطلع القرن السادس . ولا شك ان في البيزنطيين لم يعلقوا كبير امر على هذه الغزوات والتجاوزات التي ادت اليها ، فاهملوا الدفاع عن هذه المقاطعات لما تكلفه غالباً من العزيرين المال والرجال ، وهو ثمن مرتفع لا يعد له بشيء الفيء الذي تجنيه الدولة من هذه المقاطعات ، والفوائد المالية والاقتصادية التي تؤمنها لها، لاسيما وقد حدثت هذه الغارات يشنها البلغار والصقالبة ابان حروب الفتح التي نهضت بها بيزنطية لاستعادة ولاياتها السليب ممثلة بايطاليا واسبانيا وافريقيا، فتمرضت لغزورهم المقاطعات التي تتناوح بين تراقيا ودماتيا . وكان الشعور العالق بالاذمان ان هذه التجاوزات لم تكن طليعة فتح منظم ، وعندما تمت الغلبة ، عام ٦٠٠ على الآفار عم الناس شعور عارم بان حدود الدانوب صامدة ، تقوم على حراستها والدفاع عنها وحدات يمكن الوثوق بولايتها . غير ان حركة العصيان التي قام بها الجيش « الروماني » المزعوم ، بعد ان عيل صبره وثار تأثره من حروب مريرة لم تعد عليه باي نفع او كسب ، والهجوم العنيف الذي شنه الساسانيون ، كل هذا ادّى الى تحطيم الدفاع عن الحدود ، ودك معاقلها وحصونها . وقد سبب عبور « البرابرة » الموصل لهذه الانهر واستباحتهم للأقاليم الواقعة وراءه جلاء قسم كبير من سكان الريف راحوا يبحثون عن ملجأ أمين يلوذون به ، يقوم في هذه المواقع الدفاعية الحصينة ، كما ادى ، من جهة ثانية ، للبقاء على بعض مدن حصينة تحيط بها الحاميات العسكرية . كل هذا لم يكن فيه كفاء ولا بديل لما تقتضيه الحرب من ثمن ولا لما تجره من ويلات . وكم من مرة بقيت الارض شاغرة تنتظر من يشغلها . وقام الصقالبة اذ ذاك ، بحركة عامة حملتهم الى سواحل بحر ايجيه وشواطئ البحر الادرياتيكي ، دونما وحدة في القيادة او خوض معارك كبيرة ، وبدون « حوادث » تذكر . وحوالي عام ٦٤٠ ، جاءت موجة جديدة من الصقالبة ، فيها الكروات والصرب ، انطلقت من جوار نهري الادرير والفتول ، وانضموا الى من تقدمهم من ابناء عمومتهم فاحتلوا مقاطعة الليريكون بعد ان استعان هرقل بهم لدفع الآفار وخدمهم ، مها كلفه هذا العون من تضحيات تمثلت بتخليه عن بعض المقاطعات ، وسمح لهم بالاقامة الى الجنوب الشرقي من نهري الدراف والساف ، وعرفوا هناك باسم السولفين . وفي الفترة الواقعة بين ٦٧٠ - ٧٨٠ ، جاء فريق من البلغار بقيادة أسبروخ ، ابن الملك كوبرات ، واقام بموافقة السلطات البيزنطية ، في المقاطعة الواقعة بين الدانوب الاسفل والبلقان ، محيطين بالصقالبة الذين سبقوا ونزلوا في تلك الكورة ، معترفين لهم بالسيادة والصدارة .

وفي الربع الاخير من القرن السابع ، بعد ان دب الفساد والانحلال بشعوب الآفار ، تمكن أمير يدعى سامو ، من انشاء اول مملكة صقلبية قامت حتى ذاك ، في البقعة الممتدة من جبال الألب النمساوية ، حتى مشارف البحر البلطريقي ، ضمت بين العناصر التي تألفت منها : التشيك والموراف والسولفاك . اما ما تبقى من قبائل السلاف ، في الشمال ، وهم الذين عُرفوا منذ التاريخ القديم باسم *Vendes* ، فهذا كل ما يُعرف عنهم ، مع ما تم لهم من مواقع بين الفرنج والسكسون .

ومع ذلك ، فليس بين صقالبة الشمال وصقالبة الجنوب من مفارقات ملحوظة . فصقالبة الشرق وحدهم يعيشون في شبه عزلة او انفراد .

يفشى ضباب حالك القرنين اللذين استغرقها انتقال البلقان «الرومانية» الى أيدي الامارات الصقلبية الاولى التي عرفها التاريخ . فالآراء تتضارب حول الاتساع الذي بلغته الموجة السلافية او الصقلبية : ففي الوقت الذي يميل فيه المؤرخون اليونان الى التقليل من شأنه ، يبالغ المؤرخون الصقلييون في أهمية الدم الصقلي الذي انصب في جسم بلاد اليونان القديمة ، مسبباً لها الانحطاط ، في نظر البعض او باعثاً فيها دفقاً من النشاط ، في نظر البعض الآخر . فاذا ما استطاعت اللهجات الصقلبية ان تتغلب على مقاطعة مقدونيا وترسخ فيها ، بقيت اليونانية مع ذلك اللغة المسيطرة على شبه الجزيرة البلقانية . اما مقاطعة إلبيريكون ، «فتصلبت» الى حد بعيد يفوق كثيراً «جرمنة» أية مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية الرومانية ، في الغرب . ليس من يدعي ، والحق يقال ، ان قدامى «الرومان» انقطع دابرهم تماماً او زال كل أثر لهم في هذه المقاطعات ، بالرغم مما استهدفوا له من مذابح وعمليات اجلاء وإفناء فقد بقيت جاليات منهم متمسكة ببعض سواحل دلماتيا ، او مطمئنة الى بقائها في بعض المدن الحصينة . الا ان الغزاة الفاتحين لم يلبثوا ان امتصوا تدريجياً هذه الجاليات المعزولة وسط شعب جديد دخيل ، اضطرت لمصانعته والتقرب اليه عن طريق المصاهرة والزواج . ولا بد من ان نلاحظ ، بعد ذلك بعدة قرون ، ظهور شعبين جديدين : هما الالبانيون والرومانيون اللذين لا يمكن ان يكونوا طلوعوا من لا شيء او هبطوا من السماء . فالشعب الاخير ذو الاسم الغني المدلول ، والذي يعرفه التاريخ قديماً باسم الفلاك او الفلاخ وهو الاسم الذي عرفهم به الصقالبة ، قد يكون ، على الأرجح ، من ذراري هؤلاء الاقوام الذين جرى نقلهم الى هذه المقاطعة بعد ان تم فتحها على يد الرومان ، في عهد الامبراطور تراجانوس ، فَتَلَسَيْكَتَتْ وَتَوَوَمَلَّتْ على مر الزمن ، لتكون في مأمن من دسائس البيزنطيين ومكايدهم . فبعد ان تمثل البلقان من استقر منهم فيه ، عرف الذين أقاموا منهم في الكربات ان يصمدوا ويحسنوا الدفاع عن انفسهم بوجه الطامعين ببلادهم .

يعجز المؤرخ ان يرسم صورة امينة ، دقيقة للمجتمع الصقلي بعد ان تم له ما تم من توسع ويقظة في رقمته وجماله الحيوي . فالقبيلة او الحياة القبلية هي الاطار الذي يتحرك ضمنه . فالهجرة الاجتماعية الصغرى تتألف من مجموعة من الأسر تستثمر مما رقتة معينة من الارض . دون ان يتمتع أفرادها بملكية معينة . فالصقالبة هم ، اصلاً مزارعون من اهل الحضر ، يشبهون الى حد بعيد ، الجرمان ، قبل هجراتهم المعروفة ، أَلِفُوا ، بالنظر لاتساع رقعة السهول التي يقطنون بينها ، استبدال مساكنهم بصورة دورية ، دون ان يركنوا الى نظام زراعي نشيط . انصرفوا مع تمسكهم بالزراعة الى الصيد والقنص وجمع الفراء الثمين ، وجني العسل والشمع يقدمونه لزعمائهم ورؤسائهم ، رسوم طاعة وولاء ، فيتصرف به هؤلاء في متاجرهم او مقابضاتهم او يتخذون منه هدايا وأعطيات . وتوصلوا الى صنع بعض الحاجيات الاولية يستعملونها في

معايشهم . لا نعرف شيئاً عن امورهم الدينية وان كانت معالم الديانة الطبيعية عاشت طويلاً بين تقاليدهم الشعبية . فلم تبلغهم النصرانية بعد ، ولا عرفوا شيئاً من أمرها .

وهذا التلون الاجتماعي الذي اخذ يبدو عليهم ، ظهر في هذه الفترة التي تمت خلالها مجراتهم ، والحملات العسكرية التي قاموا بها . ونشأت تحت ظل بعض الرؤساء والزعماء جماعات او فئات صغيرة . ولكي يؤمن الزعيم أو د جنوده اضطر ان يقتني له أملاكاً وأطياناً عهداً بأمر العناية بها وحرثها الى أرقاء وعبيد وقموا في الأسر . وأدت حركة النقل والاستيراد الى انشاء مخازن ومستودعات لهم على بعض الانهر او على مقربة منها ؛ وهكذا نشأت مثلاً ، في روسيا واوروبا مدن أمثال : كييف ونوفغورود . هذه صورة ذهنية تقريبية ، أكثر مما هي حقيقة لما كانت عليه الوضع الاجتماعي عند هؤلاء الاقوام .

استهل تاريخ الشعوب الصقلية على شكل مختلف تماماً عما بدا عليه تاريخ اوروبا الغربية في هذه الحقبة . فالجرمان الذين كانوا تفاعلوا ، بعض الشيء ، بالحضارة الرومانية قبل ان تصير اليهم تركة روما ، استقروا بعد طول المطاف ، في ممتلكات الدولة الرومانية وعجلوا بانحطاطها وانحلالها ، انما عرفوا ان يحافظوا على خط السير القديم دون احداث اي فراغ او فجوة . وهكذا فالمجتمع الذي قام في الغرب خلال الاجيال الوسطى ، هو الوريث ، من وجوه عدة ، للتركة التي خلفها المجتمع الروماني . اما الصقالبة ، فعلى عكس ذلك تماماً ، فقد بقوا بالفعل ، خارج العالم « المتمدن » . فمن انتهى بهم المطاف للاقامة في المقاطعات التي كانت يوماً ، رومانية ، فقد ألفوا هذه المقاطعات تفقد الكثير من معالم رومانيتها ، فتتبرّرت فنان لديهم ان يجلوا محل الاقوام التي اكتسحوها وان يستأصلوا ، دونما عناء ، المدنية التي وجدوها منذ قدومهم ويقتلعوا منها الاعراف والعادات . فالاجيال الوسطى شهدت اذاً انتقال الصقالبة من الطور القبلي وخروجهم من الوضع الذي كانوا عليه من قبل ، دون وساطة روما . فامام هذه الاحداث التي توالى وقوعها على ايطاليا اضطرت بيزنطية للانكفاء والتراجع ، امام اللباردين في ايطاليا ، والبربر في افريقيا ، والفيزيغوط في اسبانيا . وما هي على قاب قوسين وادنى لتفقد اغنى ولاياتها ، واكثرها عطاء وسخاء في آسيا ومصر ، حيث ستقع امور واحداث على شكل لم يعرف مثله من قبل .

بين البَدو وَ الحَضَر في آسِيا (من القرن الرابع حتى السّابع)

هذه الاجيال المتعاقبة التي شهدت ، في العالم المتوسطي ، لإحلال الحضارة اليونانية اللاتينية ، او انهيارها التام سجلت عند الدول والممالك الكبرى ، في آسيا ، عهداً بارزاً من الازدهار والتجلي والانجازات الكبيرة . وهي حقبة تميزت ، من جهة ثانية بغليان القبائل الرحل الضاربة في فلات هذه القارة وصحاريها ، وبما أحدثته فيها من اضطرابات وتحركات عمت جميع ارجائها .

ففي مطلع هذه الحقبة الجديدة التي انطلقت في القرن الرابع ، نرى المحاور الثلاثة الكبرى للمدنيات الآسيوية الضخمة : ايران والهند والصين ، تتفاوت درجة ونسبة في مندوب التطور الذي اخذت باسبابه . فقد مر معنا كيف ان ايران ، في عهد الدولة الساسانية ، استبطرت وتطلعت الى التوسع ، محاولة ان تحل محل روما ، في ولاياتها الشرقية ، وان تستأثر لنفسها بطرق المواصلات التجارية التي تخترق قلب القارة الآسيوية ، وان تتكافأ نفوذاً ، في اواسط آسيا مع قطبي الجذب الكبيرين : الصين والهند . فقد عرفت الهند في عهد السلالة الملكية غوبتا طوراً من ابرز واشرق عهود تاريخها المديد إشعاعاً حضارياً وفكرياً يُقَيِّض لها ان تحياها ، فالوحدة السياسية التي حققتها في الداخل ، قابلها في الخارج ازدهار امتد إشعاعه ليلبغ اعالي آسيا والصين وكوريا واليابان ، من الشمال ، كما بلغ من الجنوب ، اقاصي مقاطعات الهند الصينية والانسولاند . فقد بلغت البوذية في هذا العهد ، اعلى ذروة عرفت من الازدهار ، وذلك بفضل النفوذ والتقدم الذي حققته على يد فلاسفة اطلعتهم مشهورين بينهم : آزنغاوفاز وبندره اللذين لم تلبث آثارهما الادبية ان دخلت الصين وانتشرت فيها ايما انتشار . وفي الوقت ذاته عرفت البراهمانية بعناً دينياً جديداً اعتُبرت معه دين الدولة الرسمي في الهند ، كما نالت المنزلة ذاتها لدى امارات جنوبي شرقي آسيا . اما الصين ، فبعد الازمة الادبية والاجتماعية التي ادت الى سقوط دولة الهان وجدت نفسها ، في اواخر القرن السادس ، منقسمة على ذاتها ، موزعة أشتاتاً ، ولم تلبث بعد الذي اصابها من ذل وهوان ان ذهب فريسة جحافل الهونز التي أوغلت بعيسداً حتى بلغت

اقاليمها الشمالية ، جارة ورامها قبائل مغولية كثيرة ، التي عُرفت بعدم استقرارها ، وهكذا انشطرت الصين من الوجهة السياسية الى شطرين : في الجنوب الحكومة الامبراطورية الشرعية بينما نشأ في الشمال عدد من الممالك التركية - المغولية ، التي لم تستقر على وضع ولا حال ، شأنها في ذلك ، شأن الدول الجرمانية التي ظهرت للوجود في الغرب اللاتيني ، خلال القرن الخامس ، كما يصورها لنا المؤرخ غروسية ، فراحت تتطاحن فيما بينها وتقتتل محاولة تصفية بعضها البعض الآخر . وفي سنة ٣٩٨ ، تمكن اتراك تيفاتش او توبا من فرض سيطرتهم التامة بتأسيسهم دولة «واي» الهيبية الجانب ، وحماها ووقفوا بوجه كل من تحدته نفسه بهاجمتها . ولم تلبث هذه الدولة ان اعتنقت البوذية واصبح رجالها من اشد الناس استمساكا بتعاليمها والتشدد في الحفاظ عليها ، واخذوا يتطبعمون بطباع الصينيين ويمثلون عاداتهم واخلاقهم ، فانشأوا في شمالي البلاد عدداً كبيراً من المعابد الجميلة .

وكانت فيافي آسيا وساسها مرتعاً لعدد من القبائل التركية - المغولية تضرب في آفاقها المترامية الاطراف ، مع فريق من قبائل البدو الرحل التي اخذت هي الاخرى ، تتحرك باتجاه البلدان المحظية ، حيث يقوم بحرثها والعناية بها اقوام من الحضرة الذين ألفوا الدعة والحياة الناعمة . واخذت هذه القبائل الرحل ، تدق ، على فترات متقاربة ، في موجات متراصة متلاحقة ، حدود الهند وايران . ولم تلبث ان احتلت واستأثرت بكابل والبكتريان وغندهارا وتاريم ، بينما راحت دولتا الغوبتا (الهند) والساسانيين (ايران) تحاولان صدهم ومنعهم من التغلغل في الداخل والعيث فيها فساداً . واستمر الصراع عنيفاً محتدماً تكنت معه قبائل الهونز الهفتالية من خفض شوكة ايران والنيل منها . وقد تعرضت الهند لغاراتهم بعد الضعف الذي آلت اليه اثر انهيار دولة الغوبتا عام ٤٧٠ ، بعد ان انشقت على نفسها ، فعاثوا فيها نهباً وسلباً ، واخذوا بها الذل والهوان . وقد استطاع احد امراءهم المدعو ميهراكولا ان يتوغل مرتين داخل البلاد ، سنة ٥٠٢ و ٥٣٠ حتى بلغ سهول الغانج فاسحها خراباً يباباً وقام فيها بمقتلة ومذابح هائلة . وكان سبق لأتيليا ، قبل ذلك بنحو ثمانين سنة ، ان قام في الغرب ، بثل هذه الفطائح التي تقشعر لها الابدان .

وخلال هذه الانتفاضات الدامية وبالرغم منها احياناً نشهد ازدهار البوذية التي كانت عامل تمارب وتهدة بين هذه الشعوب المتباينة ، كما اتاحت للصين المحافظة على مواسلتها مع الهند والبلدان الاخرى الواقعة الى الجنوب الشرقي من القارة الآسيوية . فلم تعد الهند بالبحر الوحيد في هذه المنطقة . فقد طلع علينا ، في اواسط آسيا ، مراكز غاية في الاهمية ، منها : كوكا وافغانستان وغندهارا . والى هذه المراكز الجديدة الموزعة بين الهندوسيت والغر واليرانيين والطوسخاريين ، اخذ الهجاج البوذيين يمدون من الصين على الاخص ، ومحاولين العثور على النصوص التي كانوا بأشد الحاجة اليها ، بحيث بلغوا الهند الفانجية حتى انهم ادر كوا الانسولاند . ونشطت بين هذه الاقطار حركة من التبادل الثقافي ، استهدفت على الاخص ، البحث عن النصوص البوذية

الى جانب تأمين العلاقات الدبلوماسية وهي علاقات ، كثيراً ما عهد اباطرة الصين الى الرهبان البوذيين الرحالة بتأمينها . وكانت اول وفادة غادرت الصين ، برئاسة فاهيان ، سنة ٣٩٩ ولم تعد اليها الا سنة ٤١٤ ، بعد ان جابت اقاليم تاريم وغوندهارا وسهول نهر الغانج ، واقامت مدة في سيلان و صومطرا . وقد توالى ارسال الوفود بعد ذلك ، فأرسل تشي - مونغ ، من سنة ٤٠٤ الى ٤٢٤ ، وتلاه تاو - بو من ٤٢٤ الى ٤٥٣ ، ثم واي - تسي من سنة ٦٠٥ الى ٦١٦ ، وكانوا يتبعون طرقاً صعبة المسالك ، عسيرة المرتقى ، اذ كان عليهم ان يجتازوا سلسلة جبال بامير ويعرضون انفسهم للمخاطر المتعددة ويقضون بعض الوقت في الاديار التي كانت ترحب بهم وتحسن وفادتهم ويمتعون انظارهم بمشاهد البلاد الطبيعية التي كانت تختلف كثيراً عما ألفوا مشاهدته منها في بلادهم ، وهم ان يصفوا بدقة المؤرخ ، ما رأوا وشاهدوا من معالم ومشاهد ، في وصفها على مثل هذا النحو من الدقة ما فيه متعة المؤرخين المحدثين . وقام بدوره فريق من الرهبان البوذيين ، من اصل هندي او فرثي او كوتشي ، برحلات معاكسة بلغوا معها الصين ، بعضهم وفد اليها من مقاطعة فو - فان القصية (كبوديا) . ونحن مدينون كثيراً لهؤلاء الكهان البوذيين بهذه المعلومات الدقيقة والاصواف الرائعة التي وصلتنا عن اواسط آسيا والهند والبلاد الواقعة جنوبي شرقي آسيا . فمن المشاهد التي وصفوها لنا ترقص امام اعيننا اليوم ، ماجريات ملوك الهوتز في هذه الحقبة ، وانماط معابشهم تحمت المضارب واخبية اللباد التي كانوا يعيشون تحتها ، كما نستطيع معها ان نكون لنا فكرة صحيحة عن هذه الاحتفالات الدينية في الهند ، وغنى الطبيعة فيها ، وعادات السكان واعرافهم من الحمير وتشام .

ولما كانت البوذية الهندية بلغت الذروة من الازدهار في هذه الحقبة ، فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان تصبح الهند قطب جذب لآسيا الشرقية برمتها . ولذا فالمنطق يدعونا لالغاء نظرة متفحصة على الحضارة الهندية في هذه الحقبة التاريخية الواقعة بين القرنين الرابع والسابع .

١ - الهند تبلغ أوجها في عهد دولة الغوبتا

بعد هذه الحقبة التي شهدت ازدهار امبراطورية كوشانا في الشمال ، ومملكة اندراه في الجنوب ، والتي حاولت فيها كل من ايران وروما اثبات وجودهما والممل لترسيخ نفوذهما ، عرفت الهند فترة من الدهر انقسمت فيها على نفسها وخفضت من جانبها فخبت فيها شعلة النشاط وتضاءلت فيها مظاهر الحياة الثقافية والفنية . فمنذ عام ٣٢٠ ، في هذا الوقت الذي قد يكون عاش فيه فيلسوفان هنديان من اشهر الفلاسفة الذين اطلعتهم سماه الهند هما : آرنغا وفازوبندر - مع انه ليس ما يمنع الافتراض انها ظهرا بعد ذلك بنحو قرن - ظهر في اقليم باناليوترا ، امير من قبيلة غوبتا قام ببعض الحروب عادت عليه بفتوحات موفقة . ونقطة البدء انطلقت من مدينة ماغادها القديمة . هذه البقعة المقدسة التي رأت البوذية فيها النور ، وكان لا يزال المشاهد يرى ، علم

اظهار بطشهم وقوتهم وسيادتهم .

وقد تماقب على الحكم بعد شاندر اغوبتا الاول ، المؤسس الحقيقي لهذه الدولة الذي لانمرغ عنه ما يطفىء غلة ، عدد من كبار الملوك ، أشهرهم سامودراغوبتا (٣٣٥-٣٨٥؟) وشاندر اغوبتا الثاني (٣٧٩/٣٨٥ - ٤٠٤/٤١٤؟) وكوماراغوبتا الاول (٤١٤-٤٥٥) واسكندر اغوبتا (٤٥٥ - ٤٦٧ او ٤٧٠) . وفي عهد الاخير منهم بدت على هذه الدولة عوامل الضعف والوهن ، فانفصلت عنها بعض الإيالات التي كانت تابعة لها من قبل ، ولم تلبث ان انهارت هذه الامبراطورية تحت الضربات التي انالت عليها من جانب الهونز الهفتالين ، كما رفضت الدول التوابع لها النير الذي كان يرهقها وتتبرم به . ومع ذلك فقد تابعت هذه الدول المهيضة الجناح ، الحكم وقد برت أمرها حتى القرن السابع ، الى ان انهارت وسقطت ، على أثر ظهور دولة جديدة برهنت على ما تم لها من سحول وطول ، وبأس ويطش .

شخصية الامبراطور
لأول مرة منذ عهد سحيق ، أي من القرن الثالث ق. م. استطاعت الهند ان تعيد وحدتها وان يتولى الحكم فيها ملوك وطنيون ، والشيء الذي له أهمية خاصة هنا ، هو ان الغوبتا ، شعوراً منهم بهاتين الميزتين ، وتقديراً منهم للمنافع التي تعود منها على البلاد ، راحوا يحاولون ربط اسرتهم الملكية باسرة موريا ، التي تركت اسماً عالياً وشهرة واسعة تناقلتها الاجيال خلفاً عن سلف : فقد حمل عدد من ملوكهم أسماء ملوك دولة موريا ، وراحوا يزعمون انهم يتحدرون من سلالتهم وعرقهم . فالى جانب الشعور بالوطنية والعزة القومية ، اخذوا يتطلعون الى ترسيخ سيطرتهم وتركيز سؤدهم ، وفقاً للتقاليد والاعراف الهندية . فأعادوا الى الوجود وأحيوا عادة الذبيحة الفيديا بأهبي مظاهرها ، بما فيه الحصان ، وهي عادة كان سقط الاخذ بها والسير عليها ، لكلفتها الباهظة . والظاهر ان الغوبتا علقوا على اعادةها أهمية كبرى ، بحيث ان عدداً من ملوكهم تلقب : « بمجدد ذبيحة الحصان » . وكان القيام بهذه الذبيحة يقتضي له عدداً كبيراً من أصحاب الحيوانات الكثيرة التكاليف ، فقد كان الاحتفال بها يستدعي استعدادات طويلة قد تمتد سنة او سنتين . كما ان الاحتفال بها كان يستغرق شهراً كاملاً . وكان الملك الذي تتم في عهده هذه الذبيحة يقوم هو نفسه براسمها فيخلد ذكوره كما تخلد أمجاده مدى الدهر . ومن الدلائل التي تشير الى رغبة الغوبتا بالظهور بمظهر السلطة المطلقة والقوة والبأس ، هذا العدد العديد من تماثيل الاصنام التي أمروا بنصبها وكانت تنصب وفقاً لمراسم عبادة خاصة وتحمل اسم الامبراطور نفسه فتجعل منه بذلك شخصاً الهياً او بالاسرى لها . وليس من المستحيل البتة ان تكون الوقفة او الوضع المسمى : « بالوضع الاوروبي » ، الذي تكثر مشاهدته في الصور والرسوم (*Iconographie*) العائدة لهذا العصر ، اقتبسها ملوك الغوبتا وأخذوها من وقفة الامبراطورية لشاه ايران . لا يتخلو من أهمية البتة ، ان نشير هنا الى ان هذه الوقفة ترتبط الى حد بعيد ، بعرش يحمل من التزاويق الحيوانية ما يشير ، ولو بصورة رمزية ، الى ما للشخص الجالس من صفة عامة الشمول .

فالمملك الذي هو شبيه بالآلهة ، وملك الكل ، هو الامبراطور نفسه ، صانع (الزمن) (Kala) . فهو كالشمس يخضع لنظام دقيق ويضفي على النظام الكوني دقته وانتظامه .

فالمصادر التاريخية تبرزه لنا نموذجاً كاملاً للكشائيريا او الجندي النبيل . ومع ان السلطان يأتيه عادة بالوراثة ، عليه ان يستحق عرشه وصولحانه بما له من مناقب شخصية رفيعة ، اسمها وأرفمها ، على الاطلاق ، ما فيه مسرة شعبه وغبطته ، وذلك عن طريق تأمين العدالة واشاعته العدل على السواء . وهذا بعينه ما يشير اليه اللقب الذي يجمله « راجا » والذي يطلق عليه ، وهو لقب او كنية انما تعني « السار او التبرج » ثم زاده الغوبتا سمواً وتفضيلاً بنعت كلمة : مہراجا وهو وصف لا يطلق إلا على الاباطرة أنفسهم .

ولكي يتمكن الملك من القيام بواجباته على الوجه الاكمل والامثل ، يقتضي ان تتوفر له تربية تامة . فهو يخضع ، في عهد الطفولة ، لما يخضع له أطفال الطبقات الثرية وسراة القوم ، ويُنقص شعره على شكل اكليل ويتم زواجه في السن القانونية . عليه ان يكون متضلماً من النصوص والآيات المقدسة وان يضعها دوماً نصب عينيه عندما يجلس للحكم والقضاء ، وان يحسن الاضطلاع بالمسؤولية الملقاة على أكتافه . ويدرس الفلسفة وما وراء الوجود ، والمنطق ، وعلم السياسة ، وفن الحرب واصول الزراعة والتجارة ، وفرض الشعر والموسيقى . فالهدف الاول للذين يضمه نصب عينيه هو الاكثار من الفتوحات الحربية بحيث تبلغ أطراف مملكته « أقاصي المعمور » . وفي هذا السبيل عليه ان يعرف تماماً ما في مملكته من امكانات وطاقات كامنة ، ويتبين حقيقة وضع الدول التي يرغب في مهاجمتها وضماها الى ممتلكاته ، فيستعين على ذلك بالوسائل الدبلوماسية قبل كل شيء ، حتى اذا ما باءت بالفشل ولم تُؤتِ أكلها ، عمد الى السيف واتخذة عدة الحرب . كل شيء يتوقف على السياسة التي يضع الملك اصولها وينهض بأسبابها ، كما يتوقف بالتالي على الروح المعنوية العالية في الجيش .

وعندما يكون ولياً للعهد ، قبل ان يصبح ملكاً ، عليه ان يخضع لحفلة تكريس خاصة وفقاً للمراسم التي يتم بموجبها تكريس الملك ، انما على قدر اقل ونسبة اخف من الزهو والغنى . ينضحه الكهنة بالزيت وتم المراسم التالية ، وفقاً للتقاليد المرعية الاجراء ، بينما ينصرف الشعراء والزجالون للتغني باجماد الاسرة المالكة ، وتنتهي الحفلة بتقديم التحية لوالديه . واذ ذاك يصبح اهلاً لتحمل اعباء الحكم مع الملك ، اذ اصبح يتمتع الآن بنصف السلطة . واذ ذاك ، يعمد اليه بادارة احدى الولايات ، يعيّن به لفيف من الموظفين وبطانة تدور في فلكه ويمور بها قصره .

وفي الوقت المقدور ، يجري تكريسه ملكاً بكل ابهة وجلال ، وفقاً لمراسم لا تتغير وُضعت منذ المهور الفيدية ، ويجري الاستعداد لحفلة التكريس وتحديد مراحلها وترتيباتها ، في قرار يتخذه الملك الخارج ، في جلسة رسمية لمجلس الوزراء . ويتولى المهندسون بناء جناح خاص يرتفع على اربع ركائز ، ثم يؤتى برئيس البراهمان فينضحه بالماء المأخوذ من انهر الهند المقدسة . ويوزع الملك بهذه المناسبة السعيدة مكارمه وهباته بسخاء ، كما يأمر بالعفو عن المساجين حتى

من كان منهم محكوماً عليه بالاعدام ، ويأمر بإطلاق سراح الحيوانات المعتقة ، ويعيد الحزبية الى المضائق في اقصاها . وبعد هذه المراسم ، يأخذونه الى دارة جديدة اعدت له خصيصاً ، ويجلسونه على اريكة بعد تطهيرها ويلبسونه حلة جديدة ثم ينظر الى المرأة ويمهدون اليه بشارات الحكم ، من بينها مظلة وزوج من المذبات وعرش وصولجان وحذفة ، واكليل من الذهب ، وكرسي قوائمه من الذهب الخالص . ثم يتربع الملك الجديد على اريكة العرش في هو القصر الكبير ، تحت المظلة . وعند الانتهاء من هذه المراسم ، يطوف ممتطياً احد الفيلة ، في احياء المدينة ماراً بشوارعها الكبرى .

فالمصادر الادبية التي تعود لهذا العهد لا تنفك عن وصف الابهة والجلال الذي كانوا يجيطنون به الملك ، وهذه المراكب الزاهية بالحجارة الكريمة والنياب المزركشة ، والزهو الذي كان يتلأأ به القصر الامبراطوري ، ولعان الملابس وبريقها ، ونور الحلي والمجوهرات ، وغير ذلك من مظاهر الفنى والثراء والجمال التي تم عن ذوق رَهِيف مما نرى صورة عنه في هذه الرسوم التي تزين جدران المعابد والهياكل .

واوقات الامبراطور تحدد بانتظام ودقة ، كما في الماضي ، فيمليّن مؤذن خاص مكلف بهذه المهمة ، تماقب الساعات ومرورها اذ ان بين الزمن وشخص الامبراطور ، علاقة مباشرة . يبتدىء النهار بتعيين العسس في اماكنهم ، وفقاً لنوباتهم ، ثم يجلس الملك لکنظر في امور الدولة . وبعد ان يكون الامبراطور اخذ القرارات اللازمة واصدر التعليمات التي يقتضيها تصريف شؤون الدولة سواء في المدينة ام في الريف ، يستحم ويتناول وجبة خفيفة من الطعام وينصرف للدرس والبحث . ثم يأخذ باستلام رسوم الجباية والخراج ، عيناً او نقداً ، وينظر في ترفيع المأمورين والموظفين ويحري عليهم مكافآته . وبعد ذلك يرأس مجلس الوزراء ويستمع الى التقارير الواردة على القصر من العميون والارصاد المبتوثة . ثم يأخذ قسطاً من الراحة اذ ينصرف لهوايته الهببة او ينصرف للتأمل . وبعد ذلك يذهب ليستعرض الفيلة ، وخيوله ومركباته الحربية وجيش المشاة ، وينظر برفقة قائد الجيش الاعلى ، في الخطط العسكرية التي يقتضيها النهوض بالحرب . وعند غياب الشمس يأخذ بتلاوة صلاة الغروب ، ليستقبل بعد ذلك موفديه السريين . ثم يتناول حمماً جديداً ، ووجبة ثانية وينصرف لدرس بمض القضايا العالقة ، ليتجه بعد ذلك الى جناحه الخاص على اصوات الموسيقى ، ويتناول وجبة العشاء . وهو يستيقظ باكراً عند الفجر ، على صوت الابواق الصادحة ، ويستجمع افكاره مستعرضاً في خاطره ام الواجبات المترتبة عليه ، ويطلع على كيفية تنفيذ القرارات التي اتخذت من قبل ، ويصدر اوامره وتعليماته السرية ، الى عماله وجواسيسه ، ويتقبل بركة البراهمان وادعيتهم وتضرعات الكهنة ، ويعرض شؤونه الخاصة على طبيبه ومنجمه الرسمي ، ويمطي الطاهي الارشادات اللازمة ، ويقدم مراسم التكریم لبقرة مقدسة . وهكذا يرى نفسه على اتم استعداد للاضطلاع بالمهام والواجبات التي ستعرض له في يومه .

فاذا كان كل شيء يتوقف على الملك او الامبراطور ، محور الدولة وركنها

الدولة والادارة

الركن ، فهو لا يزال بحاجة الى مؤازرة وزرائه والجمعية التي تمثل الشعب وكبار الموظفين الذين لا يستغنى عنهم في تصريف شؤون الحكم . فالجلس التمثيلي هو هيئة سياسية تعمل بها منذ العهد الفيدي ، وهو عبارة عن مجلس شورى خاص . ومع ذلك ، فهذا المجلس هو احدى القوى الحيوية في الدولة ، ينتخب الملك ويحاكمه اذا ما بدر منه ما يحط من شأن الملك ، ويقدم له النصح والرشد في كل ما يتصل بأمور القضاء وشؤون الادارة . ليس عندنا أية فكرة عن تشكيله وتأليفه ، اذ نرى بين أعضائه امراء من العائلة المالكة ، وقادة حرب ، وكهنة وممثلين عن الحرف والمهن ، حتى وبعض المقدمين من الطبقات الشعبية . اما القضايا السياسية وما اليها فهي من اختصاص مجلس الوزراء الذي يتألف من ٣ وزراء ، على الاقل ، وقد يبلغ عددهم أحياناً ثمانية او عشرة ، وربما وصل أحياناً للثلاثين والقرارات التي تؤخذ بأكثرية الاصوات ، تأتي نتيجة المناقشات السرية وتبادل الرأي بشأنها . فاذا ما أصبحت المناصب الوزارية وراثية ، كان لا بد مع ذلك من موافقة الملك على ممارسة صاحب الحق لها . وقد يحدث بالطبع ، ان يختلف مجلس الوزراء رأياً مع الملك ، او انه يفرض على الملك وجهة نظره . والملك يصدر القرارات بمراسم او « فرمانات ملكية » يعدها الديوان الملكي ، لها قوة القانون وتوجب الإلزام ما بقي الملك حياً ، الا اذا صدر أمر او قانون خاص بالغائها . وتشدد المصادر التاريخية على ما للوزراء من أهمية ، اذ انهم يتولون الحكم في حال تغيب الملك . فالى جانب وزراء دولة ، تذكر هذه المراجع منصب الوزير الاول ، الذي لا يقل صاحبه شأناً وأهمية في الامور المدنية ، عن منصب كاهن الملك الخاص او مستشاره الديني للأمور الروحية . وبين هؤلاء الوزراء وزير الخارجية ، ووزير الشؤون المالية ، والمدلية فالوزير الاول او رئيس الوزراء هو الوسيط بين الوزراء والملك ، او الناطق باسمه والمعبر عن آرائه وسياسه . غير ان القرارات التي تتعلق بسياسة الدولة وتصريفها التصريف الصحيح ، فتؤخذ في مجلس الوزراء . من اختصاص الوزراء النظر مثلاً ، في كل ما يتعلق بهيبة الملك وأهنته وجلاله : كحفلات التتويج ، ومواكب اسفاره ، ومراسم الجنائز الملكية . فعملهم ان يسهروا على النظام وتأمين أسبابه في حال غياب الملك او موته ، فعلى وزير الخارجية ان يؤمن حسن العلاقات الدبلوماسية والثقافية وان يهيء عقد الاحلاف والمعاهدات السياسية ، وان يرفع للملك تقارير مفصلة حول الهدايا المرسلة اليه من الخارج . ويشرف وزير العدل على ايرادات الدولة ودخلها ، ويجلس الى الملك عندما يقدم للقضاء ، ويمد التقارير لكل قضية ينظر فيها ، ويتقبل عرائض الملتسين وشكاويهم ليرفعها بدوره للملك . ومن الادوار المهمة والمسؤولة الكبرى ، الدور الذي يترقب على كاهن الملك ، فهو لا يقل شأناً عن دور الوزير . فالملك يمكن له احتراماً كبيراً ويستشيريه في امور كثيرة ويعول على رأيه السديد .

ويلى الوزراء أهمية ، الحكام الاداريون فحياة الضرائب والرسوم ، الذين يعهد اليهم بتأمين

الادارة في القطاعات التي يشرفون عليها ويضطلمون باعبائها : كالمساحة والمالية والشرطة والعدل ، وادارة مزارع الملك واملاكه الواسعة ، ومراقبة الاسواق التجارية وتقنياتها ، وادارة معامل الدولة ، واستغلال الاحراج واستثمارها ومراقبة الزراعة وتربية الماشية ، والاشراف على الصناعة ، ومراقبة تجارة المخدرات والمشروبات الروحية ، والاشراف على المسالخ والمواصلات النهرية والبحرية ، والنقل البري. وبين هؤلاء الموظفين الكبار من يعنى خصيصاً بالأمور الدينية ، بما فيها النظر في شؤون النساك والمتزهدن .

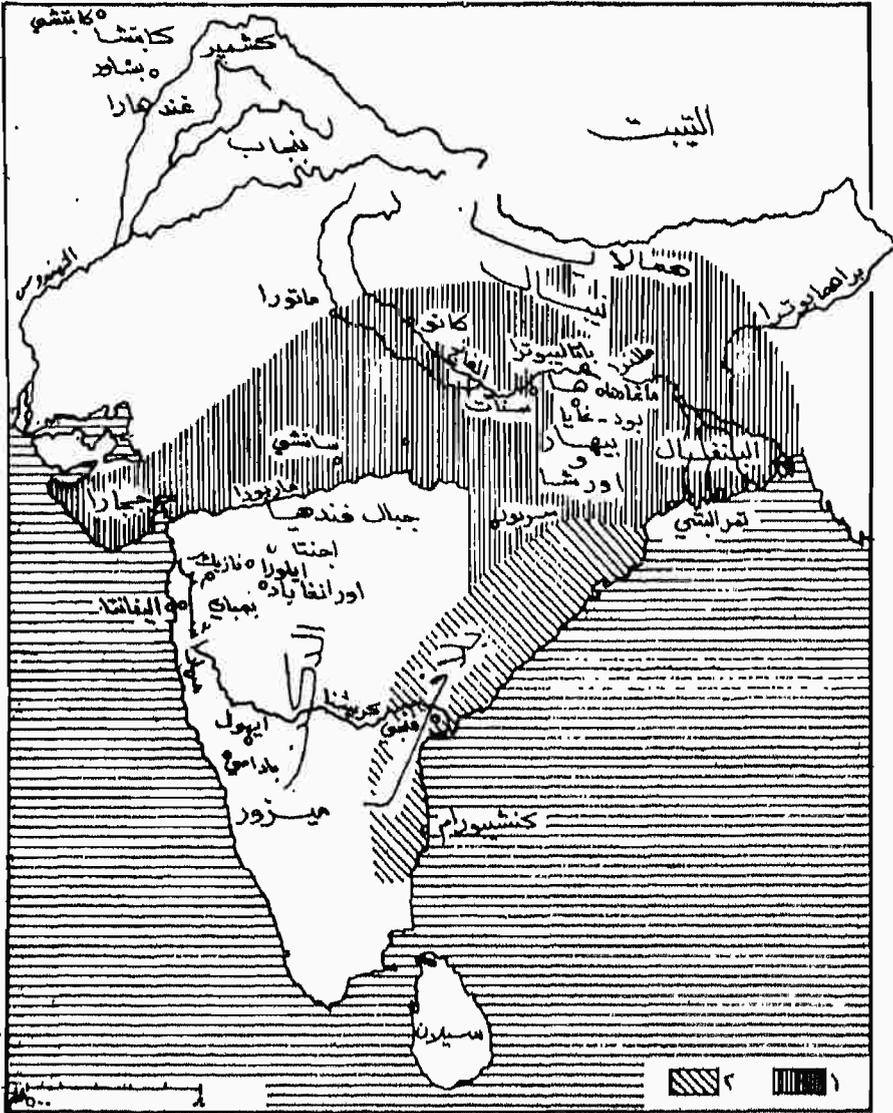
عدد كبير من الموظفين يعمل باستمرار لتأمين حسن سير الادارة في البلاد وامنها : كالسفراء الذين يتمتعون بمبدأ الحصانة ، وحكام الولايات والاقاليم والقادة وكبار الضباط في الجيش ، والقوامون على محفوظات الدولة وغيرهم من الموظفين في هذه السلسلة التي استطالت حلقاتها في عهد دولة الفوبتا ، ولكل منهم القابه الخاصة ومراتبه .

ويأتي في اسفل السلم الاداري مأمورون أقل شأنًا : كالشعراء المتجولين ، وكتبة السر ورجال الادب والكتاب ، وحملة شارات الملك والحرس الخاص بكنوز الملك أو بحريمه ، وسائقو المركبات الحربية او الفيلة، والحراس والخدم والحشم ، والحارسات المدججات بالاسلحة المعروفة باسم *Yavani* .

وتقسم البلاد ، ادارياً الى ولايات واقضية ، يتولى الامر في الولاية حاكم عام يعرف باسم نائب الملك ، له في مركز الولاية بلاطه وحاشيته كالملك في عاصمة الدولة . وتقوم في القرى ، هيئات ادارية تعقد لدى الاقتضاء ، مقابلات مع نائب الملك ، وتتمتع بصلاحيات قضائية وتنفيذية كما تتمتع بحق الاشراف على المؤسسات الدينية . والعاصمة نفسها التي فيها يقوم الملك ووزارؤه ، تخضع ادارياً الى لجنة من اربعة اعضاء يرأسها مقدم يشرف كل عضو على قطاع يضم ربع السكان القاطنين فيها ، كما يقوم الى جانب هذه الهيئة مجلس بلدي من اعضائه ممثلون عن التجار والصارفة والكتبة . اما في الريف ، فالهيئة الادارية المحلية يرأسها موظف قائم بالاعمال . وعلى هذه الوتيرة تسير الادارة الخاصة لدى كبار الاقطاعيين فيشرف على هذه الاملاك مدبر عام ، يتلقى اوامره وتعليماته جيش من الخدم والمأمورين . وكذلك قس الدول التوابع او الدول الدائرة في فلك المملكة فهم ينهجون ، على العموم ، النهج المتبع والمعمول به في الولايات ، مع الاحتفاظ شرعياً بشيء من الاستقلال الاداري .

والجيش الذي هو الركن الركين الذي يقوم عليه استقلال الدولة وقوام هذا الاستقلال ، يؤمن اسباب سلامة البلاد والدفاع عنها . وهو يتألف عادة من فرقة المشاة ، وفرقة الخيالة وفرقة الفيلة . اما فرقة المركبات الحربية ، فقد استغني عنها في عهد دولة الفوبتا ، مع انها من عدة السلاح التقليدية في الهند . وهناك فرقة جديدة ، تعمل بها منذ عهد قريب ، هي الاسطول الحربي الذي يتولى حماية الشواطئ البحرية ويسهر على سلامتها ، كما يحافظ على الملاحة النهرية . ويقوم على الحدود ، حاميات عسكرية بقيادة ضباط مجربين. وهذا الجيش يتألف من فئات عدة

بينها فرقة الحرس الدائم ، يتوارث افرادها الخدمة خلفاً عن سلف ، وم حسنو التدريب ويتناولون رواتب طيبة . وهناك فرقة من المرتزقة ، حاضرة دوماً للخدمة وللتدخل ،



الشكل (رقم - ٤) الهند في عهد دولة المغولينا
١ - امبراطورية الغولينا ٢ - حرب سامودرا غولينا (٣٢٥ - ٣٨٥ ؟)

و « كتائب » تؤخذ وحداتها من بين أصحاب الحرف والمهن ، و « احلاف » يستعان بهم ويرجع اليهم بمحذ كلي وتحسب ، ووحدات يتألف افرادها من جنود نجوا بانفسهم من صفوف العدو هرباً من مظالم تعرضوا لها ، كما توجد وحدات اخرى تضم رهطاً من ليم الهمج وسكان الغابات

والاحراج . وتتألف الكتائب في الجيش من وحدات يتوزع افرادها الى عشرات ومئات والوف . فاذا كان الملك هو ، مبدئياً ، قائد الجيش الاعلى ، فالقيادة الفعلية يتولاها قائد عام *Muchûsemâpâli* . وهو شخصية بارزة في الدولة تعدل ، ان لم تبرز ، شخصية ولي العهد ، بتقلد مهام وظيفته السامية بعد ان يجري مسحه ، وفقاً لمراسم معينة كمراسم الملوك ، يرفرف أمامه علم مذهب .

فلا عجب ان يكون هذا الجهاز الاداري الضخم كثير التكاليف ، باهظها ، بالنظر للاعباء المرزحة التي تواجهه في توفير المرتبات لكل هذا الجيش العریم من الموظفين على اختلاف درجاتهم .

تفتنذي خزينة الدولة بموردين رئيسيين هما جباية الضرائب ، والاحراج . مرافق البلاد ومصادرها
فرسوم الجباية هي التي تفرض على غلثة الارض والمحاصيل الزراعية والحيوانية . فللامبراطور منها ، مبدئياً ، السدس الا ان هذا المعدل عرضة للتغير : فقد يبلغ ثلث غلة الارض او ربعها اذا كانت الارض غنية معطاء ، وقد تصل حصته الى نصف الغلة اذا كانت من المواد الثمينة كالعاج والجلود . والعادة المتبعة هي ان تدفع هذه الرسوم نقداً بعد ان توزن محاصيل الارض وزناً دقيقاً . فالرسوم تفرض على الفاكهة والخضراوات ، والعمل والخشب ، كما تفرض على القرى ، في الريف ، ضريبة مشتركة يتناهد المزارعون والاهلون على دفعها ، كل بحسب طاقته ودخله ، كما تفرض ضرائب سنوية على اصحاب الاطيان الكبيرة والصغيرة ، على السواء . وفي عهد الغويتا ، فرضت على البلاد ضريبة خاصة اصابت مستأجري الاراضي . ولما كانت الدولة تأخذ على نفسها مهمة السهر على سلامة المراعي والحقول ، فهي تفرض عليها رسم حراسة خاصاً ، كما تفرض رسوماً اضافية على الذين يستفيدون من شبكة الري والسقاية . وهناك رسوم دخولية وتعريفات جمركية على البضائع الواردة من الريف الى المدينة . يتراوح معدنها بين ٥٤٪ وبين ٢٠٪ . ولعل أخف هذه الرسوم هي التي تفرض على الحطب والحبوب والمواد الدهنية ، بينما يرتفع معدل الرسوم المترتبة على تجارة المشروبات الروحية ، المقننة من حيث المبدأ ، ان في ايام الاعياد والتجمعات العامة . كذلك يفرض رسم خاص على تعيير الموازين والمقاييس ، وهي عملية تجري ثلاث مرات في السنة ، كما تفرض رسوم خاصة على وسائل النقل والواعها ، حتى ما كان خاصاً منها . وتخضع للرسوم في دوائر المكس كل عمليات التصدير ، كما انه محظور تصدير بعض المواد ، تحت طائلة الجزاء والمصادرة : كالاسلحة والجلود ، والحلي والحبوب والمواشي ، ويستثنى من هذا الرسم بعض الحبوب المستوردة . ويلزم العمال والصناع بدفع ما يتراوح بين ١٠ - ٢٠ في المائة من دخلهم ، ويمفون من دفع هذا الرسم ، اذا قبلوا ان يعملوا ، بعض الوقت ، لحساب الدولة . ويدفع العاملون في تربية الماشية ، عيناً او نقداً ، حسبما يختارون . وهناك رسوم اخرى تغذتي خزينة الدولة . كرسوم التأشيرة على تذاكر السفر ، والمسالخ والمومسات والبقي وغير ذلك .

هذه الرسوم والضرائب تنال كل المواطنين مبدئياً ، الا انها عرضة للتخفيف او الاعفاءات ، في مناسبات وظروف معينة ، كالمعدنين ، والجبالي ، والمرضى والطاعنين في السن والزهاد . وكهان البراهمان ومؤلاء ينعمون بحق إلهي . كذلك تمفى من الرسوم المقاطعات التي تمد الدولة برجال الحرب .

وتملك الدولة عقارات واطياناً طائلة . كما تملك احتكارات عديدة يعود دخلها للخزينة . وفي عهد الفويتا فرضت الدولة ملكيتها على الاراضي الموات ، غير المستثمرة وحظرت على ابي كان تملكها او التصرف بها تحت اشد العقوبات . ويعود لها وحدها ملكية معامل الحياكة والنسيج ومعامل تنقية فلزات الفضة والذهب ، ومناجم الحجارة الكريمة والمرجان واللؤلؤ والملح ، وقاعات اللعب والملاهي . والى الملك او الامبراطور تعود التراكات التي لا وريث لها ، باستثناء البراهمان ، والاغراض التي يمتز عليها جمد ان تفقد ، كما ان رسوماً خاصة تفرض على الحاجيات المسروقة او المعقودة ثم يُعرف صاحبها . وفي حالات الحرب او الأزمات المالية تفرض ضرائب استثنائية ، يتحملها الجميع ، على اساس تأمين التوازن بين دخل الدولة ، ونفقاتها العامة ، مع تأمين فائض للطوارئ . والدولة تتحمل نفقات مرزحة كاهنات التي تقفها ، والاحتفالات الدينية التي تقبها ، وتأمين اعاشة القصر ومن فيه من رجال الحاشية والبلاد ، وتكاليف المصانع والمعامل ، والمشروعات التي تأخذها الدولة على عاقبها ، ومرقيات هذا الجيش العرم من المأمورين والموظفين ، بين مدنيين وعسكريين ، اذا ما ضربنا صفحاً واملنا جانباً المرتبات والاعطيات الملكية الاخرى . ولا بد من الملاحظة هنا ، ان هذه النفقات الباهظة لا تصيب دافعي الضرائب على السواء : فهي تنال بالاكلر ، التجار والصناع ، اذ ان البراهمان معفون من هذه الضرائب ، كما ينعم الى *Kshatrigu* بانعامات كثيرة .

الحالة الاقتصادية يستدل من المراجع العائدة لهذا العهد ان الازدهار عم جميع أطراف البلاد ، اذ ان حكم دولة الفويتا ، أفراداً وجماعات . فقد سيطر على البلاد جو من الطمأنينة والامن ، لا بد منه ولا ندسة عنه لنمو التجارة وانتشار مرافقها ، فكانت الطرقات تنص بقوافل التجار وما اليهم من عربات النقل ، يقود خطوطهم دليل محنك . اما المدن فتزدان بالمباني الجميلة المتناثرة على جانبي الشوارع المريضة ، كما كانت دكاكين البقالين وعربات الباعة ومحازن التجار تنص بالسلع والبضائع على أنواعها . والزراعة التي هي أهم مرافق البلاد الاقتصادية هي قوام الثروة وركنها الركين ، فلا غرو ان تلتشط ويتسع ميدانها يوماً بعد يوم . والمزارعون ، وعدددهم لا يحصى ، يستخدمون الحارث التي تجرها الابقار ويؤمنون حاجة البلاد من الشعير والارز ، وقصب السكر والسمن والصمفران . وبفضل نظام الري البديع ، وتسميد الارض وتخصيبها ، كان باستطاعتهم ان يستغلوا عدة مواسم في السنة الواحدة . فالمراعي تنص بالكلا حيث تسرح وتمرح الثيران ذات السنم والثيران العادية والبقر والبعول ، والحصان والبغل ، والماعز والجلبل .

وبين المهن والحرف الدارجة نذكر النجارة والحداذة والصياغة، وحياسة الحرير والاصواف،
والصباغة، والبناء، والهندسة المهارية والتقطير، واستخراج الزيوت، وحفر العاج والصيد
واللغص وطحن الحبوب، والطب، والضرب البيطري، والموسيقى والرقص، وألعاب الخفنة
والرشاقة والتسري، والصرافة والتجارة. وأصحاب هذه الحرف ينتظمون جمعيات ونقابات
بمبحث كثيراً ما نرى قرية ما يحترف سكانها حرفة واحدة، لها رئيسها وكاتب سرها وجلوزتها.
والى جانب التجارة التي تقوم على التعاطي بالحبوب والنجارة الكريمة، وملسوجات الحرير
وصناعة العاج والافاويه والماشية، تزدهر الصناعة التي تمنى بالنزل والحياسة، وصناعة الحبال
والسيور، ودباغة الجلود وشغل الحلي والمجوهرات، وصنع المعادن واستخراج الفلزات والنجارة
الكريمة وتوضييبها، واعداد المقايير الطبية وبعض المواد الكيماوية.

اما معلوماً عن النقد والملة، في هذه الحقبة، فقليلة، فقد درج استعمال الدينار الذهبي
في عهد الفوبتا، وهو اصطلاح دخل الهند من العالم اليوناني الروماني، وكان يساري عندهم ١٦
Rūpnka، وهي عملة من الفضة، أي ما يوازي قيمة ٢٤ روبية، في الوقت الحاضر. وقد عرف
الروم، اذ ذلك، السفنجة او السند المالي. والمعروف ان ١٢ ديناراً ونصف كانت تكفي لاعالة
خمسة رهبان في اليوم.

كانت الهيئة الاجتماعية لا تزال منقسمة الى طوائف. فلم يطرأ أي تغيير
الرضع الاجتماعي جذري على هذا الوضع. وقد زاد التقاطع والتباعد نظرياً بين هسذه
الطبقات تحت تأثير البراهمان، اما بالفعل، فاننا نلاحظ بعض التخفيف من هذه الناحية، اذ
كثيراً ما تمعد عقود زواج بين أبناء طبقات متباينة، مما أدى الى شيء من تخالط الطبقات
وتمازجها بعضاً ببعض، الامر الذي جعل الفوبتا على اصدار اوامر مشددة باحترام نظام الطبقات
والتقيد بمستلزماته التي تعود الى عهد بعيد. ففي عهد تميز بالازدهار التجاري والاقتصادي وتخزين
الطبقات الدنيا، ثروات طائلة، أو نجس اولو الامر من ان ينزع ممثلو هذه الطبقات الى الاستئثار
بالسلطة معتمدين في تحميتي ذلك، على ما تم لها من غنى وافر. والذي يبدو لنا من المراجع
الادبية التي تعود لهذا العهد، ان اللروة او الغنى، أصبحت المعيار او المقياس الاجتماعي الامثل،
وبالتالي الوسيلة الفضلى لتخطي نظام الطبقات، بالرغم من تشدد البراهمان وتشبهم باصرار
وعناد، ووقفهم، لا يتزحزحون عنه قيد أنملة، بينما بقيت طبقة كشاربا مقتصرة مبدئياً، على
الملاكين ورجال الحرب، ولم يكن من النادر ان نرى بينهم من يمارس مهنة او حرفة، او يشترك
عضواً في النقابات المهنية.

فالاسرة هي الحجره الاجتماعية الاولى. ولذا بقيت التربية تسير وفقاً للنهج المتعارف القديم
الذي كان يقسم الحياة الى أربع مراحل متميزة: الطفولة، المدرسة، الحياة الزوجية، الزهد،
وهي مراحل كان للتربية فيها شأن رأي شأن، تبتدىء بفترة قصيرة عند الابتداء، ثم يعقبها
انقطاع الطالب بكليته لعلمه (guru)، ويلارمه ويعيش في محيطة. فيتعلم منه كل ما يرى نفسه

بحاجة اليه في هذه الحياة ربما فيه التمرس على استعمال السلاح . وبعد أن يُتم دائرة تحصيله يتزوج ليؤسس بدوره أسرة . وأنواع الزيجات لم يطرأ عليها تغيير يذكر ، الا اننا لم نعد نسمع في عهد الفويّتا ، بما كان متبعاً من قبل أو مشروطاً من العاب الحقة أو العاب عسكرية أو رياضية .

والعائلة بمعناها الواسع ، لم تكن لتقتصر على الحدود والابناء من الصلب الواحد بل تضم أيضاً البطون والارحام الجالبية وذرائعهم ومن اليهم من احلاف وتوابع ، وخدم وحشم ، وعمال وارقاء . كل هذه الجموع تسكن معاً ربّما هو نزل أكثر منه مسكن خاص . ورب الأسرة هو كبيرها وسيدها وقائدها ، له حق تعدد الزوجات ، زوجته الاولى هي امرأته الشرعية ، تشرف على البيت وتهيمن على الادارة المنزلية ، ومن هنا تبدو الاهمية التي يعلقونها على الاولاد الذكور . فان لم ينجب الاب ذكوراً تعقدت امور الوراثة وارتدت أشكالاً وألواناً هي أقرب الى الاعراف منها للقانون . فاذا لم يكن في الأسرة ولد ذكر احتاط الاب للأمر وراح يتلمس الحيلة فيجعل من ابنته الوحيدة « ابناً لا اخ له » . وباستطاعة الاب ان يتبنى ابناً له او يشتري له ابناً . وباستطاعة هذا الابن بالتبني ان يرث أباه الحقيقي وأباه بالتبني . وقد يحدث أيضاً ان ينقطع نسل الأسرة ، فتذهب املاكها للملك ، باستثناء البراهمان .

اما نظرة الرجل لزوجته فالنظرة الى سيدة جليلة ، محترمة مرشدة وهادية وصديقة . ولذا كان تأثيرها عظيماً في الأسرة . فهي قلما تخرج من البيت ، واذا ما خرجت فبتحفظ كلي ، بعد ان ترتدي إزاراً أو ملامة . فاذا لم تعقب فقدت الكثير من منزلتها وشأنها . فاذا ما تزلزلت فقدت حق رعاية الأسرة وذهب هذا الحق شرعاً لكنيتها او زوجة ابنها . فهي لا تترث ، انما يحق لها ان تأخذ صداقتها والهدايا التي قدمها لها زوجها في حياته ، ولا سيما مجوهراتها وما لها من حلي تبقى لها مدى الحياة . والى هذه الحقبة بالذات يجب ان نرد ظهور تقاليد « المرأة الأمينة » التي تمحرق نفسها فوق محرقة الحطب مع زوجها ، كما يستدل من نصب تذكري تاريخه سنة ٥١٠ ، اكتشف في أران . فالارامل اللواتي لا يتبعن مثل هذا التقليد ولا يمتثلن له يحكن على أنفسهن ، شئن أم أبين ، بالانزواء ، والانكاش عن المجتمع ، يتجنبن التبرج ، ويمقصن شعورهن ، ويعشن منزويات متزهديات . فزواجهن من جديد ، امر غير مرغوب فيه ، تشجبه العادات ، وتمجبه ، الا اذا وقع من احد افراد الأسرة ذاتها ، أي أقرب أقارب زوجها المتوفى .

وهذا المجتمع الذي يقوم أصلاً على الطبقة ، محوره الأسرة او العائلة وينتظمه قانون الجزاء عدد من القوانين . فالسرقة هي الجرم الموصوف ، يحترفها محترفون مجربون ويستعملون لها عدة خاصة . يدخلون المنازل بعد تحطيم الابواب وكسر النوافذ ، او خرق الجدران . ويقوم على تعقب اللصوص واقتفاء اثرهم موظفون خصوصيون ، يتخذون لهم يداً من كل الوسائل المعكينة : كالحيلة والتجسس والترغيب والتشجيع . ولما كان الملك هو القوام على أملاك رعاياه ومقننياتهم ، فليس بمستغرب قط ان يولي أمر تعقب المصوص اهتمامه الخاص .

وتنزل منزلة السرقة ، كل الجنح الشبيهة لها : كالنفس في اللعب ، والتلاعب بالمقاييس والمكاييل وتزيف العملة ، وتزوير المستندات العامة او الخاصة ، والشهادة الكاذبة ، والنفس في صنع الحاجيات الموصى عليها . ويدخل بين كباثر الجنايات والجرائم الموصوفة : القتل ، والحطف والاعتصاب ، ووسائل العنف والاكرام ، والاهانات ، والحاق الضرر المادي او الاذى والدولة وحدها حتى الاقتصاص من المجرمين . فالمعاقب يختلف طبيعاً باختلاف نوع الجريمة أو الجناية ، فيتراوح بين دفع تعويض وبين الحكم على الفريم بالتعذيب أو بالقتل أو بالنفي ، بعد السجن والاعتقال مدة من الزمن . فقد بطل تعذيب المذنب ، في عهد دولة الفويتا ، الا في حال تكرار ارتكاب الجريمة فيحكم على الجاني بقطع يده اليمنى . فاذا ما جلسوا للفضاء عُقدت المحكمة واحيطت المحكمة بالمهابة والجلال ، سواء ترأسها الملك بالذات ، أم اخذ القضاة في الحالات الاخف . وكثيراً ما تنتقل هيئة المحكمة بكاملها في إثر حملة عسكرية ، فتشكل ، اذ ذاك ، من الملك او من احد نوابه ، ومن القضاة أو المستشارين ، ومن كاتب عدل ، ومن محلفين . أما المحاكم المكلفة النظر في قضايا النقابات المهنية فتتألف هيئاتها عادة من ذوي الخبرة المشهود لهم بالنصفة لحل المشكلات العارضة . تُعرض الدعوة وفقاً للقواعد والاصول القانونية في عريضة أو التماس يرفع للقاضي ، ويُعتمق على لوحة ، موجز مقتضب للقضية ، بحيث يتاح للنظارة والمشاهدين ان يقفوا على الوقائع . ويؤدي شهود الإثبات ، وعددهم ثلاثة شهادتهم بهيئة رسمية ، وهي شهادة مفروض فيها ان تكون صادقة ، ناطقة بالحق . فاذا ما ثبت زور الشهادة وبهتانها ، عوقب الشاهد ببتت احد اعضائه عقاباً له . واذا ما ظهر ان القضية مرتاب بامرها أو مشكوك بها أمر القاضي بالاحتكام الى الله ، أي تعريض الجهة المشكوك بامرها للتعذيب والتنكيل : كالكي أو السلق بالماء الحار لاستخلاص الحقيقة . ويبلغ الحكم كتابة للجهة المدعية ولا يمكن نقض الحكم الا عند ظهور بينات جديدة دامغة . ويناط بأمور خاص هو مأمور الاجراء ، تنفيذ الحكم الصادر ؛ أما اذا نص الحكم على عقوبات جسدية أو على القتل ، عُهد بتنفيذ الحكم لجلاد لا ينتمي لطبقة المحكوم عليه .

وهذا الاطار الحضاري او الريفي الذي يَلِفّ المجتمع الطبقي في الهند الحياة العامة والخاصة يبدو عليه بعض التحسن دون ان يكون دخل عليه اي تغيير جذري . فالعاصمة هي المدينة المنهجية او المثلى ، يحيط بها سور ضخم يستدير حوله خندق يطفح بالماء ، ويرقى اليها من ابواب ضبخمة . ويستعملون في بناء القصر الملكي والمباني العامة والهاياكل وبيوت السكن ، الحجر والطوب او الخشب . اما السقف فمسطح ، وقد يأتي مقعراً او محدودباً من جهتيه او على شكل هرم . بحيث تطل عليك كل الاشكال الهندسية . اما العواميد فتتلى او تلبس باللُّك الأزرق او الاحمر ، وتحلى برسوم نباتية او حيوانية بالوان زاهية ؛ اما النوافذ ، فتلبس شعريات من الحجر او من الخشب لترد العيون الشوارد والنواظر الوَاقحة . ويعلمو العواميد : اكاليسل مزركشة تحمل رسوم حيوانات في شق المواقف او الاضابير من الزهر

الفواح واللآلئ الساطعة ، يتدلى بعضها من السقف او من الجدران . وتلبس الجدران احياناً الطنافس الجميلة تتهاوى منها الفلائد والاضافير . اما الكيوتى ، وهي من مميزات الهندسة المعمارية القديمة ، فاصبحت عنصراً زخرفياً ، وتلبّست اشكالاً وصوراً شتى تحتت ازميل النقاش ومرقه .

وكان الأمن يرفرف والسلام يسود الطرقات والمسالك النهرية وكلها بحراسة الشرطة ، بعد ان نشطت عليها حركة المرور والنقل ، بالرغم من الرسوم المفروضة على من يسلكها . ويمخر عباب اليم عمارات من السفن الضخمة تعمل على الاشرعة المعديدة ، مرتفعة المقدم والمؤخرة ، تزينها رؤوس التنين وغير ذلك من الحيوانات البحرية . والملاحة النهرية تقوم على قوارب بيضاوية الشكل ، مجهزة بمجاديف مفلطحة الرأس . وتدرج على الطرقات : القبلة المسرجة باناقة ، والاحصنة على اختلاف اسرجتها الخالية من الركبات ، وقد زُيّن رأسها بالريش وتدلّت من عنقها قلائد الجلاجل والاجراس . اما السابلة فيمرحون ويسرحون ، يحمل العتالون والهمالون بينهم ، سلاخاً من الاجمال على ظهورهم او على اكتافهم او رؤوسهم ، كما يحملون اولادهم على اوراكهم . اما عقيلات الاشراف والنبلاء فيسرن في هودج تجرّه عربة مزينة بالرياش ، او يمدله حاملون خاصة ، او يجره زوج من البقر ، كما لا تزال هي العادة لليوم . ويقوم على جوانب الطريق ملاجىء يأوي اليها الزوار والحجاج ، فيجدون فيها ما يحتاجون اليه من اسباب الراحة ، وما يرغبون فيه من طعام ، لمدة محدودة من الوقت لا يمكن تجاوزهها ، وفقاً للحالات المعارضة . ويقوم في المناطق المحظوظة ، كمنطقة منادها مثلاً ، وهي المنطقة التي خرجت منسالة الفويتا الملكية ، مستشفيات ومستوصفات لمعالجة المرضى الفقراء ، والمرضى المموزين الذين لا مورد لهم ، واليتامى والارامل والمقطوعين الذين لا عياد لهم ولا سند ، فيخضعون للفحص الطبي من قبل طبيب ، ثم يصف لهم العلاج الناجع ، وتؤمن حاجتهم من الادوية والاعذية ، ولا يسمح لهم بترك المستشفى الا بعد ان يتم شفاؤهم تماماً .

والبهذخ الاتم يطالمننا في القصور الملكية وصروح اهل اليسار ، من الطبقة الارستوقراطية . هنالك مقاعد واطية تقوم على قوائم جلعليّة الشكل ، أو تشبه اقسام الحيوانات ؛ واخرى اعلى مقعداً ، موشاة بالطنافس ، ازدان ظهرها برسوم حيوانية ، دقيقة الصنع ، ناعمة الصنعة ، تكفل للحالس عليها الراحة التامة كأنه على اريكة الملك . وقد بطل استعمال الكراسي ذات المرافق ، كما زال ، استعمال الاستدارات المصنوعة من الخيزران وحل محلها مساند مستديرة من القماش المخطوط . كذلك دخل الاستعمال نماذج جديدة من الصحائف واواني المطبخ ، جبيء بعضها من ايران ، كالكرافيات الطويلة العنق ، والاباريق وهنالك ما يشير الى رواج بعض الادوات الزجاجية ، وصناعة القصب والخيزران جوّدت كثيراً صنع الاطباق والسلال التي اعتاد الناس تملئها بسواعدهم . أما غرف النوم ، فهي ، على الاجمال ضيقة يشغل السرير معظم مساحتها من الداخل ، جهّز بسند او وسادة عند الرأس وباخرى ، عند الارجل . والكوة او المشكاة التي

تري احياناً في بعض الجدران تضم عادة الآلة الموسيقية الهجبية لدى صاحب الدار كالغيشارة المقبية . ويقوم في الحجره منضدة تطرح عليها المساحيق والمعاجين التي يمكن استعمالها اثناء الليل ، كما ألقوا ان يتركوا على الارض الشعاعدين والابريق المذهبة . اما غرفة السلاح فهي تنص بالاسلحة على انواعها ومختلف اشكالها تتألق بياضاً ولعناً ، كالسيوف المهندة ذات المقبض المستدير ، والخناجر القصيرة النصل ، او طويلتها . ويوجد في قصر الملك وفي دارات الاغنياء ، مجموعات من الاسلحة المنظمة تنظيمياً خاصاً بينها الرماح والفؤوس ، والخناجر على انواعها ، والقسي والنبال والمراوات والدبابيس . وللألعاب الرياضية محلها المرموق في باحات القصر وحدائقه ، كالترند الذي عم استعماله كثيراً وادخلوه حتى على حفلات ترويج الملوك الرسمية ، والاراجيح الطقسية او التي تستعمل للتلهي ، والحضاريف ، والعصي المتراكبة . واهم الملاهي واكثرها شيوعاً هي الموسيقى والرقص ، فالملك نفسه هو من كبار هواة اللاعبين على القانون ، وكم من قطعة نقدية تبرزه لنا ينقر على القانون .

كذلك تنوعت كثيراً الازياء والملابس ، وغلا ثمنها بعد ان سنا صنعها . فالشاش الناعم الصنع ، والديباج المزركش والانسجة العطنية التي تحاك في جميع اطراف الامبراطورية ، او يؤتى بها من ايران ، هي اكثر الاقمشة رواجاً واستعمالاً . فالملك والامراء يرتدون الـ *Dhoti* القصيرة او الطويلة ، كما تتدلى على اردافهم ، علائق وسلاسل تنتظمها الحجارة الكريمة والمجوهرات ، كما ان كبار الموظفين ورجال الحرب والصيد يلبسون اردية فضفاضة الاكام والاردان ، قد تكون ، كما يرجحه المارفون ، جاءت من الغرب . كذلك ترفل عقيلات البيوتات الكبرى ووصيفاتها بفساطين تحتلف شفايفية وطولاً ، بينها حاملات المذبات والراقصات ، وغيرهن من المرافقات يلبسن سترات فصلت على قدودهن قصيرة الاكام . وهذا النوع ذاته يبدو على اشكال : فالراجا يلبس عمة مزركشة تشبه التاج ، اسلاكها من الذهب ، كما اعتادوا ان يضعوا في القرنين الخامس والسادس ، شعراً مستماراً مقصباً . ويقص اهل الكيف من رجال الرقص والموسيقى ، وغيرهم من الخدم ، شعورهم قصيراً ويزينونها بزهرة . اما النساء فيعقمن شعرهن على اشكال مختلفة بين مقبب ومخروط ، او يعقمنه فوق جباههن او يضمرنه جدائل تتدلى طويلاً على الظهر او الاكتاف ، كما ترتدين بعضهن اكاليسل من الزهر او الحجارة الكريمة . ثم يضيفن الى زيلتهن عقوداً من اللؤلؤ تشع نوراً وبهاءً وسناءً وتحمل على صدورهن انواعاً كريمة تتدلى من اعناقهن ، وفي معاصهن ثروات من الاساور الكريمة . ويشد الرجال حقويعهم بسير من الجلد النساعم كما تضع النساء الخلاخسل بارجلهن ، ويلبسن اقراط الذهب او الماس ، والخواتم الكريمة في البنصر او في غيره من اصابع اليد الواحدة .

في هذا الجو العابق بالبنع والفس ، بلغت الحياة الدينية في الهند ، أوجها . فالبوذية المتفتحة والسيطرة على عالم الروح والمادة ، عرفت ازدهاراً كبيراً من الحياة الرهبانية التي جمعت بين التألق والبنع . فالرهبان

في اديارهم ينعمون بحماية الملك، وعظفهم فيغدقون عليهم ، ولا سيما على طبقة البراهمان ، الهبات الطائلة ، والاعطيات السخية . وفي ظل هذه الرعاية المشبعة بعطف الغويتا تزدهر الحياة الروحية سمحاء ، أثيرة ، متخيرة . فتتكاثر الاديار وتنتشر في البلاد وتصبح منائر للعلم يقصدها الرهبان الاغراب العطاش الى المعرفة والحكمة الالهية . وهكذا نرى مثلاً عاهل سيلان يأمر ببناء دير في بلدة بودغايا ، للرهبان السنغهايين ، كما ان اسرة سوماتراية تشيد لها ديراً آخر في مدينة تالاندا ، وهي مدينة بودية رأت النور بين ٤٦٧ - ٤٧٣ ، والتي جاءها فيما بعد زائراً هيوانفانتسان . ويلقى الرهبان المتجولون في كل هذه الديارات ، كل ما يحتاجون اليه من اسباب السلوى والترفيه ، كما حصل للراهب الصيني ، فا هيان اذ يأتي رئيس الدير بنفسه ليرحب بقدمهم ويتصدق عليهم بما يحتاجون اليه من لباس وماء وطاس ، ومن زيت ينضحون به اقدامهم ورحيق عصير قصب السكر الذي يمكن تناوله في غير اوقات وجبات الاكل القانونية . ثم يخصصهم بغرفة فيها من الاثاث والفروشات ما فيه راحتهم ويحيز لهم الاشتراك بالحياة الرهبانية وفروضها طيلة بقائهم في الدير . ولم يكن من النادر قط ان يتسع الدير لآكثر من الف راهب وراهبة ومبتدئين من كلا الجنسين . وكان الزوار يدهشون لكثرة الاديار في مدينة تالاندا ، وتعدد مبانيها ، وغنى أثاثها ، ورحابة غرفها ، تجري فيها الطقوس الدينية مواسمها بكل ابهة وجلال ، في جو يتناغى بصدى الاناشيد الروحية ويعبق بالبخور المتصاعد كالغمام ، وباريج الزهر والريحان ، تتلألأ زينة الهيكل على اضواء الفناديل التي لا تعد لها ، والمضائة طوال الليل ، على انغام شجية من الموسيقى الناعمة المتصلة .

وتتناوح المدارس الهندسية بين مناسك بسيطة متواضعة وبين باحات وافناء شاسعة تمر بجمرة الطلاب وروام العلم يتحلقون حلقات حول اساتذة ومعلمين مشهود لهم بالفضل ، فيتلقون الى جانبا دروس الفلسفة والحكمة ، اصول الصرف والنحو، والمنطق ، وتعليقات مستفيضه ، وشروحاً موسعة في الموسيقى وفن التمثيل ، والرقص والرسم الملون .

وهل من غرابة في هذا كله بمسند ان ازدهرت الفلسفة وأينعت الآداب الرفيعة ؟ فالشعر الوجداني والمحمي ، وفن التمثيل نفسه ، وغير هذا من النشاطات العقلية يحمل بارزاً ، أثر الشاعر الهندي الاشهر كاليداسا (القرن الاول ق . م) الذي اعطانا : الغيمة الرسول (*Maghadita*) ومولد كومارا ، ونزول راغو *Raghuvansa* وروايته الخالدة « إعراف » التي نراها مترجمة اليوم الى جميع لغات العالم ، والتي مثلت مراراً في دور عديدة للتمثيل في الغرب . وقد بلغت اللغة السنسكريتية القيدح المعلى نقاءً تحت ريشة كاليداسا . فقد رسم لنا هذا الشاعر الهندي المبدع ، صوراً اخاذة تبنها المسرح الهندي ودرج عليها منذ عهد سحيق ، وهي صور ترمز بالطبيعة والجنان السندسية الغناء ، وجلت لنا اغوار النفس البشرية بفن فيه الكثير من نوازع الادب الكلاسيكي . بعد ان ابرزت لنا مشاهد حية عن : ملك مدنف ، تيمه الحب ، ومهرج ماجن ضحوك ، ولاعب مدمن اخذ منه الهوس كل مأخذ ، والراهبة البوذية

والمملكة الحسود ، والمملكة الظلم وغير ذلك من صور النفس البشرية التي نطالها في كل زمان ومكان . كل هذه الصور ليست بالفعل سوى ركائز عرف كاليداسا ان يضيف عليها من فنه وعلمه الواسعين ، ومن الجمال الجسم ما بلغ فيه سدرة المنتهى ، كل ذلك في نظم جزل ، ولغة مشرقة ، مشعشة ، وبيان مزره وقوافي راقصة مرقصة ، حملها من المعاني ما لا تستطيع الالفاظ حمل . فالن ، في عهد الغويتا ، بلغ الذروة ، اذ جمالية الاسلوب ، تقوم ، قبل كل شيء ، في الايام دون الافصح ، وفي الاكتفاء والاكتناه دون التمييز ، وفي الرمز ، دون الرموز اليه ، وفي الاشارة دون العبارة . هنالك شعراء لا يقلون شأنًا وشأراً عن كاليداسا . اضاؤوا كالشهب ، جو الغويتا ، وألقوا على عهدهم ، ألقاً قلما عرفت الهند مثله . منهم : شودرا كالمؤلف المفروض لـ «عربة الفخار» ، وفيشا كادتتا ، وامارو وبهارتراهري .

ولم يكن تألق الفلسفة ، في هذا العهد ، عند البوذيين اقل من عند الهنود . فالاخوان ازانفا وفازوبندو من اتباع المدرسة الرمزية في الهند وضعا اذ ذاك ، مؤلفات كانت ، لغرون عديدة ، المحور بل الاساس الذي نهضت عليه التعاليم البوذية التي يمثلها احسن تمثيل ، « الوسيلة الكبرى » او *Mahayana* سواء في الهند او في البلدان الآسيوية الأخرى . ولم تلبث ان بلغت آثارها الصين ، بعد ان ظهرت في الهند ، بقليل . وهذه الصيغة التي برزت عليها البوذية على يديها ، بالرغم من ظهورها في مطلع النصرانية تقريباً ، اختلفت تماماً عن التعاليم الاساسية المثلة « بالوسيلة الصغرى » *Hinayāna* او *Theravāda* . وليس من العبث ان نذكر هنا بان ازانفا وفازوبندو خرجا اصلاً ، من عند هارا ، هذا الاقليم الذي وقس تحت تأثير المدارس السريانية الفارسية وانفعل بها ، وهي المدارس التي عقبها مدرسة الاسكندرية وورثتها ، اي الفلسفة الاشراقية والمالوية . تقوم فلسفة اليوغا على النظرية للقائلة بان الواقع او الحوادث الواقعية ، ليست سوى خيال وهم . وخلافاً للمدرسة او نظرية *Amethyūmika* التي ادت بانها الى القول بالعدمية ، وصل بها ازانفا ولا سيما فازوبندو الى نتائج مناقضة تماماً : فاذا كان كل شيء وهماً في وهم ، فالوصول الى هذه النتيجة والتأكد من الامر ، هو الاقرار ذاته بوجود فكر ، وهكذا ، فالفكرة المجردة او الفكرة الوعاه ، تواف الاسس التي تقوم عليها المثالية المطلقة . وقد كُتِبَ لهذه النظرية ان تنتشر في جميع ارجاء آسيا وادت بالتالي الى هذه التيارات البوذية العارمة التي بلغت أقاصي الصين واليابان .

وبرهنت الفلسفة الهندية ، من جهتها ، هي ايضاً ، عن نشاط يصح مقارنته ، من قريب ، بالنشاط الذي سجلته البوذية في هذه الحقبة . ففي الوقت الذي اخذت فيه تبلور المحاولات الاخيرة لتكيز الملاحم الكبرى راحت النظم الفلسفية الهندية ، تبرز وتتطور بما تعرضت له من شروح وتعاليق وتفسيرات ، بشق الصور والاشكال التي تفتتح عنها الفكر الفلسفي الهندي ، وتبلور عنه : كالاخلاقية الدينية ، والزهد والتلنسك ، والمنطق ، وعلم الطبيعة ، وعلم ما وراء الطبيعة الديني ، واللاهوت والفلسفة ، وتناسخ الارواح او التقمص ، وما للفعل من الرضار ،

مؤذ (Karman) والوسائل المختلفة لخلص النفس Moksha ، وغير ذلك من الموضوعات والتجريدات العقلية التي راح العقل الهندي يفوض فيها . كل ذلك يقوم على اساس وطيد من استقلال الطبيعة الانسانية « والأرواح » ، المادة والروح . وعن طريق سلسلة من النفي ، توصلوا ، هنا وهناك ، الى تحديدات وتعريفات لها من الدقة واللطافة ما في اللغة السنسكريتية من طواعية وليونة ومرونة ، او ما تتيح له من مقارنات ومقاييس تنبض بالحدق . ومن هذه النظريات الفلسفية الهندية التي طلعت اذ ذاك ، نظرية الفيदानتا التي أطلت علينا بين ٣٥٠ - ٤٠٠ ، ثم اخذت تتطور في العهد التالي .

وبالمقابل ، نرى فن الرسم يبلغ اذ ذاك تمامه . فبعد ان استفاد من خبرة الماضي ، راح الفن ، في عهد الغوبتا ، يحاول التعبير عن الافكار الجديدة . فبينما نرى المثالية المطلقة تسيطر على الفلسفة البوذية وتستبد بها ، ويبرز في النظريات الفلسفية الهندية عنصر الروح واحتلاله الصدارة ، فالزعة للتنبؤ عن الاشياء المحسوسة بالرمز ، وازفاء شيء من الروحانية عليها ، بلغت أوجها في فن التصوير التشكيلي . وقد وضعت ، اذ ذاك ، أبحاث تحدت فيه وتعينت الاسس التي تقوم عليها القواعد في المستقبل . فلم يسبق ان رأينا في الهند ، مثل هذه الاهمية يعلقونها لنقاء الصور والأشكال وسنائها ، ولتأمين مثل هذا التوازن بين الكتلة والقيمة ، وتأمين مثل هذا التناغم والانسجام بين المقاييس والمسافات . فقد كان للنظرية الفنية في الهند ، في عهد الغوبتا ، تأثير شديد الدفع على جمالية الفن ، بحيث ان الموضوعات الفنية التي عاجلها هذا الفن ، في تلك الحقبة ، أصبحت نماذج احتذاها الفنانون وساروا على هديها ووحياها ، حتى بعد زوال هذه الدولة ، وتواربها عن مسرح السياسة في الهند ، بحيث امتدت المبادئ التي اعتمدها وقامت عليها ، ليس الى جميع أقطار آسيا الجنوبية الشرقية فحسب ، بل ايضاً الى أقصى ما بلغته الركبان والقوافل الذاهبة الى الشمال والشرق . والهندسة المعمارية التي ترعرعت في الهواء الطلق ، اخذت اصولها تطبق على المعابد والهياكل والاماكن الصخرية المؤسسه كالمغاور والكهوف . وهكذا أخذت الجدران ترتدي أشكالاً وصوراً ، هي اليوم من أروع ما طلع به الفن في الهند .

٢ - أقطار آسيا الجنوبية الشرقية

بعد ان خبرت أقطار آسيا الجنوبية الشرقية ، في القرنين الثالث والرابع ، حركة واسعة من الاستهناد واقتباس الحضارة الهندية ، اذا بها تقع من جديد ، في الحقبة الواقعة بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن السادس ، تحت تأثير موجة جديدة من انتشار هذه الحضارة ، والاقبال على مقوماتها وتمثلها . ومع ان هذه الاقطار كانت تدور ، اذ ذاك من الوجهة السياسة ، في فلك الصين وتخضع لنفوذها ، وان مصادر تاريخها الركنية في هذه الفترة بالذات من تاريخها ، هي صينية في معظمها ، فتاريخها الحضاري والثقافي ، في هذا العهد هو مع ذلك ، امتداد لحضارة

الهندية فيها . فمن المعقول ، جداً ، والحالة هذه ، ان نلقي على هذه الاقاليم ، نظرة شاملة من هذه الناحية بالذات .

مقاطعة فو - نان
يبرز تأثير الهند على أمتّه ، في مقاطعة فو - نان ، عام ٣٥٧ ، وهي تخضع
اذ ذاك ، لسيطرة دخيل طارىء معروف باسم الهندو تشان - نان الذي
أرسل الى امبراطور الصين ، آنشد ، هدية تتألف من أفيال حَسُن ترويضها . والملك هو أمير
هندي المحدث يلقب « Chandan » ، وهو لقب جاري الاستعمال عند الكوشانا ، من سلالة
كانيشكا . من المعقول جداً ان تكون الفتوحات التي قام بها الغوبتا في هذه المقاطعات المتسهندة
الواقعة الى الجنوب الشرقي من آسيا ، دفعت أمامها عدداً من الامراء والبراهمان والادباء ، جلاوا
عن مواطنهم واستقروا نهائياً في تلك الربوع . وبفضل هؤلاء القادمين الجدد الذين اقتلعتهم
الاعمال الحربية وقذفت بهم بعيداً عن مساكنهم ، انطلقت الموجة الجديدة من النفوذ الهندي في
البلاد ، عناصرها الرئيسية كانت في معظمها من شرقي الهند وجنوبها . وقد آل الامر بمسد
تشان - نان الذي لا نعرف عنه شيئاً يذكر ، الى ملك جديد يدعى كوندينيا ، وهو من براهمة
الهند ، وقع عليه الاختيار ليتولى الامر في فو - نان باسم الشعب «الذي اخذ بتغيير قواعد الحياة
واسسها وفقاً لمناهج الهند » ، كما جاء في تاريخ آل لوانغ . وقد أرسل احد خلفائه المدعو
سري اندرافارمان او سريستافارمان عدة بعثات الى بلاط ملوك سونغ Song ، وذلك بين
٤٣٤ و ٤٣٨ ، كما أبى ان يؤازر ، عسكرياً وحربياً ، مملكة لن - لي (٤٣١ - ٤٣٢) في
حروبها ضد التونكين .

ومن سلالة هؤلاء الامراء ، طلع المدعو جايا فارمان ، الذي كان أوفد بعثة من التجار الى
مدينة كنتون ، غرقت سفينتهم ، لدى عودتهم فتحطمت على شواطئ لن - لي ، ونجا بينهم
من نجا ، ومعهم راهب هندي اسمه ناغازينا . وفي سنة ٤٨٤ ، ارسل جايا فارمان ، الراهب
المذكور بمهمة رسمية الى ملك تسي ، في الجنوب ، يلتمس مؤازرتهم عسكرياً في حملة يوجهها
ضد لن - لي . وحمل هذا الوفد السياسي معه : « صورة لأريكة الملك من الذهب المنقوش
المصنوعة من جلود الضباب ، وفيلاً مصنوعاً من خشب الصندال ، وصورتين لاحد المعابد مصنوعتين
من العاج وإثنتين من الزجاج ، وطبقاً من فلوس السمك لتقديم التمر » . ويتبين من العريضة التي
كان عليه ان يرفعها لملك تلك البلاد ، ان البوذية كانت معروفة ومنتشرة في فو - نان ، مع ان
عبادة سيفا كانت هي المسيطرة عليها ، اذ ذاك . ومقابل ذلك استودع الامبراطور السفير هدية
للملك جايا فارمان ، مجموعة من خمسة اواب من الاقمشة الحريرية الفاخرة تتنارح بين البنفسجي
والعقيقي ، عليها رسوم صفراء وزرقاء وخضراء ، ولكن ابى ارسال المساعدة العسكرية
المرجوة . ويتابع تاريخ آل تسي الجنوبيين روايته فيقول :

« سكان فو - نان مشهود لهم بالحيلة والمكر ، فيستولون عنوة على سكان المدن التي لا تخضع لهم ويتخذون منهم
أرقاء ، من مقتنياتهم الوافرة : الذهب والفضة والاقمشة الحريرية ، ويرتدي أولاد الاسر الكريمة الدباج ، كما تلبس

النساء عندهم أمشة تشققها من الوسط وترثلها على أجسامهن بدون خياطة . اما الفقراء بينهم فيسرقون عورتهم ببعض المنسوجات الغليظة . ويشتغل السكان في قو - نان بصنع الخواتم والاساور الذهبية ، وصنع صحائف الفضة . وبينون مساكنهم من الخشب . اما ملكهم ، فيسكن منزلاً ذا أدوار متعددة ، ويقومون أسواراً حول منازلهم من دعائم الخشب . ويبت على مقربة من البحر نوع من النبات أوراقه من ٨ الى ٩ أقدام ، يصفرونها ويبدلونها على أشكال متنوعة يغطون بها منازلهم . ويفضل الناس لسكنهم الاماكن المرتفعة . ويصنعون لهم قوارب من جذوع الشجر يبلغ طول الواحد منها من ٨٠ الى ٩٠ قدماً ، ويحرفونها بعرض ٦ - ٧ أقدام ، ويحملون مقدم القارب ومؤخرته على هيئة سمكة . فاذا ما انتقل الملك ، ركب فيلاً ، وهو مطية يركن اليها النساء ايضاً . ويتلصق الناس بالتفرج على مصارعة الديكة والخنزير . وهم لا سجون لديهم . فاذا شجر بينهم اختلاف ، رموا في الماء الغالي خواتم من الذهب او بيضاً يرغم المتشاجرون على انثاشها . وبدلاً من ذلك ، فهم يحمون سلاسل معدنية حتى تحمر ، على المتشاجرين ان يحملوها في ايديهم مسافة اقدم فتحترق اصابع المذنب ، اما البريء فلا يصاب منها بأذى . او انهم يلقون بهم في الماء لمن كان الحق عليه الحذر الى القمر بينا البريء منهم يطفو على وجه الماء . من فاكهة البلاء عندهم قصب السكر ، والرمان والبرتقال والتمر . اما الطيور والثدييات فهي ذاتها الموجودة في الصين .

وبعد ذلك بقليل ، أي بين ٥٠٢ و ٥٥٦ ، يزودنا تاريخ آل لانغ بمعلومات اضافية جديدة :

لا آباء لهم في الحملات التي يقطنونها . ويشترك عدد من الأسر في التزود بلاء من حوض مشترك . من عاداتهم عبادة الغرى الطبيعية والجوية ويضعون لها صوراً من البرونز ؛ فمن كان له منها وجهان صنعت له أربع أيد ، ومن كان له اربعة وجوه ، صنعت له ثمانية أيد ، تمسك كل واحدة منها بشيء ما ؛ عصفور هنا ، وولد هناك ، او حيران هنالك ، او القمر والشمس . يركب الملك في تجواله وثقلاته الفيلة وكذلك سراريه ومحيطياته ورجال البلاط . فاذا ما جلس الملك جثم على احدى ركبتيه بينما يرفع الثانية ، وتفرش الارض امامه بالطنافس والسجاجيد ، توضع عليها آنية الذهب والجمامير ، في المآتم والجنائز ، تحلق الذقون ويقص الشعر . والجنائز على أربع طبقات . فالدفن في الماء ، وذلك باطراح الجثة في النهر ، والدفن بالحريق تستحيل معه الجثة وماداً ، والمواوية في الارى او في قبر ، والدفن في الهراء الطلق بحيث تأتي الطيور والنسور وتلتاش جثة الميت .

توفي جايافارمان عام ٥١٤ ، بعد ان انعم عليه الامبراطور عام ٥٠٣ بلقب « قائد الجنوب وملك قو - نان » . في عهده ، دخل راهبان من قو - نان ، الصين ، فاستخدمها الامبراطور لمعرفة اللغة السنسكريتية معرفة جيدة ، لنقل الكتب الهندية المقدسة وترجمتها الى الصينية . وهكذا استمرت العلاقات الثقافية والدينية ناشطة بين الاقطاب الكبرى في آسيا ، وهي الهند والصين والهند الصينية .

وخلفه على العرش ابنه المدعو رودرا فارمان الذي ارسل ، الى الصين ، بين ٥١٧ و ٥٣٩ عدة وفود سياسية ، فكان بذلك آخر ملوك دولة قو - نان التي زالت من الوجود ، عقب حوادث مبهمة تضرست بهسا البلاد وأدت ، في اواسط القرن السادس ، الى انشقاقها فانهسما على نفسها ، تاركة وراءها ذكراً لا يمحى في شبه جزيرة الهند الصينية ، بعد ان قبض لها ان تلعب دوراً بارزاً ، طوال خمسة قرون . وقام في البلاد حكم جديد تولته اسرة ملكية يعرفها الصينيون باسم تشان - لا ، احتلت عاصمة قو - نان عنوة ، واضطر الملك الى الهرب تاجياً بنفسه نحو الجنوب . واول عاهل من هذه الاسرة الجديدة هو شيتراسينا . واذ ذلك تألف من قو - نان ومن تشان - لا دولة جديدة ، تولى الامر فيها الملك بها فافارمان الاول ، الذي كان لا يزال يملك ، عام ٥٩٨ عند مطلع امبراطورية الخبير التي بقيت حتى اواخر القرن

الثالث عشر ، اكبر دولة ارتفع لواؤها في الهند الصينية ، اذ ذاك ، والتي خلت لنا حضارة عريضة ، لا تزال معالمها الماثلة تحدثنا عن العظمة التي نالتها والسيادة التي حققتها .

بقيت دولة لن - بي ، في هذه الحقبة ، تتابع حملاتها العسكرية ضد جي - نان سلاة الشبا كما ان اعمال القرصنة التي كانت تقوم بها زرعت الخوف في خليج تونكين ، كما بقيت على عادتها في ارسال الجزية وبعث الوفود الى بلاد الصين . وقد تم للملك فان - ون ان يفتح قسماً من جي - نان ، لم يلبث ان فقده فان - فو ، عام ٣٥٩ ، الذي يرى البعض انه هو نفسه الملك بهادرا فارمان الاول ، الذي ترك لنا عدداً من الرُقم والكتابات السنسكريتية وغيرها من النقائش التي تساعدنا على تكوين فكرة صحيحة ، عما كان عليه الوضع الديني في تلك المملكة ، حيث نرى عبادة سيفا تسيطر على البلاد ، وتهيمن فيها على النفوس . ولاول مرة نشاهد ، على ارض الهند الصينية اللغا الملكية هذه العبادة التي اخذت رمزاً لها قضيب *Phallus* سيفا ، وهو رمز بقاء الملك واستمراره وفي سبيله شيد الخمير والشامز « الجبال الهياكل ، مأوى للملك الإله الذي كان يلعب به : بهادر سفارا . وقد اضطر حفيد الملك فان - فو او ابن حفيده ان يتنازل عن عرش جدوده (القرن الخامس) لحساب ابن اخيه ، وسافر الى الهند لتكتحل عيناه بمراًى نهر الغانج ، الامر الذي يجعلنا نفترض انه كان هندياً ورعاً وتقياً .

كان الشامز لا يزالون بعد ، على ما عرفوا به من خشونة الطباع وجفوة الاخلاق ، قراصنة قبل كل شيء ، يزرعون الخوف في قلوب جيرانهم من سكان مقاطعة جي - نان ، بعد ان استباحوا شواطئها ، عام ٤٣١ في حملة ضمت اكثر من مائة سفينة من سفنهم . وقد حاولت الصين تأديبهم في حملة اعترضتها عاصفة هوجاء ، فاعادت الكرة عليها ، بعد ذلك بقليل ، اي سنة ٤٤٦ ، ادت الى نهب عاصمة الشامز ، الواقعة في مقاطعة هويه ، وولت منها اكثر من ١٠٠،٠٠٠ ليرة ذهباً . وبعد ان اعلن خضوعه ، راح ملك الشبا يوالى بعثاته ووفودها الى الصين كما فعل عام ٤٥٦ و ٤٥٨ و ٤٧٢ ، ثم بين عام ٥٠٢ و ٥٢٧ .

وبعد ان توالى على الملك اسرة جديدة ، راح ملوكها يرسلون كمادة اسلافهم بعثاتهم الى الصين . وفي عام ٥٣٠ ، تقلد الملك الجديد الولاية من الصين . الا ان خلفاه من بعده ، حاولوا الخروج عن طاعة الصين وزحزحة نيرها عن اعناقهم الا ان حظهم العاثر جعلهم يتضرسون ببأس اسرة سويه الصينية الجديدة وقوة بطشها ، فاجبرتهم على استئناس التقاليد المرعية ووصل ما انقطع منها . وسرى الشبا ، في عهد دولة تانغ ، يوسعون نطاق مملكتهم ، في الجنوب ويزرعونها بالاديار والوقوفات الدينية .

تشير المعلومات التي يمكن التعميل عليها ان شبه جزيرة الملايو شبه جزيرة الملايو والانسلاند والانسولاند وبلغت في هذه الحقبة درجة قصية من الاخذ باسباب الحضارة الهندية : فالسنسكريتية فيها هي اللغة الرسمية ، والبوذية والهندوكية بلغتا منها اعلى

مبلغ ، في وقت كانت فيه مدينة سكان البلاد الأصليين لم تكن بعد تطورت كثيراً . والملايو مقسمة الى عدة ممالك صغيرة ضالعة بالحضارة الهندية ، على درجات متفاوتة في تطورها . يرتدي الناس فيها ثياباً قطنية وشعورهم مسترسة ، يتحلون بالحجارة الكريمة ويزينون بعقود اللاء والمجوهرات ، وقد جودوا البناء ، وعرفوا إقامة الحصون والأسوار حول مدائنهم ، وبنوا لها الابواب المتحركة على مصراعين . والى هذا ، هنالك اقوام لا يزالون على همجيتهم الاولى يحلون فن العمارة وبناء الاسوار واتخذوا بديلاً عنها صفاً من السياج . والملك يحبس حياة كلها بذخ واسراف يحيط به العديد من البراهمة ، وهو نصف مستلق على سرير مصنوع من جلد الضب ، فاذا ما غادر قصره ، فعلى فيل غليظ الجثة تملوه خيمة بيضاء اللون يتقدمه ضاربو الطبول وحملتة الاعلام ، يحف به حرسه الذي يسمّر الخوف في القلوب لفظاظته وخشونة طباعه . وكانت جزر سومطرة وجاڤا تابعتين ، آنذاك ، للملك هذه البلاد ، تطالعنا فيها معالم الحضارة الهندية ، جاءت من جنوبي الهند متجهة نحو رأس كومورين . وبما لا شك فيه قط ان هذه البلاد تتبادل التمثيل والبعثات مع الصين ، في القرنين الخامس والسادس غير ان الاشياء الفنية التي امكن العثور عليها وجمعها تم عن تأثير الهند البالغ ، اذ نرى بينها تماثيل لبوذا من طراز مدرسة امارافاتي (جزيرة سومطرة) أو من طراز الغوبتا في جزيره بورنيو ، مؤيدة بذلك المعلومات المستمدة من النقائش الحجرية .

٣ - الامبراطورية الصينية في اعقاب أزمة القرن الثالث

في الوقت الذي كانت فيه الهند تشع بعيداً الى ما وراء حدودها ، كانت جارتها الصين تتربص الدوائر وتعاني الصعاب في الداخل . قام على الحكم ، بعد زوال دولة الهان فيها ، سلالة تسين التي اسسها ساو - ما ، على انقراض الامبراطورية السابقة . الا ان الامبراطورية الجديدة لم تتمكن من السيطرة على الصين برمتها الا لفترة عشرين سنة تقريباً (٢٨٠ - ٣٠٤) اذ اخذت غزوات البرابرة : من تار وهونز ومغول ، تفرغ ابوابها بعنف ، وتحاول بنجاح ، مراراً ، عبور حدودها من الشمال . وقد كان من جراء إقامة هؤلاء الاقوام من قبائل رحل في المقاطعات الشمالية ، ان ادت منذ عام ٣١٦ ، الى انقسام الصين دولاً وبمالك تناحرت فيما بينها ، طيلة قرنين كاملين ، جرت على البلاد الذل والهوان .

انها لحقبة ساحلكة مظلمة ، هذه الحقبة التي تكالب فيها الغزاة الفاتحون ، بين ٣٠٤ - ٣١٦ على اقتطاع اوصال الصين فذاقت البلاد من بطشهم وهمجيتهم ألواناً من العسف وصنوفاً من الجور والاذى . ففي عام ٣١١ ، استولى الغزاة الطارئون على العاصمة لو - يانغ ، والقوا القبض على الامبراطور ، وذبحوه ، اكثر من نصف سكان مدينة تشانغ - نغان ، وساموا الامبراطور الاسير الذل والهانة ، ثم قتلوه شرقتة ، بعد ان استخدموه سابقياً ، لسيد البلاد الجديد ، الطاغية

الماني : هيونغ - نوليوتان ، الملقب بحق : « أتيلا الصين » إمعاناً منهم بأذلاله وتحفيره . وقد تكبررت المأساة ذاتها ، بعد لأي قصير من الزمن ، عندما قام للهيونغ - لو بغزوة جديدة أوصلتهم الى تشانغ - نغان واقاموا فيها . وكان مصير آخر ملوك تسن ، في الشمال ، وهو الامبراطور منتي (٣١٢ - ٣١٦) الذي وقع في قبضة ملك الهونز ، ان امسى غاسلاً للصحن والطناجر ، ثم أعديم .

فأمام هذه الالهوال التي ازلها الغزاة بالصينيين ، وما الحقوا بهم من مهانة ومذلة ، بمد ان استباحوا باحتهم وزرعوا البلاد خراباً ودماراً ، راح السكان يزحون عن املاكهم ويفترون بانفسهم ، نحو الجنوب . وفي عام ٣١٨ ، 'لودي في فانكين بامبراطور جديد من اسرة تسن ، فكان ذلك إيذاناً بان هذه الدولة لن يكتب لها استرجاع الشمال . وكان من جراء هذه الهزات العنيفة ان زادت من الفوضى في البلاد ، وافقدتها بالتالي لذة العيش الرضي وجعلت أمن البلاد الداخلي ريشة في مهب الريح ، وزادت من شقاء الشعب المسكين وبؤسه . وعزا الابداء ورجال الفكر سقوط دولة الهان وزوالها من الوجود ، الى فشاء سوء الاخلاق في المجتمع الصيني ، اذ ذلك ، بعد ان دب الفساد في كل مكان ، فأوهن الطبقات الاجتماعية وخلخلها ، ففسخت وانساحت وذهب ريحها في الارض ، وليس من يرعوي او يبالي بين الاشراف والنبلاء والطبقة البورجوازية . كل شيء كان يتوقف على اخلاق الامبراطور الذي يهديه ياتم الناس وعلى منواله يلسجون وعلى خطته ينهجون : أفلتهم يكن الامبراطور التقويم المتبع وقسطاس العدل المروم ؟ فسوء سيرة الامبراطور وفساد سريرته ذهب بالتوازن الذي كان يمثله وشجع الآخرين على استثناء حدونه ، وعلى التحلل من الاخلاق الفاضلة ، والتنكر لمكارم الاخلاق والعبث بالفضائل البشرية . فلكي يعود النظام العام ويمود الناس الى الاعتصام بمكارم الاخلاق ، كان لا بد من ذهاب الدولة وزوالها . فالأزمة التي نزلت بالبلاد وكادت توردها الهلكة - كما مر معنا في المجلد السابق من هذا التاريخ ، احدثت البلبلة والفوضى في نظام البلاد الاجتماعي والاقتصادي ، واقلقت الحواطر والضائير ، واثارت الشكوك في فلوب الحكماء ودفعت المفكرين الى اليأس والفنوط ، مما حمل الحكيم الصيني تشونغ - تشانغ - لونغ (حوالي سنة ٢١٠ تقريباً) على القول : الى أين المصير يا ترى ؟

فسلالة تسن الملكية التي استرسلت في البذخ وانصرف ملوكها لأطايب الحياة ولذائدها ، أغفلت كل مما من شأنه ان يعيد النظام الى نصابه ويضبط سير المؤسسات العامة وحسن عملها . صحيح انها حاولت ، في اول عهدها ، الاهتمام بمراقب الزراعة ، محور الاقتصاد الصيني وركنه الركين ، وذلك عن طريق انشاء المزارع وتعمير الارض ، واقامة السدود للري ، وتوزيع الاراضي على الأسر الصينية بنسبة معينة . كذلك حاولت الحد من اطماع كبار الملاكين وصدوم عن توسيع أملاكهم عنوة واغتصاباً ، والحلول دون منمهم افراد الشعب من الانتفاع بالاحراج ، وبجاري الانهر ، والمرتفعات الجبلية . وفي هذا السبيل عينوا جيشاً من الموظفين للاشراف على حسن

تطبيق هذا الاصلاح الزراعي الذي اخذت الدولة بأسبابه . الا ان كل هذه المحاولات ذهبت سدى وصارت الى الفشل . فالملكية الكبيرة بقيت الاساس الذي قام عليه المجتمع الصيني . ولم يطمع هذا الشعب الضعيف ، المهبط الجناح ، البائس اليائس ، الذي يتأكله الاسف ، الا ان يلوذ بهذه المثالية الدينية ، قائماً من امره وديناه ، بالكفاف باهون الشرور ، والقناعة بأي قسمة ضئى ، بعد ان وقعت البلاد فريسة المحسوبة والاتجار بالنفوذ .

عندما رأت السلطة الامبراطورية نفسها مرغمة للتخلي عن القسم الشمالي من الصين الجنوبية البلاد للفزاة من البرابرة ، اخذ الشعب ينزح زرافات ووحداناً ، كما اخذت أسر تجلو بقضها وقضيضها عن الاوطان متخلفة عن ارزاقها ومقتنياتا ، بعد ان سدت في وجهها ابواب الرزق وانقطعت امامها سبل العيش . والطبقة الارستوقراطية التي استقر معظمها في نانكين ، اخذت تطالب ، كحق من حقوقها المكتسبة الاستثناء بالوظائف ومرافق البلاد الكبرى .

وهذا القسم من البلاد الذي تساقط عليه جيش لجب من النازحين الذين نجوا بانفسهم من الشمال ، لم يكن الصينيون استكلوا ، بعد ، تمييره وحيائه . صحيح ان إقامة العائلة المالكة في هذا الشطر من البلاد ، ساعد كثيراً عملية التصين وحمل الاهلين على الاخذ بأسباب المدنية الصينية وتمثل حضارتها ، كما ازدادت الحركة نشاطاً ، باقامة الموظفين ، واصحاب الرتب العالية في البلاط ، والادباء والمفكرين ، واصحاب المهن والحرف ، بين ظهرائي الشعب ، والخلود الى الدعة والاستقرار ، بين افراده . وعلمية التطبع والتخلق بالاخلاق الصينية هذه ، لم تتم بالسهولة المرجوة . فاللايين من اللاجئين الذين اقتلعتهم العاصفة وطوحت بهم نحو الجنوب ، اقاموا فيه تراودهم الفكرة بالرجوع يوماً من حيث أتوا ، ويعاودهم الحنين الى الفردوس المفقود ، ولن يعم ان يعود اليهم استقرارهم المنشود . ولهذا رفضوا ان يدفعوا ما يقرتب عليهم من رسوم ، وأبوا ان يقوموا بالتزاماتهم الوطنية . وعبثاً حاولت الحكومة اعادتهم الى الصواب وقد كبيرهم بوجوب اعتماد جادة الاعتدال والرشد . وعندما ادركوا ان الوضع قد يطول أمده ، وربما امتدت سحايبته اكثر من الوقت المتوقع ، قبلوا باقطاعهم بعض الأرضين في جو تلعب فيه المصالح الشخصية وتتضارب المنازع الفردية . ولم تكن سنة ٣٦٤ حتى استطاعت الدولة ان تفرض عليهم ضريبة الاملاك واستيفائها . ففي الحين الذي راح فيه الاجنثون يتجادبون المنافع ويجربون المغامم اخذت سفينة الدولة تفوص في بحر من الفوضى المخزية فتزول من الوجود مفسحة المجال لغيرها .

كان لا بد من الانتظار الى عام ٤١٠ ، حتى نرى رسيس الحياة يدب من جديد في جسم هذه الامة ، بعد ان تمكن ، اسكافي قديم اصبح فيما بعد قائداً باسم ليو - يو ، ان يسترجع ، باسم سلالة تسن ، مقاطعة نان - ين من أيدي المغول مو - جونج ، كما تمكن من استرجاع مملكة هيو - تسن في تشن - سي ويستولي على مدينتي تشانغ - نغان ولو - يانغ . لم تكن هذه النجاحات

سوى برق خلّيب ، اذا استطاعت قبائل هيونغ - نو من اسراد تشانغ - نغان ، كما ان ليو - يو توصل ، بعد ذلك بستنين ، الى خلع آخر امبراطور من اسرة تسن ، وتأسيس السلالة الملكية الاولى من اسرة سونغ . واستطاعت هذه السلالة ان تخرج أذيالها متمطرة حتى سنة ١٧٩ ، دون ان تتمكن من القضاء على اسباب الفوضى واستئصال شأفة فساد الاخلاق في البلاط وحاشيته ، ولا ان تكون أهلاً لأن تحكم بلاداً تجتاز مرحلة من الازمات الخائفة . وخلافاً لما كان منتظراً ، فقد تعاقب على الحكم سلسلة من الملوك الفاسدين المفسدين ، او مسن الشباب الغر الذين تنقصهم الخبرة نمازت حياتهم بالاجرام السياسي او قتل امراء الاسرة المالكة ، او الاوصياء على العرش وعشيقات الامبراطور . وهو عهد ملطخ بالدماء المطلولة ، في حمرة من البدع وفساد الاخلاق ، وقد فشا السكر والتهاك حتى بين اصحاب التيجان .

وقد خلف اسرة سونغ على الحكم ، سلالة تسي (١٧٩ - ٥٠٢) فسارت على غرار سابقتها ، فكأنها من معدن واحد وطينة واحدة ، ففي جو من القتل السياسي والاجرام ، صار الامر في الدولة الى الغربيين واصحاب الحظوة من الخاصة . وقد كان عهد الامبراطور لنغ - نو - تي (٥٠٢ - ٥١٩) مرحلة قصيرة من التمثل في اتيان الموبقات والمنكرات الشائنة . فقد كانت حياته من بساطة العيش ما قارب الزهد ، ومع ذلك فقد عرف هذا الامبراطور ان يوفق بين شجاعة الجندي الباسل الاديب الذواق . واعتنق ، عام ٥١٧ ، البوذية وانقطع بكليته لواجباته الدينية ، حتى انه دخل بعد ذلك بمشر سنوات طغمة الكهان ، بحيث أهمل واجباته ومسؤولياته في الحكم فانالت على الامبراطورية الازمات واضطرب حبل الامن فيها بعد ان اشتد ساعد الجند المرزقة ، وراح احدم يفتصب عام ٥٢٨/٢٩ ، الملك ويستأثر به لمدة ثلاث سنوات ، ويمسك من نانكين عاصمة ملكه . وفي سنة ٥٥٦ ، صار العرش الامبراطوري في الجنوب الى سلالة جديدة تولى الامر فيها اسرة تشن التي عجزت هي الاخرى ، عن ادخال أي اصلاح في الدولة ، فلم تمهلها اسرة سواي فاحتلت نانكين مهددة بذلك السبيل لتوحيد الصين من جديد .

وكانت قبائل البرابرة ، في هذه الحقبة ، قد انقضت على الصين الشمالية
الصين الشمالية
واقامت فيها دولاً وممالك ناصبت بعضها العداء واخذت لتلاحر فيها بينها .
من هذه الدويلات : هيونغ - نو في شانسي ، وتيفانش في منطقة لا - لونغ ، ومو - جونغ في
ملشوريا الجنوبية . صحيح ان اسرة هيونغ - نو استطاعت ان تؤولف ، في الشمال ، مملكة قوية
عاصمتها تشانغ - نغان لم تغل مساحتها عن مساحة الدولة التي نشأت في الصين الجنوبية . غير ان
ما امرضت له من المنازعات العنيفة الدامية ، في الداخل ، بين الغزاة ، جعل من المتعذر جداً
قيام سيادة مركزية ، فلم نكون لثرى المذابح لاسد لها ، وفساداً في الاخلاق وغير ذلك من
المزبقات التي يندى لها الجبين خجلاً . وكان لا بد من الانتظار حتى منتصف القرن الرابع ،
اذ نهض ضابط من اصل منولي ، كما هو الراجح ، يستقل بالامر في مدينة تشانغ - نغان ،

ويؤسس فيها دولة . وقد تمكن ابنه فو - كيان (٣٥٧ - ٣٨٥) من تدوين مملكة مو - جونغ وضمها الى املاكه وأصبح بذلك سيد الصين الشمالية ، بالرغم من تصدّي امبراطورية الصين في الجنوب له ، وقيامها لأول مرة ، بهجوم معاكس . وكذلك يشتد في هذه الحقبة ساعد اماراة تينغتش ، التركية الاصل ، اذا استطاع زعماء اسرة توبا ان يؤسوا لهم مملكة ويحكموها من ٣٩٦ - ٣٩٨ باسم ملوك وايي *Wei* ، ثم الى سنة ٥٣٤ ، بعد ان دخل القسم الاكبر من الصين الشمالية تحت امرتهم ، بالرغم مما تعرضوا له من غزوات البدو الرحل في الفيافي المجاورة لهم ، فانشاروا بذلك وحدة عاشت مائة وخمس سنين . ويقصر القلم عن وصف العظمة التي بلغت اسرة وايي في الحكم ، اذ فضلها رسخ امر البوذية في الصين ، وتلبست باخلاق الصينيين وطباعهم . فكانت ادارتهم من اكبر العوامل في نشر أسباب الحضارة في البلاد . فالتقوى التي عُرف بها ملوك هذه الدولة ، تركت اثرها عميقاً في النقش وفن الحفر ، اذ بلغ الفن الديني ، في هذه الحقبة الذروة من الاتقان ، كما يؤكد المؤرخ غروسه ، بحيث يمكن مقارنتها بهذه الروح التقوية التي ميزت معاصريهم من ملوك الدولة الميروفنجية ، فكان ذلك خير اداة لتأمين وحدة البلاد وصهرها في بوتقة واحدة . وهنا ايضاً نرى الديانة تلبس عادات واعرافاً تنزى بالهمجية وان بقيت بعيدة ، مع ذلك ، عن المنكرات والفظائع التي اتاها التتري الملقب باللعبة الزرقاء : شا - هو (٣٣٤ - ٣٤٩) الذي لم تمنعه غيرته على البوذية ورعايته لها ، من ان يتلظ ، وهو الى مائدة الطعام ، بشواء لحم بعض محظياته الجميلات .

وتبقى ، مع ذلك ، قصة الامبراطورة هو (٥١٥ - ٥٢٨) خير مثال يُضرب على وحشية القوم ومهيجتهم بالرغم من اعتناقهم البوذية والعمل بفرائضها . فقد قُبض لها ان تدخل حرم الامبراطور ، محظية من محظياته المحببات ، سعيماً من احدى عماتها وهي راهبة بوذية عُرفت بالبلاغة والفصاحة وذراية اللسان وخرتجتها في تعاليم البوذية . فقد كانت الوحيدة من بين هؤلاء السراري التي رغبت بالمجاب صبي ، وهي رغبة تجر الوبال على صاحبها لو تحققت ، اذ ان العرف المتبع عند ملوك دولة وايي كان يحتم قتل ام ولية العهد ، تفادياً لقيام الامبراطورة الضرة بمحاولة اغتصاب العرش ، ومع ذلك ، ابت ان يمحروا لها اية عملية اجهاض ، ووضعت ابناً دون ان يأمرؤا بقتلها ، ولم تغم ان اصبحت بعد موت الامبراطور تشي - سونغ ، وصية على العرش ، تحم باسم ابنها الذي لم يكن عمره يتجاوز خمس سنوات . وتميز حكمها بالحزم والشدّة والعزم بعد ان تسلمت زمام امور الدولة ، واشرفت على سير الادارة الحكومية ، الى ان توفي ابنها فجأة وله من العمر ١٨ سنة . وقد حامت حولها الشبهات فراحوا يتهمونها بانها دبرت قتله بدس السم له . ولكي تخفف من غضب الشعب راحت تدعي ان ابنها ترك وريثاً للعرش اتضح فيما بعد انها ابنة . واذ زينت لها النفس الامارة بالسوء ان الامور استقرت وان ثورة الشعب هدأت ، راحت تزعم ان القضية مجرد سهو بعد ان التبس الامر على القابلة ، واقترحت ان ترفع على العرش ابن عم ابنها ، وهو صبي لم يتجاوز الثالثة بعد ، تكون وصايتها عليه امتداداً

لادارتها وحكمها . ونشبت على الاثورة حمراء قام بها الشاكون المتذمرون ، يتزعمهم احد قواد الجيش الذي امر بمحاصرة القصر الامبراطورية ولكي تتفادى غضبة الثائرين وانتقامهم ، التبعأت الى احد اديار البوذيين وقصت شعرها ، وادعت عبثاً انها سلكت الحياة الرهبانية . فبعد ان قبض عليها حكموا عليها بالموت غرقاً ، فطرحوها في نهر هوانغ - هو . كل هذا ، وقد برهنت الامبراطورة هو عن غيرة شديدة على البوذية والمحافظة على طقوس العبادة . فبايعاز منها سافر سونغ - يان وصاحبه هواي - شانغ قاصدين الهند ، وحلا معها ، لدى هودتها ، ١٧٠ كتاباً من كتب البوذية على مذهب الوسيلة الكبرى .

وفي سنة ٥٣٤ أنشقت مملكة واي على نفسها الى شطرين ، شطر هو - نان الذي عاش ١٦ سنة ، وشر شانسى الذي استمر سبع سنوات بعد زوال الاول . ولاسرة - هواي يمود الفضل الاكبر في ضم الصين الشمالية التي رسفت طويلاً تحت حكم الغزاة الدخلاء ، الى امبراطورية الصين ، في الجنوب التي عانت ، الى عهدهم ، ما عانت من سوء الحكم وفساد الادارة .

استمرار العمل الحضاري في الصين بقيت الحضارة في الصين آخذة بأسباب التطور ، بالرغم مما رزها من شوائب وعورات في الظاهر ، وبالرغم مما تساقط عليها من ضربات ونزل بها من كوارث قاصمة . فقد كان لها من الحيوية والقوة والنشاط ما صانها من الانسياع ، وأمن لها الاستمرار ، بالرغم مما تحالف عليها من ويلات . فهؤلاء الملوك البرابرة أنفسهم أدركوا جيداً ضرورة المحافظة على هذه الحضارة وصيانتها من كل ما من شأنه ان يلحق بها الاذى او ينقص من قيمتها . فامتد سيطرها ولم ينقطع بالرغم مما دق واسترق وأمكن تمنيته بفضل ما أدخل على البلاد من اصلاحات جديدة منها تبني الخط الصيني ، وانشاء نظام عقاري جديد ، واقتباس البوذية .

فالخط الصيني تمتع باستقلاله بمزل عن اللغة ، اذ هو تصور رمزي للافكار ، لا يبالي كثيراً ولا يهتم لما يطرأ على الالفاظ من تغيير يتعلق بالنطق . ولهذا كان الخط في الصين ، كما يقول فيه ولهم ، أشبه ما يكون بجزيرة حية ناطقة للأطوار المختلفة التي مرت بها المدينة الصينية تشهد على ديمومة الافكار واستمرارها بالرغم من طرود الغزاة للبلاد واقتطاعهم لبعض اجزائها . واذا كان على اسياد البلاد الجدد ان يستعملوا اللغة الدارجة فيها ، كان لا بد لهم من ان يتعلموها ويستعملوها فيسهل عليهم الاخذ بأسباب الحضارة الصينية .

ولم يقل نظام الاراضي المعمول به في البلاد ، فعلاً او اسماً ، أهمية في تأمين استمرار الحضارة الصينية وديمومتها . فالمشكلة كانت لعمري تختلف في شمالي الصين والسلالات الملكية التي قامت فيها ، عنها في الجنوب . فقد انصرف جل هم الحكام ، في الشمال ، الى تشييل اكبر عدد ممكن من اليد العاملة في الارض اكثر منه الى تأمين استغلال الاراضي الشاسعة المترامية الاطراف ولذا راح ملوك اسرة واي يحاولون توزيع الاراضي بالسوية ، اذ ان الاملاك الصغيرة المتروكة استثارها

للفلاحين ، تتطلب ، اذا ما تساوت مساحات ، قدرأ من اليد العاملة اكبر بما تتطلبه الاملاك الكبيرة . الا انها لم تستطع ، لوحدها اجراء اي تخفيض في مساحة الاراضي غير المزروعة ، ولا ان تؤمن المدخول المالي الذي كان من المتوقع ان يؤمنه نظام السقاية ونظام التصريف الذي عملت به الحكومة في الاملاك الزراعية الواسعة . ولذا عمل بالنظامين معا في وقت واحد .

فغزوات البرابرة وسيطرتهم على شمالي الصين هدد البوذية بكارثة ماحقة ، اذراح الغزاة يضيقون عليها الخناق ويضطهدونها لدرجة انهم حظروا على الشعب اعتناقها خلال القرن الرابع . وعندما استفحل شان هذه الغزوات ، اخذ الرهبان البوذيون ينزحون عن لو - يانغ ، ملتجئين بالبلاط الامبراطوري الذي إنتقل الى نانكين ، مخلفين وراءهم الهياكل والمعابد والاديار بعد ان عاث فيها الغزاة واستباحوا باحتها ، وسلبوا ما فيها من كنوز وتحف فنية ، بحيث لم يبق منها سوى ٤٢١ مبدءاً من اصل ١٣٧٥ . وغير اباطرة اسرة واي ، فيما بعد ، موقفهم العدائي من البوذية ، وعاملوا اتباعها ومريديها بالهسنى ، فاعتنق بعضهم مقالاتها وقالوا بتعاليمها ، حتى ان احدهم وهو الامبراطور هونغ ، تنازل عن العرش ، عام ٤٧١ ليدخل احد الاديرة ويقضي ما تبقى من حياته راهباً . ان تصرفاً من هذا النوع كان يلبس ، ولا شك ، من تقوى هؤلاء المرتدين الحديثي العهد ، كما كان يرمي ، من جهة اخرى ، الى اهداف ديبلوماسية . فالبوذية ، هذه الديانة التي دخلت البلاد من الخارج ، والتي كانت تزرع في روع أتباعها الايمان بقدرتها على خلاص نفوسهم ، كانت لتسح لاقامة علاقات مع البلدان التي كانت ، بالقوة ان لم نقل بالفعل ، منطقة لانتشار الحضارة الصينية فيها . ومهما يكن ، فقد بلغت البوذية في الصين ، في القرن السادس ، ما بلغته المسيحية في جرمانيا ، خلال الحقبة ذاتها .

ومن الصين الشمالية انطلقت اولى بعثات المرسلين البوذيين الذين لم يكونوا ليقنعوا بما لديهم من الكتب البوذية ، بينما كان الرهبان البوذيون في الهند ، يحاطرون بانفسهم ويتعشمون المخاطر والمشقات ، في الجاه الصين ، يدعون للبوذية فيها ويميلون على انتشارها في ارجائها . وقد تكونت من هذه الرحلات ، كتبات كاملة ومجموعات كبيرة من كتب البوذيين الدينية . فقد قام في اواخر القرن السادس ، برعاية الامبراطور فو - نيان ، دائرة للترجمة والنقل كانت تعمل بنشاط في مدينة تشانغ - نغان . وخير من يمثل هذه الحرية الثقافية هو الراهب البوذي كومارا جيفا ، الذي اشرف على هذا العمل فلا بأس اذاً ، من الوقوف قليلا عنده ، نستجلي شخصيته البارزة ، فقد رأى النور في اسرة هندية من مقاطعة كوكا ، واخذته امه ، التي كانت ابنة ملك هذه المقاطعة بالذات ، وهو بعد في ميعان الصبا ، الى مقاطعة كشمير ليتخرج في الآداب الهندية والبوذية على علمائها ورهبانها . وقد كان ابيه بوذياً ورعاً ، راودته الرغبة من قبل ، في ان يسلك الحياة الرهبانية . وقد غادر الفتى كشمير بعد ان أتم تحصيله وتوقف في طريق عودته الى كوكا ، في مقاطعة كسجبار ، سنة واحدة ، يلزم علماء مدرستين من مدارسها كانتا قبلة انظار طلاب العلم ورواد المعرفة ، كما كانت معاهدها موئل الثقافة وبهجة الرحالة الصينيين في ذلك العهد .

وفي تلك الاثناء ، هاجم نائب ملك فو - كيان مدينة كوكا . عام ٣٨٢/٣٨٣ ، واخذ اسيراً معه الراهب كومارا جيفا الذي كان لمع اسمه واشتهر امره بين علماء زمانه . وهكذا كُتِبَ لهذا الراهب الذي يجري في هروقه الدم الهندي والكوتشيني ، والذي إستبحر بعلوم البوذيين ، على يد علماء كشمير ، ان يُقدم الى الصين حيث اخذ بترجمة اهم كتب البوذية الهندية وتعاليمها ، ولا سيما الكتاب المسمى : « لوتوس الايمان القويم أو Lotus de la bonne foi » ، وكتاب *Sutralamkara* الذي وضعه الشاعر الهندي الأشهر اسفاغوزا بعنوان : « دليل الارض الطاهرة » وكتاب فينايا لأصحابه *Sarvastivadin* . وكتاب المدرسة الناقدة أو *Mudhyunika* .

ففي الوقت الذي كان فيه الراهب فا - بيان وصحبه يفادرون الصين في اتجاه آسيا الوسطى والهند ، كان عدد كبير من الرهبان الهنود ، يَصِلون باستمرار الى تشانغ - نغان او الى تانكين . فبعد قدوم فا - بيان بقليل ، أي حوالي عام ٧٢٠ ، قام بوذا بهادرا بترجم الى الصينية : « اضفورة الزهر » ، وهي رسالة رمزية في وحدانية الكون ، هي بمثابة التوراة لدى الفائلين بالباطنية في مقاطعة هوا - ين . ففي مطلع القرن السادس ، أقام راهب هندي آخر ، اسمه بوذيذارما من تانكين عند ملوك وايي في سونغ - تشان . وتولى رئاسة فرقة ديلية ينقطع أصحابها للتصوير والتجريد الديني والفلسفي ، هي ديانا عرفت ، في الصين ، باسم تشان . وفي سنة ٥١٨ ، قدم تانكين راهب هندي آخر يدعى بارامارثا وترجم فيها المجموعة الفلسفية الدينية المسماة : «الواسطة الصغرى » التي ألفها فازوباندو ، قبل ان يمتنق مقالة «الواسطة الكبرى » .

وبعد ان تم للفكر الفلسفي الصيني مثل هذه الكتب المهمة ، من قديمة وحديثة عرف الفكر الفلسفي الديني في الصين عهداً من الازدهار والتألق ، ألجِه في كثير من مناحيه ليس شطر البوذية فحسب ، بل ايضاً نحو الكونفوشية والطاوية . وهكذا هيمن الفكر الهندي ، مع ان الفلسفة الصينية ، انتهت في أواخر القرن السابع ، بعد ان رفعت من سمو هذه التعاليم ، الى تكوين فلسفة طاوية لا تقل سمواً ومثالية عن الفلسفة البوذية .

وهذه الحركة الفلسفية الجديدة التي برزت في الصين ، اذ ذلك ، وأدت الى ازدهار البوذية بحيث جعلت منها بحق ، منافساً للطاوية يُحسب لها ألف حساب ، لم تلحق ، مع ذلك ، أي تغيير يذكر في صميم البوذية . فقد بقيت ديانة شعبية ، عمالية . فالجانب العمل العظيم الذي سقاه القائمون على حركة الترجمة ، اخذت اولي المبادئ المنحوتة في الصخر تظهر للوجود ، عام ٤١٤/٤١٥ ، ولا سيما في مقاطعة يون - كانغ على شاكلة المعابد البوذية المحفورة في قلب الصخور العالية في توان - هوانغ ، إحدى مقاطعات أفغانستان (ياميان وككراك) ، والى ما وراء هذه البلاد في الهند ، حيث يكثر عددها . وكان إعداد هذه الهياكل وتوضيها ينشط او يخمد وفقاً لصروف الدهر في عهد دولة وايي ، واستمر الاهتمام بها حتى طلوع دولة تانسو ، بينما انصرفت العناية ، في الوقت ذاته ، الى حفر معابد صخرية اخرى في لونغ - من ، الواقعة الى الجنوب من

لو - يانغ ، كما كان انشىء ، عام ٥٢٣ معبد سونج - يو - سو ، في مقاطعة هونان .
 ففي الحين الذي انقطع فيه بعض الرهبان الصينيين للتأمل والتجرد واوغلوا بعيداً في حركة
 التجريد الفلسفي البوذي الى ان بلغوا فيها الأوج ، وقف السواد الاكبر من الشعب عند بعض
 الطقوس العملية البسيطة ، الكفيلة بان تفضي بصاحبها الى الولادة من الجديد ، في السناء ، مع
 الآلهة ، أو اقله ، الى تأمين حياة بشرية تتوفر فيها اسباب الغبطة والسعادة . فالحياة النسكية في
 الاديار العادية مقصورة اساساً ، على الاخذ ببعض القواعد المهمة ، كمزوف الراهب عن الزواج ،
 وعن اقتنائه خيرات هذا العالم لنفسه ، وان يعيش من الصدقات التي تقدم له ، وان لا يأكل الا
 مرة واحدة في النهار ، قبل الظهر بقليل ، وان يقوم بفروض التأمل . وعلى مثال الطاوية
 انشأت البوذية في الصين ، مراسم وطقوساً غاية في الروحانيات ، مع ما فيها من تعقيد ، مخصصة
 لتكريم الموتى . اما العبادة نفسها ، فقد بقيت على بساطتها ، اذ كانت تقوم على فعل العبادة ،
 وعلى تقديم النذور والتقدم ، من زهور وبخور .

وكان تأثير البوذية ظاهراً جداً على الطاوية ، في هذه الحقبة : فالعزوية امر مفروض على
 التلاميذ أو الرهبان الذين يعيشون عيشاً مشتركاً ، وانتشر القول بتقميص الارواح وتناسخها بين
 الناس ، وقد أصبحت الآلهة كائنات سماوية ، حرة بكل احترام ، مهمتها الاولى إرشاد الناس
 وتأمين خلاصهم الابدي . والى جانب الديانة الشعبية يطلع من صميم الطاوية مفكرون وفلاسفة
 عرفوا باستقلالهم الفكري ، أشبعوا بتعاليم المدرسة الكونفوشية ، وان كانوا اخرجوا عليها لما
 آلت اليه من تجرع في مبادئها واوضاعها العامة . من هؤلاء المفكرين ، مثلاً تاو - يوان - منج
 (٣٧٣/٣٧٢ - ٤٢٧) اكبر شاعر عرفه الشعر الغنائي ، قبل تانغ . والثشيء المميز لدى هؤلاء
 المفكرين ، هذه الحرية الفكرية التي كثيراً ما أفضت بهم الى مواقف مستقلة ، غيرت اساساً من
 مجرى حياتهم الوظيفية أو المسلكية . وفي عهدهم اخذت تظهر بوادر هذا الشعر الوجداني الذي
 بلغ الاوج في عهد اسرة تانغ ، هذا الشعر الذي غنى جمال الطبيعة ، وبرزت فيه رهافة الحس
 الصيني على أتمها .

ألقى دخول البرابرة الى الصين الشمالية الفوضى فيها والقلق بين الشعب . فبعد
 الحياة الاجتماعية
 ان نزلت طبقة النبلاء باجمعها ونجبت بنفسها نحو الامبراطورية الصينية في
 الجنوب ، راحت تعيد تنظيمها وتستولي على املاك شاسعة ، وتحيي الامتيازات التي كانت تنعم
 بها ، ويختصر القول ، العمل على تنظيم الامبراطورية . اما في الشمال ، فقد وجد اسياد البلاد
 الجدد أنفسهم ، في بلد يحول فقره بالموارد البشرية ، دون تنظيمه على الوجه الذي يرغبون .
 ولذا راحوا يستعينون على نطاق واسع ، بههنا الفريق من الادباء المفكرين الذي بقي قائماً في
 المقاطعات الشمالية في الريف ، واتخذوا من بينهم ، الموظفين الذين يقتضي حسن سير الادارة
 وجودهم ، وقسموم الى تسع طبقات ، على لسق مسلسل في علاقاتها ، تتألف منها الطبقة
 الارستقراطية في البلاد ، تتميز فيما بينها بالغاب خاصة كالباب القديم - والباب الجديد - والباب

الشريف ، وغير ذلك من الكنى. والالغاب . وهذه الارستقراطية الجديدة لم تكن لترضي قط بالزواج بغير الفريق الآخر او بمصاهرة من هو ادفى نسباً، ولا سيما مع الغزاة الدخلاء بعد استحصال الشعور بكره الاجنبي وكل ما هو اجنبي ، واحتدام الروح العرقية في هذه الديانات الواقعة تحت حكم وسيطرة سلطان دخيل . ومثل هذا الوضع لم يحمل قط دون بعض التدابير والاجراءات المالية كما أدى بالتالي ، الى امتصاص المجتمع الصيني لهذه العناصر الدخيلة، على البلاد . وهكذا تكونت في البلاد أسر وعائلات كبيرة ، ذات املاك وعقارات واسعة ، يعيش رؤساؤها في المدينة ، ويتدخلون بحسب الوظائف التي يقومون بها ، في امور الحكومة وشؤون الدولة ، وهكذا انتقلت السلطة شيئاً فشيئاً من الحكومة المركزية ، الى الارستقراطية صاحبة الاراضي الواسعة . وهذه الطبقات الاجتماعية متميزة ، تكاد تكون مغلقة على نفسها ، وتقسّم الى النبلاء والبورجوازية والشعب . فالوظائف والمراكز الكبرى هي وقف على النبلاء ، اما ابن الشعب الذي يستحيل عليه ، الوصول الى اي منها ، فيرتب عليه ان يقنع بالدون منها . فالقوارق الطبقيّة عظيمة جداً بين دولة واي ، حيث الترابط المسلسل يتحجر ويقسو ، وبين المجتمع الصيني في عهد دولة تسن والهان ، حيث كان في مقدور شذاذ الآفاق ان يثروا ويرتفعوا اجتماعياً ، حتى يبلغوا العرش . وهذا التراكم الطبقي الاجتماعي تضاعف بشيء من الوحدة السياسية ، ازلت معها هذه الامارات والدويلات الصغيرة ، الواحدة تلو الاخرى . وكانت الامبراطورية الصينية في الجنوب لا تزال تعاني اعراض التفسخ الخلقي . وكان لا بد من انتظار مجيء دولة سوي للقضاء على هذا التفسخ الاخلاقي ، ولاعادة الوحدة الى الصين برمتها .

ولعل اهم اثر تركه لنا المجتمع الصيني في هذه الحقبة ، هي هذه التماثيل او الدمي الجنائزية التي عثر عليها دون ان تمكنا الحفريات الاركيولوجية التي اجريت في هذا المجال ، من نسبة بعض منها الى الجنوب ، او ان زدها كلها الى الشمال . ومهما يكن من أثرها، فهي تتيح لنا ان نتبين السيات التي طبعت بعض الشخصيات التاريخية في هذا العهد ، معظمهم من النبلاء كما يرجعون ، من فرسان بين نساء ورجال ، ولا عجب ، اذ ان اسيااد السلاط الجدد هم اصلاً من هؤلاء القوارس البدو الرحل ، الظاعنين في الفيافي الرملية . ويستدل من هذه الدمي ما كانت عليه هامة الحصان من صغر وانحناء في العنق ، وارتفاع في المؤخرة ، بينما يرتدي الفارس منهم رداء فضفاضاً له قبعة ، واحياناً قبعة من اللباد ، بينما نرى منهم من يلبس رداء صيلياً ، ومشداً عند خصره . اما الفرسان النساء فيرتدين فساتين طويلة ضيقة تصل اردان اكمامها المتدلية ، الى الارض ، بينما نرى بعض النساء يلبسن فساتين فصلت على قدودهن ، لها ذنّب طويل جداً ، بحيث تضطر الواحدة للام اطرافه وحملها على ساعدها ، اما شعرها فمرفوع ، تغطيه قبهضة مفلطحة تنزل الى الاذنين ، لها طرفور، ينتهي طرفه بعقفة ، وهو زي يشبه الزي الذي عرفت به المرأة المغولية .

واذا صح تاريخ نسخة الرق المنسوب الى كو - كاي - تشي (٣٤٤ - ٤٠٦) صح لنا ان

نستنتج بان ما درجت السماء على لبدسه في الجنوب ، كان اخف وانعم وبجمل سحائب محتاية . فامام تصلب ملوك وايي في الشمال ، تطالعنا في بلاط اسرة تسن رهاقة. الذوق والظرف . فالرسوم الجدارية القائمة في مغارة بن - يانغ ، في مقاطعة لنبغ - من (حوالي عام ٥٣٥) حيث نرى صدفواً من ملوك دولة وايي ، تبرز لنا مام عليه من لبس وثير وظرف كيتس صيني الطابع ، له اردية طويلة الأرداف ، متدلية الاكام ، وعة مختلفة الاشكال والاذواق . وفي الطرف الاقصى من الصين ، نرى في كوريا مقدمات النذور ، نساء تنانيرهن مطمعة ، مكسرة ، وفساطين مزينة بالفرو . والفزسان يتطون صهوة جياد غنية السروج ، ويلبسون قبة محلاة بالريش ، سلاحهم القوس والنشاب وكنانة من الزي المغولي .

٤ - آسيا العليا وانتشار الهونز

يفهّم من المصطلح الجغرافي : آسيا العليا ، هذه المناطق الشاسعة التي تشمل منغوليا والتركستان الصيني والتبت وتفرعاتها السياسية والعرقية واللغوية ، بما يلامس الهند او يشارف ايران : كمقاطعات كابتسا وغندهارا ، وبكتريا ، وأركوسيا ، وبلاد الصغد حتى مشارف نهر الأوكسوس ، اذا ما اقتصرنا على الأسماء القديمة . ففي هذه الفيافي الشاسعة رأينا ، منذ القرن الرابع ، بين الشعوب والقبائل والاقوام التي تمور فيها ، حركة عارمة لشعوب تروح وتقدو ، وقبائل تتحرك ، وأقوام تغلي بالنشاط المموم ، وقوافل تروح وتجيء في هذه المسالك التي كان يسير عليها تجار الحرير والسلع الشرقية ، وسرايا الرهبان وكنهنة البوذيين ، يقطعون هذه الصحارى ناشرين البوذية داعين الناس لاعتناقها ، وجيوشاً جرارة تسير ، هذه مظفرة منتصرة ، وتلك جارة وراهما أذبال اليأس والفشل . وتطالعك ، الفينة بعد الاخرى ، في هذه الصحارى المحرقة ، جزء من الاراضي الصالحة للحرث والزراعة ، هي واحات تطلّيع من الزرع والضرع ، ما فيها صلاح الهابطين فيها ، او القائمين عليها ، كواحات تاريم مثلاً ، تليها قفار لاحد لها ولاقرار يرتد عنها الطرف وهو كليل ، تسمّر الخوف وتزرع الرعب في قلب من يشرف عليها ، فكيف بمن يجازف بالمرور فيها .

ففي هذه الحقبة التي نحن بصدها ، نرى موجات من البدو الرحل تندق أبواب المناطق الزراعية بشكل مقلق لم تأنس مثله من قبل ، طمعاً منها بما بلغته هذه المناطق من تطور في أساليب استثمارها ، او شهوة منها بما ينعم به سكانها من خيرات وافرة ، بعد ان فقرت نفوسها من خشونة الصحراء وجفوة الطبيعة ، امام ما تقع عليه العين من غنى وثراء بين اهل الحضرة ، في وقت غصت فيه البادية بالفائض من سكانها وأهلها ، فاندفعوا كالشهاب الساطع ، يقتطمعون منها ما رغبوا في اصطفائه من خيراتها ، ويستبيحون ما طمعوا به من فيء ورقاء . ومعظم هؤلاء الاقوام الذين يسرحون ويمرحون في هذه الفيافي هم من الترك والمغل ، لم يتجاوزوا ، في تطورهم ،

نطاق حياة الطعن ، بالرغم مما عرف عنهم من ذكاء وتوازن في القوى العقلية ، وما سجلوا عليه من روح عملية ، بينا اهل الحضرة من سكان المدن والريف ، الذين يسيطرون على مساحات واسعة من الاملاك والارضين ، وسجلوا تطوراً لا بأس منه في زراعتهم ، قد استسلموا للدعة والسكينة ، واسترخت منهم الاخلاق .

وتقوم هذه الشعوب ، في القرن الرابع بدفع وضغط لا يقاوم اخذت معه تفلي كالقدر . ولاول مرة منذ عهد بعيد ، توصل البدو الى تأسيس ممالك لهم مستقلة ، اولها مملكة جوان - جوان التي انشأتها قبائل الآفار بين ٤٠٧ - ٥٥٣ ، كما ان قبائل من المنول تشدهم الى الآفار وشائج الدم والقربي ، تأخذ بمهاجمة اوربا ويتمكن شارلمان من كبح جماحهم فيما بعد ، وبسط سيطرته عليهم . وتكاد لا تقل بأساً عن هذه المملكة ، مملكة اخرى ، اسسها اقوام الهونز الهفتالين ، فانقضت جماعهم ، في مطلع القرن السادس (عام ٥٠٠) على الافغانستان والهند بخلفة وراها الخراب والدمار ثم تطالعتنا مملكة اخرى هي مملكة توك - كيو ، اسسها اقوام من الترك اخلوا الساحة ، فيما بعد ، في منطقة 'طرفان' ، لقبائل الويغور *Uigurs* في آخريات القرن السادس .

ومع اختلاف عروق هذه الاقوام ، فقد جمعتهم شخصائص مشتركة ، بعد ان صهرتهم ظروف البيئة القاسية ، وطبعتهم بيسمها وتضرسوا بمخشونتها . فلم يكونوا ، والحق يقال ، من البدو الخلتص ، اذ كان ملوكهم يقطنون في المدن .

« كانوا يظنون وفقاً لمتطلبات الماء والكلأ ، يبنون لهم مساكن من اللباد ، يقصدون صيفاً المناطق الباردة بينا يهبطون شتاءً المواقف المعتدلة . فالزوجة الواحدة هي مشتركة بين عدة اشوة ، يفصلون نساءهم في اماكن منزوية ، يتراوح بعدها عن مضارب القبيلة من ٢٠٠ الى ٣٠٠ لي (قياس للمسافات عند الصينيين قديماً يوازي طوله ٥٧٦ متراً) . ويقوم الملك او رئيس القوم عندهم باسفار ورحلات متنقلاً ، يغير مقره شهراً بعد شهر . يقبع في مقره خلال فصل الشتاء مدة ثلاثة اشهر . عرفوا بالعنف والشجاعة والاقدام . « (مأخوذ من *Pei (he* فصل ٩٧) .

وعندما يسافر الملك أو ينتقل :

« يصطحب معه خيمة مربعة من اللباد ، طول كل ضلع من اضلاعها ٤٠ قدماً ، جدرانها من السجاد والطناس الجبلية . ويرتدي ثياباً من الديباج والحرير الموشى ، ويقربع فوق اسرير من الذهب يقوم على اربع قوائم من الذهب بشكل عنقاء . يرتدي زوجته الاولى الحرير المزركش ، تجر وراءها ذبلاً لا يقل طوله عن ٨ اقدام لتتدل منه اللؤلؤ والحجارة الكريمة بالوان مختلفة . فاذا ما خرجت الملكة خرجت في هودج تحمله عربة . اما في المنزل ، فهي تتكبر على اسرير من الذهب بشكل فيل ابيض ، له ستة انياب ، واربعه اسود « (من رحلة سولج - يون بمنوان ، « الهونز الهبتاليون - ترجمة شافان)

ويشرف هؤلاء الاقوام الرُحَّل على كثير من المدن والارياف يسيل لعاب البدو لرؤيتها لما فيها من رفاً وخيرات ، فتحدثهم نفوسهم بالاستيلاء عليها ، وكانت ملكة خوتان منها ، على الاخص ، مثلاً للشهوة ، لما كانت عليه من فراء وغنى .

فالملك يعتمر قمبة يعلوها حرف كحرف الديك ، ويتدلى عن رقبتها من الوراء منديل من الحرير الخشن طولُه قدما ن وعرضه ه قراريط . فاذا ما حض حفلات رسمية ، قرعت الطبول ، ونفخت الابواق ودقت الصنوج ، في جو يمتلئ برأى القوس والشاب ، وحوبتين وخمسة رماح ، ويميط بالملك ، حرسه الذي لا يقل عن المائة بخنجرهم . وتلبس النساء لونها من السراويل ، وسترة مشدودة الى الحصر يزنا ويركن الخيل كالرجال (المصدر ذاته) .

وعلى مثل هذا الوضع من الازدهار المثير ، تبدو مقاطعة غندهارا .

سهول خصبة ليحاء تتوسطها مدينة شاهس غارهي بما حولها من أرياض غناء ، عامرة بالسكان الناعمين بما هم عليه من دعة وازدهار ، والبلاد كثيرة الاحراج دافقة المياه ، والتربة خصبة تعطي بسخاء (المصدر ذاته) .

وكان هؤلاء البدو الرحل يصطدمون في تنقلاتهم اما بممالك قائمة ، منظمة او يعترض سيرهم وتقدمهم جواجز طبيعية ، يحول دون وصولهم الى الصين ، سورها النيع ، كما ان افغانستان كانت بدورها تتحكم بالمعابر والمجازات التي تفضي الى غندهارا والهند ، ويقع جزء منها تحت سيطرة ايران الساسانية ، بينما تقوم في المناطق الاخرى جبال همالايا الصعبة المرتقى ، حائلا دون الوصول الى التبت .

اما اواسط آسيا ، فسكانها من الهند الاوروبيين ، يتكلمون الطوخارية ، وهي لغة بينها وبين الارمنية والسلافية ، والاطالية والكتانية ، اكثر من أصرة ورابطة ، او يستعملون في تخاطبهم الايرانية الشرقية ومعظمهم شقر ، ولهم عيون زرقاء وهم على البوذية . وقد تأثر بعضهم بالحضارة الهلينية كما يستدل من آثارهم الفنية ، ولا سيما من قام منهم في غندهارا والبكتريا ، بينما اخذ البعض الآخر ولا سيما من سكن منهم الواحات الشرقية ، بأسباب الحضارة الصينية ، وتطبعوا بها ، فقبلتهم متأخرة جداً ، المؤثرات الايرانية ، كما يستوحون احياناً ، مبادئ الجمالية البيزنطية . فالافغانستان جزء لا يتجزأ من هذه المجموعة التي تؤلف كلا جغرافياً وحضارياً . وتصدر هذه المناطق الغربية التجانس ، عن طراز جديد مشترك فيما بينها ، ذي طابع ايراني بوذي ، يمتاز بمنصر حضاري مشترك هو حصيلة هذا الاتصال الواقع بين ايران الساسانية والعالم البوذي . وهذا المزيج الذي تتمثل معاملة ، بين القرنين الثالث والرابع في ايبان وككراك ، ثم في طرفان وقزل وكوكا (في القرن السادس والسابع) وصل الصين عن طريق اسرة وايي التي احتل ملوكها ، عام ١٣٩ ، توان - هوانغ ، وهي موقع حربي وسوق تجارية تقع عند تخوم الصين الغربية ، عند مشارف صحراء غوبي ، في نقطة تتجه اليها وتلتقي عندها ، هذه المؤثرات التي تسلك طريق تجارة الحرير .

فلا عجب ، والحالة هذه ، ألا يقوى هؤلاء الاقوام الرحل الذين يحومون في هذه الفيافي ، على مقاومة الرغبة الشديدة التي تراوهم على احتلال هذه الاراضي الزراعية الخصبة ، ويتحرقون لاغتصابها من اصحابها ، والاستئثار بما فيها من مراكز حضارية جذابة ، مغرية ، وما اليها : من معابد وهياكل ، ومدارس وأديار ، قائمة بجموار القصور الملكية ، ومن اسواق تفص بالبضائع

والسلع والمواد الغذائية . فأخذوا يرفون بأشتهاء وعُجْبٍ ، الى هذه المدهشات المغرية التي عرف أهل الحضرة ان يطلعوا بها ، بعد ان يقابلوها بما هم عليه من قسوة الحظ وقسمة الضئى ، أبدأ في طلب الكلاً والماء ، وقد ضمرت اجسامهم ، وخوت بطونهم ، لما أصابهم من حرمان ، وقاسوا من جذب الارض وجفوة الاقليم ، وعضة الطبيعة . ففي القرن الثالث ، نرى قبائل الهونز تتعامل بصنوف مكتنظة ، على سور الصين ، تربطهم الى ملوك الصين روابط أشبه ما تكون بتلك الروابط التي شددت ، في الغرب ، القبائل الجرمانية الى الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع . وكثيراً ما كان زعماء الهونز يختلفون الى عاصمة الامبراطورية الصينية ويترددون عليها ، متكسبين من هذه الاتصالات . وكثيراً ما استعملتهم في الفرق المرتزقة من جيشها واتخذت منهم عوناً لها عندما اصيبت دولة الهان بالعجز والوهن . وهكذا أتيج للعديد من هؤلاء البدو الرحل الخفيفين ، ان يجتازوا ، بأعداد متزايدة ، السور الكبير ، وان يعيشوا داخل الصين . وعندما انطلقت شملة الحروب الاهلية ، اثر انهيار دولة الهان ، راح الهونز يشبتون وجودهم وقد شجعتهم الفوضى الضاربة أطنابها في البلاد ، فوضع المقيمون منهم في الداخل ، أيديهم على الاراضي التي كانت يتصرفهم ، تحت ستار شفاف من الشرعية ، ملوحين بأقدميتهم الصينية . اما من كان منهم في الخارج ، فقد توافدوا عملاً بسنة التضامن مع ابناء عومتهم . وهكذا ، بفضل هذا الدفع المشترك ، اضطر ملوك تشن ان يتخلوا لهم عن شمالي الصين . وقد مر معنا كيف ان هذه الممالك التركية - المغولية ، العديدة ، التي تكونت ، اذ ذاك ، لم تلبث ان ذابت في قلب مملكة واسعة اقامها الهونز ، زالت بدورها ، هي الاخرى ، عام ٣٤٩ ، وراحت فريسة بمالك ودول أنشأها البرابرة فيما بعد ، انهارت بدورها هي ايضاً ، وزالت من الوجود ، عندما استطاع أتراك تبغاتش او توبا انشاء امبراطورية وايي ، عام ٣٩٦/٣٩٨ .

وفي الوقت ذاته ، قامت ، قبائل اخرى من الهونز - يُعرفون بالهونز الهفتاليين ، أي الهونز البيض ، كما يسميهم المؤرخون البيزنطيون ، وهبطت من اعالي جبال ألتي ، واستقرهم المطاف في التركستان الروسي ، تم إنجهم نحو الصفديان (سمرقند) والبكتريا التي بلغوها في عهد الملك الساساني بهران غور (٤٢٠ - ٤٣٨) . وبعد ان انتصروا على خليفته الثاني : فيروز (٤٥٩ - ٤٨٤) استقروا في مدينة مرو وهرارة . الا ان ايران الساسانية كانت مُنيعة وعرفت ان تدافع عن ممتلكاتها . ولذا تحول الهونز ، بقضهم وقضيضهم ، باتجاه افغانستان ، بعد ان دفعوا امامهم ، باتجاه غندهارا ، الهندو - الفيز الذين كانوا يسيطرون على تلك المنطقة . ومن ثم ، راحوا يهاجمون الهند ، ويحاولون بسط سيطرتهم عليها ، في سلسلة من المعارك والحروب الدامية انهكت دولة القويبتا . وامعن الهونز في هجيتهم : فساموا سكان هذه المنطقة الذين اخذوا ، منذ عهد بعيد ، باسباب الحضارة الهلينية واعتنقوا البوذية ، الواناً من العذاب واصنافاً من الآلام ، وأذاقهم الذل والهوان ، بعد ان قاموا بمذابح هائلة بين السكان ، واضطهدوا بمنف ، الجماعات البوذية وهدموا اديارهم ، وقضوا على ما عندهم من روائع الفن الجميلة ، ودكوا

معالم الحضارة اليونانية - البوذية ، كما يؤكد المؤرخ غروسيه . وعندما بدت ترثم امارات الضعف على دولة الغوبتا ، هاجمها الهونز بعنف شديد ، فتوالت غزواتهم الملاحقة بقيادة طورامانا وميهيراكولا ، فزرعت الخراب والدمار وارزحت الهند لمدة قرن . واستهدفت الديانة البوذية للإضطهاد الشديد ، فهدمت الاديار ، واستبيحت المحرمات ، وقضي على روائع الفن ، فالتفوا كل ما وصلت اليه ايديهم ، وبفضل ما الحقوا بالبلاد من خراب ودمار ، نرى انفسنا عاجزين عن درسي معالم فن الغوبتا ، الا من خلال بعض النماذج النادرة التي وصلت اليها . وخلافا لابناء عمومتهم الذين استقروا في شمالي الصين واعرقوا فيها ورسخوا ، نرى برايرة الهونز ، في الهند ، يزولون تماماً من أرجائها ، منذ اواسط القرن السابع ، اما لاستئصال شأقتهم ، او لدوابهم بين سكان البنجاب وغوجارات ، حيث لم يلبث زعمائهم ونبلاؤهم ان انصهروا في بوتقة الارستوقراطية الهندية .

وكالاشطبوط يرسل مجساته في كل اتجاه ، هكذا ارسلت قبائل البدو الرحل في اواسط آسيا ، سرايا جمعائها في كل مهب ، مضيقه الخناق على العالم البوذي ، دافعة امامها كل من صدمته من شعوب واقوام ، تلك منهم الممالك والامبراطوريات . فقد واجهتهم ايران بدرع منيع من قوة جيشها وبأسه ، تحول معه الهونز في شمالي بحر ارال ، نحو اوروبا ووطنوا بسنابك خيلهم ورجلهم الامبراطورية الرومانية (٣٧٦) . فالوصف الذي ترك لنا عنهم المؤرخ اميان جاء يؤيد الى حد بعيد ، ما ذكره عنهم المؤرخون الصينيون :

بز الهونز هجبية ، كل ما يمكن ان يتصوره العقل او يختر على بال انسان . فقد جهلوا الزراعة ولم يفقهوا يوماً معنى المنزل او بيت او كوخ . فهم ابدأ في دوران ، الفوا منشد الصفر ، زمهرير البرد شتاء وحارة الصيف ، وانطلوت بطونهم على الجوع وسالوا يوماً بظلماً . تجري قطعانهم من الماشية حثيثاً في اترم ، ويجرون رءاهم عياطهم واولادهم بعد ان يكردسوم في عربات تسير متشاقلة . يلبسون صيفاً شتاء ، اردية من الكتان ، ومعاطف من جلود الجوزدان خيطة بعمداً الى بعض ، وقد اعتمروا خوذاً من الجلد ولعوا افخاذهم الكثيفة الشعر بسبور من الجلد الحشن ، وانتملوا في ارجلهم احذية لا شكل لها ولا قوام ، ولا تساعدهم على السير على الاقدام . ولهذا لم يصلحوا قط لحرب المشاة ، بينما اذا ما صاروا على صهوة جياهم ، خلتهم قطعة من الجواد الذي يركبون ، والهونز من هذا الجيل الصبور الجليلد الذي ينطلق فارسه كاللحم العاصف او كالشهاب الخاطف . ليس من يضاھيم برمي القسي والنبال ، عن بعد فهي لا تخطى ، .

والفارس منهم مجهز بقوس شدة وتره ، وله نظر حديد يقده شرراً من عين غارقة في محجرها الضيق ، وأنف مفلطح وجنتان بارزتان . هو من هؤلاء البرابرة بالذات الذين سيطلون علينا بعد ذلك بالف سنة ، اي في القرن الثالث عشر ، عندما تندفع الموجة المغولية ثانية ، بعد ان تبلغ قوتها الذروة .

وبعد ان سيطر الهونز على منطقة السهول المتراامية ، بين جبال الاورال وجبال الكربات ، افضوا الى سهول فلاحيا ، ومنها دخلوا هنغاريا . واجتاز احد زعمائهم أتيلاً ، نهر الدانوب ، عام ٤٤٦ ، واتجه بعد ذلك بعشر سنوات ، بقضته وقضيضه ، نحو غاليا ، قبلبغ الرين ، واضرم

الحرائق في مدينة ميتر ، يوم ٧ نيسان (ابريل) ٤٥١ ، وجاء يهاجم مدينة اورليان ويضرب الحصار حولها ؛ ولم يلبث ان تراجع القهقري الى مدينة تروى حيث ابتلي بابع هزيمة ، ومنها عاد ادراجه الى الدانوب ، وها هو ينتفض من جديد على ايطاليا ، عام ٤٥٢ ، وعاد منها ليموت ويقضي نحبه في مقاطعة باونيا بعد ذلك بسنة . وهذا الغازي المرعب الذي لقبوه بحق «سوط الله المصلت» هو الانسان النموذجي للهونز . قصير القامة ، عريض المنكبين ، ضخيم الرأس ، غارق العينين ، أفتس الانف ، كالح الوجوه ، امرد او يكاد ، سريع الاستشاطلة والغضب ، ومع ذلك فقد كان يؤثر السياسة والديبلوماسية ، وان شئت فقل الحيلة والمكر ، على عنف الحرب ؛ اعرف عنه تكالبه على زرع الخراب والدمار ، وان حدثت الناس عن روح النصفه عنده قاضياً بين اهله وذويه ، مستسلم بكليته للخرافات . وعلى مثال الهونز في الصين الذين كانوا يتخذون مهذبين لهم من العلماء والادباء ، نراه يسيطر نفسه برهط محترم من ادباء اليونان والرومان والجرمان . فهو صورة مسبقة ، ونذير بطولوع الغازي الفسائح المغولي الأشهر جنكيز خان . وكما زال كل اسم وذكر للهونز الهفتاليين في الهند ، فقد تفتت جماهير الهونز التي استاقها اليبلا ، اثر ما نأها من ثمت وشتات في اعقاب موت رئيسها وقائدها ، فانكفأت نحو سهول روسيا ومقاطعتي دبرودجا وميزيا . ونالت منهم بيزنطية ، عام ٤٦٨ ، عند مجرى الدانوب الاسفل ، ونالت منهم ثانية ، عام ٥٥٩ ، وفتت مشاحناتهم الداخلية والحروب الاهلية التي نشبت بينهم ، من عضدهم فتخلص ظلمهم ، وانكش امرهم ، عندما اطلت موجة جديدة كاسحة من هؤلاء البرابرة ، هي غزوة الآفار الذين انقضوا على الامبراطورية البيزنطية ، يوم كان يوستينيانوس يلغظ الغاب الاخيرة (٥٦٥) واتجهوا الى اوروبا واسسوا لهم ملكاً امتد من الفولغا الى مشارف النمسا ، ولم يلبثوا ان دخلوا من جديد ، في هراك سميت مع القسطنطينية ، في القرن السابع .

وقد اسس «البدو» الرحل في القرن السادس ، امبراطورية اخرى ، في مغوليا والصحاري الجاورة ، كان الامر فيها لاسرة نو - كيو ، فتمحالف ملوكها مع بيزنطية ضد ايران ، واعتنقوا المزدقية ، كما يرجع العارفون ، استناداً لما ذكره ثيو فيليكس سيموكالا .

يرسلون شعورهم لتدل على اكتانهم ويسكنون مضارب من اللباد ، ويتغلون بين مقاطعة واخرى طلباً للاد والكلأ . ينصرفون لتربية الماشية والصيد . سلاحهم السهم والفرس الصالفة والدرع ، والرصح والخنجر والسيف . وينتقلون بمنطقه على سفريهم ، لغزرم الاكبر ان يوتوا في ساحة الرض ، والمار الاكبر عندهم ، ان يوتوا مرضى ، على اسرتهم (من مؤلف لغل ، عام ٥٨١) .

ولم يحسن ملوك هذه الاسرة سياستهم ، فانقسمت دولتهم قسمين متنافسين ، لم يلبثا ان ضعف شأنهما ، فزالا من الوجود امام سيطرة اسرة سواي ، ثم اسرة تانغ ، وعفا كل الالهما . فبالرغم من الفوارق التي باعدت بين هذه القبائل البدوية ، وبالرغم مما قام بينها من حروب اهلية داخلية اقامتها بعضاً على البعض الآخر ، فقد شداها معاً ؛ وشائج مشتركة ، وتقاليد واعراف متقاربة ، امنت لها شيئاً من التجانس . فقد غلبت على هذه القبائل الأمية ، وجعلوا القراءة والكتابة ، ونهجوا جيماً نهجاً سورياً من حياة البسداوة ، يلغزون معظم اوقاتهم على

صهوة جيادهم ، كما يصف لنا اخبارهم كتاب القدامى ، يعيشون بين قطعانهم ومواشيهم ، ويستظلون مضارب من اللباد . طباعهم خشنة فظة وهم متوقدو الذهن والفهم ، يحيطون انفسهم برهط من الادباء ورجال الفكر والقلم ، مع ما كانوا عليه من سرعة الغضب ، وما عُرف عنهم من همجية ووحشية تزرع الارض خراباً ودماراً ، فكانوا خير سلف لهؤلاء المغول الذين طلموا في القرن الثالث عشر واسسوا امبراطورية من اوسع ما عرف التاريخ من امثالها . وتدل آثارهم والمعالم التي تركوها وخلفوها على فن متجانس يعرف بفن الصحراء ، وهو فن قوامه تصوير الحيوان ، لجمل الكثير لأن من مقوماته ومفارقاته ، لعدم وجود حفريات اثرية منتظمة . ومع ذلك ، بالامكان الآن تمييز بعض مدارس خاصة في فن الصحراء تحمل في ثناياها الكثير من المؤثرات الايرانية والصينية ، حسبما تكون قامت وازدهرت على مقربة من الصين او من ايران . فاينما وقعت العين رأّت رسوماً لحيوانات مختلفة : هنا أيل جاسم ، وهناك عراقك عنيف بين حيوانات حقيقية او وهمية ، فن تكثر فيه ملامح الصيد والحياة بصحبة الساعة تظمن طلباً للماء والمرعى ، لا يخلو من اثر ظاهر على فنون اهل الحضرة المقيمين على مقربة من البادية ، تبدو معاملة أكثر فأكثر كلما اتسعت اعمال النبت والحفريات الاثرية .

٥ - الصين في عهد دولة سوي

عرفت الصين عهداً من الاضطراب والقلق ، إثر انقسام دولة واي على نفسها الى شطرين متميزين : هما دولة باي - تسي (عام ٥٥٠) ، ودولة باي - تشاو (٥٥٧) ، عُرفت الاولى بتمسكها الشديد بالبوذية كما قالت الثانية بالكونفوشية . واوشك هذا الوضع ان يلحق الاذى الكثير بالبوذية . فقد عرفت الدولة الاولى ، طوال عهدها الذي استمر ٢٧ سنة ، ازدهاراً غربياً للفن البوذي ، الذي اخذ ينأى ويتعد ، اكثر فأكثر في تلك المملكة ، عن الفن الجاف الذي ساد عهد دولة واي ، واتجه نحو حركة تجديدية ناشطة ، مهدداً بذلك الطريق لظهور المدرسة الفنية التي طلعت في عهد اسرة تانغ . وقد تميزت هذه الحقبة بالاضطهاد العنيف الذي شنه ملوك دولة باي - تشاو ضد البوذية واتباعها في المملكة . وعندما تم لهم ، عام ٥٧٧ ، الاستيلاء على دولة باي - تسي ، امتدت حركة الاضطهاد التي اطلقوها بحيث عمت الصين الشمالية . ولم يدم هذا الوضع الشاذ طويلاً ، اذ استبد بالامر احد سَدَنَة القصر هو يانغ - كيان ، بعد ان استولى على الحكم عام ٥٨١ ، واسس دولة جديدة هي دولة ملوك سوي . وبعد ان ملك سبع سنوات ، على الصين الشمالية وحدها ، تمكن من فتح نانكين ، عام ٥٨٩ والاستيلاء على امبراطوريتها وبذلك تم له توحيد الصين بعد ان بقيت مجزأة لحوماً من مائة وسبعين سنة .

وقد عُرف الامبراطور يانغ - كيان شخصياً ، برعايته للبوذية وبتعلقه بالطاوية ، بينما تنكّر للكونفوشية وراح يناصبها العداوة . ففي الوقت الذي راح فيه يرمم هياكل البوذيين ومعابدهم ،

ويشارك في الحج الى مقدسات الديانة الطاوية ، تقيّةً منه وتقريباً ، أصدر أوامره باقفال عدد كبير من المدارس الكونفوشية . خلفه على العرش ابنه يانغ - تي (٦٠٥ - ٦١٨) الذي انتهج له نهجاً جديداً اقل تمسكاً من ابيه بامور الدين . فصرف جهداً كبيراً في تجميل العاصمة لو - يانغ بعد ان آثرها على سن - غان - فو ، واتخذها دار سكنى له ، وفتح ترعة مائية ، بين يانغ - تشايو ويو - يانغ ، واستلم للملذات يقضي أيامه بين الكأس والطلاس . واضطرته النفقات البالغة التي اقتضتها هذه الانشاءات ان يفرض رسوماً وضرائب باهظة على رعاياه ، فأرزحها ، ونشب من جراء ذلك ثورة لاهبة أدت الى قتله . وبموته انتهت دولة سواي التي استمر حكمها تسماً وعشرين سنة .

وبالرغم من قصر مدى هذه الاسرة في الحكم ، فقد كان تأثيرها بالغاً في سير الحضارة وتطورها في الصين . وكان من جراء تحقيق وحدة الصين ، ان نشطت حركة فكرية عارمة : أدت الى محاولة توحيد بين الاديان الكبرى الثلاث في الصين ، الا وهي البوذية والطاوية والكونفوشية . والرهبان الهنود الذين غادروا الصين على اثر موجة الاضطهاد التي هبت عليها ، استأنفوا العمل بتقليد قديم من الرحلة الى الصين : فالراهبان ناراندرياساس وجيناغوبتا اللذان فرا بنفسيهما ، عام ٥٧٤ ، عادا الى الصين في عهد دولة سواي . كذلك قام الراهب بوذيسري يكرز ويشر في هو - نان واستطاع حمل الراهب الطاوي تان - لوان ، الذي توفي حوالي عام ٦٠٠ ، على اعتناق البوذية الصوفية التي عُرفت في اليابان ، باسم *Amidisme* . وقد بذلت الجهود السخية ، من جهة اخرى ، لربط ما انقطع ، وازالة الضعف الذي أوهن العلاقات بين البلدين المتجاورين خلال القرنين الماضيين ، عرفت خلالها البلاد عهداً من أسوأ العهود استباحة واضطراباً وخراباً . وقد وضع عام ٦١٠ ، فهرس بالكتب والاسفار الدينية التي امكن انقاذها .

فاذا ما تمكن عهد سواي القصير من اعادة الامن والنظام والوحدة الى الصين ، وأتاح للنفوس المهتاجة ان تهدأ وتعود سيرتها الاولى الى التجريد والتأمل الفلسفي ، فلم يكن هذا العهد لمعري ، بعهد مبدع خلاق . فقد بدت على الفن سمات العهد : فهو فن جامد متناقل ، جاف ، قاس ، تنقصه ، اساساً ، نبضة الحياة وهذا التالُّث الذي عرفت دولة تانغ ان تضيفه على هذا الفن . فالصين على شفا عهد جديد من الانبعاث والتوعية يبشر بطلع زاهر ، مجيد .

فجرُ الاسلام (من القرن السابع الى القرن التاسع)

بين لوروبا الغربية الآخذة مدنيّتها بالقهقري ، وبين العالم الآسيوي الذي لم يستجمع بعد نشاطه ويسترجع عافيته ، مما ألمّ به من ضربات موجمة أنزلتها به جعافل برابرة البدو الرحل ، ظهر الاسلام كالشهاب الساطع ، فحيتّر العقول بفتوحاته السريعة القاصمة ، وبتناسع رقعة الامبراطورية الجديدة التي أنشأها .

نحن امام شعب كان للأمس الغابر مجهول الاسم ، مغمور الذكر ، فاذا به يتحد ويتضام في بوتقة الاسلام ، هذا الدين الجديد الذي انطلق من الجزيرة العربية . اكتسحت جيوشه ببضع سنوات ، الدولة الساسانية وهدت منها الاركان ، ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للامبراطورية البيزنطية في آسيا وافريقيا ، باستثناء شطر صغير منها يقع غربي آسيا الصغرى ، ولم تلبث جيوشه ان استولت بعد قليل ، على معظم اسبانيا وصقلية ، وان تقتطع ، لأمد من الزمن ، بقصر او يطول ، بعض المقاطعات الواقعة في غربي اوروبا وجنوبها ، ودفنت جيوشه بعنف شديد ، ابواب الهند والصين ، والحبشة والسودان الغربي ، وهددت غالبا والقسطنطينية بشر مستطير . وقد تهاوت الدول ، امام الدفع العربي الاسلامي ، كالأكر ، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها النظيم ، وهذه الاديان التي سيطرت على الشعوب والأقوام الضاربة بين سيرداريا والسنغال ، ذابت كما يذوب الشمع امام النار ، بعد ان أطل على الدنيا دين جديد له من الاتباع والمريدين ، اليوم ، ما يزيد على ثلاثمائة مليون . وانجلي غبار الفتح وصلصلة السلاح عن امبراطورية جديدة ولا اوسع ، وعن حضارة ولا اسطع ، وعن مدينة ولا اروع ، عول عليها الغرب في تطوره الصاعد ورقبه البناء ، بعد ان نفع الاسلام في قسم موات من التراث الانساني القديم روحاً جديدة عادت معه اليه الحياة ، فنفض وشع وأسرى . ولهذا الاسباب مجتمعة ، كان لا بد من ان يحتل تاريخ العالم الاسلامي محلاً مرموقاً في ثقافة رجل العصر ، كما كان لا بد لرجل العصر هذا من ان يفهم جيداً ان المدنية لا يقتصر مدلوها ، على شعب

او بلد متحيز في الزمان ، وان يعرف جيداً ان قبل توما الاكويبي الذي رأى النور في ايطاليا ، طلع ابن سينا المولود في احدى مقاطعات التركستان ، وان مساجد دمشق وقرطبة ارتفعت قبائها قبل كاتدرائية نوتر دام في باريس بزمان ، والا يلتقص من شأن العالم الاسلامي اليوم في ما يعاني من غمرة ستنتشع بأسرع مما يظن ، وألا ينظر الى التساريخ الاسلامي من خلال مرثيات ألف ليلة وليلة ، هذا الامر المدهش ، الاجنبي النشأة ، الذي دلت ايامه وزالت ليلاليه ، والذي ما لبث العرب ينظرون اليه بشيء من الحنين الى الفردوس المفقود ، بل علينا اعتبار هذا التاريخ قطعة من صميم التاريخ الانساني المتنوع بتنوع الازمنة والامكنة ، والذي لا يزال ، بالرغم من جزئياته وخصوصياته ، تاريخ هذه البشرية الواحدة الجامعة الجماء .

يتعم علينا ونحن نستعرض تاريخ العرب والاسلام ، للتصريح ، بكل تواضع هنا ، انه بالنظر للظروف الماثلة في وضعها القائم ، لا نستطيع ان نجلج تاريخ الاسلام بالصورة التي جلولنا بها تاريخ الغرب . فالنقص الفاضح الذي نراه في الوثائق التاريخية ، والفقر المدقع الذي عليه المحفوظات الاسلامية العربية ، لا تسده هذه الوفرة ، ولا يعوضه هذا الغنى الحافل في التراث الاديبي الذي خلفه العرب من طارف وتليد . فبالرغم من الجهد الطيب الذي بذله المستشرقون في الغرب ، في مجال فقه اللغة والألسنيّة اكثر منه في التاريخ ، وبالرغم من الحركة العلمية الحديثة التي اخذ الشرقيون باسبابها بعلم واصول ، فلا يزال العمل بحاجة بعد ، الى قرن واكثر ليلحق بركب المؤرخين في الغرب . فالشيء الذي سنقول ونقرره بهذا الصدد سيكون لاقتضابه وإيجازه ، اقصر بكثير ، من الفصول التي مهدنا بها لهذا البحث .

الجزيرة العربية قبل الاسلام لم يكن العرب ، في القرن السابع ، سديثي العهد بالوجود . فقد سكنوا شبه الجزيرة التي تحمل اسمهم قبيل ظهور المسيحية بزمان طويل ، يعيشون فيها عيش البدو الرحل ، في وضع اشبه ما يكون باهل البادية والوبر ، اليوم ، ذرايرهم الامحاح . وكانوا منقسمين قبائل يخضعون لمشيئة الشيخ او لرئيس القبيلة ويأتمرون بامره ويسيرون يهديه ، بينما تتفرع القبيلة نفسها الى بطون وافخاذ ، لكل منها زعيمها ، يجمعها بعضاً الى بعض عصبية قبيلية ، هي القاسم المشترك ايام الكفر والفر ، يتألبون تحتها في حروبهم وغزواتهم . اما ديانتهم فكانت من التبسيط بحيث تتصل بالعقائد السامية المشتركة في جوهرها ، مع جميع شعوب المنطقة ، يخشون اكثر ما يخشون عمل الابالسة وكانوا يعبدون بعض الحجارة المؤلفة ، كما هي الحال في مكة ، يقيمون في اعيادها مواسم للشعر والمفاخرة . وينقسم العرب في مجموعهم الى قسمين متميزين : اليمينيون في الجنوب ، والنزاريون القيسيون في الشمال . وقد حدثت موجات بشرية انتقلت معها بعض قبائل الجنوب متخطية الى الشمال ، ابناء عمومتهم هناك . وبالرغم من هذه الانقسامات ، كان يخامر العرب شعور بشيء من الوحدة ممثلة خير تمثيل بهذه اللغة الشعرية التي قطعت شوطاً بعيداً في التكلل والاستقرار . ومن بين مشاهير الشعراء في هذه الحقبة امرؤ القيس . فقد فاخروا باجسادهم الوطنية وما تبهم الحربية ، كما فاخروا « بابامهم »

التاريخية ونظموا الحكمة فاجزوا واعجزوا .

وقام عند أطراف الجزيرة العربية في اليمن مثلا ، مجتمعات بشرية قطعت شوطاً قصباً في تطورها . فقد قام في اليمن ، قبل طلوع المسيحية بعهد كبير ، ملكة اشتهرت بإحدى ملكاتها هي الملكة بلقيس أو ملكة سبأ . وقد قام بعد ذلك بكثير ، عدد من الممالك اشتهر أمرها في عهد الرومان ، كملكاة النبطيين أو الانباط ، في بتراء ، تقع الى الجنوب الشرقي من البحر الميت ، والملكة زنوبيا التي ملكت على المنطقة الواقعة غربي القرات ، كما قام في عهد البيزنطيين مملكتان ملوكها من النصرى ، هما مملكة آل غسان أو القساسنة ، وملكة اللخمين ، تآزر الأولى منها ملوك بزنطية وتدور في فلكتهم ، بينما يدور اللخميون في فلكت ملوك فارس ويشدون منهم الأزرق . فبينما كان القساسنة يقيمون في أذرع ، اتخذ اللخميون طيسفون (الحيرة) قاعدة لهم . والجدير بالذكر هنا هو ان قبيلة كندة استطاعت ان تؤلف في القرن الخامس ، في قلب الجزيرة العربية ، تحالفاً حقيقياً . وقد انشأت بعض القبائل ، في بعض المدن لها ، نوعاً من الحكم على اساس من النظام الارستوقراطي تولى الأمر فيه كبار التجار اصحاب القوافل التجارية كما في مكة مثلا ، اذ كان الامر بيد قبيلة قريش . وكانت الحركة التجارية قد نشطت في شبه الجزيرة العربية ، اما عن طريق البحر الاحمر ، او عن طريق القوافل البرية التي تحولت عن موانئ البحر المذكور تقادياً للاخطار التي كانت تهددها . وكانت هذه المنطقة قد اخذت تتأثر ، الى حد بعيد ، بنفوذ الدول القومية المجاورة ، ففتجارب اصداؤها هذه المؤثرات . فقد حاول الساسانيون ان يحققوا لمصلحتهم الخاصة ويسيطروا على الحركة التجارية في المحيط الهندي ، بينما اخذت بزنطية تحاول ، عن طريق مصر ، تحويل هذه التجارة ، الى مرافقها بمساعدة حلفائها من الاحباش . وهكذا راح الفرس والاحباش يتجادون السيطرة على المراكز التجارية الكبرى . وليس من المستبعد قط ان تكون المشاحنات التي قامت بين الطرفين ، بهذا الصدد ، سبباً من الاسباب التي ادت الى انهيار سد مأرب ، وخراب نظام السقاية الذي عمل به مدة طويلة ، والى هذه المهجرات الواسعة التي عقبته انهيار السد . كما أدت الى هذه اليقظة التي اخذت تتململ بها القبائل العربية ، اذ ذاك . وقد حدث في الوقت ذاته ان تغذلت المؤثرات الاجنبية في البلاد العربية ، اما بواسطة القبائل المقيمة على الحظ الدائري ، او بواسطة الجوالي المسيحية واليهودية التي نشأت في بعض المدن ، كالجالية اليهودية في يثرب التي أصبحت المدينة بعد ان هاجر اليها النبي العربي . وهكذا نرى جيداً ان العرب لم يبقوا في عزلتهم ، كما كانوا من قبل ، بل بدت عليهم معالم يقظة عارمة زاد من أوارها وقوعهم الى أطراف المدينت الكبيرة . صحيح ان البلاد التي جاورها لم يتوفر لها جماعة من كبار اللاهوتيين ، ولذا تنزّت عقائد سكانها الدينية ، بكل ديانات الشرق وعقائده الشعبية ، الا انها ديانات جديدة ، حديثة لمن كان مثلهم ضالماً بالشرك الاكبر ، منذ أجيال سحيقة ، في هذه الحقبة بالذات ، اذ ساعدت الظروف المادية القائمة ، اذ ذاك على ايجاد حالة من القلق والاضطراب كان يكفيها شيء بسيط جداً لاضرامها وتحويلها الى غليان دائم .

هذا هو بايماز ، الوسط الذي رأى فيه النبي العربي النور ، وشب في جو تجاري شارك ببعض نشاطه قبل ان يتفرغ للدعوة التي قام بها .

في هذا المحيط الذي وصفنا ، ولد محمد بن عبدالله ، النبي العربي وخاتمة النبيين ، الذي جاء يبشر العرب والناس اجمعين بدين جديد ، ويدعو للقول بالله الواحد الأحد ، وليكمل الوحي الذي نزل من قبل ، مجزواً ، على اليهود والنصارى ، وهو على يقين من امره انه يتلو آي الله في خلقه ، ولم يدع يوماً انه غير انسان مخلوق ، وهو من سلالة الانبياء ، وليس باسم يسوع الناصري ، نبيهم الكريم كانت تعاليمه في غاية البساطة ، تذكرنا من وجوه عديدة بتعاليم موسى ووصاياه ، في نطاق القرى المنصرية التي تشد العرب الى العبرانيين الاقدمين . فالله الذي يدعو الى عبادته هو الواحد الأحد القيوم الكلي القدرة . يدعو الانسان الى الطاعة والتسليم المطلق ، الى الاسلام ، اذ ان الله كريم رحيم يمد عباده ومن يُسَلِّم امره اليه ، اي المسلم ، بالجنة ، ويبعث في قلبه الايمان والثقة بوعد الله . وهو لا ينهي المسلم عن السعي وراء خيرات هذه الدنيا ، انما بالشكر تدوم النعم ، اذ ان الله هو واهب الاشياء ومقسم الارزاق . وهذا الموقف ، وهذه القناعة الداخلية لا تلازم صاحبها الا بالدعاء لله والشكر له ، والسير على تعاليمه ووصاياه ، والجهاد في سبيله حسبما يدعو اليه نبيه ورسوله ، والاعتصام بكارم الاخلاق ، والتزام حبل الفضيلة ، والتصديق للغير ، من اي لون او جلس كانوا ، وفقاً للتقاليد العربية المرعية ، والرفق بالمرأة . هذه هي بايماز الرسالة التي قام محمد يدعو اليها العرب في مكة ، بأسلوب جزل ، وعبارة جمعت بين الايماز والاعجاز .

غير ان قريش خشيت على نفسها من أمر هذه الدعوة الجديدة ، ووجد أسياها فيها تهديماً لعقيدتهم وخطراً على نفوذهم . فقاموا يضطهدون النبي وصحبه ، مما حمله على الهجرة الى يثرب ، عام ٦٢٢ ، التي عرفت منذ ذلك الحين باسم «المدينة» او مدينة الرسول . ومن هذا التاريخ او الهجرة اخذ العرب يؤرخون ، ومنها يبتدىء الحساب الهجري . وقد تغير موقف النبي العربي في المدينة : فلم يمد ليكتفي بالدعوة ، بل راح ينظم جماعته من الانصار والصحابة . اذ كانت الشريعة لا تختلف عن العقيدة او الايمان ، وتتمتع مثلها بسلطة الهية ملازمة ، تضبط ليس الامور الدينية فحسب ، بل ايضاً الامور الدنيوية ، فتفرض على المسلم الزكاة ، والجهاد ضد المشركين لمحلمهم على الاسلام ونشر الدين الحنيف . وبعد مواقع عديدة مع قريش ، استطاع محمد فتح مكة فأسلم أهلها وأقبلوا على الدعوة الجديدة محافظة منهم على ما كان لهم من مكانة في الجاهلية . وقد فرض على كل مسلم ومسلمة الحج مرة الى بيت الله الحرام لكل من يستطيعه . ولم تلبث القبائل ان اقبلت على الدعوة تقدم خضوعها . وعندما قبض النبي العربي ، عام ٦٣٢ ، كان محمد انتهى من دعوته ، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الاسلام ، وصهرهم في وحدة قوية ، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة ، لم تعرف مثلها من قبل .

وقد اوشك موت النبي ان يقلب الوضع في الجزيرة ، رأساً على عقب ، لو لم يتدارك الامر ابو بكر خليفة الرسول ، وامير المؤمنين بعده ، في سلسلة من الحروب العنيفة تُعرف بحروب الردة . وولي الامر، بعد ابي بكر، الفاروق عمر بن الخطاب ٦٣٤ - ٦٤٤ ثاني الخلفاء الراشدين، بعد الرسول . ولكي يبقي العرب كتلة مترابطة ، كان لا بد من تجنيدهم في خدمة الدين الحنيف، وارسالهم في سرايا لفتح الاقطار المجاورة .

تم الفتح العربي بسرعة ادهشت الفاتحين انفسهم . ولم يكن الغرض من الفتوحات العربية هذه الحروب ، في الاساس سوى الغزو ، فجاء الاصطدام يكشف عن عورات الخضم والضعف الذي ينتابه ، فاستعالت الفكرة الاولى ، الغزو ، الى فتح ، ساعد عليه ، وسهل امره ، الحماسة التي جاش بها الغزاة الفاتحون . وهذا الضعف يتكشف عنه العذر قام اصلاً في هذا الكره الذي حمله الاهلون لحكم الروم ، فأثروا عدم مقاومة الغزاة ، بل ان قسماً من سكان البلاد تواطوا مع الغزاة وعمل على نصرتهم . وليس بالامر اليسير قط ان نتخلص من ربقة حكم الروم ، كما جاء على لسان احسد المؤرخين من النساطرة . تم فتح سوريا سنة ٦٣٦ ، بعد ان بوشر به عام ٦٣٣ ، وقد بوشر بفتح العراق في الوقت ذاته وتم نهائياً عام ٦٣٧ ، اما فتح مصر فقد تم بين ٦٣٩ و ٦٤٢ ، وقد تم فتح ايران نهائياً ، باستثناء بعض المقاطعات الدائرية ، عام ٦٥١ . وقد ساعدت طبيعة البلاد الجبلية ، على تنظيم شيء من الدفاع الوطني ، خلافاً للامر في الولايات البيزنطية ، اذ ما كادت جيوش العرب تطل على هذه الولايات حتى راح حكامها يخاونها بسرعة ، ويفرون الى القسطنطينية ان لم يتواطوا مع الغزاة الفاتحين . وقد بات من الصعب على المسلمين ، بعد ان خففت حماسهم وخف اندفاعهم ، ان يفتحوا آسيا الصغرى بعد ان فشلت محاولتان لهم للاستيلاء على القسطنطينية ، وبسط سيطرتهم على آسيا الوسطى حيث اصبح نهر السيرداريا ، منذ اواسط القرن الثامن ، الحسد الفاصل ، بين الامبراطورية الاسلامية وبين المقاطعات الواقعة تحت سيطرة الصين وقبائل البدو الرحل من تتر ومغول . كذلك لم يكن فتح شمالي افريقيا ، بالامر الهين لشدة مقاومة البربر لهذا الفتح ، ولم يستقم الامر امامهم الا بعد ان جروهم للسماة بفتح اسبانيا ، ثم صقلية ، بعد ذلك بنحو قرن من الزمن . اما تقدمهم في غاليسيا فامتد حتى بلغوا مدينة بواتيه حيث كتب اشارل مارتيل ان يكسر الجيش العربي بقيادة عبد الرحمن الغافقي سنة ٧٣٢ .

وهكذا دخلت تحت سيطرة العرب والمسلمين اقاليم شاسعة امتدت من نهر الهندوس ، شرقاً ، الى نهر التاج ، في اسبانيا ، غرباً ، ومن بحر أرال شمالاً الى اقليم السنغال جنوباً ، وكلها مناطق تألفت مع طبيعة العرب ، وتوافق عاداتها ومعايشها ومفهومهم للامور المعاشية من حيث احتياجاتهم اليومية التي لا تختلف عند الكثيرين من سكان هذه البلاد الاصليين ، عن احتياجات العرب ومطالبهم الاساسية . وهناك مفارقات شق في الجغرافية والتاريخ ، جعلت الفرق كبيراً بين هذه البلاد . لا بد من التنويه عالياً هنا ، انه بعد الفتح ، جرى تنظيم هذه

البلدان في إطار وحدة فضفاضة على اساس من الاتفاقات المشروطة لتأمين خضوع السكان وإستسلامهم . بقي ان نقول انه اذا مبادت الفتوحات الجرمانية الى تقسيم اوروبا ، فالفتح العربي ادى بدوره الى وحدة الشرق الاوسط .

وبدلاً من ان يدوب الفاتحون العرب بين اكلية سكان البلاد الاصليين ، مع ما بين الجانبين من فوارق العادات والاخلاق ، نراهم ينزلون في مخيمات عسكرية خاصة بهم ؛ في مقاطعات لم تأخذ بعد تماماً بأسباب الحضارة والتطور ، فاذا بسكان البلاد يفدون على هذه المخيمات التي لم تلبث ان اصبحت مدناً عامرة ، كالكوفة والبصرة مثلاً ، في جنوبي العراق ، والفسطاط في مصر ، والقيروان في المغرب ، وكلها مراكز زراعية ، عامرة تقع على مقربة من الصحراء في الداخل ، بعيدة عن البحر ومواصلاته اذ لم يكونوا قد طوعوه بعد ، ولا ألفوا ركوبه . اما الجيش الذي كان يتألف من كل من يستطيع حمل السلاح ، فينقسم الى فرق ، تتمركز في مقاطعات عسكرية تعرف عندهم باسم « جند » تجرّي عليهم الارزاق والمرتبات من الاسلاب والمغانم الحربية كل بحسب مرتبته ، او من الرسوم والضرائب المفروضة على الذميين وعلى من يدخل منهم في طاعة المسلمين مستأمنين . وتبقى القبيلة وحدة لها شأنها الاجتماعي ، بالرغم مما تتعرض له من انقسامات تقتضيها مستلزمات الفتح العسكري ، تحت امرة الخليفة ومن يعاونه من الصحابة والانصار والتابعين . وكثيراً ما ادت المصيبة القبلية الى الاقتتال والتناحر بين قبائل الشمال والجنوب ، مناصرة منها للحزبية الناشطة التي دعا اليها الوضع الجديد في العالم العربي والاسلامي ، فمزقت شمله وفرقت شيماً واحزاباً ادت الى اشتباكات دامية استمرت قرناً واكثر .

كان لزاماً ان تفضي الاوضاع الجديدة ، بعد هذه الفتوحات الواسعة التي ساعدت على حل ازمة خلافة النبي العربي محمد ، الى ازمة جديدة ، اطول من الاولى واكثر تعقيداً . فقد واجه تنظيم الدولة الجديدة ، مشكلات ضخمة لم تكن بالحسبان ولا خطرت على البال ، منها مثلاً قضية الحكم ، انطلقت من صميم هذه الفوارق العميقة والاختلافات الجذرية التي تلازم اختلاف المصالح والاهواء الشخصية ، في الظاهر ، والتي اقامت الجماعة واقعدتها ، بعد ان زال الجيل الاول الذي صحب النبي وناصره . ويمكن رد هذه الاختلافات الى اعتبارات قد تبدو غريبة في نظر البعض ، والتي يمكن ردها اصلاً الى هذا الترابط الداخلي القوي الذي يشد العقيدة الدينيّة الى النظام الاجتماعي . فالتكتلات السياسية التي طلعت علينا ، اذ ذاك ، لم تلبث ان اصبحت احزاباً وشيماً لها عقائدها وتعاليمها اللاهوتية التي اصبحت جزءاً لا يتجزأ من وضعها السياسي والديني .

في هذا المراك السياسي العنيف الذي وقف فيه الخليفة عثمان ، ثالث الخلفاء الدولة الاموية الراشدين ، ومن بعده معاوية امير الشام ، ضد علي بن ابي طالب ، ابن عم النبي وصهره ، ورابع الخلفاء الراشدين ، تبرز للعين والنظر ثلاث نزعات لا بد من الوقوف عندها . فمُنذ البدء ، نرى فئة الذين يراودهم الحلم الممسول ، الصعب المنال ، الذي يتبدى لـكـل دين

جديد ، والذي يرمي للمحافظة على مظاهر الحياة البدائية الاولى واحياها ، ممثلة خير تمثيل « بقدامى المسلمين » ، والفئة الاخرى التي تتألف من هذا الفريق الجريء الذي يعمل على الافادة من الظروف القائمة وتسخير السلطان لمصلحته ومنفعته الشخصية ، وبمباراة اخرى ، بين من يقول بالتقية ويتمسك باهداب الدين الحنيف ، وبين هؤلاء الحكام الاداريين ، ممن يتولون تصريف الامور ، ومعظمهم من آل قريش الذين يهمهم في الدرجة الاولى ، ان يسترجعوا ، في الامة ، النفوذ الذي كان لقريش في مكة ، اثنان عهد الجاهلية وبعيدوا اليها ، السيادة والنفوذ اللذين تمتعت بهما من قبل . وظهر بين الفئة الاولى نزعتان . فالخوارج رأوا ان المؤمنين سواء فيما بينهم اصلاً ، فاذا كان لا بد لهم من امير يتولى الامر بينهم فأولاهم به اقربهم الى الله ، دون نظر الى الاصل او العرق ، مع وجوب محاربة من كان بين بين في دينه ، من المسلمين ، باعتباره مارقاً ، خارجاً عن جادة السبيل . ومثل هذا الرأي يتفق تماماً والعرف التقليدي المرعي للجانب بين العرب . اما الشيعة ، فالتمسك بالاسلام الحنيف ، انما يعني في نظرهم ، التمسك بعترة النبي ولا سيما باهل بيته وولده من ابنته فاطمة وصهره علي بن ابي طالب . فالامر عندهم اكثر من مجرد مبدأ خلافة بشرية ، هو الرفض بالتسليم بما يذهب اليه خصومهم بان صاحب الامر : الامام ، ليس سوى مجرد حاكم ، بل اعتقدوا عن يقين ان الوحي المحمدي يجب ان يستمر وان يبقى في اهل عترته ، وبذلك يبقى الخليفة الامام الهادي المهدي في امور الدين ، وبالتالي المزم على عدم التفريق بين الدين والسياسة . فلا عجب ان يفوز ، بنهاية الامر ، السياسيون بشخص معاوية بن ابي سفيان ، مؤسس الدولة الأموية في دمشق (٦٦١) . وقام الخوارج بحوادث دامية وفتن في معظم أنحاء الدولة الاسلامية دون ترابط قط . اما الشيعة ، فقد رأوا اهل البيت منهم يستشهدون في كربلاء ، عام ٦٨٠ ، وينالون شرف الشهادة ، بينما انصرف بنو امية لتثبيت دعائم ملكهم وتوطيد سلطانهم .

وعندما أُوبيع معاوية بالخلافة ، جعل دمشق عاصمة للملكة ، مكرساً بذلك ما كان لا بد منه ، وهو التحول عن الجزيرة العربية ، مؤذناً بانتهاء الدور التاريخي الذي لعبته باعطاء العالم ديناً جديداً وجيشاً شتاً الى خارج الجزيرة العربية ، ليغمرها الصمت من جديد . صحيح ان لفريضة الحج الى مكة ، واستمرار انشاء الانصار والصحابة في المدينة المنورة حفظا لهاتين المدينتين اللتين يقدهسها المسلمون ، منزلة كبيرة في القلوب ، غذت في نفوس البعض الرغبة في الثورة والانتفاضة في وجه السلطة ، الا انها محاولات باءت جميعها بالفشل . وقد اضفى انتقال مركز الخلافة الى دمشق اهمية متزايدة لعرب الشام فاصبحوا عماد الدولة الجديدة وذخرها ، واصبحت الشام في المنزلة الاولى بين الاقطار الاسلامية تفضلها جميعاً ولا سيما العراق حيث كان انصار اهل البيت اقوياء يتخذون من الكوفة مركزاً لدعاباتهم ولدعوتهم . واضطرت الدولة الناشئة ان تعتمد في ادارتها على اهل الشام الذين اصبحوا عماد الدولة فأمدوها بالعمال والموظفين من ابناء البلاد ، وهكذا رجعت كفة التقاليد البيزنطية على التقاليد الساسانية .

قلما عزف التاريخ والحق يقال ، فتوحات كان لها ، في المدى القريب ، على الاهلين ، مثل هذا النزر الصغير من الاضطراب يحدثه الفتح العربي لهذه الاقطار . فمن لم يكن عربياً من الاهلين لم يشغز باي اضطهاد قط . فاليهود والنصارى الذين هم أيضاً من اهل الكتاب ، حتى لهم ان يتمتعوا بالتساؤل وان لا يضاموا . وكان لا بد من الوقوف هذا الموقف نفسه من الزردشتية والمالوية والبوذية وصائبة حران ، هذه الطائفة التي كان اصحابها يعبدون النجوم والكواكب ، وغيرها من الملل والنحل الاخرى . والمطلوب من هؤلاء السكان ان يظهروا الولاء للإسلام ويعترفوا بسيادته وسلطانه ، وان يؤدوا له الرسوم المترتبة على اهل الذمة تأديتها ، والامتناع عن كل دعوة دينية لهم لدى المسلمين ، وان يحافظوا على عروبة الجيش . وفي نطاق هذه التحفظات التي لم تكن لتؤثر كثيراً على الحياة العادية ، تمتع الذميون بكافة حرياتهم . والى هذا ، فقد كان من الصنب جداً على العرب المسلمين الذين ألتفوا اقلية ضئيلة جداً في وسط هذا الخضم من الأمم والاقوام التي يستر الله لهم السيطرة عليها ، ان يتهجوا نهجاً آخر ، ويأخذوا الناس بالشدّة والا لكانت الحروب افنتهم واكلمتهم .

وتألفت ادارة الدولة من قطاعين ، ينتظم الاول سياسية المسلمين ، فينظم منهم شؤون الحرب والسلم وامور العبادات ، ويؤمن اقتسام المرتبات والاعطيات وجمع الزكاة ويتولى شؤون هذه الادارة ، في عاصمة الخلافة دمشق ، وفي الاقاليم موظفون عرب . اما الثاني فيعنى بشؤون سكان البلاد ولا سيما بتنظيم الضرائب وجبايتها ، يتولى القيام به والاشراف عليه عمال وموظفون من اهل البلاد ، يتولون كتابة الديوان وضرب السكة بلغة البلاد ، وبغير ذلك من امور الادارة التي لا علاقة لها بشؤون الدين . ونرى في القطاع الاول ، يزداد التباعد أو الانفصال بين الدولة والدين . فالدين ينظم مبدئياً كل شيء في الحياة العامة والحياة الخاصة ، بحيث لا يمكن ادخال أي تغيير عليها أو تعديل .

وقد انتظمت العلاقات بين الدولة وسكان البلاد الاصليين بسهولة كلية وفقاً لروح القانون المعمول به في البلاد ، والنظام الساري المفعول ، كما هي الحال مع كل فتح جسيدي . وبقيت كل ملة أو طائفة محتفظة بقانونها الخاص وبالموظفين الذين يسهرون على الشؤون الدينية عندها ، باستثناء ما كان منها تابعاً للحق العام ، فرجعه الحكومة ، أو ما تعلق بالعلاقات الخاصة بين هذه الطوائف بعضها ببعض ، فكان امره متروكاً للقضاة الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال بالنسبة للحكومة ، مع انها هي التي تتولى امر تعيينهم وتأمين مرتباتهم ، ويسهرون على تطبيق قانون لم تكن الدولة اصدرته . ونلاحظ تطوراً ملحوظاً يطرأ على وضع النصارى بهمد ان احتفظت بيهم بجانب من ممارسة العدالة في الامور الخاصة ولا سيما العائلية منها . وهكذا برز البطاركة والاساقفة ، الرؤساء الاعلى لطوائفهم تعلمو سلطتهم سلطة الموظفين الاداريين المحليين ، حتى ان اليهود انفسهم لم يحسدوا بأساً في الاحتفاظ برؤسائهم الدينيين وبربائنتهم وبمجاخامهم الاكبر .

العقيدة الاسلامية
 الشريعة الاسلامية اساسها الوحي المحمدي وهو وحي وتعاليم لم تكتب في عهد محمد ، فتناقله الصحابة في قلوبهم كما تناقل الرواة الشعر من قبل ومن بعد. فهل يمكن ، لعمرى ، القول او التسليم بوجود او بامكان وجود اختلاف ، او تناقض في كلام الله ؟ وامام خصومة الذين راحوا يتهمونهم بعدم التدين او المروق ، راح ثالث الخلفاء الراشدين ، عثمان ابن عفان ، يجمع القرآن من حامله ويدونه بحرف عربي لم يبلغ بعد الطوعية اللازمة ، وهكذا ظهر القرآن بوضعه الحاضر . ولم يكن الغرض من جمع آي القرآن على هذه الصورة إعداد ترجمة مفصلة لحياة النبي العربي او ترجمة مسهبة له ، بل بالاحرى جمع وقائع حياته وتعاليمه التي حدثت او وقعت في ظروف وامكنة مختلفة ، والخروج من ذلك كله بكتاب او قرآن ، منهجي ، نهائي ، غير مربوط بزمان او مكان . ولذا جاء ترتيب آيات هذا القرآن وسوره لا يراعي التطور التاريخي لهبوط الوحي المحمدي ، اذ يحدد العلماء اليوم من الصعوبة بمكان ، تحدد اماكن هذا الوحي وتحديد الظروف التي نزل فيها .

ومع ان القرآن هو اصل العقيدة الاسلامية وركنها الركين ، فهو ليس مع ذلك ، مصدر الشريعة والعقيدة الاسلامية الوحيد . فالقرآن هو كلام الله المنزل . الا ان سلوك الرسول العربي ، واقواله ، واحاديثه ، حتى ما كان منها لا يتعلق بالوحي ، لها قوة تعليمية اسمى بكثير مما للناس من امثالها . ولذا بدا من المفيد لا بل من اللازم ، الرجوع الى هذا كله والاسترشاد به والهدى بما فيه من موعظة وحكمة وعبرة لاتمام الشريعة الحمديّة ، اذ هنالك حالات وظروف واوضاع طرأت على الامبراطورية العربية ، لم يرد في القرآن ما يعرض لها او ما يسمح بمعالجتها . وهكذا راح المهتمون ، بالامر يدرسون التقليد او سنة الرسول يستخرجون منها الاحكام والقياسات المرجحة ، يستخدمونها ضد الشيعة والخوارج . وهكذا اخذوا يجمع اقوال النبي واحاديثه بالرجوع الى الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، ولم يلبث ان نشأ من هذه الحركة علم جديد هو علم الحديث ، كما اطلقوا على من يعنون به اسم المحدثين . وقد قام اصحاب الملل والبدع الاسلامية ، تمزيقاً لمفالتهم او لمواقفهم ، يدعون احاديث نبوية ، بعضها بحرف وبعضها منحول من الاساس ، بحيث راح المحدثون يضعون حدوداً صارمة ليميزوا بين الصحيح منها والزائف . ويرى مؤرخو العصر في هذه الاحاديث ، وثائق تتعلق بتطور الاسلام اكثر منها وثائق تثير جوانب غامضة ، في حياة النبي العربي .

وهكذا اخذت تتضح مبادئ العقيدة الدينية في الاسلام ، كما تحددت اركانه الخمسة أو القواعد الكبرى التي ينهض عليها الدين الجديد ، الا وهي : الشهاداتتان ، والزكاة وصوم رمضان والجهاد أو الحرب المقدسة ضد المشركين ، والحج الى بيت الله الحرام ، مرة في الحياة على الاقل ، وإقامة الصلاة خمساً في النهار . وهي تقام ، بالافضل ، في موضع معين للعبادة هو المسجد ، ولا سيما يوم الجمعة جرياً على عادة إقامتها يوم السبت ، عند اليهود ، ويوم الاحد ، عند النصارى . فالمسجد ، كالكنيسة ، هو مكان للعبادة كما هو مكان تعقد فيه الجماعة اجتماعاتها العامة للنظر

وتبادل الرأي . وقد حدث ان حولوا كنائس الى مساجد ، غير ان العرف المتبع هو ان يُعمد ، في أكثر الحالات ، بتشييد المساجد ، الى عمال من أبناء البلاد . وهذا المسجد يتألف ، في الداخل ، من بهو فسيح الارحاء الى صحن كبير أهباء فرعية وأروقة تقوم جميعها على صفوف من الاعمدة ، تنتهي الى حائط مستقيم الحظ تقوم امامه حنيفة تتجه الى القبلة ، والحراب والمنبر حيث يقف الامام مصلياً وخطيباً . ويمتد امام البهو فناء رحب أعدت فيه أماكن للوضوء تجري فيها المياه . ويعلم المسجد عادة ، مؤذنة تشبه القبة في كنائس النصارى ، يمثلها المؤذن خساً في النهار يدعو الجماعة : « حيا على الصلاة » . فالصلاة لا تستدعي ولا تتطلب ، مبدئياً ، أية رتبة دينية لترؤسها . فمن السهل على كل مسلم ان يتفهم دينه ويحفظ ما فيه من حدود . وما من احد يتلقى من الله عن طريق التكريس أي مراسم اخرى ، عوناً خاصاً او نعمة ليسير بحسب هدى دينه . ومع ذلك ، فلم يلبث ان ظهر بين الجماعة طائفة من الفقهاء تخصصوا بأمور الدين وتفقهوا بفرائضه ، كتب لأصحابها ان يلعبوا دوراً بارزاً في الاسلام ، هم طائفة العلماء .

لم يطرأ على مجموع سكان الريف تقريباً ، ولا على السواد الاعظم من سكان

سكان البلاد الوطنيون

المدن ، وكلهم غير مسلم ، أي تغيير يذكر في سير الحياة ونهجها . فقد اخذ المسيحيون الخارجون عن طاعة بيزنطية ، ينظمون أحوالهم ويضبطون شؤونهم الدينية والكنسية الخاصة بعد ان تخلصوا من مضايقات العاصمة وازعاجها . وسيدفون غالباً ، في المستقبل ، ثمن تسرعهم للتقليل من اتصالاتهم بباقي العالم المسيحي ، فقد اقتضت علاقاتهم ، مع الامبراطورية البيزنطية في الوقت الحاضر ، على بعض الاتصالات الانسانية ، بالرغم من الحروب التي كثيراً ما شجرت بين المسلمين والروم . وقد راحت بيزنطية ، بالاحرى ، تشمر بالاسف المرير لفقدانها أغنى ولاياتها مادياً وروحياً . وخير من يمثل هذا الوضع ويصور هذا الواقع ، احسن تصوير ، هو يوحنا الدمشقي ، احد كبار الموظفين في البلاط الاموي ، الذي كفر بالعالم بعد حين ، وانقطع لعبادة الله راهباً في دير القديس سابا ، القريب من القدس ، واشهر لاهوتيين الكنيسة الشرقية الملكية في هذه الحقبة ، ولعب دوراً بارزاً في الجدل الديني الذي احتدم في بيزنطية حول تكريم صور القديسين . وقد عرفت هذه الكنيسة بالملكية ، لبقائها على الولاء « للملك » او لامبراطور بيزنطية ، وللعقيدة التي ترعاها القسطنطينية ؛ كما لحقها أذى كبير من جراء فقدانها السلطة الكنسية ولشفور كراسي بطريركيتها ، في المرحلة الاولى ، ثم لتوليها ، فيما بعد ، من قبل بطاركة أكثر التصاقاً بمركز الخلافة الاسلامية ، منهم بطريركية القسطنطينية . وقد بقيت ، بالرغم من هذا ، نشيطة حية ، كما نرى من سيرة القديس يوحنا الدمشقي .

وال جانب الكنيسة الملكية قامت الكنيسة المارونية التي اخذت اسمها من اسم راهب يدعى مارون ، الا ان ابتعادها عن بيزنطية وعدم الاستقرار في بطريركية انطاكية ، جعلها تتردى في الهرطقة المونوثولية او القول بمشيئة واحدة في السيد المسيح ، في الوقت الذي تنكرت لها كنيسة القسطنطينية وتحولت عنها . وقد اخذت هذه الكنيسة تنظم شؤونها في وضع ، بين بين ،

من الانشقاق والانفصال ، تحت ادارة بطريرك خاص بها ، وبدون قصد معين . وبالرغم من عداوة اتباع عقيدة الطبيعة الواحدة الذين كلوا ينعمون برعاية الخلفاء وينالون حظوة في اعينهم ، اخذ الموارنة يستقرون تدريجياً على سفوح جبل لبنان الغربية ، بعد ان اخذوا في حرثها واستغلالها ، وبعد ان رأوها امنع جانباً وآمن لسكنائهم من تلك الهضاب والنواحي الواقعة الى الشمال من سوريا والتي سكنوها رَدْحاً من الزمن في بدء امرهم . اما اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة من يعاقبة واقباط وارمن ، والفساطرة ، فقد استطاعوا في اول عهد السيطرة الاسلامية ، ان يحافظوا على عدد اتباعهم وكنائسهم . وقد هب البطريرك ايشونيهب الثالث النسطوري ، الى وضع سلسلة من التشريعات الليتورجية والقانونية ، ثم انصرف الى التأليف في الامور الرهبانية وسير القديسين والتاريخ الكنسي مع الحرص الشديد على السير مع الحركة العلمية التي نشطت اذ ذاك ، ولا سيما في الطب . وقد برز عند يعاقبة في هذه الحقبة ، ولا سيما في الحياة الرهبانية ، يعقوب الرهاوي الذي كان واحداً علماء زمانه ، بل قطبهم وعميدهم ، اديب ، شاعر ، ناقل ، مؤرخ ، مفسر ، مشترع ، وفيلسوف لاهوتي صاحب التصانيف المعجبة المفيدة . ما ازدحم العلم في صدر احد ازدهامه في صدره ، فكان ملغان البيعة الاكبر . وبالرغم من موقفه المادي لبيزنطية من الوجة المعقائدية فقد بقي عقله متفتحاً للقبس من التراث المسيحي اليوناني . وبالرغم من الفروق اللاهوتية التي قامت بين الكنيستين ، فقد جمعها العداة ضد الكنيسة اليونانية ، وتأثرت الواحدة منها بالثانية فاستعملتا في الطقوس الدينية والليتورجية لمة واحدة بالرغم من بعض الفوارق الطفيفة . فقد أثمر يعاقبة تأثيراً بالغاً على الاقباط والارمن ، بينما تابع النساطرة جهودهم لنشر المسيحية في الاقطار الوسطى من آسيا .

وهذا الاستمرار نراه قائماً في حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية . فقد وُزعت الاراضي في الريف الى قسمين متميزين : الاملاك الخاصة ، والاملاك العامة ، ثم اضيفت اليها الاملاك التي فقد اصحابها ملكيتهم لها ، ففرارهم من البلاد عند الفتح او لوفاتهم في الحروب التي دارت رحاها اذ ذاك . فالقسم الاول من هذه الاراضي ترك لاصحابها ، شريطة ان يدفعوا عنها ضريبة عقارية هي الحراج التي كانوا يدفعونها من قبل للدولة البيزنطية او الساسانية . اما القسم الثاني من هذه الاراضي ، فقد أجز الى مزارعين او مرابعين (اقطاع) معظمهم من العرب ، بقصد استثمارها واستغلالها وفقاً لعقود خاصة ، رأى فيها بعض الفقهاء من اهل البلاد استمراراً لنظام الحكم الذي عرفه البيزنطيون وعملوا به طويلاً ، مع ان الدولة الجديدة التي لم تكن ألغت بعد مثل الفروق الدقيقة ، اعتبرتها املاكاً تشبه في ملكيتها ، هذه الاملاك التي كانت معمولاً بها في الجزيرة العربية قبل الفتح . فالاقطاع هو ملكية عقاري يولى صاحبه جميع الحقوق الاقتصادية ، مع ما لذلك من حدود . فعلى سيد الارض ان يدفع الضريبة المترتبة على كل مسلم ، ويجعل مما يتصدق به عُشر ربحه او مدخوله . فهو لا يتمتع باي من الامتيازات التي تمنح قانوناً للسلطات العامة ، على المرابعين او المستأجرين ، فسلطته عليهم هي اخف من سلطة اصحاب

الاملاك على مزارعهم ، في عهد البيزنطيين والساسانيين . وعلى هؤلاء المزارعين ان يدفعوا رسوماً شبيهة برسوم الحراج المترتبة على اصحاب الاملاك من الفلاحين ، وهكذا نرى ان هاتين الفئتين من الاراضي لم تخضما لنظامين اقتصاديين مختلف الواحد عن الآخر اختلافاً جذرياً . وهكذا لا نرى وجهاً « للاستعمار » العربي ، الا ما جاء استثنائاً او استفلافاً للاراضي الموات غير القابلة للحرب والزراعة . وهكذا نرى ان الفتح العربي ، كان اخف وقعاً بكثير على الاهلين ، وكان شعورهم به أقل بكثير من شعور الناس ، في الغرب ، بغزوات الجرمان واحتلالهم لاوروبا الغربية .

ان حرب « ارباب » الاراضي البيزنطيين من البلاد ، وحلول ملاكين عرب محلهم أمقل دراية وخبرة منهم بنظم الاقطاع ، لم يجلب معه الحرية للفلاحين . وكالت من المحظور على العرب ، مبدئياً ، ان يصادروا أو ان يخلتسوا أملاك سكان البلاد . اما في الواقع ، فقد ساعد الشهور والسرور بالخلاص من المحتل المستعبد ، وفقدان الادارة والنظام الذي ران على البلاد ، في اول الفتح ، بعض قادة العرب وزعمائهم ، على اقتناء قرى وضياع ضموها الى ممتلكاتهم السابقة ، وأعفيت من ضريبة الحراج ، فلم تستفد الدولة منها غير استيفاء العُشُر ، ومثل هذا الوضع لم يكن واحداً سوياً في جميع أنحاء الامبراطورية الاسلامية . ففي ايران مثلاً ، أُسقط في ايدي اسياد البلاد وكبار الملاكين ، وُسدّت في وجوههم منافذ البلاد فلم يستطيعوا ان ينجحوا بانفسهم ، ولذا بقي عدد كبير منهم داخل البلاد لم يستطع النجاة بنفسه . واذ رأى زعماء العرب انفسهم بمعزل عن كل رقابة حكومية ، قاموا بعدد من التجاوزات ، حدث منها اضطرارهم للتغيب كثيراً عن املاكهم بداعي الجهاد ، وعدم خبرتهم ودرايتهم بسياسة الأرض والعناية بها . وتمسك الفلاحين بالارض وتعلقهم بها في عهد الادارة السابقة ، لم يتأثر كثيراً مع الفتح العربي . ولذا كان لا بد من الكشف عن الممارين لاجبارهم على دفع ما يترتب عليهم دفعه عن املاكهم في الريف ، من ضرائب ورسوم ، لانهم لا يزالون مسؤولين ، قانوناً ، عنها امام الادارة المالية . ولذا نرى الوثائق البردية في مصر ، حيث كانت أعمال المراقبة المالية لا تزال فيها على اشدها ، تأتي على ذكر هؤلاء الفارين ، لدرجة انها اصططلحت على تسمية ضريبة الاعناق او الجزية المستحقة عليهم ، بكلمة « جوالي » أي اللاجئين ، وهم هؤلاء الذين يترتب عليهم شخصياً دفع ضريبة الاعناق أو الجزية ، بقطع النظر عن الاراضي أو العقارات التي يملكونها . وهذه الضريبة الثانية ، أي الجزية ، التي فرضت على غير المسلمين لم تكن ضريبة جديدة فرضها الفتح عليهم ، اذ كانت بيزنطية تفرضها على كل من لم يكن نصرانياً ، او لم يكن حراً . وهكذا فالحياة وطرق الجباة ، كل هذا بقي على ما كان عليه قبل الفتح ، ولم يتغير غير المستفيدين من هذه الضريبة . وهو أمر لم يكن ليكثر له الاهلون ، او ليهتموا له ، بقليل او كثير .

أما المؤسسات البلدية والخاصة ، في المدن ، فقد بقيت دونما تغيير يذكر وبقيت تعمل كالمعتاد في ظل النظم التي سارت عليها الادارة الجديدة .

وهل من تمييز يطرأ على التجارة ، يا ترى ؟ فقد تم بالطبع ، الغاء الاحتكارات الرسمية ، كما نسخت سيطرة الدولة البيزنطية ، على الاسواق في مصر ، وهي سيطرة كان يقصد منها تأمين اسباب تروين العاصمة القسطنطينية . وقد تكون خفت ، ان لم تتوقف تماماً ، الحكة التجارية في شمالي الشام ، ولا سيما تصدير الزيت والزيتون ، الى مقاطعات آسيا الصغرى . والذي نرى انه لم يحدث اي توقف أو انقطاع في حركة التصدير من مصر التي استمرت قائمة على ايدي بعض التجار ، كما ان الانتاج بقي على وفرته ، حتى في حال توقف حركة التصدير ، وتحولت الى أسواق جديدة تتمثل في هذه المدن الواقعة على مشارف الصحراء ، جديدة كانت ام قديمة ، وفي مقدمتها دمشق عاصمة الخلافة الاموية . ومن الجائز ان نفترض هنا بان الوحدة السياسية التي لفت هذه الاقطار بعضاً الى بعض ، بما وقع بين العراق وآسيا الوسطى ، والتي كانت ، الى ذلك الحين ، بين دفع وجذب ، بين امبراطوريتين متجاورتين ، متنافستين ، كان لها وقع طيب في الاوساط التجارية ، مع ان الناس لم يتبينوا فائدة هذه الوحدة ، إلا بعد حين . والمهم ان نلاحظ هنا ، على ضوء سوء الفهم الناتج عن نظرية عرفت بعض الشهرة ، ستطالعنا بعد حين ، انه لم يحصل تغيير كبير في التجارة البحرية : لا في بحر الهند الذي سيطر على التجارة فيه الايرانيون ولا في البحر المتوسط : فالعرب لم يكونوا رجال بحر كالبيزنطيين ، فلم يروا ما يمنع الا في بعض الحالات والاصطدامات المسلحة ، استمرار العلاقات التقليدية التي ربطت ، منذ اجيال ، بين البلاد المسيحية الواقعة الى الشمال من البحر المتوسط ، وبين سكان البلاد الواقعة في جنوبي هذا البحر والتي دخلت تحت سيطرة العرب والمسلمين . فقد يكون لحق ، بعض الاذى بالثغور السورية الواقعة على مقربة من الحدود الشمالية ، أو لوجودها على مقربة من جزيرة قبرص . والظاهر ان نشاط الاسكندرية التجاري لم يتأثر بشيء يذكر من هذا كله .

وهذا الاستمرار عينه يلزم الحياة الفكرية : فحضارة سكان البلاد
- منارات متقاربة
الوطنيين وحضارة العرب تسير كل منهما في خط أو اتجاه معاكس ، الا ما اتصل به مجال الفن . فالادب عند العرب ، في القرن الاول للهجرة يسيطر عليه الشعر وفقاً لعمود الشعر العربي في العصر الجاهلي ، بعد ان اخذ ينعم برعاية الامراء والخلفاء يستندون رجاله ويقطعون السنة الشعراء ، فقد تلفح بموضوعات جديدة لم تكن مطروقة من قبل كمدح الامراء ، استداراراً لعظائمهم ، أو كتصوير حياة الاحزاب ، وغير ذلك من الموضوعات التي تصف لنا حياة الدعة التي اخذ العرب باسبابها . ومن بين الشعراء الذين برزوا في هذه الحقبة في المدح والهجو على السواء ، ثلاثة هم أنبغ شعراء عهد بين امية اسماً ، واعلام شأناً وذكرأ ، الاخطل من قبائل الشام النصرانية ، والفرزدق وجريز . هنالك شعراء غيرهم ساروا على عهود الشعر العربي فتغنوا ، في نظمهم ، بما في الجيوش العربية في فتوحاتها المظفرة ، كما نظموا في موضوعات شتى ، كالحماسة والموعظة والثناء ، وفي العقائد وفقاً للاحزاب التي ينتمون اليها . و نرى كذلك ضرباً من السبب والتشبيب ، شعراً يلتهب جفاً عذرياً ، كما نرى في شعر مجنون ليلى ، أو يفيض اسى ولوعة فيصف لنا محاسن دمشق والمدينة ومكة ، على انغام المغنين

والقيان . اما النثر ، فيبقى باستثناء القرآن ، وفقاً على التخفي بإيام العرب والحوادث المروية . كل هذا ، واللغة تزداد طواعية ومرونة ويسلس قيادها مع المفسرين والمحدثين ، لتصبح في اواخر القرن السابع لفة الادارة والدواوين .

اما الادب القومي ، فجال الكلام فيه قصير ، اذ لا يخرج معظمه ، عن التأليف الكنسي ، كما سبق وأشرنا الى ذلك من قبل . ومع ذلك ، اخذت تطالنا بوادر حركة علمية ، تتمثل خير تمثيل في حركة الترجمة ونقل العلوم الدخيلة كعلوم اليونان والفرس والهند الى العربية ، على يد النصراني من سريان ونساطرة . فبينما لا نرى احسداً يبرز في التاريخ عند الروم ، يلتجئ امام نواظرتنا اسم المؤرخ الارمني سَبْيُوس اذ بقيت بلاده تتمتع بشيء من الاستقلال الاداري ، في العهد الذي كتب فيه (القرن السابع) ؛ كما نرى ، عند الاقباط ، يرفع اسم الكاتب يوحنا نيكيتيوس . وهذان الكاتبان عاشا الفتحة العربي وتركا لنا شيئاً عنه . وهكذا فالحضارة المسيحية ، في الشرق الادنى ، في القرنين السابع والثامن ، تتمثل خير تمثيل في الامبراطورية العربية ، بينما لا نرى في هذه الحقبة ، شيئاً عند الروم يستأهل الذكر والتذوية ، باستثناء بعض الآثار في التاريخ والتصوف ، وذلك في هذه الفترة الممتدة من منتصف القرن السابع حتى مطلع القرن التاسع .

وقد اشتركت الحضارتان معاً في ما نرى من انتاج فني ، يمسد به العرب الى المهندسين المماريين من أبناء البلاد ويستخدمون له مواداً هي ، في معظمها ، من مخلفات اليهود الماضية . فاذا ما اقتضت فروض العبادة ومناسك الدين في الاسلام ، ان يتميز بناء المسجد بالاصالة والاتساع من حيث مقاييسه ، فذقوشه وزينته من الداخيل وتجليته تبقى مستوحاة من الطراز الوطني المعمول به في البلاد . وهذا الاستمرار في الوسائل التقنية والمضي في استلها الموضوعات والناذج الاهلية ، يبرز أكثر فأكثر ، في المباني المدنية بحيث ان نسبة قصر المشتى في الاردن ، تبقى أمراً مشكوكاً فيه جداً ، ولا يمكن بالتالي ، التسليم به بصورة مطلقة . ومن أشهر هذه الآثار الهندسية الباقية الى يومنا هذا ، مسجد عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، في القسطنطينية ، ومسجد قبة الصخرة الذي يسميه البعض غلطاً مسجد عمر ، والمسجد الاقصى ، في القدس ، وكلاهما من الجازات الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، ويرجع تاريخ بنائها الى أواخر القرن السابع . وبعد ذلك بقليل المسجد الكبير في دمشق ، المعروف بالمسجد الاموي ، الذي كان ، أساساً ، كنيسة باسم القديس يوحنا الممدان ، ولا يقل شهرة عن هذه المساجد مسجد القيروان الذي لم يبق منه شيء يذكر .

اخخذ الوضع الناجم عن الفتحة العربي يتغير تدريجياً ، وينقلب ظهراً لبطن ، تحت عوامل جديدة عديدة . منها في الدرجة الاولى ، إقبال الاهلين على اعتناق الاسلام اقواجاً اقواجاً . وهي

اقبال سكان البلاد الاصليين
على اعتناق الاسلام

حركة تثير الدهش في مظهرها ، اذ يقوم بها اصحاب اديان اوفر غنى ، مادياً وحضارياً ، وارفر عدداً . الا ان هذه الحركة لم تأتِ سواها ، في كل مكان ، اذ بقي في بعض الاقطار اقلية دينية

متراسة العدد ، كما هي الحال مثلاً ، مع الطائفة المارونية في لبنان . وقد كان المسيحيون ، على
الاجمال ، اكثر تمسكاً بعقيدتهم ودينهم من الزردشتية ، مثلاً ، وهي ظاهرة يمكن ردها
بالاخرى ، الى اسباب عديدة ، منها مثلاً القوة الادبية التي كانت للمسيحية في كثير من الاقطار
الاخري ، ومن جهة اخرى ، تغلغل المسيحية بين الطبقات الشعبية في المجتمع القسام اذ ذلك .
ويتضح من جهة اخرى ، ان العرب ، خلافاً لما سار عليه الفاتحون من قبل ، اخذوا يدعون
سكان البلاد لاعتناق دينهم ، بينما اعتاد الفاتحون فيما مضى ، ان يقبلوا على اقتباس ديانة البلاد
التي فتحوها ، وهي في مستوى ثقافي اعلى وارفع . ومهما بلغ من حدة الجدل الديني ، وعنف
الحروب التي قامت بين الاسلام والديانات الاخرى ، فقد كانت هذه وتلك ديانات من نفس
المستوى الذهني للمؤمن المتوسط ، اذ كان من المسير على المؤمن العادي ان يدرك ، او ان يفهم
كما يجب ، او ان يميز بين مفارقات رجال اللاهوت . فبعد ان ملّ النصارى وسئمت نفوسهم
عطس المناقشات التي ادت اليه المشاقات الدينية والمذهبية ، وهذه الشروح ، والتفاسير
والتعاليق الفلسفية اللاهوتية التي آلت اليها او شجرت عنها ، فقد رأوا في الاسلام تبسيطاً
معتاداً لمعتقداتهم ، غاية في الاستمرار والتركيز . وهذا الاسلام الذي اقبلوا عليه يعتقدونه
زرافات ووحداً ، كأنه لم يكن في نظرهم ، هذا الاسلام الذي خرج من بين يدي محمد : فهو
دين طرأ على اتباعه تطور كبير منذ ان اصبح في تماس شديد مع الشعوب والبلدان التي تم
إخضاعها ، بعد ان ادخل عليه معتنقوه من الاعاجم ما ادخلوا من رواسب تراثهم الروحي ،
وبعد ان لقوه بما لقوه من صور ونماذج وقوالب جديدة . ولكي نفهم ، من جهة اخرى ، حركة
اعتناق الاسلام بالجملة ، علينا ان لا نسقط من حسابنا الفوائد والمنافع المادية والادبية والاجتماعية
التي طمع المؤمنون الجدد في قطفها من اعتناقهم الاسلام ، اذ ان الخاذا الاسلام ديناً لهم ،
يحملهم من أبناء الطبقة السائدة المهيمنة في الدولة ، ومن أعضاء المجتمع المسيطر . وهكذا
فاعتناق الاسلام ، كان في نظر القوم اشباعاً لنهم طبقي ، ولشهوة اجتماعية ، وتحقيقاً لرغبة او
لحلم طالما راودهم بتحسين وضع اجتماعي ، وطالما اوردتهم ، وهذا وضمهم ، مورد الذل والهوان ، أكثر
بما هو ارضاء لنزعة دينية ، او لمطلب اسمي من مطالب النفس البشرية السامية . فالمرتدوت
للإسلام ، لم ينالوا حالاً ، المساواة مع العرب من الوجهة الاجتماعية ، التي طعموا بالحصول عليها .
فالاسلام الذي اعتنقوه لم يكن دوماً هذا الاسلام المتمثل في الحكومة والادارة المركزية . فهو
كثيراً ما كان ، اسلام هذه الملل والنحل الاسلامية المعارضة . وهكذا فلنكي تقوي هذه الملل
من جانبها المستضعف ، وتشد من أزرها امام الاسلام الدولة او الاسلام الرسمي ، نرى اتباعها
يقومون بجهد كبير لدى سكان البلاد الوطنيين ، لملهم على اعتناق الاسلام ، وفقاً لمقالتهم
او حزبيتهم الخاصة .

فالدولة الاموية كرسّت سيادة العرب وسيطرتهم . ففي نظر الفاتحين ، العربي والمسلم شيئان
او وضمان مترادفان . فالاقبال على الاسلام واعتناقه بالجملة ، من قبل سكان البلاد ، ميمان هذا

الترادف ، وذهاب بهذا التوافق ، اذ في مثل هذه الحركة تقلاب عنصر على عنصر آخر وترجيح فريق مسلم على فريق مسلم آخر ، والدين الجديد لا يقر مثل هذا الامر البتة . فالأول الذين اعتنقوا الاسلام من غير العرب ، أنزلوا منزلة القوم من القبيلة ، فجعلت منهم أشبه ما يكونون أبناء لها بالتبني ، هم الموالي ، بأخذ زعماء القبيلة لهم تحت رعايتهم وحميتهم . ومع ذلك فوضع هؤلاء الموالي كان بالفعل ، دون أبناء القبيلة ، وهو وضع برّموا منه ، وتألّموا له كلما ازداد عددهم ، وكلما تباعدت عن الاذهان ذكريات الفتح ، واخذت الدولة الجديدة في تنظيم امورها بعد ان اصبحوا ذخز الدولة يرفدونها بالعنصر الاداري . وقد اقتصر وضعهم في الحروب ، على دور ثانوي ، لا يخولهم أي حق بالغنائم والاسلاب التي يصيبها العرب في فتوحاتهم . وفوق هذا ، فلم يكن وضعهم بالنسبة لنظام الضرائب مما يُرغَب فيه . فاعتناقهم الاسلام ، كان يجب ان يؤدي ، في نظرهم ، الى اعفائهم من الجزية المضروبة عليهم قبل اعتناقهم الاسلام ، كما كان يجب ان تُحوّل ضريبة الخراج المترتبة عليهم ، الى 'عشر' . فلم يحدث شيء من هذا عملياً . أفكان من المعقول ، ان تقبل الدولة بمثل هذا الرأي الخطل وقد أوشكت حروب الفتح ان تنتهي ، وان تقبل بمثل هذا الفيه المتدني من الرسوم والضرائب ؟ والحل الذي انتهوا اليه مع الوقت ، هو الغاء الجزية ، هذا الميسم الذي يدمغ الذميين والحاضمين للاسلام ، على ان تستبدل ، فيما بعد برسوم اخرى تحل محلها ، وان بقي تصنيف الاراضي ، من الوجهة الضرائبية ، على ما كان عليه ، منذ الفتح : فتبقى ارضاً يترتب عليها الخراج ، هذه الاراضي التي يملكها صاحبها حتى بعد اعتناقه الاسلام . وهكذا استمرت قائمة ، هذه الظاهرة ، ظاهرة عدم المساواة ، ممثلة خير تمثيل بالنظام المالي وجباية الضرائب ، هذا النظام الذي سارت عليه الدولة الجديدة . وأمام هذه الظاهرة من عدم المساواة ، قام المرتدون الى الاسلام بطالبون باجراء العدل بالسوية وتأمين المساواة بين المسلمين ، من أي جنس او عرق كانوا ، وليس بين العرب فقط . وهكذا ، فحركة التذمر التي ارتفعت ، اذ ذاك ، بين سكان البلاد ، لم تتجه ضد سيادة الاسلام وسيطرته ، ولا ضد الديانة الجديدة . فقد هدفت الى السيطرة على الاسلام من الداخل ، في هذه الأطر ذاتها التي ارتضاها الاسلام له وعمل بها . وعلى هذا الاساس ، قامت الحركة في ايران ، بلد الموالي الامثل ، وفي المغرب الاقصى ، بين البربر من سكان البلاد الذين راح العرب يحيلون فتيانهم عبيداً ، وبعد ذلك ، في اسبانيا ، بين طبقة المولدين ، هذه الطبقة التي تألفت من ملاطي المسلمين او من الذين اعتنقوا الاسلام ، من سكان البلاد الاصليين . وبلغت الحركة اشدها في ايران ، وقد ساءها ان يعتمد الامويون على اهل الشام دونهم ، في تدبير امور دولتهم ، بينما رأى سكان الولايات الاخرى أنفسهم يذمبون هم أيضاً ضحية هذا النظام . والحال فقد كانت ايران ، من بين هذه الولايات ، القطر الوحيد الذي كانت له تقاليد الوطنية أو القومية .

وهكذا تلتقي في مجال النظام الضرائبي ، جنباً الى جنب ، القضية القومية والقضية الاجتماعية ، وزادتا تداخلاً وتشابكاً وتماظلاً في نظام الملكية الذي عمل به في الدولة الاسلامية . ففي ابان الفتح ، تركت للعرب ، الحرية في ان يقتنوا ، شراءً او غلاباً ،

الأراضي التي كان على سكان البلاد ، مبدئياً ، ان يحتفظوا بها . الا انهم راحوا يوسعون من نطاق هذه الملكية عن طريق التلجئة ، وهي ضرب من التوسية او من الإرتفاق ، في الغرب ، يلجأ اليه من الناس المستضعفون الجانب ، ليأمنوا شر الجبابرة الشرهين ، وسوء معاملاتهم ، او لعجزهم عن تأدية الرسوم المتأخرة عليهم من السنين المؤجلة الدفع ، فيطلبون الانصواء تحت حماية زعيم قوي بعد ان يجمعوا املاكهم في استناره وتحت تصرفه بصورة وراثية . اما في المقاطعات والولايات الواقعة على الحدود ، فكثيراً ما عمد العرب ، في غفلة من الخليفة او الأمير ، الى اغتصاب املاك السكان الذين لا يزالون متخلفين في تطورهم ، بعد ان يسيروم الهوان الوانا ، كما فعلوا مثلاً ، مع قبائل البربر ، في المغرب . وقد رأينا في اماكن اخرى ، كإيران مثلاً ، كبار الملاكين من سكان البلاد ، يعقدون صلحاً مع القادة من امراء الجيش ، من مندرجاته : استثمار الطبقات الشعبية السفلى ، بحيث يعارضون اعتناقها الاسلام ، لئلا يزعجهم مثل هذا الارتداد ، في طريقة تأمين المنافع التي تؤمنها لهم هذه الترتيبات الخاصة التي عقدها مع اولي الشأن . وهكذا نرى عدم المساواة تفرق بين النزعات الوطنية والنزعات الاجتماعية ، وفي هذه الممارك التي لن تلبث ان قامت بين المسلمين ، نرى فيها كل فريق يضم بين صفوفه ، عرباً وغير عرب من الانصار .

اما على صعيد العواطف والمشاعر ، فالاصطدام وقع بشكل مدهش : بين اشد العرب استمسكاً بالتقاليد ، من جهة ، وبين اشد سكان البلاد ثورة ومطلباً . فبينما راح الفريق الاول منهم يطالب بتطبيق الشريعة الاسلامية والتمسك بالتقاليد الاسلامية الاولى ، وهذا يعني الوقوف في وجه الدولة الاموية النصف العلمانية ، بينما رأى الفريق الثاني ، في تطبيق الشريعة الاسلامية ، المساواة بين المسلمين ، على صعيد الأطر والملاكات التي تنتظم الادارة العربية ، منذ الفتح . وبدون ان يوضحوا مطالبهم والاهداف التي يرمون اليها ، نرى كلا الفريقين يطالب الأخذ بتعميم النظام الاسلامي وتوسيعه . وهذا التحالف لم يكن قائماً على ما فيه لبس او غموض فمن العقول جداً ان تجمع الناس على استبدال نظام بغيض استطاع ان يطفئ به بالدم الانتفاضات التي قامت هنا وهناك ، بالتحاد اوسع واشمل ، وهو اتحاد ادى ، على ما حف به من غموض ، الى النصر المرجحى .

وقد اتخذت المعارضة اشكالاً شتى ، فالخوارج نالوا تأييداً مؤزراً ثورة بني العباس وانقلاب الحكم في كل من ايران ومصر ، ولا سيما في المغرب حيث استفحل امرهم وعظم شأنهم بعد ان استجاب الاهلون من البربر لهذه الدعوة لتوافقها مع النزعات الفوضوية الدينيّة المتأصلة بينهم ، غير ان بُعد بلاد البربر من جهة ، وانقسام فرق الخوارج على بعضها من جهة اخرى ، اذ كانت طبائهم طبائع امهال البادية الذين عرفوا بالعنف والتهور ، كل ذلك حال دون ان يحققوا فوزاً فاصلاً . وقد وجدت الثورة خير تعبير لها في فرقة الشيعة ، او بالاحرى ، في هذا الشعور العارم الذي كان الشيعة خير من يمثله ، الا وهي صورة سلطة يتلقى صاحبها من الله رأساً ، مناقب خاصة ، فكرة تستهوي معاً

اصحاب النظرية التقليدية الذين يقدرّون ما في رسالة محمد من قيمة سامية ، كما تبسم لليرانيين الذين ألقوا حكم الساسانيين وارتاحوا اليه . وقد اخذ البعض يضيفون الى نظرية الحكم هذه ، آراء وتعاليم تمكس أمجاد السكف والحدود عند الاعاجم . وكان الشيعة يطالبون بأن يكون الحكم في اولاد علي بن ابي طالب وذريته ، بينما راج غيرهم يتمسك بأسرة النبي دون ان يخلصوا منها فرعاً معيناً ، واظهروا استعدادهم لمناصرة اية حركة ذات شأن . واستطاع احد اولاد العباس ، عم الرسول العربي ، بما تم له من دراية وحسن سياسة ، ان يقيم له داعية في خراسان (مقاطعة تقع الى الشمال الشرقي من ايران) ، هو ابو مسلم الخراساني ، وان يوجه هذه المعارضة لمناصرة آل العباس ، وان يسقطوا الخلافة الاموية عام ٧٥٠ ، فيؤسسوا هكذا دولة جديدة استطاعت ان تستمر في الحكم ، ولو نظرياً او مبدئياً ، على الاقل ، الى مطلع القرن السادس عشر .

حاولت الدولة الاموية ، لمعري ، ان تكيف نفسها حسب مقتضيات الوضع القائم ، واستطاع الخليفة عبد الملك ، ان يوحد ، لاسباب اقتصادية وسياسية مما اقتضتها حروب الامويين ضد البيزنطيين ، ضرب السكّة والنقود في ايام حكمه ، ف ضرب نقوداً تحمل كتابة عربية ، منها الدينار الذهب ، وزنته ٤ غرامات و ٣٥٥ سنتيفراماً ، والدرهم الفضة ، وزنته غراماً و ٧٩ سنتيفراماً ، وهي اسماء مشتقة أصلاً من الدينار والدرهم البيزنطيين ، وكانت قيمة الثاني الى الاول بلسبة ٧ الى ١٠٠ على اساس الفضة ، اي بمعدل ١٠١ من سعر الذهب . ومن الاعمال التي حققها الخليفة عبد الملك ، في عهده ، تعريب الادارة ولغة الدواوين ، اقله في مركز الخلافة . وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وهو الملك المثالي ، في نظر المؤرخين العرب بتقواه ، ان يطبق خلال حكمه الذي دام سنتين لا غيره ، البرنامج المالي أو الضرائبي الذي طالب به أهل المدينة . وعلى ضوء حالة الحرب مع بيزنطية التي لم تعد ، كما في الماضي ، سلسلة متصلة الحلقات من الانتصارات ، ندرك بعض الشيء ، سياسة الشدة والتدابير القاسية التي اتخذها الخليفة ، ولا سيما يزيد الثاني ، ضد النصاري ، في بعض المناطق ، ولا سيما ضد الملكيين ، اذ فرض عليهم ابراز جواز سفر في تنقلاتهم في أطراف مصر ، كما فرض عليهم زيتاً خاصاً من اللباس ، وتحطيم الشارات المسيحية البارزة للعيان . كل هذه التدابير ، لم تكن على شيء من الرصانة ، ولم تأت باي علاج للمشكلة المتأقية عن اعتناق الايرانيين للاسلام بالجملة ، كما انها لم تفد شيئاً ولم تجتهد فتية في تأخير اعلان الثورة ، ولا في إنساء أجل سقوط الخلافة الاموية .

بالطبع لم يستطع النظام العباسي الجديد الرجوع بالنظام المالي الى ما كان عليه من بساطة في عهد محمد ، فلم يُدخِل أي تغيير على نظام الخراج . ومع ذلك ، فقد كانت الدولة الجديدة تختلف كثيراً عن السابقة . فالفضل في النصر الذي حققه العباسيون وبه استطاعوا الإطاحسة بالخلافة الاموية ، انما يعود ، أصلاً ، لعرب العراق الذين ناصبوا الامويين في الشام العداء ، ولا سيما للموالي من الايرانيين ، وعلى الاخص ، للخراسانيين من بينهم ، اذ كانوا دُخر الدولة العباسية وسيطها المصلت ، فأعادوا الاعراف المتعبة في عهد الدولة الساسانية . امسا البدو من العرب ،

فقد أبعادوا الى الصحراء بعد ان يسوا من تطويرهم وتكليفهم ، كما أبعادوا كذلك ، عن الجيش ، الذي تألفت صفوفه من الخزرانيين ، فاقبلوا ينخرطون في كتابته واصبحوا العنصر الفني فيه ، ورمزاً لهذه التغييرات الجديدة أو تكتلة لها ، تأسست عاصمة جديدة للدولة العباسية ، هي بغداد ، التي قامت على مقربة من مدينة طيسفون ، عاصمة الساسانيين من قبل . وقد انتقل معظم سكانها الى العاصمة الجديدة ، ونقلوا معهم عاداتهم واعرافهم . وهكذا زالت سيادة اهل الشام وذهبت سيطرتهم مع ذهاب الدولة الاموية ، فتحول قطب الجذب ونقطة الدائرة ، من البحر المتوسط ، الى المحيط الهندي وبحر العرب .

هدف النظام العباسي الجديد الى وصل ما انقطع من التراث الساساني ، كما رمى ، من جهة اخرى ، الى إحلال التمسك باهداب الدين محل « الاحاد ، الاموي . فالنظام القائم هو نظام إسلامي ، لان صاحب الامر فيه هو من سلالة النبي ، فإتاح له ذلك ، ان يتمتع ، بوصفه الإمام ، بكل ما لهذا المركز من المهابة والجلال والوقار ، دون ان تكون له القوة . بالفعل ، ليغير شيئاً من الشريعة او ان يكلمها . وهذه الصفة الفائقة للبشر التي تلبستها ، الامامة ، تجعلنا ندرك جيداً البذخ الذي كان عليه بلاط الخليفة ، وعزلته عن الناس ، بحيث لا يتيسر لهم رؤيته ، الا في مناسبات خاصة ، كالاعياد العامة مثلاً ، وهو يرتدي باهية وجمال ، ملابسه الفخمة تحفّ به كل مظاهر المهابة والوقار ، تشبهاً بملوك الدولة الساسانية ، من قبل . اسلامي كذلك هذا النظام القائم ، لانه قضى على كل ما يشتم منه امتيازات سياسية ومالية ، وقضائية وعسكرية ، بحيث تعود فائدتها على المسلمين كافة ولا تقتصر على العرب وحدهم . اسلامية أيضاً هذه الدولة لاعتمادها كل الاعتماد على علماء الدين والفقهاء ، حتى اذا ما اجمعوا على امر كانت اجماعهم هذا تبريراً له ، واعترافاً بعدم مخالفته او مغايرته للمقيدة الاسلامية ، بحيث ان جميع المؤسسات والنظم التي طلع بها الحكم قد تبدو وكأنها من مستلزمات التنظيم الاداري للدولة . وعلى هذا الاساس يجب ان نفهم « كتاب الخراج ، الذي ألّفه ابو يوسف الانصاري ، المتوفى ٧٩٨ ، بأمر من الخليفة هارون الرشيد .

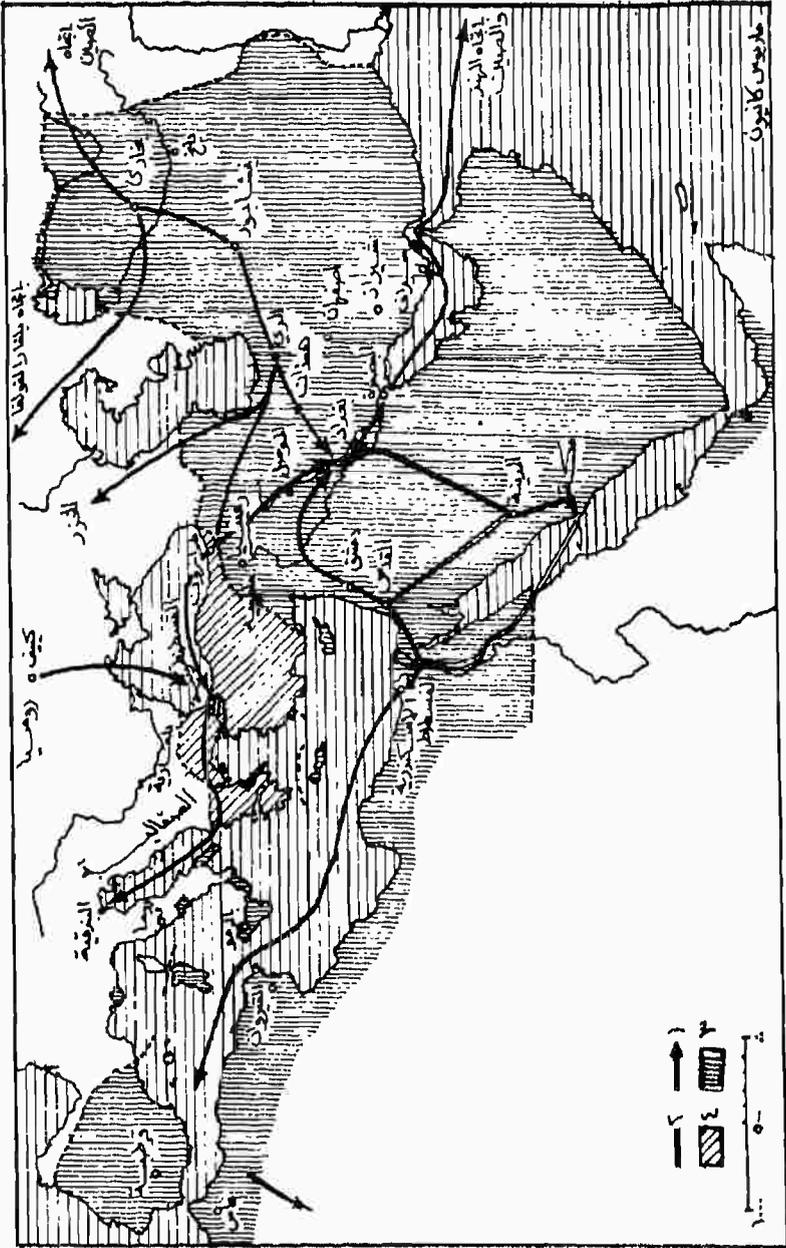
فقد اعتمدت الادارة العباسية المناهج الادارية التي عول عليها البيزنطيون والساسانيون ، من قبل ، وهي ادارة ، تألفت أصلاً من عدد من الدواوين المتلاصقة - ومن كلمة ديوان هذه اشتقت كلمتان فرنسيتان ، هما *Douane* و *Divan* - يشرف عليها موظفون اداريون كبار ، اشبه ما يكونون ب *Sekretu* . لدى البيزنطيين ، دون ان يتألف من مجموع رؤساء هذه الدواوين ، مجلس وزراء . وخلافاً لما كان يجري في بيزنطية حيث كان الامبراطور هو نفسه ، روح هذه الدواوين وهمة الوصل بينها ، كان الخليفة العباسي ، في بغداد ، يعهد بالاشراف على الديوان ، الى وزير يشبه من بعيد ، *bozorg - fruhmudār* لدى الساسانيين . وكان الوزير يتعمد تأمين العمل الاداري ، مستعيناً على ذلك بعدد من العمال يأتي بهم من بين انصاره ورجاله . ولذا كان يُخشى من نفوذ سلطانه ، وهذا ما حدث بالفعل للبرامكة ، هذه الاسرة الفارسية التي

اثارت ، بما بلغت من غنى وسؤدد وسلطان ، هواجس الخليفة هارون الرشيد ، فنكبتها شر نكبة ونكل برجالها وقضى عليهم . ومن اهم الدوائر التي يهيم الوزير انتظام العمل فيها دائرة جباية الرسوم والبريد ، وديوان الرسائل . وكان البريد يؤمن ، احياناً نقل بعض الامتعة الخاصة ، انما الغاية الكبرى منه تأمين تبليغ العمال ، في الولايات ، والاوامر والتعليمات الصادرة من الحكومة ، كما يحمل الى الادارة المركزية مطالب الاهلين في الملحقات ، ومظالمهم . فالبريد كان يلعب ، في هذا المجال ، دور الامن العام ، في حكومات هذا العصر . ويقوم باعمال البريد 'سعاة يستخدمون الخيل لقطع الطرقات ، وهي على الاجمال حسنة ، يقوم على ابعاد متساوية ، محطات خاصة لتأمين حاجة المسافرين ، وتسهيل متابعة سفر البريد بالسرعة المرجوة . أما الدواوين القائمة بمعية الوزير ، فكانت تقوم باعداد الاوامر ، وتعيين الموظفين والكتابة والعمال ، وتأمين المراسلات الدبلوماسية بعد ان يهرها الوزير بخاتم السلطان .

وهذه الادارة التي عولت اكثر مما عولت على الدواوين ، كانت تكثر من القراطيس والوثائق والمحفوظات ، كما تكثر من السجلات الرسمية . وهي ادارة مركزية ، قائمة ودوائرها الكبرى في العاصمة بغداد . وهذا لا يعني قط ان الفوارق الاقليمية مثلاً ، ولا سيما ما تعلق منها بجباية الرسوم والضرائب ، قد زالت واختفى كل اثر لها من الوجود . وكانت هذه الدواوين تجمع في مكاتب الادارة العامة ما تحتاج اليه من المعلومات ، كما كانت تشرف على اصدار الاوامر والتبليغات ، وتؤمن استلام رسوم الجباية ، بعد حسم تكاليف الادارة المحلية . وكانت ادارة الملحقات تمتاز ، هي ايضاً بالدقة كالادارة المركزية . وكان يقوم في الولاية قائد يمثل الخليفة ، كما ان الوزير كان يتمثل فيها بجاك مدني او عامل ، اليه امر الولاية وضبط الادارة ، يستقل الواحد عن الآخر ، يشرف الاول على الجيش كما يؤمن الثاني الولاء للخليفة والموارد المالية التي تحتاج اليها الادارة .

اما العدل الذي كان امره ، ابدأ على هامش الادارة او الحكم ، فقد بقي من اختصاص القاضي . غير ان عدم كفاءة القانون احياناً ، وعدم وجود الموجبات القانونية للمراجعة او الاعتراض ، وعجز القاضي عن تنفيذ الاحكام التي كان يصدرها على الزعماء النافذين ، كل هذا اضطر الدولة لايجاد دائرة خاصة يشرف عليها قاضي ، هي ديوان المظالم الذي كان ينظر في امور التجاوزات على حقوق الآخرين . اما الفقهاء فكانوا يعملون بالتعاون مع القضاة في كل ما يساعد على تطبيق احكام الشريعة . وهكذا رأينا يطل علينا قضاء دولة الى جانب قضاء شرعي يمثله القاضي . وقام في حواضر البلاد الكبرى ، دوائر للشرطة كان يعهد اليها السهر على الامن وتأمين راحة العباد ، مستمينة في تحقيق هذا كله ، على فرقة « الاحداث » ، او الفتوة .

وهذا النظام او الحكم الاسلامي القائم ، كان اعجز من ان يحصل كل استمرار الاضطرابات
المشاكل العارضة ، أو ان يزيل اسباب شكوى الشاكين او الناقمين ،



شكل (رقم ٥) - العالم الاسلامي حوالي القرن التاسع
 ١ - الطرق التجارية ٢ - طرق الحج ٣ - اراض اسلامية ٤ - اراض بيزنطية

التي اتخذت منها الثورة العباسية 'تكتأ' لها . فالفوارق السياسية والاجتماعية لم تعد شيئاً من حديثها ، اذ لم يؤخذ شيء من اصحاب الاملاك الكبيرة ، عربياً كانوا ام اعاجم ، لارضاء هذه الطبقات ، او للحد من هذه الممارسة الدينية ، عن طريق فوز حلف تألف من اشقات الاحزاب ، فكيف يرضى الشيعة مثلاً ، عن عهد ، ليس رجاله والقائمون على امره من ولد الامام علي بن ابي طالب ، وبين انصار الامويين ، فريق من الاكراد ، تشبع بالتقاليد القديمة ، وبينهم ظهرت فرقة الزيدية . كذلك بقيت راکدة تحت الرماد ، هذه الحزبيات والمصيبيات التي فرقت بين العصيبيات ، او انها انبعثت من جديد تحت مظاهر واشكال جديدة . فانتصار الايرانيين لم يزحزح العرب من طريقهم ، بل اضطرم احياناً للوقوف موقف المعارض . اما المنتصرون الحقيقيون ، فقد كانوا اهل خراسان الذين تركوا جانباً ، فئات كثيرة من الايرانيين تعرضت من قبل لأذى الساسانيين ولسوء معاملتهم ، فبقوا على تشكيبتهم يتذمرون بمرارة . ولعلمهم قابلاً بشيء من الاسف والحسرة ، بروز بعض الاعراب الذين ساعدتهم انتصارهم على الظهور ، فسارعوا ، بعد ان تمت لهم الغلبة ، للتخلص من بطشهم العمومي بالاضاء على ابي مسلم الخراساني الذي امن النصر للعباسيين . كل هذه الامور تبقى غامضة ، مبهمه ، مجهولة ، تصعب معرفتها بالتفصيل المرجحى ، الا انها واضحة في خطوطها الكبرى بحيث نفهم جيداً وندرك تماماً ان هذا الغلبان الفكري والاجتماعي الذي هيا الثورة العباسية لم يهدأ بعد ان تمت له الغلبة وحققت النصر .

وهذا الاضطراب الذي ضرب سرادقه عالياً في كل مكان : في اسبانيا حيث استطاع احد الامراء الامويين بعد ان نجح بنفسه من المذابح التي اعدتها لهم العباسيون ، ان ينشئ له دولة مستقلة ، وفي المغرب ، مع الخوارج كما سنفصل ذلك بعد حين ، وفي مصر ، تحت ضغط عملاء الخراج الذين زاد وضعهم حرجاً ، الصعوبات الناجمة عن الاتجار مسيح بيزنطية ، وفي سوريا التي لم تغفر للعهد الجديد ، اغتصابه السلطة منها والاستئثار به دونها . وبما هو اوقع مدلولاً من هذا كله ، واقدح نتيجة ، الاضطرابات التي شجرت في ايران نفسها ، حيث نرى تطل علينا ، تحت مظاهر دينية ، مطالب ادهى واكثر تمقيداً . وبمجلس القول ، فهذه المنطقة الجبلية الممتدة بين خراسان وارمينيا وما اليها من سكان ، سوادهم يعيشون على جوانب الاسلام في هذه المناطق الجبلية التي تشرف على قزوين ، تبقى ابدأ في غليان من جراء هذه الدعوات الدينية المتتالية التي ادت اليها بعض التعاليم الدينية الاسلامية المنحرفة بما يمتثل به سكان هذه المناطق من رواسب المانوية والزردشتية ، هذه القوالب الدينية التي حنست اليها دوماً نفوس الطبقات الشعبية في ايران القديمة . وهكذا كشفت هذه الاقوام عن وجود معارضة قوية ، قومية ، واجتماعية ، انتصبت في وجه هذه الاوساط الحاكمة التي ربطت مصيرها ، في الجهالين الديني والسياسي ، بصير العباسيين «الشعوبيين» . ومن اعماق بعض هذه الانتفاضات انطلق عجبج المطالب الصاخبة ، فرددت اصداءها طبقات الفلاحين الرازحين تحت جور كهسار الملاكين ،

فراحوا ينزلونهم ، وفقاً لنزعاتهم الدينية ، منزلة الغريب المنتصب . ولعل ادهى هذه الثورات طراً ، الثورة التي قام بها الحرورية ، فانطلقت من بدعة اسلامية منقرقة قالت بمبدأ الخير والشر ، واقرت عبادة ابي مسلم الخراساني ، وقالت بالتناسخ والاباحة الجنسية ، وباستواء الاديان جميعاً ، وذممت للمطالبة بالمساواة الاجتماعية . فبعد ان هُزم زعيمهم بابك الحرمي ، في مطلع القرن التاسع ، في اذربيجان ، انضمت بعض فرقهم ، فيما بعد ، الى الثورة التي قام بها مزيار . واذ ذلك ، قام صواليك الفلاحين مهاجون كبار الملاكين من العرب ، في هذه الاقطار الجبلية الواقعة الى الجنوب من بحر قزوين ، بما اضفى على هذا المراك طابعا قاسياً . وبعد ان سيطر الحرميون واتباع مزيار على المنطقة سيطرة تامة ، حقبة من الدهر ، انهزموا شر هزيمة ، في عهد المتصم ، على يد قائده الافشين . الا ان ابادتهم لم تؤدي قط الى اية تهدئة في المعارضة التي اخذت تمتد ، منذ ذلك ، على عناصر اسلامية خارجية . صحيح ان العباسيين خرجوا من الممة ظافرين ، كاسيين ، الا ان المجهود القومي الذي بذلوه لم يبق بدون تأثير على هذه التغييرات العسكرية التي ستضفي بهم الى الهاوية ، بعد حين .

وهذا التطور ليس باقل وضوحاً منه في الاخرى ، ان دخول السكاث في
 الفكرة الدينية
 حظيرة الاسلام واقعام الاسلام بالتالي في الحضارات القومية وتغلغله في الطبقات الشعبية كان بمثابة اقحامه في هذه المشكلات الملزمة لهذه الحضارات ، واعطاء العالم الاسلامي حضارة واحدة حلت محل الحضارتين المتجاورتين اللتين رافقتا قيام الدولة الاموية . ففي هذه المحاولة لتوحيد الحضارة ، راح اهالي البلاد الوطنيون بطالبون عالياً ، في ان يكون لهم دور بارز ليس في المجال الروحي فحسب بل ايضاً على الصعيد الاجتماعي ، ولا سيما الايرانيون بينهم ، عن طريق اعتمادهم الشعبية . فالمنصر العربي لم يكن ليهمل جانبه ، مع هذا فالاسلام نفسه ، منذ دعوته الاولى ، اثار ضمناً هذه المشكلات ، وواعد اتباعه بالثراء والنمى ، فجاء الاعاجم بينهم يسهمون بتحقيق الوعود المقطوعة . في هذا الايفال عميقاً في الفكرة ، وفي هذا التوسيع في جنبات المعرفة ، ساهم عدد كبير من العرب ، كما ساهم باعداد اكبر ، الاهلوت من سكان البلاد ، لا سيما الموالي بينهم . وهذا التمييز العرقي العنصري الذي تلبسه الغموض وسيطر عليه الابهام احياناً ، لم يعد له من اهمية أو قيمة . فالكل يشاركون في نهج واحد من الحياة : فالشيء المهم الآن هو ان الثقافة الجديدة التي تطلع على البلاد ، لم يعد يعبر عنها باليونانية او السريانية ، بل بالعربية . وهكذا صح لنا ان ندعي قيام ثقافة عربية . ولغة العلم والعلماء انفسهم ، التي اُبتنمت وأثرت ، فارناضت ولانت ، لم تعد هي العربية الدارجة . صحيح ان العربية الدارجة تغلغلت عميقاً بين الطبقات الشعبية ولا سيما بين الجماعات اليونانية والقبطية والسريانية ، بعد ان اصبحت اللهجات المحلية من قبل لدى هذه الطوائف ، لا يفهمها غير رجال الدين . فكان لا يد للعربية من ان تظهر وتظفر ، بعد ان اصبحت لغة القادة والزعماء والشريعة الاسلامية . وهل كانت بلغت ما وصلت اليه من سيطرة وسيادة وسؤدد ، لو لم يتم لها ماتم من

دقة البيان في التعبير ؟ الا ان الانتصار الذي حققته كان لعمري ، ايمد من ان يكون كاملاً .
فاللغة البربرية بقيت اللغة المحكية في المغرب . والجدير بالملاحظة هنا هو ان الايرانيين الذين لم
يحدوا قط غضاضة عليهم في ان يعتنقوا دين الفاتحين ، احتفظوا في معاملاتهم بلهجاتهم المحكية ،
ولم يلبث بعضها ان اصبح لغة الفكر والادب ، بعد ان تأثرت كثيراً ، في مفرداتها تأثراً لم نر له
مثيلاً في دراسة علم اللغات وتطورها .

فان لم نستطع ان نحدد بالفعل ، هذه الفوارق بوضوح وجلاء ، فسهولة المرض لتقتضينا ان
نلقي تباعاً نظرة عجيلى على النشاط الفسكري الذي تجلى باحسن مظاهره ، اذ ذاك ، في هذا
التيار الذي رضى الى تفهم اعتمق وتطبيق ادق للاسلام ، او التيار الآخر الذي يتمثل في ثقافة
اغنى وارسع ، هي على الغالب ، خارجية عن الاسلام . فتفهم الاسلام يقوم اساساً على تفهم
القرآن ، فادت هذه الحركة الى هذا الفيض من التفسير والشرح والتعليق ، وتعدد مجامع الاحاديث
النبوية ، وغربلتها ونخلها لانتقاء صحاحها ، بعد ان ارتاب كثيرون في صحة جانب كبير منها ،
وما اقتضى عدداً من الاسانيد التي ، وان لم ترضِ النقد الحديث ، تشهد ، اقله ، على هذا الاهتمام ،
وعلى هذا الحرص لتمييز الصحيح من المدخول أو المنحول أو المدسوس منها ، فكانت هذه الصحاح
التي من اثبتها صحيح البخاري ، ومسلم (اواسط القرن التاسع) . ولكي يطمئن المرء الى انه
يفهم فهماً صحيحاً منطوق الآيات الكريمة ومدلولها ، اضطر الناس لدرس مباني اللغة من صرف
ونحو ، ومعنى المفردات واشتقاقها واصولها ، وكلها علوم قام عليها علماء اعلام ، ولا سيابن
الاعاجم من سكان البلاد الاصيلين . وقد سيطر في هذه الحقبة التي امتدت اكثر من قرنت
مذهبان في اللغة : مذهب البصريين وزعيمهم غير المنازع سيويه ، ومذهب الكوفيين .

وبعد ان استقرت النصوص واتضحت منها المعاني والدلولات ، كان لا بد من لاهوت يشرح
احكام العبادة ، ويوضح الحق العام والخاص ، ويؤمن له الانسجام ويوضح معانيه . كل هذا تم في
القرن الاول من الدولة العباسية ، على يد كبار علماء الدين والفقهاء . فالذين باعد بينهم نظرياً ،
ليس اختلاف النص ، بل الروح الذي يستعملون فيه تطبيق هذه الآيات ، وغيرها من الأحاديث
الدينية . فالمذهب المالكي اعتمد النص الحرفي . اما الشروح والتفاسير التي لا بدت منها فيتميلها اذا
ما حازت اجماع علماء المدينة ، لأنها مدينة الرسول ومهد الاسلام . اما مذهب ابي حنيفة ، فهو
على عكس المذهب السابق الذكر ، يرتكز على الفكر الشخصي ، أي على الاجتهاد ، شرط ان
يحظى بالاجماع ، وليس بأراء فقهاء المدينة وحدهم . فأمام هذا التجاوز في الحرية الذي قلق له
البعض ، ومع اعتقادهم انه من المستحيل ان ينص الكتاب على كل شيء ، راحوا يقولون بالقياس
جوازاً . وهو ما قال به المذهب الشافعي بالذات . وبمركبة رجعية ضد المذهبين الأخيرين اللذين
رماهما بالتجديد المذموم ، وامام المشاكل التي عانت منها الجماعة كثيراً ، راح ابن حنبل يدعو
للتمسك بالتفسير الحرفي للكتاب ، دون ان يبالى برأي الفقهاء وغيرهم من علماء الأمة . هذه هي
المذاهب الفقهية الاسلامية الاربعة الكبرى التي يعترف بها السنة والتي يجوز لأي مسلم ان يتشبع

منها ما يريد ، وبالتالي القاضي الذي يمهّد إليه النظر بأمر الناس ويقضي فيهم .

وقد انتشر المذهب المالكي في المغرب الأقصى ، بينما سطر المذهب الشافعي ، خلال الأجيال الوسطى ، على العالم الشرقي الذي نطق باللسان العربي ، قبل أن يتنكر له الأتراك ليقتصر ، فيما بعد ، على جزر الملايو . وقد كان للمذهب الحنفي مثل هذا النفوذ وسعة الانتشار ، عند العباسيين ولا سيما عند أهل خراسان فيما بعد ، وعمل الأتراك على نشره في جميع البلدان والأقطار السني رفرق فوقها لوائهم . أما المذهب الحنبلي الذي لم يعرف له رواجاً كبيراً إلا في العصر الحديث ، عند الوهابيين ، في الجزيرة العربية ، فقد كان أثره بارزاً في عدد من الأقطار التي يتكلم أهلها العربية . وهذه المذاهب الفقهية الرئيسية الأربعة التي يجب أن يضاف إليها المذهب الجعفري المعمول به لدى الشيعة ، تمتاز فيما بينها باعتمادها على الاجماع ، أي اتفاق الفقهاء والعلماء رأياً في موضوع معين . وهكذا فلا نرى عند المسلمين قانوناً أو تشريعاً واحداً ينبثق عن هيئة تشريعية في الدولة ، إنما يوجد لديهم قوانين تأتي من خارج الدولة ، وعلى الدولة أن تأخذ بها وإن تطبقها . فالقضية تقوم كلها على معرفة ما تقوم عليه دكتاتورية الفقهاء في وجه الدولة . ففي مطلع العصر العباسي نرى أنفسنا لا نزال من الاسلام الدولة في طور التنظيم .

وهكذا بعد أن اعتمد الفكر الاسلامي على اللاهوت والفلسفة ، وجد نفسه ، وجهاً لوجه أو أخذ لحسابه مواجهة هذه القضايا البشرية الخالدة التي تلازم كل الديانات الكبرى . منها مثلاً قضية الحرية والقدر . فبين قدرة الله الكلي القدرة وعدله الالهي ، وبين القدرة والحرية الشخصية ، راحت نصوص القرآن والحديث تتسع لكل التفسيرات . فالقدرة التي قال اصحابها بحرية الارادة ، في اواخر الدولة الاموية ، بدا اصحابها في نظر الأمويين عناصر تدعو للعصيان والثورة ، الامر الذي جعل العباسيين يرحبون بهم . ثم طلعت علينا قضية العقل والايان . وهكذا ظهر علم الكلام أو القياس الفلسفي ، والمتكلمون ، أي جماعة الذين يعتمدون على الكلام لتوضيح ما غمض من الوحي الحمدي وتفسيره . وهكذا طلعت النظرية الدينية الشمبية التي أخذت بمبدأ التشبيه . ولما كانت هذه النظريات مجردة ، أي عقلانية ، كان يخشى أن تبدو مخالفة للدين أو مغايرة له بعض الشيء . فقد نشب ، في هذا المجال ، جدل عنيف كان له اثره العظيم على التطوير الفكري في الاسلام ، تمثل في مذهب المعتزلة ، الذي ضم ، في الاساس ، قوماً مهم جداً التقدر الأدبي ، والإتزان السياسي ، فناصروا الدعوة العباسية . فراح بعض خلفائها يؤيدون الاعتزال ويفرضون على الناس الأخذ به والدعوة له . وقد علّمت المعتزلة القول بخلق القرآن فادخلت القلق والاضطراب على القلوب والاذهان ، وانتهى الامر الى محاربة الخلفاء العباسيين الذين جاؤا بعد المأمون ، للقائلين بالاعتزال .

وهكذا بلغنا عطفة حساسة من تاريخ الثقافة في الشرق الأدنى .

فقد نظر العرب الى التراث الأدبي القديم نظرتهم الى عنصر دخيل

جاءهم من الخارج . فقد عني الداخلون في الاسلام حديثاً ، بدمج الديانة الجديدة في تقاليدهم

واعرافهم الفكرية . ومثل هذا الاهتمام واجهه المسيحيون في العصور السابقة . الا ان ادماج ادب دين جديد في ترات امة ما ، كان بحاجة الى عملية توضيح ، أي الى شيء من التكييف والتركيب . ومن جهة اخرى ، اتخذت هذه الثقافة ، اللغة العربية اداة تعبير لها واقتضت جهداً طيباً من الترجمة والتعريب ، والتفسير والتعليق والتلخيص . فهذا التشابك والتداخل بين التقليد والأعراف المتباينة ، الذي شهدناه في العصر العباسي ، لم يبدث ان ادى سريعاً الى وضع هذا العصر ، وجهاً لوجه مع التفاعل والانفعال المتبادل ، وبالتالي الى اغناء بعضها البعض ، والى طلوع عدد من الاكتشافات الجديدة . وهكذا ، بدون ان يحدث أي تغيير جذري على أسس الفكر ، في تلك الحقبة ، شهد العالم ، مع ذلك ، يقظة عارمة تشبه من نواح كثيرة ، الانبعاث الفني والفكري الذي شهدته اوروبا في القرن السادس عشر ، فادى الى نجاحات وتطورات مدهشة .

انصرفت الجهود ، بادىء ذي بدء ، لتأمين حركة نقل العلوم الدخيلة وترجمتها ، وهي حركة اخذت بوادرها تظهر في عهد الدولتين البيزنطية والساسانية ، على يد علماء السريان ومفكرهم ، وادباؤهم . وقد اعتمدت الترجمات الجديدة على نقول سبق وضعها بالسريانية ، الى ان عادت تعمل على النصوص اليونانية الاصلية . ولقيت حركة الترجمة والنقل تشجيعاً حاراً من الخليفة المأمون الذي اخذ تحت رعايته ، عدداً كبيراً من المترجمين في الشرق ، فنهلوا ، على نطاق واسع ، من الادب اليوناني ، كما نهلوا ، على نطاق اضيق ، من اللغة الفهلوية التي كانت اداة الاتصال ، بين الهند والبحر الابيض المتوسط . وقد اقتضت حركة النقل هذه ، على المؤلفات العلمية التي يسهل تطبيقها عملياً ، وعلى الفلسفة ، بعد ان حاولت البدع الدينية التي أطلقت اذ ذلك ، ان تجد فيها سلاحاً لها في هذه الخصومات والمجادلات الدينية التي شجرت ، اذ ذلك . اما الآثار اليونانية الادبية او التاريخية الصعبة ، فقد استبعدتها النقلة العرب ، عمدتاً وقصدتاً ، كما استبعدتها من قبل واهمل نقلها السريان والنساطرة ، هم ايضاً . وقد سار الغرب ، فيما بعد ، على هذا النهج ، عندما راح ينقل ، بدوره ، الآثار الادبية التي خلفها الاسلام والمسلمون . فقد نقل العرب ، عن الفهلوية او الهندية ، في عداد ما نقلوا من الآثار العلمية ، القصص والحكايات والامثال التي وصل منها قدر كبير الى عهد لافونتين فاستخدمه ، كما نقلوا غير ذلك من القصص التي لقيت رواجاً عظيماً لدى الشعب . والجدير بالملاحظة والتنويه عالياً ، هو ان ، في دولة سيطر فيها الايرانيون ، ورجحت فيها كفتهم ، استمر المسلمون ، في نقل كل ما يتصل بتاريخ ايران وتاريخ العرب القديم معاً ، بينما بقي التاريخ اليوناني الروماني مستبعداً .

فكل الملل والنحل والاعتقادات شاركت ، على اقدار متفاوتة ، بهذه الحركة . ان اعتناق عدد كبير من سكان البلاد ، الدين الاسلامي ، وانتشار اللغة العربية في الاقطار وبين الطوائف التي بقيت على النصرانية او على اليهودية ، والاتصالات العلمية بين العلماء المتخصصين ، ولا سيما بين الاطباء ، كل هذا وما اليه هو من بعض النتائج التي اتبع لنا تسجيلها ، بحيث ان الثقافات

الاصلية وجدت نفسها منقسمة الى قسمين متباينين. دخل اولها كمنصر مقوم، في ما اصطالحوا على تسميته بالثقافة الاسلامية ، بعد ان أسقط في ايديهم ايجاد صفة اخرى اكثر ملاءمة. اما الثاني الذي يجب قصره على المجال الديني ، والتسلم بتمتعه بشيء من الاستقلال الذاتي ، فقد تبلور في ما بدا من آثار اللغات السريانية والقبطية والفهلوية والعربية ، حتى بعد ان استعربت ، فقد بقيت على هامش التيار الكبير ، وظهرت مظهر المستحاثات المتحجرة وهو طابع ما لبث ان زال من الوجود في اواخر الاجيال الوسطى .

وهكذا انتشرت ، في الشرق ، مؤلفات ارسطو الحقيقية او تلك التي انتحلها أصحاب الافلاطونية الحديثة ، كما انتشرت مؤلفات ابوقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس ، وبين هؤلاء النقلة الذين كانوا في الوقت ذاته ، كتاباً مشهوداً لهم بالابحاث الدينية والفلسفية ، الراهب التسطوري حنين بن اسحق ، والرياضي الصابي ثابت بن قره من حران ، وكلاهما من رجال القرن التاسع ، وقد كان سبق لابن المقفع ، احد اعلام الكتاب العرب في ذلك العصر ، ومن كتاب الرسائل المشهورين ، ان ترجم عن الفهلوية كتاب كيلة ودمنة .

وتجند لهذا الغرض عدد كبير من المترجمين ، كما قام للترجمة مدارس عديدة . وحدث ايضا ان الادب المسيحي وجد طريقه الى اللغة العربية لتقريبه من اذهان المسيحيين. فاذا كان البطريرك ديونيسيوس التلمحري (٨٤٥ +) كتب بالسريانية ما كتب في العلوم الدينية والتاريخ ، فقد وضع الراهب الملكي ثيودسيوس ابو قره مصنفاته باللغة العربية . ناهجاً في ذلك ، نهج القديس يوحنا الدمشقي .

فقد كان من جراء اختار الافكار ، وظهور بعض الصعوبات التي اعترضت عملية الانسجام والتكيف مع الوضع الجديد ، ان احدث الهيجان بين اليهود فالترحيب الذي كان يلاقيه من حين لآخر ، من يدعون انهم المسيح المنتظر القادمون من اسبانيا الى فارس ، كان يسبب سحناً كبيراً بين أتباع هذه الديانة من جراء اجترارهم للتعاليم التلمودية . وكانت الولايات تشعر ، في الصميم بوطأة الدكتاتورية الادبية والسيطرة الاقتصادية التي تمت لعلماء الناموس في العراق . وقد حدث ان اشتد شأن شوكة فرقة القرائين التي وُجد عدد من اتباعها في بلاد القرم . فقد كانوا ، وهم يحاولون الرجوع لأسفار العهد القديم ، يحاولون تفسير عقائدهم الدينية ، وفقاً للمبادئ التي قالت بها المعتزلة .

لا نعرف شيئاً يذكر عن طائفة الزردشتية . وجل ما نعرف عنها ان في القرن التاسع تم جمع النصوص الدينية القديمة المعروفة بالنصوص الأفسستية ، كما تم وضع مؤلفات دينية جديدة لهذه الطائفة ، بمحاولة من اصحابها المحافظة على تراثهم امام الاسلام ، كما ان في هذا النشاط شهادة عالية على حيوية هذه الطائفة . وقد يكون مسلكتها هذا اوحى للباسيين الموقف الذي وقفوه من أتباع المانوية ، بعد ان نعم اصحابها بالتسامح الديني الذي نعم به أتباع المذاهب الدينية ،

الآخري ، فقد اخذوا بمطاردة رجالها بعد ان رموم بالزندقة ، وهي التهمة التي ألبسوها ، بعد ثورة بابك الخرمي ؛ لكل هذه الدعوات الدينية التي خشيت السلطة جانبها وأوجست منها شراً ، باستثناء الشيعة والخوارج . وقد رأى العباسيون أثراً للثورة وتعاليمها في هذه الثورات الاسلامية والحركات الهدامة التي قامت بها بعض الفرق الدينية ، في ايران ، بعد ان هدد نشوبها الدولة العباسية بأخطار شديدة .

فالازدهار الفكري والادبي ، وهذه الانتفاضات التي جرت اليها بعض المعتقدات الدينية . لم تكف لتملأ وحدها كل نشاط الاسلام . هنالك اناس ظمئت نفوسهم للكمال الانساني ، وهامت قلوبهم بمكارم الاخلاق والتقرب من الله . من المحال التساؤل ما اذا كان التصوف الاسلامي نص عليه الاسلام الاول ، ام اذا كان نشأ عن العادات والاعراف الدينية التي حملها معهم السكان الذين اعتنقوا الاسلام ، ام اذا كان نشأ عن الحياة الرهبانية عند المسيحيين والهنود . فقد كان التصوف ، في مظهره الاول ، لدى بعض الاشخاص ، نوعاً من الزهد . وقد تمثل على أتمه في عهد الدولة الأموية ، في شخص الحسن البصري . ولمسارح يستعيب عن الادعية الاسلامية بطلبات تهيء قائلها للاختطاف الروحي ، راح العلماء والحكام ينظرون اليه نظرة كلها التشكك والتحسب . وقد استطاع رجال الصوفية ان يتعرفوا ، تدريجياً ، الى النظريات التي تقول بها الافلاطونية الحديثة ، مما أدى الى تجديد في الافكار الصوفية . فقد راح المتصوفة يلبسون « الصوف » مسوحاً لهم ، ولعل من هذه الكلمة اشتقت ، في الاسلام ، كلمة « الصوفية » .

بعد ظهور الآثار الفلسفية والدينية ، في القرن الاول من الدولة العباسية ،
الاداب والفنون
ازدهرت حركة أدبية عارمة عادت على اللغة العربية وآدابها بالثراء والنمو ، بما اطلمت من الروائع الادبية في الشعر والنثر ، فصّقلت معها العقول والاذواق ، وهذبت الخيال والمخاطفة ، بقطع النظر عن القصص والحكايات الشعبية التي كان يتناقلها الناس اباً عن جد . وهكذا ظهر « الادب » الذي كان يراود ظهور الرجل الاديب ، في القرن التاسع والعصور التالية . وقد دخل الانشاء الادبي كل المؤلفات الادبية والدينية ، اذ اضفى عليها عبارة رشيقة وبيانا ناصع الاسلوب ، يقبل على الاخذ به ، كل من تعشق الحرف ومال اليه . والفضل في ظهور الادب على هذا الشكل ، يعود للكاتب البصري المشهور الجاحظ (٧٧٦ - ٨٦٨) الذي عرف ان يوفتق بين مذهب البصريين والكوفيين . كذلك عرف ان يوائم بين تعاليم المعتزلة وبين ما تم له من ثقافة عريضة ، متنوعة ، كل ذلك في بيان عربي ناصع ، ولغة ساخرة ، متهمكة ، كما يبدو لنا ذلك في كتابه « الحيوان » وهو كتاب في العلوم الطبيعية ، حشاه معلومات لا تثنى وأقاصيص كل مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية التي هزت مشاعر جميع معاصريه . وبعد الجاحظ بقليل ظهر الكاتب الفارسي المشهور ابن قتيبة الذي شارك الجاحظ في تكييف الادب العربي .

اما الشعر فهو اكثر تمسكاً من النثر ، بالتقاليد العربية . وقد لمع في هذا العصر شاعران كبيران ، هما : ابو تمام والبحترى . وضع كل منهما « حماسه » التي بالرغم مما فيها من شعر

منحول ، وسرقات شعرية ، تبقى اثرأ لا تبلى جَدُّته . فالشعر « الحديث » يطبل علينا من شعراء ايرانيين ، شعرهم عطش من اية مسحة اسلامية ، يفتقر كلياً للترصن والاخلاق الرضية ينضج احياناً بالفجور ومجون البلاط ، ويفج منه الحب العايب الذي تعتمه السكر يسير مترنحاً في الازقة والشوارع ، انما هو شعر ينضب بالركة والاحاسيس المرهفة ، بانتظار طلوع الشعراء الناجحين الذين يأخذون بمعالجة الموضوعات السياسية والدينية ، وما لبثوا ان فضلوا على القصيدة العامرة الابيات المبنية ، على عمود الشعر العربي ، شعراً مهتف العاطفة ، يتمثل خير تمثيل بالرمز . ولعل اكبر هؤلاء الشعراء وأسيرهم ذكراً هو ابو نواس (+ ٨١٥) ويجب ان نذكر معه شاعراً آخر ، عُرف بالوصف الدقيق ، تولى الخلافة ليوم واحد ، هو ابن المعتز (اواسط القرن التاسع) .

وبنسبة ما نستطيع ان نتبين الامور ، نرى ان الفن العباسي اخذ يزدهر بدوره ، محاولاً ان يوسع بين مختلف المذاهب : فالمساجد ازداد عددها ازدياداً كبيراً لاستيعاب المسلمين المتزايد عددهم باستمرار ، وذلك عن طريق بناء مساجد جديدة او بتوسيع القديم منها . فسجدة القيروان ، يعود القسم الاساسي منه الباقي لليوم ، الى مطلع القرن التاسع ، وبقي طراز بنائه منسجماً مع الطراز الهندسي للمساجد السورية التي اقيمت في العهد الاموي . وعلى عكس ذلك ، نرى قصور الخلفاء العباسيين في العراق ، تستوحى في عمارتها التقاليد الساسانية . فان لم يصلنا بالفعل شيء من المدينة « المستديرة » اي بغداد القديمة ، فقد وصلنا من الفن المعماري العباسي المدني ، بقايا حربية بكل ملاحظة ، هي كل ما تبقى من مدينة حملت يوماً ان تحمل محل بغداد كمرکز للخلافة ، هي مدينة سامراء التي كان يعلوها برج عالٍ يشبه ابراج النار المعروفة لدى اتباع الزرادشتية . وهذا الفن يستفيق على نفسه وينشط ، مسح ان معظم الانشاءات الباقية منه لليوم ، تعود الى تاريخ لاحق للعهد الاول من دولة العباسيين . ويجب ان نشير ، منذ الآن الى الفارق الذي يزداد اتساعاً وتبايناً بين المباني المدنية والمباني الدينية . ففي الاولى نرى رسوماً بشرية وحيوانية كثيرة ما عمد اليها الرسامون في تزيين الحاجيات العادية ، مهما كان من تأثير حركة تطورية ظهرت فيما بعد ، وسيطرت على بعض المناطق دون غيرها . اما في الثانية ، فلم تلبث هذه الرسوم ان حُرِّم استعمالها ، اذ كان مرآها يبعث ، كما هي الحيال في الديانة العبرية ، على الاعتقاد بشيء من عبادة الاصنام .

*

تبدو بيزنطية ، ازاء العالم الاسلامي في القرن الثامن ، مدعاة للاسف والحسرة معاً . فقد خرجت من العاصفة التي هبت عليها في القرن الماضي ، مشخنة الجراح ، مهشمة الجناح ، فراحت ببطء وقمل كلي ، تستجمع قواها وتسوِّي من حالها وتعيد تنظيم شؤونها في الداخل . والأزمة الدينية التي اخذت تتربص بها من جديد ،

تنسجم الى حد بعيد ، مع الاحداث والافكار التي تتفاعل بها وتمتلج ، هذه الولايات التي اقتطعها منها الاسلام .

وقد أرغمت الامبراطورية على التخني من الكثير من المقاطعات الاخرى : فقد اخذ سكان ايطاليا في الولايات التي لا يزال مصيرها مرتبطاً بمصير بيزنطية ، ينفذون عنهم تبعاً ، سيطرة اجنبية طالما برّموا منها ، ارمقتهم فارزحتهم : تحت وطأة جباية صارمة زادت تهجماً وتجهماً بعد فقدانها الشرق ، ونفرتهم بهذه الارهاصات الدينية ولم تمنع عنهم خطر الغزو اللبشاردي . وسفلت منها صقلية في القرن التاسع . ولكن ما العمل وهذه كلها ممتلكات نات عن قلب الامبراطورية ومركزها ، يفلب في الحفاظ عليها الغرم على الغنم . اما في البلقان ، فقد أصبح الخطر البلغاري ، بعد عام ٧٥٠ ، في المنطقة الواقعة عند الدانوب الاسفل ، سيفاً مصلتاً فوق رأسها وكبوساً يقض مضجعها . وقد استقر الصقالبة في الباقي من اطراف شبه الجزيرة البلقانية ، بعد ان أقصوا قليلاً الى الشمال . وبفضل عملية تبادل السكان الصقالبة في اسيا الصغرى ، والاسيويين في اليونان وثرانيا ، استطاعت الامبراطورية ان تعيد سيطرتها التامة على مناطق حيوية جداً لها . أما الى الشرق ، فلم يقم بين المسلمين والبيزنطيين ، اثر الفشل الذي آل اليه حصار العرب الثاني للقسطنطينية ، عام ٧١٨ ، سوى غزوات دورية ، عرفت عند المسلمين « بالصوائف » لم تحدث تغييرات جوهرية في مناطق الحدود الدائرية بين الجانبين ، وان كانت انزلت فيها الخراب والدمار . وهكذا اقتصرت الامبراطورية بالفعل ، على المناطق المحيطة ببحر ايجه ، وهي مناطق معظم سكانها اغريق أو متأغرقون ، انتفت منها أو كادت تنتفي ، الفوارق العنصرية او العرقية .

وهذا الانكماش او التقلص الجغرافي لرقعة الامبراطورية ، تم وسط تغييرات وتطورات اجتماعية من الصعب على المؤرخ ان يتبين مداها ، وان يحدد ابعادها . فالحاجة الشديدة لليد العاملة التي عانت منها المقاطعات الصالحة للزراعة ، في القرون الماضية ، حل محلها الآن ، فيض من الشفيلة ونقص في الاراضي الصالحة للزراعة ، بقطع النظر عن الوسائل التقنية الزراعية . والذي يبدو للمدقق ، مع انه من المسير جداً تحديد الكيفية ، ان الممتلكات الواسعة والاقطان الشاسعة ، انكشيت رقعتها بعض الشيء ، بينما ازدادت الملكية الصغيرة ، وهو تطور جاء ، لامري ، مفيداً جداً ، للتنظيم العسكري . ولعل خير دليل على ذلك ، القانون الزراعي ، هذا القانون الذي صدر في مطلع القرن السابع ، والذي ينوّه بوجود جماعات او فرق ريفية ، بدا لبعض المؤرخين ان يروا في طلوعها ، أثراً من آثار الجماعات الصقلية التي تكاثرت عددها بين طبقات الفلاحين وسكان الريف . وهذا الاثر لا يمكن تجاهله او التغاضي عنه . فهو يمثّل ، خير تمثيل ، في هذه المستعمرات الريفية التي عرفت ان تندمج وتنصهر في هذه الأطر والملاكات البيزنطية ، مع ان المبالغة في تقدير هذا التفوذ وقسيمه لا تخلو من خطر ، اذ ان هذه الجماعات التي يشير اليها القانون الزراعي لا تتزامن فيما بينها الا امام جباية الرسوم وفرض الضرائب ، مع العلم ان هذه الجماعات القروية الصقلية لم تتعرف على نظام الابعث ذلك . ومن جهة ثانية ، نرى ان نمو الملكية

الصفيرة وتوسمها لم يقض على الملكيات المملانية الكبيرة، ولا حال درن اتساع الملكية الكنسية. فادّخار الاوقاف ، والهبات التي كان يوجد بها المؤمنون ليرفع الله غضب السماء عنهم ، وليجنّبهم الولايات التي ما زالت تنتابهم ، ورغبتهم في استياداع املاكهم ومقتنياتهم في حماية الكنيسة ، كل ذلك ساعد كثيراً في اثراء وثرء الاكليروس القانوني والعلماني ، ولا سيما الاديار التي ما زال نفوذها الادبي والمادي ، آخذاً بالنمو والازدياد في جميع انحاء العالم المسيحي .

والصفة العسكرية التي طبعت نظام الحكم والادارة في بيزنطية اذ ذلك ، ولا سيما البلاط الامبراطوري ، أدّت عن طريق التجديدات التي اتّخذت والتي يعود بعضها أصلاً الى عهد الامبراطور يوستينيانوس ، ومعظمها في عهد اسرة الامبراطور هرقل ، الى اعادة تنظيم الجيش والادارة معاً . فقد كانت ادارة الولايات ، من قبل ، بيد الحكام المدنيين ، مها دعت الاعمال الحربية ، الادارة العسكرية والجيش الى التدخل ، حتى عندما يضطر الوضع العسكري الجيش للبقاء في الولاية ، فتقوم الادارة المدنية فيها بتأمين أوّد الجيش وما يلزمه من تجهيزات ، ولو التبعاً أحياناً الى اعمال المصادرة والاستملاك . اما الآن فقد انقلبت الامور أمام خطر الوضع القائم ، وانمكست الادوار وبسطت الادارة . فقد انقسمت البلاد الى دوائر عسكرية أو « ايالة » يقيم فيها جيش يتولى قيادته قائد ، يضطلع نفسه بكل اعباء الادارة المدنية ويشرف على اعمالها المختلفة . وتوريدات الجيش ووسائل اعالته تتأمن محلياً ، ليس عن طريق المصادرات الادارية ، كما في السابق ، بل عن طريق اقطاع افراد الجيش ، حصصاً في الارض يستثمرونها في ما يؤمن معيشتهم وأوّد ذويهم . وهكذا عمموا على كل الجيش في الامبراطورية البيزنطية نظاماً خاصاً يعرف عندهم بـ *Limitanei* (وباليونانية *Akritai*) جرى تطبيقه ، منذ عهد بيميد ، على « حلفاء » روما من البرابرة . وهذا النظام الذي جاء تكملة طبيعية لقيام المستعمرات العسكرية ، كان له تأثير بالغ على روح الجيش ومعنوياته ، اذ انه ساعد كثيراً على نمو الملكية الصفيرة وما أدّت اليه من نتائج اجتماعية .

من المفارقات الصارخة التي استبدت بالحواطر اذ ذلك ، هو ان الاعمال الحربية ، بين المسلمين وبيزنطية التي ركزت ريجها وخفّت أوارها ، قد اعتقبتها بالفعل على ما يظهر ، حرب إقتصادية. ان اخفاء الطابع الاسلامي على النقد المتداول ، واحتكار الدولة لمصانع ورق البردي ، والتدابير التي تتسم بالحذر وعدم الثقة ، التي اتخذها المسلمون ضد النصارى ، ولا سيما ضد الملكيين اوغرت صدر اباطرة بيزنطية وحملتهم على اتخاذ تدابير زجرية ، انتقامية . فاذا كانت رقعة الامبراطورية تقلصت وانكسحت ، فقد بقيت بيزنطية سيدة البحر ، كما يشهد على ذلك القانون المعروف بقانون الرودسين ، وهو اشبه ما يكون بالقانون البحري الذي تمّ وضعه في ذلك العهد . فالاباطرة البيزنطيون المعروفون باسم الاسرة الايصورية ، الذين انتهجوا هذه السياسة الحازمة ، لم يكن بوسمهم قط ان يحولوا دون ذهاب سيطرة الامبراطورية على التجارة مع آسيا وتغلّتها

من ايديهم ، حتى انهم رأوا انفسهم مضطرين للتنازل للتجار ولتكبار اصحاب الاقطان الواسعة المسيطرين على القطاع الخاص ، عن تأمين تمويل القسطنطينية الذي كان تحت اشرافهم المباشر ، والتوقف عن توزيع المواد الغذائية على الفقراء من سكان المدينة . ولذا راحوا يحاولون الحؤول دون إجتار الدول الاسلامية مع اوربا ، كما سعوا لابقاء القسطنطينية وبعض الموانئ البحرية الكبرى التي يسيطر عليها البيزنطيون ، تتحكم بالنقل التجاري وتأمين الاشراف على الملاحة في البحر المتوسط ، فاهجين النهج الذي كانت نهجته انكلترا في العصر الحديث بتحكمها بمسالك البحار على نطاق اوسع . غير ان النجاح لم يخالف قط هذه السياسة البعيدة الرمى . فاذا ما امكن الاستمرار في عملية تأمين اود العاصمة والبلاط الامبراطوري ، وهما هدف الحكومة الاول والاكبر ، فلم يعرفوا ان يحولوا دون هبوط الحركة التجارية في حوض البحر المتوسط الغربي .

فاذا ما اخذنا بوجهة نظر المؤرخ البلجيكي هنري بيرين الذي كان رائداً من رواد البحث في هذا المجال ، فالاسلام هو المسؤول عن تدهور التجارة في البحر المتوسط ، في هذه الحقبة ، وعن انقطاعها المفاجيء الذي ادى الى زرع الاضطراب والبلدة في حياة الغرب الاقتصادية ، اذ ذلك وتدهور الوضع التجاري الذي لم يكن كاملاً ، يمكن رده مع ذلك الى اسباب ودوافع اخرى فقد رأى فريق من المؤرخين ان الاسلام احدث يتظة عارمة في الحركة التجارية في الغرب : ألم يكن مؤسسه ورجاله الأول تجاراً ماهرين من قبل ؟ أو لم يُكْتَتَب لاتباعه ان يلبسوا ألوية الاسلام في كل قطر وصقع ، فرفرفت اعلامه وخلفت بنوده ، فوق هذه الاقطار الواقعة بين السودان في الجنوب ، ونهر الفولفسا في الشمال ، او الممتدة من الصين شرقاً الى مشارف جزيرة مدغشكر جنوباً ؟ ومن جهة ثانية ، ان تدهور الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، ثم قبيل الفتح العربي الاسلامي بكثير ، ولم يكن للاسلام كبير اثر عليه . فقد عرفت بيزنطية ان تحافظ على تجارتها وعلاقاتها الاقتصادية مع ممتلكاتها الواقعة الى الجنوب من ايطاليا ، وعلى شواطئ البحر الادرياتيكي . فالركود التجاري الذي اصيبت به البلدان الواقعة الى ما وراء هذا القطاع الجغرافي المحدود ، يجب رده ، الى هذا التطور الداخلي الذي اخذت به اوربا ، اكثر منه الى هذه السياسة التي انتهجتها بيزنطية فأبنت عليها ، لاغراض مالية ، ان تجر مع ابي قطر ، او تقيم علاقات اقتصادية مع ابي مرفأ لا يقع تحت سيطرتها واشرافها المباشر ، وهو وضع لم يلبث ان ادى ، بمسء لأى قصير ، الى سيطرة مدينة البندقية على الملاحة البحرية سيطرة كادت تكون نامة ، وتحكمها شبه المطلق ، بالاسواق التجارية ، اذ ذلك . ومن جهة اخرى ، فالغرب الاسلامي كان بعد ، طري العود ، تخشين الطباع ، ليمت النشاط في الحركة التجارية مع بلدان الشرق الأدنى . ولم يحدث هذا كله الا بعد ان تم للاسلام السيطرة على جزر البحر المتوسط والتحكم ، بالتالي ، بالملاحة البحرية بين اطرافه المتباعدة ، وذلك منذ القرن التاسع .

تكريم الايقونات المقدسة وتحطيمها
يقم بيزنطية ويقدمها
عانت بيزنطية ، في هذه الحقبة ، من قضية دينية اقامت
الاهلين واقدمتهم في جميع أنحاء الامبراطورية البيزنطية ، لم
يكن من الصدق قط ان تحدث ، في هذا الوقت بالذات الذي

شهدت فيه آسيا الغربية ، ولا سيما الولايات التي تجاذب اطرافها المسلمون والبيزنطيون ، هذه
الاضطرابات التي كانت ارمينيا نقطة الدائرة منها . فالحمية التي تمتع بها هذه المقاطعات الناعمة
بشيء من الاستقلال الداخلي تحت اشرف الاسلام ، فصلت بين الكنيسة الارمنية والقسطنطينية ،
وباعدت بين الطرفين . وقد ساعدها الوضع السياسي المضطرب الذي ساد تلك المنطقة وسيطر
عليها ، في نشوب هرطقات دينية حادة ، كهرطقة « البولسية » ، التي لا نعرف شيئاً يذكر
عن تعاليمها ولا عن نشأتها والتي ترتبط بعض الشيء ، بتعاليم مرقيون التي انتشرت من قيل ،
في مصر والشام وفارس ، وآلى امرها الى مذهب مانى الذي كان اساس تعليمه الثنوية ابي
القول بوجود عنصرين الهيين : الخير والشر ، وهي مقالة سيطرت ردساً من الدهر ، على اذهان
الناس وتكثيرهم وتحكمت بايران قبل الفتح الاسلامي . وقد كان من اشد المنكرات لدى اتباعها
القول : بالتشبيه ووضع الصور للمقدسات والمؤلفات ، وهو حنق شاركهم فيه ، الى درجة
اخف ، جيرانهم اتباع العقيدة القائلة بطبيعة واحدة في السيد المسيح ، اذ كانوا يابون التسليم
برسم صورته لانه يتناقض والألوهية . ففي هذا الجو العابق بالكره للصور والحنق الشديد على
من يرسمها ، نشأت هرطقة تحطيم الايقونات والتشكر لتكريمها ، هذه الهرطقة التي اقامت
الناس واقدمتهم ، ومزقت الامبراطورية كل ممزق ، اذ لم يعد الامر محصوراً كما في العصور
الماضية ، بمحد لاهوتي ، بل تعداه الى العبادة ، ليستحيل ، بعد قليل ، قضية سياسية
 واجتماعية ، هزت الخواطر واقفلتها .

من مظاهر التقوى والمعبادة لدى الشعب البيزنطي ، تكريم صور القديسين والايقونات
المقدسة ، وهي عبادة غالى الشعب في بعض مظاهرها وخرج عن الصدق المرسوم ، اذ اتجهت
بالاكثر ، الى الرمز منه الى الرموز اليه ، وأوشكت ان تقضي الى الصنمية او عبادة الاصنام .
وهذا الانحراف في التقوى عن هدفها الاسمي ، كان يسبب صدمة عنيفة في النفوس العطشى الى
النقاء الروحي ذات الحساسية الدينية المرهفة التي احبت ان ترى في نائبات الدهر والنكبات التي
توالت على البشرية ، في ذلك العصر ، صواعق السماء وذاجر غضبها ، تأديباً لهم على معاصيهم .
فما كان من الامبراطور ليون الثالث الأيصوري ان اصدر ، عام ٧٣٠ ، امراً بتحطيم الايقونات
المقدسة ، بعد ان حرّم تكريمها ، وتقديم أي احترام لها . فليس من عجب ان يقابل المؤرخون
المسيحيون هذه التدابير التعسفية ، وهذه الاضطهادات ، بالحنق ويناصبونها العداء ، ويروا فيها
رجع صدى للتدابير التي اتخذها الخليفة الاموي يزيد الثاني ، بهذا المعنى . ومن الثابت ان
فكرة محطمي الصور من البيزنطيين ومعظمهم ينتمون الى الولايات الشرقية في الامبراطورية ،
تتصل من قريب ، بالمسلك الاسلامي المسيحي ، وتمت الى الدعاوة البولسية والمونوفيزية بأوثق

الصلوات ، وتنضح بل تنترى بالكثير من مقالة المعازلة التي احدثت ثورة في قلب الاسلام . وقد انطلق صوت يوحنا الدمشقي مدوياً في الشرق ، يمدّ القائلين بتكريم الايقونات المقدسة بالحجج الدافعة والبراهين الدامغة : فاذا وجب رذل عبادة الصور والايقونات ، فليس من ينكر ما لها من قيمة تهييية مثالية تحتذى ، ورمز مستطاب لا بد منه للحفاظ على ايمان حي ، محي ، يخشى عليه من التجريد الجاف .

ولم تلبث المعركة الدائرة حول الصور ان ارتدت مظاهر جديدة وتلبست وجوهاً جديدة وكثر المناضلون عنها والمكافعون دون شرعيتها بين الرهبان ، وفي مقدمتهم ثيودوروس الستودي (مطلع القرن التاسع) ، اذ ان الحياة الرهبانية بدت منفرة للعقلين ، كما ان عدداً كبيراً من الايقونات المقدسة الموجودة في الاديار ، كانت تولى اصحابها الكثير من النفوذ والسلطان ، كما تجلب لهم وللاديار التي تحتفظ بها ، الكثير من الربح الحلال والدخل الوافر ، ممثلاً بهذه النذور والأعطيات التي يقدحها المؤمنون بسخاء . ولم يكن بمستطاع هؤلاء الاباطرة العسكريين ، ولا في مقدورهم قط ان يتصرفوا بهذه الكنوز ولا ان يتسلحوا بما للاديار من هبة ونفوذ ، كما تشهد على ذلك الاجراءات والتدابير المالية التي اصدرها ضد الاديار ، في مطلع القرن التاسع الامبراطور نيقوفوروس الاول ، مع كونه من اتباع القائلين بتكريم الصور ، ومن انصارهم . وقد استخدمت هذه المعركة وبلغت ذروتها من الشدة ، في حقبتين متوالييتين (منتصف القرن الثامن والربع الثاني من القرن التاسع) واصبحت حدثاً مميّزاً في هذا الصراع الطويل يقوم به الامبراطور للسيطرة على الكنيسة ، وللهد ، على الاخص ، من نفوذ الرهبان ، والخفض من سيطرتهم الاقتصادية والاجتماعية . فلاعجب ، والحالة هذه ان تثير هذه المعركة المحتدمة ، صعوبات حمة مع الغرب ولا سيما مع البابوية حيث لم تتجاوز عادة تكريم الايقونات الحد العدل ، ولم تبلغ الزبي من الغلوما بلغته في الشرق ، ولذا لم تستصوب الاسباب والدوافع الكامنة وراء الدعوة لتحطيم الصور وتحريم تكريمها . وفي النهاية لم تلبث السلطة الامبراطورية ان نكصت على اعقابها وانثنت ومخطمت التدابير التعسفية التي اتخذتها على صخرة التقوى الشعبية والتضامن الشديد الذي قابل به الشعب المؤمن والرهبان ، استمداء الدولة للايقونات والتنكر لتكريمها .

وهكذا استحال هذا التضامن الديني الصلب شكلاً من اشكال الوطنية الواعية ، واصبح شعاراً يرفع في وجه هذه المقاطعات والولايات التي يتسكع سكانها في مهاوي الهرطقات والتعاليم الدينية الهدامة ، والطابع المميز للتاريخ البيزنطي ، ليس بالنسبة لماضي هذه الامبراطورية فحسب بل ايضاً بالنسبة للعالم الاسلامي المجاور لها . كل ذلك جاء نتيجة لخفوت النشاط الفكري والادبي ، البارز هنسا بروزه في كنيسة الغرب ، ولا سيما منذ ان جرى التمييز عن سواطر الجماعات الاسيوية وافكارها ، في أطر المدنية الاسلامية وحضارتها . وقد بقيت مقالة البولسيين الدينية الهرطقة الوحيدة ذات الصولة في الامبراطورية البيزنطية ، الى ان محلت بالدم واطلشت جذوتها ، في النصف الثاني من القرن التاسع ، في هذه العمليات الحربية التي اقتضتها تفريسة

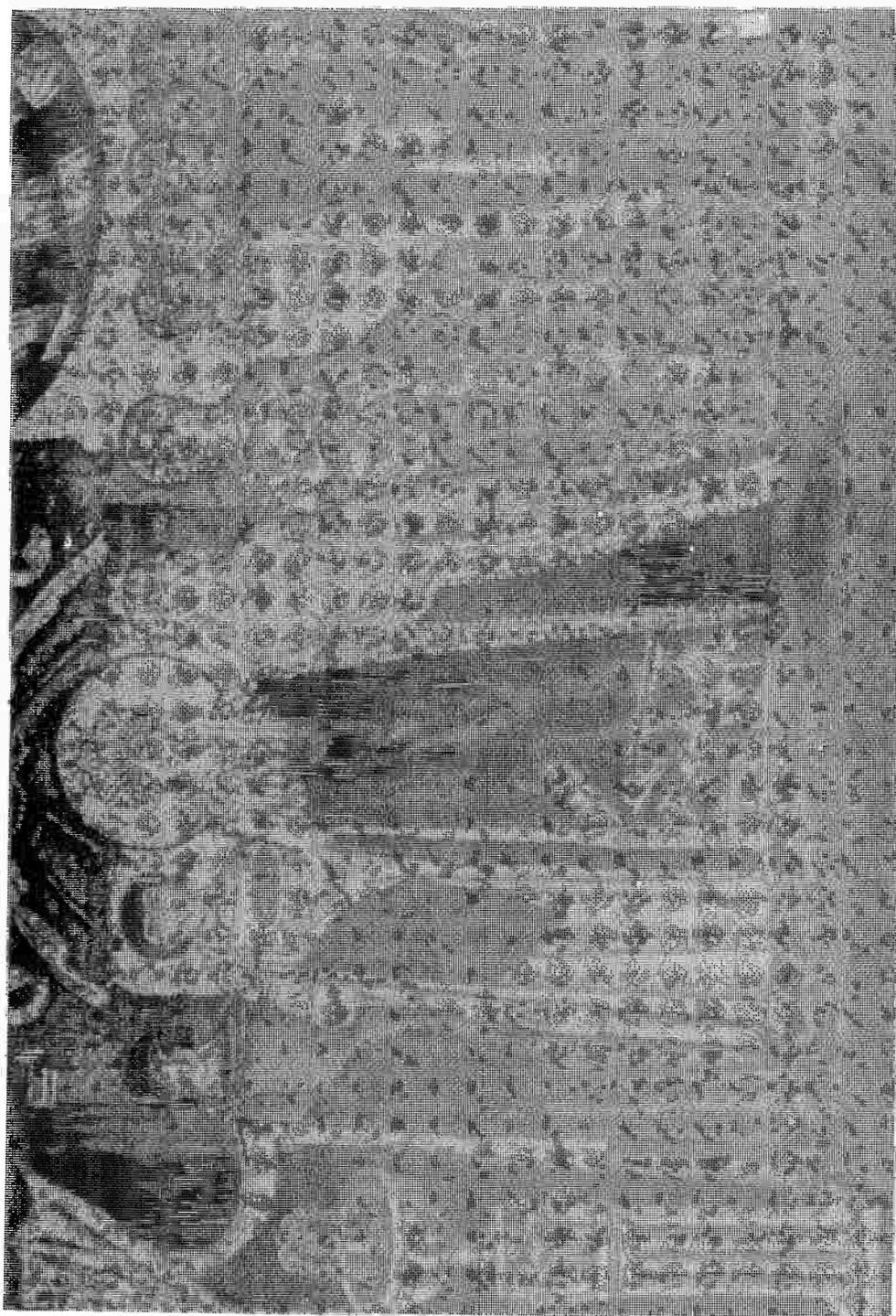
الحدود ، ودعا اليها تدرّيع الثغور ضد المرطقة ، الطابور الخامس للمسلمين بين صفوف الارثوذكسية . وهكذا خرجت الكنيسة من محنة بدعة تحطيم الايقونات ، بمحصة ، مطهرة منقاة ؛ مجلوة كالعروس في خدرها ، كما يتمثل الوضع خير تمثيل في صورة ثيودوروس السطودي وهكذا بموازرة قوى الشعب وأيده ، خرجت الكنيسة في الشرق اقوى جانباً واصفى عقيدة وأدل فناً ، وابين تعبيراً ، وانصح رمزاً بما اعترف للايقونات المقدسة من تكريم يتجه للرموز اليه اكثر منه للرمز .

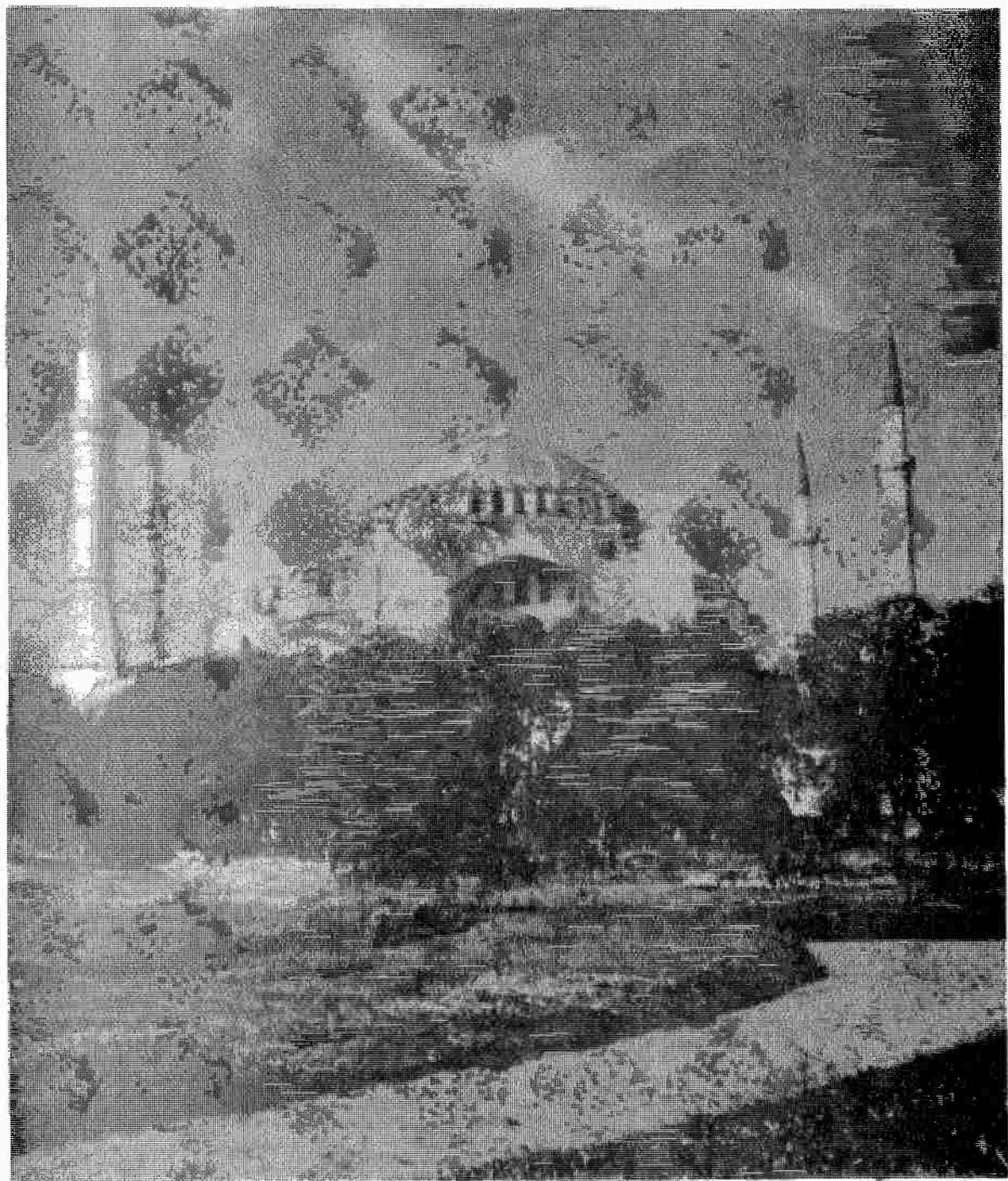
ومع ذلك ، فقد كان من توالي الضربات ، وفقدان الامبراطورية لحير ولاياتها واغنائها ، اكبر الاثر على الآداب والفنون . فقد مر معنا كيف انه حتى مطلع القرن التاسع ، لم يمدها الادب بغير عدد وجيز من سير القديسين . فلا مؤرخين ، ولا فلاسفة ولا مفكرين حتى ولا لاهوتيين . فالقديس يوحنا الدمشقي ، ابرز رجال العصر فلسفة ونضالاً عن تعاليم الكنيسة ، لمع اسمه رشاع ذكره في محيط اسلامي . والفن ، عاودته الحياة وعرف شيئاً من النشاط ، وان لم تترك لنا بدعة تحطيم الصور وتحريمها ، شيئاً من اثر المهد يمكن التمويل عليه لابداء رأي معلل مسنود . واستناداً الى مخلفات الفن في العصر اللاحق ، يحق لنا ان نقرر بان التنكر للايقونات وتحريم صنعها ، ساعد كثيراً على البحث عن رسوم لتحلية والزينة . وقد راح فنانون شراقيون ، ولا سيما الارمن منهم ، يعنون ، باحياء رسوم التحلية والتزيين ، من حيوان ونبات ، مما هو متبع في بلادهم الام . والبعض منهم يحمون تقاليد مدرسة الاسكندرية الفنية ويبعثونها حية . وهكذا يصح لنا ان نتكلم عن ظهور فن علماني ، بينا الفن الديني ، بعد ان عم انتشاره بين طبقات الشعب أصبح يقنع برسوم عادية من الحياة اليومية ، توحى الكثير من السخرية اللاذعة التي تذكرنا بفن الغرب ، اذ ذلك . فزوال بدعة تحطيم الصور والايقونات وضع حداً لتحلية الكنائس بالرسوم الدنيوية . اما في مجالات الفن والفكر الاخرى ، فسشهد ، منذ منتصف القرن التاسع ، بقطعة فنية وادبية حرية بالذكر .

أوروبا في عزلة وانزواء (القرن ٨-١٠)

رأت أوروبا نفسها، في مطلع القرن الثامن مهددة بشر مستطير أطلّ عليها من الفتح الإسلامي العربي ، بعد ان وطئت سنابك خيل العرب ارض جزيرة الاندلس ، فاذا بهذه القارة موحشة بعد ايناس ، تعاني البقية الباقية من الثقافة القديمة فيها سكرات الموت ، باستثناء بعض ملاجئها معزولة ، بينما كادت تلتبس على الرائي معالم النصرانية فيها ، بعد ان تداخلها ما تداخل من رواسب الوثنية ، انتقلت اليها فيما انتقل ، من اعراف برايرة الجرمان وأساطيرهم ، بعد ان استباحوا باحة البلاد وعاثوا فيها خراباً ودماراً . فأوروبا ارض العنف والعسف على ألوانه ، تسيطر عليها ارسطوقراطية عطل من كل ثقافة ، صاخبة ، جشعة ، هي ابدأ وراء لذاذاتها ، وقد أطلقت لها العنان ، فاستبطرت ، وعبثت ، دون حسيب او رقيب ، ولا من يكبح جماحها . وأوروبا هذه ، أوحشها سكانها ، وافقرت اقطارها ، فراح من يُعنى بالارض منهم ، يجرئها بأساليب بدائية ، فيؤاها محدود ودخلها مقسوط .

صحيح انه يطالعنا ، هنا وهناك ، بعض مراكز ، للحياة الروحية ، فيها
تفتتها السياسي
وزن ومقام ، وبعض ملاجئ ، للفكر ، فيها حيوية واشعاع ، وبعض تشكيلات
سياسية اقل تخلفاً من غيرها ، وهي عناصر ، على طبيعتها ، مشتتة ، موزعة ، معزولة ليس لها
من أثر كبير . فانك لترا التي تحتفظ في أديارها البندكتية بأغنى المكتبات وأحفليها طراً ،
بالتراث المسيحي وبالثقافة الكلاسيكية القديمة ، هي منقسمة على نفسها ، متفسخة ، تتقاسمها
ممالك ، سواء في ضعفها ، تتناحر فيما بينها وتتقاتل لأدق الأسباب . وبالمقابل ، فاذا ما تم لسادن
القصر في مملكة اوسترازيا ، ابن دو هرستال ، ان يروض الارستوقراطية في المقاطعات الثلاث
الاخرى ، ويكبح من جماحها ، ويخفف من غلوائها ، واستطاع ، بقوة السلاح ، اخضاع
الشعوب الجرمانية المجاورة له ، فبفضل ما له من سلطة وشكيمة شخصية ، لا اساس لها مبدئياً





اللوحة ٢ - كنيسة اجيا صوفيا في اسطنبول (القرن السادس) .



اللوحة ٣ - شاهد مدفون من حجر يمثل شهيدين مصلوبين (القرن الثامن) .



اللوحة ٤ - الملك شارل الاصلع



اللوحة ه - حديث صوفي بين بوذيين . نصب برونزي مذهب يرتقي الى السنة ٥١٨ .



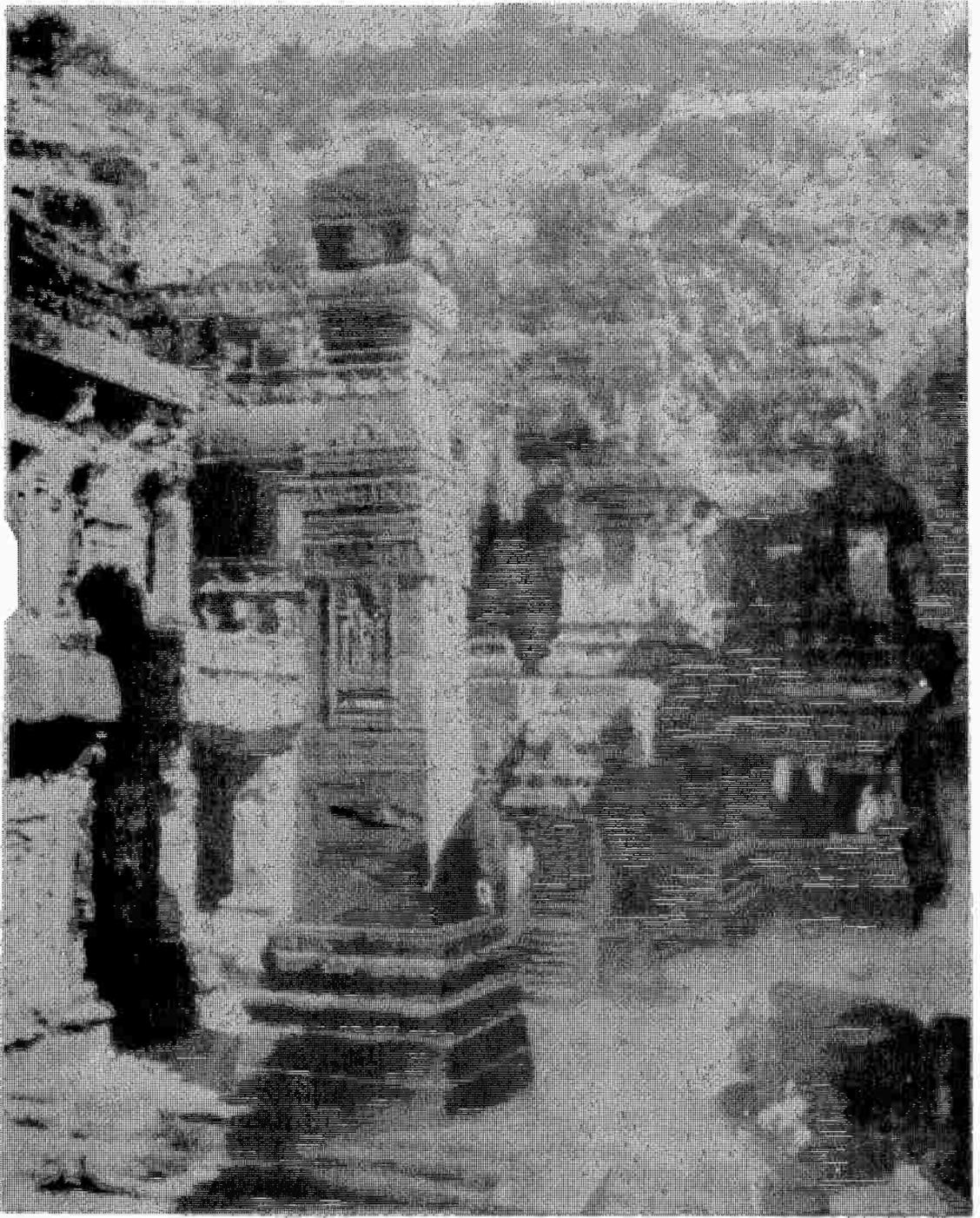
اللوحة ٦ - محاربون يشتركون في حرب الأديان .



اللوحة ٧ - لعبة الصنوج



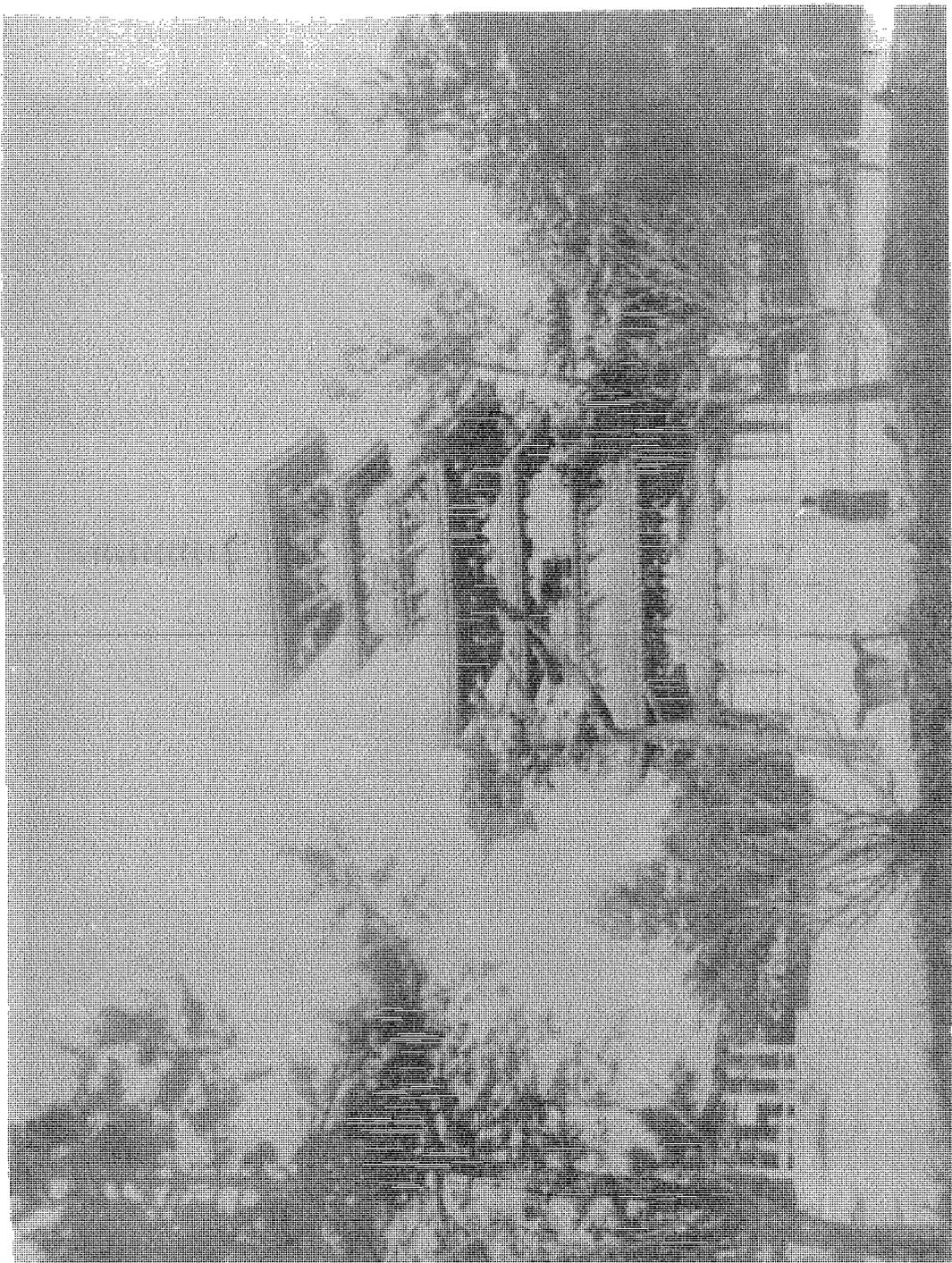
اللوحة ٨ - فارس وخادمه .



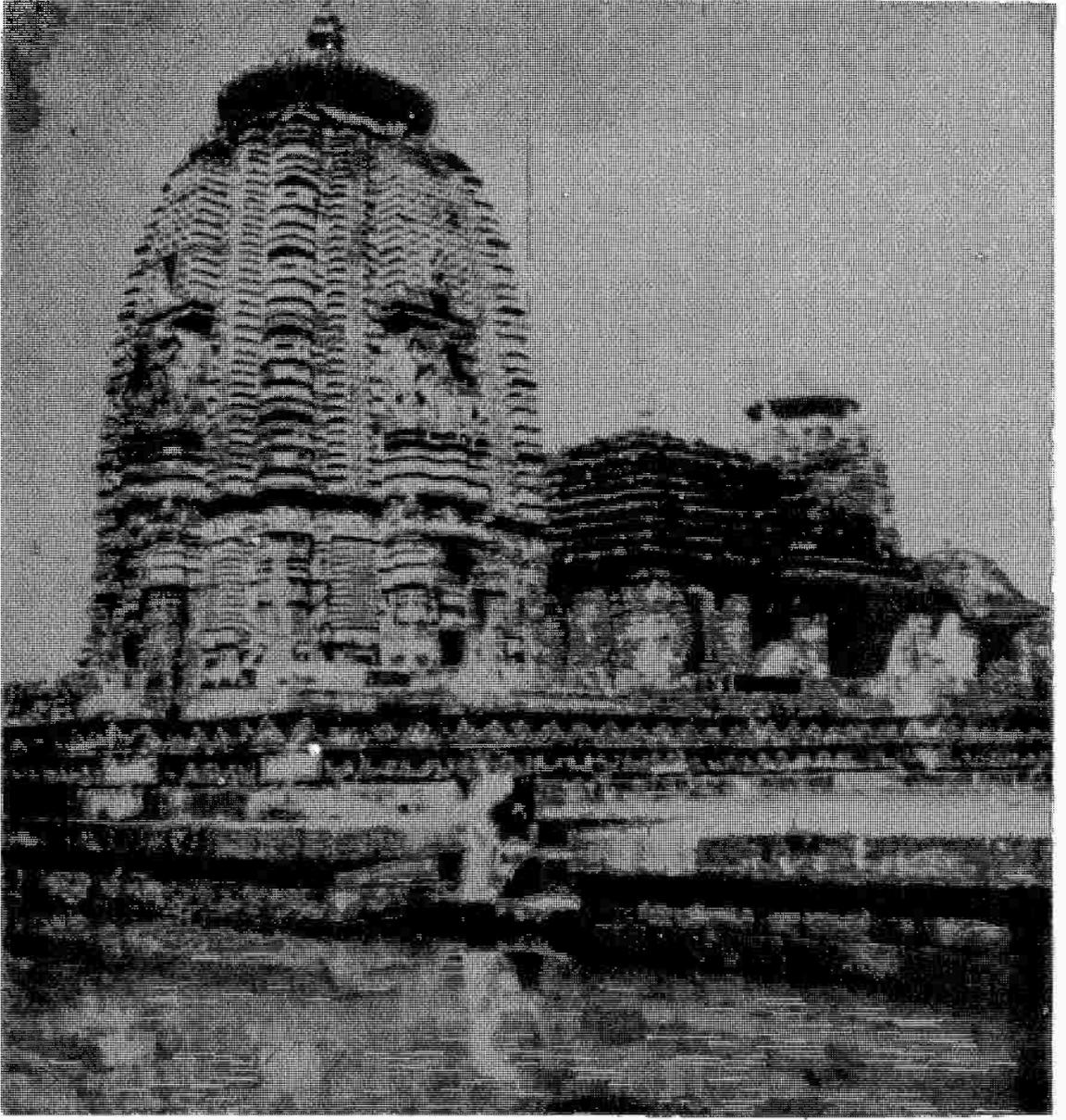
اللوحة ٩ - كيلاشيا في التورا (الهند)



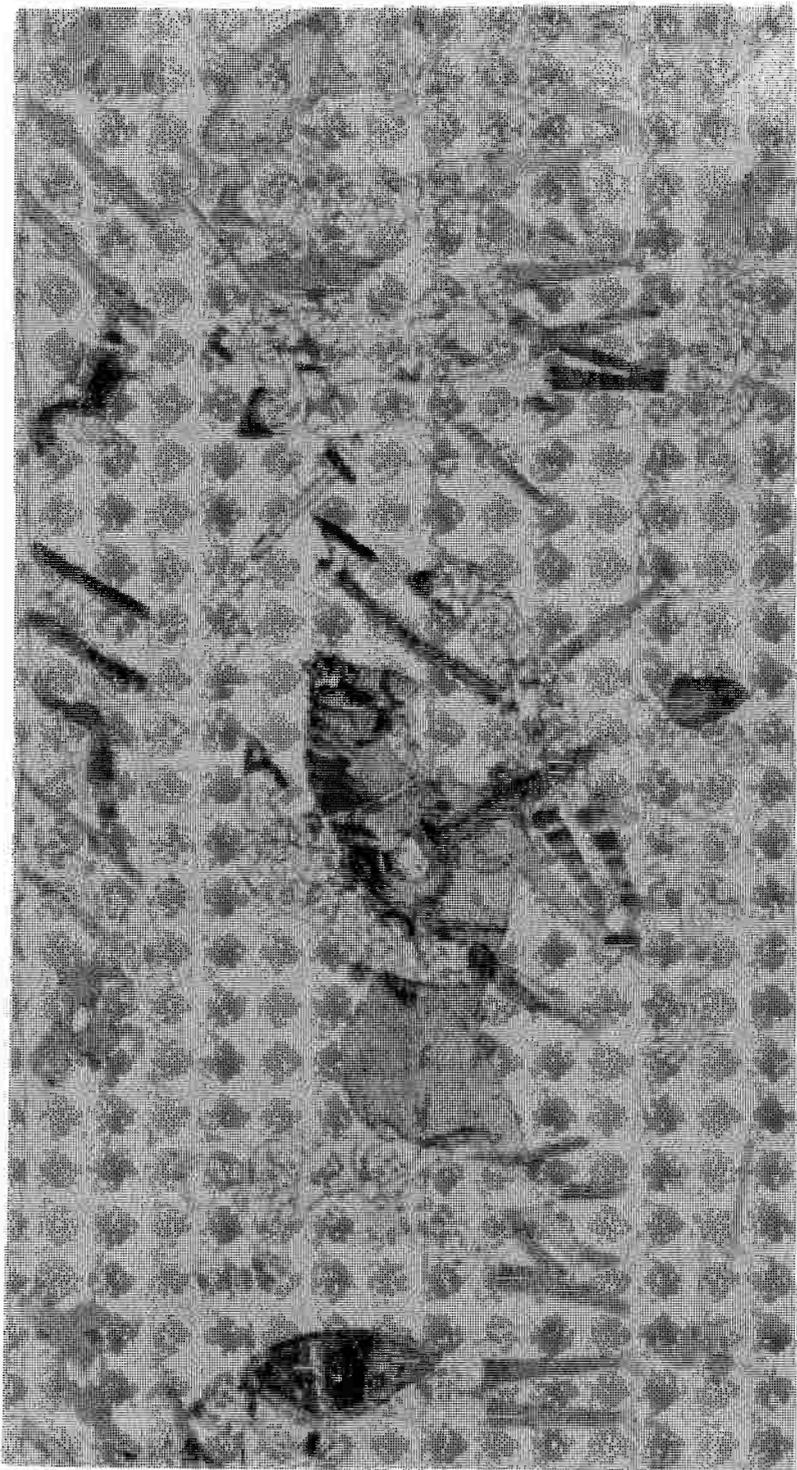
اللوحة ١٥ - المنظر الداخلي لجامع قرطبة الكبير (اسبانيا) ، القرن الثامن - القرن العاشر .



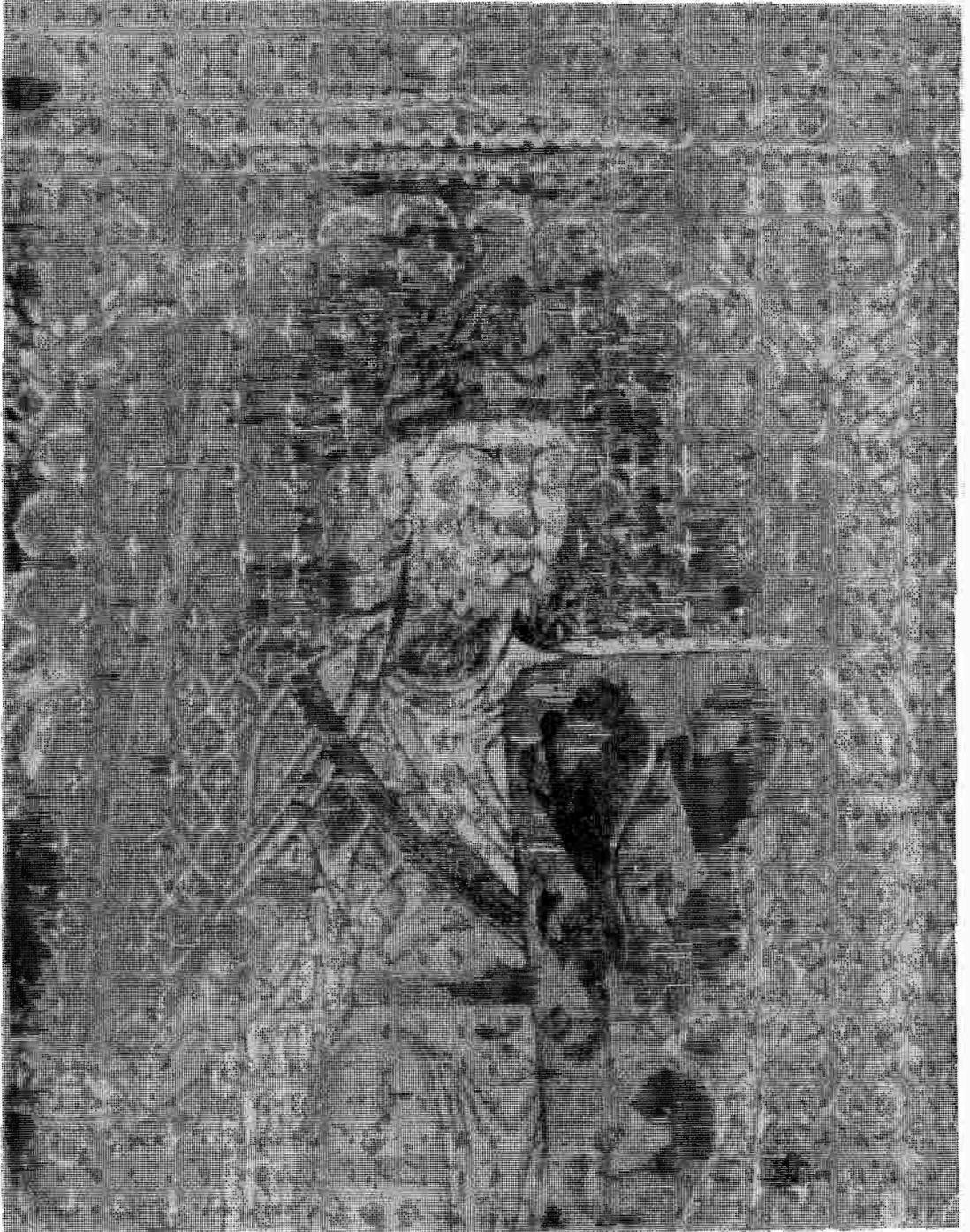
اللوحة ١١ - الدواكوشيجي ، في نارا (اليابان) .



اللوحة ١٢ - معبد بهوفانشفارا (الهند) ، القرن العاشر .



اللوحة ١٣ - موت هارولد .



اللوحة ١٤ - جوفروا بلانتاجنيه .



اللوحة ١٥ - البرج الكبير في حصن سان جان في «نوجان-لو-روترو» (القرن الحادي عشر).



اللوحة ١٦ - المسابقة بالرمح على الطريقة الجديدة .

ولا قوام ، في وقت انحدرت فيه الحضارة في شمالي غاليا الى الدرك الاسفل ، بينما كانت الأوطر الكنسية من الركاكة والضعف بحيث تمعجز عن مساندة ومعاوضة أي بعث سياسي قويم في البلاد . اما مملكة اللبارديين في شمالي ايطاليا ، فذكريات أمجاد روما وأيامها الغر لا تزال حية في النفوس ، والتقاليد الفنية فيها محترمة مرعية ، والمدن في ازدهار ، والنخبة بين العلمانيين لا تزال بعد ، على اتصال بالثقافة القديمة . وقد جعلت هذه العوامل نفسها العمل الاداري في البلاد صعباً عسيراً : فالدوقه من اهل الحسب والنسب ، في نزاع موصول مع نظام ملكي لا سند له ولا عماد ، لنهك قواه في محاولات للاستيلاء على الولايات البيزنطية ، بغية ضم ايطاليا تحت سيطرته . واخيراً وليس آخراً ، فاذا ما استطاعت البابوية ، بفضل الرهبان الانكلو سكسون ، ان توطد من نفوذها بين الجماعات المسيحية المتكاثرة عددها في الغرب ، فالبلاد البابوي الذي تهيمن عليه جوال من الاغريق والسرمان والدملات ، محاولة اعضاء الطابع البيزنطي على الطقوس اللتورجية ، يقع تحت تأثير بطاركة القسطنطينية العقائدية ، كما يرزح تحت وطأة ولاية الامبراطور الثقيلة بينما نراه يعاني مريعاً في الشمال ، من ضغط اللبارديين الذين أصبحوا خطراً مداماً يتهدد باستمرار ، املاك الكرسي الرسولي وسلامتها . فانتهاء أي تعاون بين هذه القوى القائمة ، المتنافسة فيما بينها ، والتي يقعدا انفصالها ويشل فيها كل حركة ونشاط ، جعل اوربا المسيحية منطقة مكشوفة يُنال منها ببسر وسهولة . فالغزوات الموسمية التي تشنها عليها قبائل الفريز والسكسون الوثنية من الشمال ، توهنها وتنهكها . اما في الشرق ، فقبائل الآفار الذين استقروا في مقاطعة بانونيا ، تهدد بخطر مستطير ، سكان مقاطعة فينيسيا ، ولذا فروا هاربين وفزعوا الى الفيض والمستنقعات الواقعة عند مصب نهر البو ، يعتصمون بجزرها وخلصانها . اما الجنوب من اوربا ، فموجة الاسلام العارمة ، تهدد ابتلاعه تحت جرف من الغزوات الكاسحة . والكتائب العربية التي سحقت ببضعة معارك ، ملكة الفيزيغوط في اسبانيا ، تجاوز مدها شمالاً ، جبال البرانس ، واحتلت ، عام ٧١٩ - ٧٢٠ ، مقاطعة الروسيوت ، والقسم السفلي من اللانغدوق ، وفي سنة ٧٢٥ اتجهت كتيبة من فرسان المسلمين ، عبر وادي الرون ، ونهبت مدينة أوتون . وبعد ذلك بسبع سنين ، أنفذ الامير عبد الرحمن الغافقي سراياه على طريق بوردر وبواتيه ، في اتجاه نهر اللوار .

واقف في هذا الوقت بالذات ان تم شيء من تجمع القوى ، في الغرب . ونشأت روابط زادت بها الايام متانة خلال القرن الثامن ، وحدت بين زعماء الفرنج وقادتهم ، وبين المرسلين الانكليز والبابوية ، التي راحت تسعى للتحرر من سيطرة الامبراطورية البيزنطية . وكانت من شأن هذا التيار الوحدوي القوي ، ان لاحم بين اجزاء الغرب اجمع وقوى من عضدها ، وكون منها درعاً تتقي به شر الغزوات وما تجره من ويلات ، ولو لفترة قصيرة او لأمد وجيز . وفرة التمثل هذه واستجماع القوى ، كان لها تأثير حاسم على مجرى التاريخ ، في الاجيال الوسطى ، اذ افسحت المجال لأول عملية تأليف ذاتي في اوربا ، كانت الاساس الركين والمهور الوطيد الذي ستنبى عليه نهضة اوربا وبعثها ، فيما بعد .

ظهور الامبراطورية الكارولنجية
نشأت على سواعد فريق من عبادة الاصلاح السياسي ، يمتون
الى اسرة من كبار الملاكين في منطقة الموز ، فاتخذوا 'نكاة'

لهم في ما ينشدون من اصلاح ، وظيفة سادن او قسيم القصر ، وهي وظيفة لم يلبث شاغلها ان
اصبح ، بعد ما آلت اليه النظم الملكية في عهد الدولة الميروفنجية من هلهة وانهار ، الاداة
الطيعة للقيادة والتوجيه ، واتخذوا قاعدة لانطلاقهم احدى ممالك الفرنج الثلاث ، اكثرها
خشونة طباع ، واقلها سكاناً ، هي مملكة « اوسترازيا » ، حيث بدت الطبقة الارستقراطية
فيها ، اكثر مرونة ، واقل حرثاً وتهديباً ، والمسيحية الحديثة النشأة فيها ، اكثر رواء ونشاطاً
ونقاءً . فمند وفاة بابين ده هرستال ، عام ٧١٤ ، إستولى على الحكم والادارة بعده ، احد
اولاده الطبيعيين ، هو شارل ، الملقب بـ مارتل ، بشد ازره معظم رعاياه وبلتفون حوله . فما
لبث ان اخذ الفتن واخضع لسלטانه مملكة « نوستريا » ، وصد في مقاطعة « بوتو » ، عام ٧٣٢
تدفق سيل الغزاة العرب بقيادة اميرهم عبد الرحمن الغافقي ، فبرز للناس اجمع مخلص البلاد
ومنقذ المسيحية في الغرب . واستطاع ، بعد حروب ومعارك لاحقة ، ان يوقف سيل الغزو
الاسلامي ويحول دون تقدمه الى الشمال ، ويخضع لسيطرته ، بضربة معلم حادق ، مقاطعتين :
الاكويتان وبروفانس . واسند الوظائف الكبرى في الحكم والادارة ، الى موظفين اكفاء
يتمتعون بثقته ، إصطفاهم من بين اعضاء اسرته ومن خاصة الأسر الكبيرة في اوسترازيا ،
واعتمد على مناصرة رجال الاكليروس يدمم بكل ما يحتاجون اليه من عدّة وعناد . واذ بدا
له ان لا بد من اخضاع جرمانيا لسيطرته ، قرر ان يساعد المرسلين والمبشرين على نشر المسيحية
فيها ، ولذا وضع جميع امكانياته ونفوذه تحت تصرف المبشرين الانكلوسكسون ، امثال
« فيليبورود » ، رسول قبائل الفريز ، وفيرمان ، الذي اسس ، عام ٧٢٤ ، في راينجو ، على
ضفاف بحيرة كونستانس ، اول دير انشئ على ارض جرمانيا ، واخيراً بونيفاسيو ، واسمه
الاول « فنفريد » ، الذي عمل بعد ان تزود بتوجيهات البابا وارشاداته ، على تنظيم الحياة
الرهبانية في مقاطعتي هس ، والتورينج ، وكنيسة بافاريا .

ولما كان اولاد شارل مارتل ، قد نشأوا نشأتهم الاولى في الاديار ، فقد وقعوا ، الى حد
بعيد ، تحت تأثير رجال الدين ، فأخذوا ، بمساعدة القديس بونيفاسيو ، القيام بعملية اصلاح
شامل للمؤسسات والنظم الكنسية ، اذ ذلك . ولما تم الامر لبابين ، عام ٧٤٧ ، واصبح سادن
القصر وحده ، اخذ بمؤازرة رسول جرمانيا ومبشرها الاكبر ، في اقامة صلات له مع الكرسي
الرسولي الذي استجاب لهذه المبادرة وعطف عليها مشجعاً تخلصاً من ولاية بيزنطية البهيضة
ومن اللبارديين بعد ان ازداد ضعفهم عليه . ورغبة من البابا في توطيد سلطة سادن القصر ،
مصلح الكنيسة وحامي المرسلين الغيور ، سمح له رسمياً ان يحمل محل آخر ملوك الميروفنجيين
الضعيف . وفي سنة ٧٥١ تم انتخاب بابين ملكاً على الفرنج . ولكي يزي هذا التبدل في الاسرة
الحاكمة ، بأسرة اخرى ويبرره ، فيضفي بذلك على مغتصب السلطة هالة من المهابة والوقار تفوق

بقيمتها الهائلة التي كانت تحف بخلفاء كلوفيس الشرعيين ، راح القديس بونيفاسيو يدهن الملك الجديد بالزيت المقدس . وهكذا تم تكريس العاهل الجديد وتخصيه رسمياً . وقد جدد البسايا نفسه ، عام ٧٥٤ ، تكريس الملك الجديد ومسحه بالزيت المقدس ، كما بارك ذريته من بعده ، وهذه البركة يمنحها لعائلة بابين ، تكريساً للاتفاق أو التحالف المقود بين ملك فرنسا واسقف روما ، وتوطيداً له ، راح الملك بابين يأخذ تحت رعايته الخاصة البسايا غريغوريوس الثاني ونزع من ملوك بافيا اللبارديين ، الولايات التي اغتصبوها حديثاً واقتطعواها من بيزنطية ووقفها ، بكل احتفال ، على الكرسي الرسولي . فانعم عليه البسايا ، بالمقابل ، بلقب : « بطريرق الرومان » وهو تصرف فيه الكثير من الاعتباط والتمسف ، بدا لذا ، غير قانوني ، اذ انتزع ممتلكات كانت تابعة ، من قبل ، للامبراطورية البيزنطية ، كما ان البسايا انعم برتبة ليس من حقه ولا من صلاحياته ان ينعم بها ، بل هي من صلاحيات الامبراطور . وقد كانت هذه الاحداث والخطوات التي رافقتها ، الحجب الاساسي في إقامة سلطة البسايا الزمنية ، كما كانت المسعف على تحريرها نهائياً ، من تابعة القسطنطينية ، وجعلها تعمل دوماً ، على حماية دولة الفرنج لها . وهكذا تهيأت من بعيد اسباب اعادة الامبراطورية في الغرب .

وقد سهل القيام بهذه السياسة ويسر تنفيذها ، الفتوحات الحربية التي حققها ابن بابين ، المعروف باسم كارلوس الكبير او شارلمان ، الذي قاد جيوش الفرنجة كل سنة الى ظفر مؤتل ، موسماً بذلك حدود المملكة الى اقصى ما بلغه تغلغل المسيحية في الغرب . واستولى على عرش اللبارديين وبسط سلطانه على الدويلات المستقلة ادارياً ، في جرمانيا المسيحية ، وبذل جهوداً مريرة في اخضاع السكسون وحملهم على إعتناق النصرانية ، وقضى على سيادة « الآفار » ، الشديدة الشكيمة ، وحمل كتاب الاسلام على التراجع والانكفاء ، عبر جبال البرانيس . وبلغ من اتساع رقعة مملكة الفرنج عام ٨٠٠ ، ومن قوة نفوذها ان راحت الاوساط الكنسية تفكر جديداً ببعث الامبراطورية الى الوجود ، لصالح الدولة الجديدة ، والرجوع بذلك الى التقليد القديم الذي انقطع عام ٤٧٦ ، عند سقوط روما بيد ادواسر ملك الهيرول ، وامسد هذا الانقطاع ثلاثة قرون بات فيها الغرب منقسماً على نفسه ، دائم الفلق والاضطراب ، لا يعرف الاستقرار ، وبذلك عادت اليه وحدته السياسية والروحية . ويوم عيد الميلاد بالذات من سنة ٨٠٠ ، جرى تكريس شارلمان في كنيسة القديس بطرس ، وفقاً للطقوس والمراسم المتبعة في القسطنطينية ، وألبس التاج ونودي به امبراطوراً على الرومان . وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة اعترفت بيزنطية بواقع الامبراطورية ، وإعادتها من جديد في الغرب .

ومع ذلك فقد كان من نصيب الجيل التالي اي الجيل الذي عاصر الامبراطور لويس الورع وشهد النفوذ الذي كان يتمتع به ، اذ ذلك ، رجال الكنيسة ذوو الثقافة العالية ، تطبيقي المبادئ التي أدت الى بعث الامبراطورية . فالامبراطور هو القائد الاكبر للشعب المسيحي ، عليه ان يؤمن ادارة كل القضايا الزمنية ، كما ان سلطته او خلافته لا يمكن تجزئتها . وهكذا

فالمرسوم الامبراطوري الذي اصدره عام ٨١٧ بعنوان *Ordinatio Imperii* . يكون قد وضع حداً للتقليد الجرمانى الذي 'عمل به الى ذلك الحين ، والذي كان يوجب بان يتقاسم وركة الملك مملكته من بعده ، بينما ادعى الامبراطور نفسه عام ٨٢٤ ، حتى الاشراف على دولة الكرسي الرسولى والتدخل بانتخاب البابا .

ساعد ما كانت عليه الاسرة الكارولنجية من ثراء وغنى ، وانبساط سلطان الفرنج واتساع مملكتهم ، على النهوض باسباب المدنية الغربية ، وهي مدنية محدودة الطاقات مع ذلك ، فلم يطرأ سوى تغيير بسيط على المقومات والعناصر المادية ، والاتصالات التجارية ، والتأليف الطبقي الاجتماعى فى البلاد ، بينما نلاحظ تطوراً محسوساً فى القطاع المدينى ، هذا القطاع كان يتردى فى احط دركات الفوضى والانحطاط . وقد امكن استدراك هذه الاوضاع غير الملائمة ، خلال النصف الثانى من القرن الثامن ، عن طريق تقوية النظم والاجهزة السياسية ، مما ادى الى إستتباب النظم وتوطيد اسباب الوحدة . وهكذا نشأ جو ملائم ، سليم ، يسمح بازدهار امور الفكر وانتشار الثقافة التى كادت شعلتها تنطفئ فى اواخر العهد الميروفنجي ، وهي ثقافة اطلت علينا فكرية ذهنية ، فى البلدان الانكلوسكسونية ، وفنية فى المقاطعات الشمالية من غاليا ، فاؤدت طوال حركه الانبعاث هذه الى نتائج طيبة ، مهدت الطريق لطلوع نهضة اخذت تنمو وتوسع دونما انقطاع . وقد عادت هذه الحركة التجديدية بالغنى والنفع على المناطق الواقعة بين نهري اللوار والرين ، اى على هذه الولايات الفرنجية القديمة ، قلب الدولة الكارولنجية ونقطة الدائرة فيها . ففي هذه الولايات قامت اوطد الاسس وارسخها . ومن هذه المنطقة جاءتنا اكثر الوثائق والمستندات . فمن هنا يجب ان نطيل لئرى الصفات والميزات التى طبعت بين ٧٨٠ و ٨٣٠ المدنية الكارولنجية ، قبل ان نتبين ما كان لها من أثر يبين ، على الاقطار الاخرى ، فى الغرب المسيحي .

فلا عجب من ان تأتى الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، فى
شمالى غاليا ، والحالة هذه ، واهية ، ركيكة ، بدائية المظهر
ضمن الرضع الاقتصادي رومنه
والخبر ، بعد هذا التردى الطويل خلال هذه المدة . فالسكان فيها قليلون ، وتوزيعهم ليس على سواء ، والوسائل التقنية المتبعة فى الزراعة لم تكن لتصلح الا للاراضي الخفيفة التربة ، السهلة الحرث والفلاحة ، سوادها من الدلغان والرمل ، بينما الاراضي العميقة التربة والكثيرة الرطوبة أهمل امرها للاحراج والغابات والقباض والمستنقعات . ويفصل بين رقاع الارض المزروعة مساحات واسعة من الغابات والاحراج ، خالية تقريباً من السكان ، يرتادها من حين الى آخر بعض الحطابين والرعاة . والظاهر ان استتباب الأمن فى هذه المنطقة ، بين ٧٥٠ - ٨٥٠ احدث تبديلاً ملحوظاً من الوجهة السكانية او الديموغرافية . فالقرى القائمة فى السهل المحيط بمنطقة باريس حيث يقوم باستثمار الاراضي واستغلالها ، المديسد من الأسر ، كانت تضم من السكان ، اذ ذلك ، ما كانت تضمه ، تقريباً ، فى اواخر القرن الثامن عشر . وهي كثافة كبيرة

إذا ما نظرنا إليها من خلال عطاء الأرض ومحصولها . ومع ذلك ، فهذه النسبة العالية في معدل السكان لم تتسبب بآية هجرة نحو الأراضي البكر . ويبدو ان الناس في ذلك القرن ، كانوا اعجز من ان يوسعوا نطاق اراضيهم الزراعية عن طريق احياء اراضٍ جديدة للزراعة . ولم يعُضن الوقت بعد ليُسمح باستمرار الازدهار الديموغرافي واطراد نموه ، بحيث يتضاعف عدد العاملين في الأرض والمستهلكين على السواء ، فيؤمنوا استمرار نمو ثروة البلاد باطراد .

فليس من عجب ، بعد هذا ، ألا يكون أي أثر يذكر للحركة التجارية ، اذ ذلك . ان استمرار غزوات العرب في الجنوب ، والحروب التي ساقها كل من شارل مارتل وبابن ، أخذ بعضها برقاب البعض الآخر ، وقد قضت على كل ما بقي من اثر النظام الاقتصادي القديم ، وذهبت بماله في تلك المنطقة ، فانجبت الحركة التجارية صوب البحر المتوسط . فالمستعمرات الصغيرة التي نشأت في عهد الميروفنجيين بفضل تجار مشاركة ، والتي تألف منها محطات على طريق القوافل ، قد تلاشت واندرست ، وحل محلها ، مع الزمن ، تجار من أبناء البلاد يتعاطون البيع والشراء وفقاً للنسبات ، بقوا ، مع هذا ، نادرة . ومع ذلك ، نرى كيف ان هذا الاصلاح البدائي من جهة وتوطيد اسباب الامن ، في شمالي غالبا ، من جهة اخرى ، ساعد ، منذ عام ٧٥٠ ، على اضافة شيء من النشاط ، على الحركة التجارية في البلاد .

ومن جهة ثانية ، استمرت حركة استيراد المصنوعات الشرقية الغالية الثمن : كالأفاويه والطيوب والعمود والديباغ وغير ذلك من الانسجة الجميلة التي يتهافت على اقتنائها الأثرياء وأبناء الارستوقراطية من علمانيين وكنسيين ، على السواء . والشيء الوحيد الذي تبدل هنا وتغير ، هو تحول التجارة عن المسالك القديمة التي كانت تسلكها في طريقها الى الغرب ، الى مسالك جديدة . فراحت تعتمد بالأكثر ، اما على الموانئ البيزنطية الواقعة في جنوبي ايطاليا ، وعلى البحر الادرياتيكي ، وعبر وادي البو ، او على مجازات جبال الالب ومرتباتها وممايرها ، او انها كانت ترد برأ ، متبعة الطرقات التي تجتاز البلدان الصقلية او طريق البحر البلطقي المائية ، وهي ، اذ ذلك ، اخطر الطرق ، وقاعدتها الكبرى جزيرة غوتلاند ، ومنها تدخل مجاري الأنهر الكبيرة في اوربا الشمالية . ومن ناحية اخرى ، تطلع علينا تيارات جديدة تتمثل بحركة المقايضات التجارية ، بعد ان اخذوا بنسج الاقمشة وحيكاك الاجواخ في بعض البلدان الواقعة حول البحر الشمالي ، مما كان يغذي ، بعض الشيء ، حركة تصدير بطيئة . كذلك اخذ تجار الفرنج ، ابتداء من القرن الثامن ، يبيعون في الاسواق الاسلامية ، بعض مصنوعاتهم كالأسلحة الجميلة الصنع التي كانت تصنع في المعامل الواقعة الى الشمال من غالبا ، كما كانوا يتولون الاتجار بالرقيق ، فيبيعون ارقاء وقعوا في الأسر ، من البلدان الوثلية ، وهي تجارة رابحة انما كانت تجري بتحفظ كلي ، وبالخفاء . وذهب بعضهم الى القول ان حركة التصدير هذه ونموها المطرد كانت ذات شأن كبير على الغرب ، الذي كان اقتصر حتى الآن ، على استيراد المواد الشرقية لقاء أثمان باهظة ، ممتدداً في دفع أثمانها على ما كان لديه ، بعد ، من احتياطي النقد ، دون ان

تكون له القدرة على تمويض التسلّف او المتسرب منها الى الخارج . وهكذا فتح التيار التجاري مع العالم الاسلامي ، المجال لادخال معادن ثمينة وعملات قوية وطرحها للتداول لتتغذي الحركة الاقتصادية والمقايضات التجارية ، الأمر الذي مكّن الغرب من دفع ثمن السلع والبضائع التي كان يستوردها عن طريق بيزنطية والتي كادت حركة استيرادها تنقطع لانعدام وسائل الدفع فكان ذلك بدء حركة لم تلبث بعد لأي من الزمن ، ان قلبت الوضع تماماً .

وهذا الانتعاش ، الوجلّ - انما مؤكد - للحركة التجارية ، والاتجاهات الجديدة التي اتجهت اليها ، أدت الى نتيجتين ثابتتين : تبدو الاولى في هذا الاصلاح التدريجي للنقد والعملة ، عند الفرنج ، وهو اصلاح تم بين ٧٥٤ ر ٧٦٥ ، وعام ٨٢٠ . فأمام تداول النقد العربي والصفلي ، في البلاد ، كالدينار الذهب او الدرهم الفضة ، استطاع ملوك الفرنج ، عن طريق سك عملات مماثلة لها ، من حين الى آخر ، ان يعيدوا الى التداول دينار الفضة ويشبّثوا قيمته ، وربما تم لهم ذلك بربطه بالنظام النقدي المتبع في العالم الاسلامي . فليس من عجب قط ان يكون لاصلاح النظام المالي وتقويته اثر كبير على الحركة التجارية . ثم ان هذا النشاط التجاري جاء نتيجة طبيعية لهذه الحركة الديموغرافية السكانية التي برزت بوادرها في هذه المنطقة الواقعة بين نهر السين والرين ، فأدت بين ٧٥٠ - ٨٥٠ ، الى نمو عدد من المدن القديمة وتوسعها ، امثال : آراس وفردون ومتز ، بينما نرى مناطق سكانية تطلع وتكبر وتتوسع ، حول مراكز ناشطة للتجارة ، او لتفريغ البضائع وشحنها ، تقع على مجرى نهر السين الاسفل ، ونهر الموز والاسكو ، او على ساحل المانش والبحر الشمالي .

ومع ذلك ، لا بد من الاعتراف هنا ان تبشير هذا الانبعاث الاقتصادي كانت ضئيفة وخفيفة للغاية ، يكاد المرء لا يشعر بها ولا يلمسها . فاذا ما اخذ المؤرخ على نفسه الاشارة اليها والتنبؤ بها ، فلانها تهيء من بعيد ، وتمهد الطريق للنهضة العمرانية والاقتصادية التي انطلقت موجهتها في القرن الحادي عشر ، اذ لم يكن ، في مآدور المرء ، ان ينسى ، اوليتناسي التدهور العميق والارباكش الذي طبع ، على العموم ، الوضع الزري الذي كان عليه القطاع الاقتصادي في العهد الكارولنجي ، وهو اقتصاد ريفي الطابع ، لا شأن يذكر للمدن فيه ، اذ كانت المعادن الكريمة مجمدة بشكل مجوهرات يخزنها الصاغة ، والنقد المتداول نادراً للغاية ، كما يستدل على ذلك من الرهونات على الاملاك ، ومن المسابك الكثيرة للعملة ، اذ كان يقوم على مقربة من كل مرء تجاري هام ، معمل لضرب السكة يؤمن ما يحتاج اليه الناس والملاء من نقود ، عند الاقتضاء . وهذا النوع من الاقتصاد هدفه الاول تأمين أوّاد العيش للتاجر ، دون ان يبايه لتحقيق أي ربح اضافي ، معتمداً في ذلك على غلة الارض دون سواها .

لهذه الاسباب التي اتينا على ذكرها ، كان عماد الاقتصاد ، في الاقتصاد العقاري : الاملاك
هذه الحقبة ، الثروة العقارية أو الملكية العقارية ، متكأ النظام الاجتماعي منذ اقدم العصور ، ولكن لا يبرز شأن هذه المؤسسة على حقيقته الا على ضوء الوثائق

والمستندات المائدة لمطلع القرن التاسع . وقد اطلقوا على هذه العقارات أو الملكيات الضخمة اسم *l'illue* ، وهي مزروعات كبيرة قام منها عدد كبير في ايلات نوستريا وأوسترازيا ، ولا يدخل تحت هذا المسمى الاملاك الصغيرة الحجم التي يستقل اصحابها في استثمارها . وهذه الاملاك الواسعة الاطراف لا يستقر وضعها على صورة ثابتة ، لما ينتابها من تغير وتبديل ، فنجين عن الإرث والبيع ، والشراء والهبة ، وغير ذلك من الاسباب التي تعتبر الملكية من عوامل التصرف . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تتفاوت فيما بينها مساحة واتساعاً . فبينما تكون مساحة العقار هنا مائة هكتار ، مثلاً اذ بها ، هنالك ١٨٠٠٠ أو ٢٥٠٠٠ هكتار . وبالرغم من هذا الفارق في المساحة ، فطريقة استثمارها واحدة هي ، يُعْمَلُ بها على شيء من التوافق والانسجام . فهي على العموم تقسم في استثمارها ، الى قسمين أو شقين : القسم المحفوظ لصاحب الارض أو مالكها ، ولسميه : « الرباعة » ، والقسم المؤجر للاستثمار . فالقسم المحفوظ هو الذي يحتفظ صاحب العقار باستثماره لحسابه الخاص بحوره الفيلا أو الدارة وهو نقطته الدائرة في العقار وبحوره ، الذي يضم ، عدا منزل صاحب العقار ، عدداً من المنازل وبيوت السكن لمن في خدمته من خدم وحشم ومزارعين ، كما يشتمل عادة على كنيسة او مصلى . وهذه الرباعة تضم قطعاً مختلفة من الاراضي الزراعية ، يؤلف مجموعها ثلث او ربع مساحة العقار القابل للحرث والزراعة ، بينها قطع الكرمة عندما تسمح طبيعة الاقليم بزرعها ، ومروج ، وارض بور ، ومراع للماشية ، وغابات واحراج للصيد والقنص . أما القسم الثاني من العقار ، فيتألف من قطع للزراعة هي الدوار *Manse* الذي يقسم بدوره الى عدد من قطع قابلة للزراعة ، توضع تحت تصرف المربعين يستثمرونها ويستغلونها ، وفقاً لشروط معينة ، ولهم حقوق الإرتفاق على بعض القطع البور في القسم المحفوظ لسيد الارض . ولبعض هذه القطع الزراعية ميزات خاصة تنعم بها وتميزها ، ولذا سميت *Ingéniles* ، تمتاز عن سواها بالاتساع . وكثيراً ما يستغل الدوار الواحد لاتساعه ، اكثر من مرابع واحد فيقسم حصصاً بينهم .

وتقسم الاملاك الكبرى والعقارات الواسعة على النحو الذي اقتضته الطريقة المستعملة اذ ذاك للاستثمار . فالفيلا هي اضخم واوسع من ان يستطيع صاحب الارض تشغيلها واستثمارها لوحده . فهي تحتاج ، بالنظر لما كانت عليه وسائل الزراعة ، اذ ذاك ، الى عدد كبير من المزارعين والشغيلة . غير ، ان ندرة النقد بين ايدي الناس ، كثيراً ما حالت دون اكتراء ما يلزم لها من اليد العاملة . كذلك كان من المرهق والمرزح معاً لصاحب الاملاك الواسعة ، استخدام أو تشغيل عدد كبير من الارقاء والمبيد ليس من السهل ايجادهم أو توفيرهم ، ولا سيما ونتيجة العمل لم تكن قط مشجعة . ولهذا الاسباب ، فضل أصحاب العقارات الواسعة استثمار قسم من املاكهم هذه على يد عبيدهم او احرار المزارعين ، فيستثمرون وفقاً لشروط معينة ، الارض المقطوعة لهم ، كما يرغبون ، على ان يؤمنوا أو دمهم وأود ذريتهم ، لقاء تعهدهم بشيئين : الاول تقديم مبلغ من المال ، بكل سنة ، لصاحب الارض ، وفي هذا دلالة واضحة على ان هؤلاء الفلاحين كان باستطاعتهم ان يقوموا ببعض الاعمال التجارية التي تعود عليهم ببعض الدخل ، مها كانت

ضئلاً ، كما كان عليهم ان يقدموا ، موسمياً ، بعض محاصيل الارض وتيناً معيناً من غلالها ، وشيناً مما تنتجه العائلة من الاشغال اليدوية ، كقطع من الحشب المشفول أو المنقوش ، وبعض الاقمشة مما ينسج على اليد أو يحاك في المنزل . كذلك يترتب عليهم ان يساعدوا بالجمان ، صاحب الارض على استثمار القسم المحفوظ باستثماره لنفسه ، كما يترتب عليهم ان يقدموا له ، عدداً من أيام السخرة ، في السنة يتبرعون بها لفلاحة أرضه ، أو مساعدته في الحصاد ، وقطع العشب والقصيل ونقل الغلال ، والسهر على سلامة وصيانة المباني القائمة على املاكه . وهذه الخدمات يتبرع بها الفلاحون ، هي في نظر صاحب الارض ، اهم بكثير من الرسوم النقدية أو المينية التي يترتب عليهم تقديمها له . وبالفعل ، فقد كان كبار الملاكين ، في القرن التاسع ، يؤجرون قسماً من اراضيهم ، ليس طمعاً منهم بما تدره عليهم من دخل وغلال ، بل ليؤمنوا لانفسهم الخدمات الثانوية التي كان يتوجب على المربعين تقديمها لهم ، بعد ان يوفر لهم الشيء الصعب أو العسير في الامر ، الا وهو دفع اجورهم . من الطبيعي جداً الا تؤمن هذه الطريقة لسيد الأرض في السنة الواحدة ، سوى دخل بسيط . غير ان كبار الملاكين كان يهمهم جداً ان تؤمن نفقات معيشتهم ومعيشة ذويهم ، وان ترسل الى امراءهم وحواصلهم بانتظام ، المواد الغذائية عن طريق نقلها بالسخرة ، وان تساعد هذه الحفنة من الدراهم التي يقبضونها من المربعين أو من بيع المواد الغذائية الفائضة عن حاجتهم ، على شراء ما يرغبون في شرائه من الكماليات ، التي يبتاعها من وقت لآخر ، من التجار المتجولين .

فالمجتمع في عهد الدولة الكارولنجية هو مجتمع يرتكز في الاساس ، على الثروة المجتمعية الريفي ، ويحمل تنظيمه الطبقي سمات الملكية العقارية . فهو مجتمع يقوم أصلاً ، على الرق والاسترقاق أو الموالي ، شأن المجتمع الروماني في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ، والدولة الميروفنجية . فالتمييز التقليدي المتوارث بين الملاكين وبين الموالي ، أساسه نظرة اهل العصر في ذلك الزمان . فالملاكون هم وخدمهم اعضاء في المجتمع ويشاركون وخدمهم بنشاطاته العسكرية والقضائية ، كما يستدل على ذلك من بعض المصطلحات والمترادفات اللغوية كما نرى في كلمتي *Libre* و *Franc* ، مع ان الرق كان ، والحق يقال ، سائراً القهقري ، كما هو ثابت .

فالآداب والاخلاق المسيحية التي كانت تحظر استعباد المعتمد أو المنتصر ، كانت تعتبر تحرير الرقيق عملاً يستحق الاجر والمثوبة . فلا عجب ان تكون ساعدت بعض الشيء على الانتقاص من قيمة الطبقة العاملة . فالأسباب التي تكن وراء هذا الوضع ، هي ، في صميمها ، اسباب اقتصادية صرفة . فالارقاء الذين كان يؤتى بهم من البلدان الوثنية ، اصبح الاتجار بهم عملية رابحة منذ ان اصبحوا سلعة تشرى وتباع ، يشد التجار المسلمون اليها الرحال . ومن جهة اخرى ، فالأخذ بنظام التملك الواسع والعمل به ، أدت الى اهمال استعمال فرقاء الارقاء في الاعمال الزراعية البهاظة التكاليف . ففي مطلع القرن التاسع كان الارقاء يؤلفون عشرة في المائة من مجموع سكان الريف ، سوادهم الاكبر يعمل في المزارع والحقول . وقد ساعد وضعهم هذا

على التخفيف ، بصورة محسوسة ، من الروابط التي كانت تشد بسيد الارض ، مع العلم ان هذا الوضع كان عندهم وراثياً ، يجعلهم دوماً مرتبطين ، دونما محيص ، بسيدهم ، فيسومهم القصاص أوانا والعذاب أصنافاً ، وله الحق المطلق والاخير ، على كل ما يملكون حتى على ولدهم وذرايعهم . فهم لا يستطيعون الافلات او التنقل ، ولا ان يتزوجوا الابناء على رغبة سيدهم وبأذن صريح منه ، كما عليهم ان يستجيبوا ، سريعاً ، لكل مطالبه . فاذا ما استقر احدهم مع أسرته في الدور الزراعي الذي تحت تصرفه ، فواجباته تخف نوعاً ، اذ ينحصر معظمها في استثمار الارض المقطوعة له ، وهو استثمار باستطاعته ان يورثه اولاده من بعده . ففي الايام التي لا سخرة عليهم فيها ، يستطيع الواحد ان يعمل في ارضه دونما اعتراض من احد ، وان يتصرف بفلاحة كيفما يشاء ، فيبيع قسماً منها . كذلك باستطاعتهم ان يوفرتوا ، وان يدخروا لهم مالا ، وان يؤمنوا لهم ربحاً حلالاً ، كما باستطاعة من كان بينهم على شيء من النشاط والاقدام ، ان يشتروا ارضاً حرة ويتصرفوا بكل حرية باستغلالها . وكلما ازداد انتشار النصرانية في الريف اندمجوا ، أكثر فأكثر ، في المجتمعات المسيحية واكتسبوا ، بالتالي ، شيئاً من الشخصية الادبية ، فزواجهم لا يصبح مجرد مساكنة وتسرية ، بل يتم وفقاً لمراسم الاسرار المسيحية ، له ذات القيمة ويجري على النمط الذي يجري مع الاحرار .

فاذا كان وضع العدد الاكبر من الأرقاء اخذ يتحسن في نطاق الملكية العقارية الواسعة ، فوضع المربعين الذين تسميهم الوثائق التاريخية التي ترجع لهذا العهد بـ (*coloni*) ، لا ينعم بسوى شيء ضئيل جداً من الحرية . فهم بالاسم ، جزء لا يتجزأ من الشعب الحر ، وينحصر بالاسم للنظم التي يخضع لها العامة . غير انهم يخضعون ، بالفعل ، لمشيئة رب الارض الذي ينظر اليهم نظرتهم الى متاع ، يستغلهم كيفما يشاء . ويصدر اليهم اوامره دونما رقيب او حسيب . فهم ، في الاساس معفون من الواجبات العسكرية ، الا انهم ملازمون الدخول في تنظيمات سيد الارض التي يعملون عليها ، كما انهم مجبرون على دفع رسوم خاصة اذا ما رغبوا في تكليف من يحمل محلهم ، كما أن من كان منهم يعمل في اراضٍ خاصة بعمل العبيد ، يلزمون القيام بالاعمال الشاقة التي يطلب الي العبيد ، القيام بها . فالمدلول بين الحرية والعبودية لا يزال بعيداً ، والفارق بينها قوياً ، ليصبح انزال المولى او الفلاح المعمر ، قانوناً ، منزلة العامل الشغيل . ومع ذلك فهم يؤلفون معهم ، عملياً ، طبقة واحدة مرهقة ، رازحة . وهذا الفارق الاجتماعي الاقتصادي الطابع الذي يفصل بين العمال الذين يعملون في الاملاك الواسعة ، وبين الرجال الاحرار الذين يعملون في اراضيهم الخاصة ، يزداد اهمية يوماً بعد يوم .

والفلاسكون الاحرار يشاركون بجميع النشاطات العسكرية والقضائية في مجتمع الفرنج . الا انه عندما تكون ثروة الواحد منهم متواضعة ، فليس في وسعهم ان يمهّدوا باستثمارها الى آخر ، يكبدهم حضورهم امام المحاكم واشتراكهم خلال الصيف بالحملات العسكرية ، مصارفات ونفقات لا قبل لهم بها ، يتفادى الكثيرون منهم تحملها ، وذلك عن طريق وضع انفسهم

تمت حماية احد كبار الملاكين ، ورعايته فيحولون قطعة الارض التي يملكونها الى اقطاع يستثمرونه كفلاحين في حماية متنفذ كبير . وهكذا لم تلبث الطبقة الوسطى ان ذابت ففابت تدريجياً . والانهيار الذي اصيبت به الطبقة الحرة يُبرز بصورة اجلى ، تفوق كبار الملاكين العقاريين الذين يعمل في استثمار اراضيهم ، اثنتا عشرة عائلة على الاقل ، بحيث يلتحقون بخدمة الجيش فرساناً لابسي الدروع . وهذه الطبقة التي تتميز في الشرائع البربرية والقوانين الكارولنجية بالقاب فخرية وشرفية ، ونعوت طنانة ، منها *Proceres* ، و *Optimates* و *Nobiles* ، تزدد ثراءً وغنى بما ينهال عليها من الانعامات والأعطيات العقارية الموقوفة على الوظائف العالية واصحاب المراتب السامية ، عسكرية كانت ام كنسية . فهم اساد الفلاحين العاملين في املاكهم ، لهم وحدهم الحق بمراتب الجيش ومجالس القضاء والمحاكم ، والدنو من الملك والاتصال به مباشرة ، والتمتع بالحرية التامة . فهذا المجتمع الريفي الطابع حيث المراتب تعطى بنسبة ما يملك الفرد فيه من اطيان واملاك ، منقسم الى طبقات منزلة بعضها عن بعض ، مغلق عليها ضمن الاراضي التي تستثمرها ، لا منفذ لها على الخارج ، جماع السلطة والشأن فيها بيد قلة من كبار الملاكين .

لما كان سدنة القصر في مقاطعة اوسترازيام اكبر اصحاب الاملاك ، فقد رسائل الحكم استطاعوا ان يقبضوا على زمام الحكم فيها ويستولوا على السلطة . فحاولوا ان يحكموا بالفعل ، وهي مهمة شاقة للغاية دونها خرط القنادر . صحيح ان الوضع الاقتصادي الذي كان عليه المجتمع ، اذ ذاك ، كان يساعد على ذلك ويجعل مهمة الحكم سهلة نسبياً ، اذ ان معظم سكان الريف والطبقة العاملة في الارض ، كانوا كلهم يخضعون ، بحكم ظروفهم الاجتماعية ، للملاك كبير ، يقوم في منطقتهم . وتحقيق هذا الهدف لم يكن يطلب اكثر من المحافظة على التاج وعلى احترام ما للملك من سيطرة اقتصادية ، واكتساب ولاء بضع مئين من كبار النبلاء في البلاد . ومن جهة اخرى ، فقد كان المفهوم العام للدولة وللواجب الوطني لا يزال بعد غامضاً ، غائماً مستفلقاً . فاكتساب ولاء كبار النبلاء انما كان يتم عن طريق اغراقهم بالهدايا والهبات ، أو باخضاعهم بالقوة والبطش . وهذا الاستسلام والخضوع هو بالطبع موقوت ، ووضع متأرجح ، وذلك لعدم وجود اجهزة تمتن من العلاقات بين البلاط والرئاسات الاقليمية . ففي وقت كان فيه تجول الافراد ونقل الارزاق والمقتنيات ضيقاً للغاية ، والقراءة والكتابة في سبيلها الى العفاء والزوال ، فالعلاقات السياسية كان لا بد من ان تركز على العهد المباشر المتطوع ، وعلى الاتصالات الشخصية وعلى الذكريات ، اذ ان الملك الذي لم يكن في وسعه ان يكون في كل مكان ، لم يكن له من يمثل في المقاطعات سوى الكونتية ، هؤلاء الموظفين الكبار الذين كانوا ، على الاجمال ، دون المهمة الموكولة اليهم ، يماونهم قلة من العملاء يعملون في الوظائف التضائية الدنيا ، يفتقرون كلياً ، الى عدد كاف من صفار المساعدين ، ليتمكنوا من القيام بهام الادارة في دوائهم ، كما يجب . وهؤلاء الحكام الاداريون هم انفسهم من كبار الملاكين ، غير

قابلين للرفق أو العزل ، مبدئياً ، بعيدون عن الملك ، ويعتمدون محلياً على انصارهم في المنطقة . فكثيراً ما تمرّدوا هم انفسهم على النظام ، وضربوا بالانضباط عرض الحائط . ومن جهة اخرى فالرسوم الهجاة من افراد الشعب ، والتقادم التي كان عليهم ان يرفعوها للملك ، وهي عادة يُعمل بها منذ عهد الميروفنجيين ، لم تكن تمد الملك بموارد كافية ، منتظمة الدخل ، بحيث يستطيع معها ان يجتذب ولاء الامراء ، ويصطنع النبلاء حوله عن طريق توزيعه ، الفينة بعد الفينة ، الاعطيات والهبات السخية .

ومع ذلك ، فقد استطاع الكارولنجيون ان يسيطروا ، في اواخر القرن الثامن ، على الارستقراطية معتمدين ، في ذلك ، على وسائل وذرائع شتى . منها انهم كانوا ينظمون كل سنة ، حملات عسكرية يرسلونها وراء الحدود . فالملكية الفرنجية ، هي عسكرية في الاساس ، لانها جرمانية ، بربرية في صميم طبيعتها . فالشعب هو قبل كل شيء ، الجيش ، والملك هو ، قبل كل شيء ، قائد حرب وقائد سلاح . فبمجرد ما كان يقوم بوظيفته هذه ، ويؤدي هذه الخدمة ، كان ذلك امتداداً لسلطته وسلطانه ، فيتقوى ويتوطد ، وعندما يجند شعبه ويدعوه لحمل السلاح ، يصبح هذا الشعب في قبضة يده وتحت تصرفه . فكل من كان حراً ، ولا سيما الاغنياء ، عليه ان يلي نداء الملك بدقة وان يتقيد بالموعد المعين ، وإلا تعرض لجزاء ثقيل ولغرامة باهظة . فأقل تلكؤ او تأخر يبدر منهم خلال العمليات الحربية ، يجر على المذنب او المخالف اشد العقوبات . ففي كل صيف يتوجب على الارستقراطية الفرنجية ان تحتشد على ادق ما يكون من الانضباط والنظام ، في فترة تطول من حزيران الى تشرين الاول ، فتشمر ، فيما بينها ، بتضامن اكبر عن طريق ما بينها من زمالة السلاح ورفاقه الحرب ، تحت ادارة الملك وقيادته . ثم فالحرب كانت دوماً حرفة مربيحة ، مغذية . فالغزو والاسلاب والمغانم ، والاراضي المفتوحة ، كل ذلك يمد الملك ويوفر للملك ، ويعد له ظروفاً جديدة ومناسبات ناهزة ، ليوزع عوارفه ومكافآته على الذين يتفانون في خدمته ، وبهذا السخاء يكسب ولاء الآخرين . والشيء الجدير بالملاحظة هنا هو ان محاولات التمرد او شق عصا الطاعة ، حوادث لا تقع الا في اعقاب معركة خاسرة او موقعة فاشلة . فالحرب وما تليحه للجيش من اسلاب وغنائم ، هي اولى ادوات الحكم وأمثلها على الاطلاق .

واذا كانت الحرب تتجدد في كل سنة ، فهي ليست بذلك مستمرة دائماً ، والا أصبحت سلطة الملك نفسه فصلية موسمية او حينية ، عليها ان تتوارى وتحتفي في الاشهر القسود ، أي عندها يكون المحاربون ملازمين بيوتهم ومنازلهم . من العسير ان لم نقل من المستحيل ، الاتصال بهم لوعورة المسلك ، وصعوبة المرتفعات معزولين بعضهم عن البعض لاتساع رقعة المملكة ، أثر حرب ناجحة وسعت من اطراف البلاد . ولذا كان من المهم جداً ان يبقى استنفار الملك لوحدها جيشه معمولاً به والبلاد في حالة حرب معلنة ، من حين الى آخر ، بحيث يتم للجميع مشاهدة ما للملك من قوة وبأس ، وما له من بطش حتى في أيام السلم ، عندما يكون الجيش

مرابطاً في قواعده خلال فصل الشتاء. ولذا كان من المهم على الملك ان يكون له عيون وارصاد، له بهم كل الثقة، يبتئهم في جميع الولايات، تشدهم الى الملك او الى الأسرة المالكة، وشائج القربى الوثقى، وأخلص روابط الود عن طريق علاقات شخصية لها من المتانة ما لآصرة الدم. ولذا بين ١١٠ كوتناً الذين كانوا يمارسون الحكم ويضطلمون بهام الادارة في مختلف الإيالات والولايات، في عهد شارلمان والامبراطور لويس الورع وتحديد مراكز اقامتهم، كان ٧٠ من بينهم اصلهم من مقاطعة اوسترازيا، و ٥٢ بينهم من اقارب الملك وأنسابه. ولهذا الاسباب عينها، بهم الملك ان يتدعر تحت انظاره، في البلاط الملكي، أبناء النبلاء، وهكذا يصبح لدى هؤلاء اليافعين الذين عاشوا في رفاقة الملك مباشرة، واتصلوا به، وسكنوا في غرف القصر وحجراته العديدة الفسيحة، شعور الابن نحو الاب، كما يجعلهم تذكركم هذه الالفة، أكثر ولاه له، وأكثر ثقة به عندما يعودون، بعد انفراطهم من الخدمة، الى ايالاتهم الخاصة. ولهذا الاسباب لجأ الكارولنجيون الى طريقة عملية طالما عمل بها منذ عهد بعيد، في الاوساط الارستوقراطية في شمالي غالبا، وهي ان يجعل الملك، عطاء الدولة ووجوه البلاد وأعيانها، أتباعاً له.

ملكية وتبعية
 في مطلع القرن الثامن كان عدد الرجال الاحرار الذين يضعون انفسهم تحت كنف عميد يجمعهم، او رئيس يسج عليهم يبحاويه، كبيراً جداً دون ان يفقدوا شيئاً من حريتهم وحقوقهم. وهذا الخضوع او التكريس الذاتي كان يتم وفقاً لمراسم وطقوس، نقرأ وصفاً لها، وبيانا عنها، لأول مرة، في وثيقة حررت عام ٧٥٧، فيجشو طالب الحماية ويضع يديه بين يدي السيد السند الذي يلتصم رعايته، فيصبح بذلك من «ازلامه»، مديناً له بالولاء والخضوع والامتثال. ثم يؤدي او يختم تكريسه هذا بتأدية قسم احتفالي، ويشهد الله والناس، على صدق ولائه وامانته. وكان يتلقى بالمقابل، الحماية وغير ذلك من المنافع المادية، منها مثلاً اقطاعه، بالهجان، ارضاً يستثمرها طالما بقي موالياً ومحافظاً على العهد المقطوع، تعرف عندهم «باقطاع» او أخاذة. وينشأ بين الرجلين شيء من القرابة الروحية والادبية. فالضعف الذي كانت الدولة تتردى فيه، واضطراب حبل الأمن في البلاد، وتطبع الاقتصاد بطابع ريفي محض، كل ذلك ساعد على ترسيخ هذه التقاليد، والتمكين لها في النفوس، وهي اعرف وتقاليد لها جذور عميقة في المجتمع الغالي، الروماني، وجرمانيا البدائية. ان اسلاف بابين وشارلمان استخدموا الطريقة ذاتها، وبهذه الطريقة بسطوا نفوذهم على اوسترازيا باكملها، وهي تقاليد تغلغل في صلب الحكومة بعد التغيير الذي طرأ على دولة الفرنج، بحلول الأسرة الكارولنجية محل الأسرة الميروفنجية.

فالمملوك تشبثوا، قبل كل شيء، بان ينالوا من يعهدون اليهم بمهمات رسمية، كونهتيسة كانوا أم من ارباب المناصب الكنسية العليا، الاعتراف بالولاء والطاعة، وان يُتَمَوَّ الواجبات الملقاة عليهم من جراء الوظائف التي يعهدون بها اليهم، منها خدمتهم للملك، سيدهم وزعيمهم، خدمة

نصوحة. وعن طريق اتابتهم لبعض دوائر الجباية ، او بتوزيعهم عليهم قطعاً من هذه العقارات الواسعة الارضاء التي يملكونها ، استطاع اوائل الكارولنجيين ان يجعلوا ، في عداد زبائنهم أو تابعيهم ، اغنى الملاكين ، وكبارهم الذين لم يلبثوا ان امسوا « تابع للملك » ، ولذا ترتب عليهم اكثر مما يترتب على غيرهم من الناس ، ان يقوموا بواجباتهم كرعايا مخلصين ، فينخرطوا في الجيش وهم باحسن عدة وعتاد ، والاختلاف الى محكمة الملك ، ومساعدته بكل قوام ، على تأمين اسباب الراحة واستتباب الامن في البلاد . اما الصغار من بين اصحاب الاملاك ، فكان عليهم ان يضموا انفسهم تحت كنف اتباع الملك انفسهم . وهكذا ، فالطبقة العليا في هذا المجتمع الحر رأت نفسها مندججة كل الاندماج ، في نظام مترابط من الولاة المسلسل ، والمواثيق المقطوعة للتابع ولتابع التابع ، حتى تصل الى شخص الملك .

وقد جاء هذا النظام مجدياً فعلاً ، ثابتاً ارتكز عليه كل بنية الدولة وكيانها ، بعد ان مكنتت تقاليد التبعية والولاة في نفوس الذوم ، وانتظم الأخذ بها عرفاً ونصاً . ومدة الاستعداد المحددت بكل دقة ووضوح ، فالريفان مرتبطان الواحد بالآخر مدى الحياة ، الا ان يتجاوز السيد واجباته بمجاوزاً يخرج بعيداً عن الصدد ، واقطاع التابع أخاذة يستغلها ويستثمرها ما دامت قائمة رابطة الملاء ، هو ما يميز ، اكثر فاكثراً ، العمل بنظام التبعية . وهذه المنافع تعود على التابع ، تأتي ثمناً لولائه وخضوعه ، ولذا استثمرها مدى الحياة . اما اذا أُخلّ بواجباته وحنث بقسمه ، كان من حق سيد الارض ان يستخلصها منه وان يقطعها عنه . وهكذا فالكترم الملكي يبقى مشروطاً ، واحتمال المصادرة يبقى اكبر وسائل الضغط والتأثير . اما طبيعة التبعية نفسها ، وطبيعة واجباتها ، فتبقى غامضة ، مبهمه . غير ان الملك يتوقع ان يقوم رجاله بواجباتهم بكل اخلاص ، وان يأتوا بالدليل على تعاونهم تعاوناً نيراً ، في حالتي الحرب والسلم على السواء .

وبعد ان أخضع الكارولنجيون ، بواسطة نظام عسكري شددت من متانتها ومداه روابط الدم ، وامتنته روابط التبعية والمواكلة ، بعض عشرات من الأسر والبيوتات الشريفة المسيطرة على الثروة العقارية في البلاد ، اخذوا يحاولون ادخال بعض التحسينات على النظم الادارية التي توارثوها من الميروفنجيين . فبعثوا طلبوا من الكونتية ان ينظموا اعمالهم الادارية ويضبطوها ويحكموا قيدها ، وان ينشئوا لهم دوائر خاصة لحفظ الوثائق والمحفوظات . وقد راحوا هم انفسهم يضمون مذكرات وملكرات تبورت ، في آخر الامر عن هذه القوانين التي جاءت تضبط الأوامر الشفوية الصادرة التي كانوا يستنونها في ربيع كل سنة ، امام الجيش المتشد والمتهاب للانقضاض . وحاولوا ان يتشددوا في مراقبة عملائهم الاقليميين . وفي سنة ٧٨٩ ، تلمس الوثائق التاريخية ، لأول مرة ، الى نشاط مغتشرين متجولين يسمونهم : *Missi Domitici* ، لم تلبث صلاحياتهم ان اتضحت ، شيئاً فشيئاً واتسمت . فقد كان موفدو الملك ، في مطلع القرن التاسع ، يمجوبون ، في فرق مختلفة ، تضم الواحدة منها دوماً : اسقفاً وكوفتاً ، وعدداً من

الإيالات يتراوح عددها بين ٦ - ١٠ ليس للبلاط فيها أي ممثل . وقد انتظمت هذه الدورات ، وأصبح القيام بها فرضاً لازماً أربع مرات في السنة . فبعد ان يتزود موفدو المملك بالتعليمات اللازمة وينصرفوا للنظر في امر تنفيذ أوامر الامبراطور وكيفية تطبيقها ، يشرفون على اوضاع الامن في ربوع البلاد . كذلك كان عليهم ان يجمعوا شكاوى الرجال الاحرار ، اذا كان لهم الجرأة على الاعراب عنها ، وان يصلحوا ما ساء او اختلط امره من شؤون ادارة الكونت في الإيالة التي عهد اليه بادارتها .

واذ تبين للكارولنجيين بأن هذا التفطيش لم يفد دوماً بالغرض وليس بالتالي كافياً ، فقد راحوا يحدون كثيراً من حرية تصرف الكونتية ، لاسيما في ما لهم من صلاحيات تحوّلهم النظر في امور العدل وشؤون القضاء ، في أثر توسيع صلاحيات محاكم البلاد ، عندما انشئ في قلب كل إيالة ، هيئة من القضاة المسلمين المعروفين بـ *Echevins* ، غير قابلين العزل والرفق ، يجري اصطفاؤهم وانتخابهم من قبل المفتشين . وقد كلفوا حضور الجلسات الاحتفالية العامة لمحكمة البلاط وكان على الكونت ان يأخذ رأيهم بعين الاعتبار والاحترام .

ثم ان امتداد سلطة الملك وسلطانه الى مناطق شاسعة ، جعل من المهم انشاء حلقات اضافية متوسطة ، بين البلاط والكونتية ، اتسمت بالاحكام . والى جانب الولايات والايالات الفرنجية امثال نوستريا وواسترازيا وبورغونيا ، هنالك مناطق اخرى في الامبراطورية كايطاليا والاكويتين والبايفار ، اصبحت ممالك لها استقلالها الاداري ، بينها الولايات الواقعة تماماً على الحدود : في الشرق ، بالجماء شعوب الدانمارك والصقالبة والآثار ، وفي الغرب ، على حدود بريطانيا ، وفي الجنوب في هذه المناطق التي استخلصوها من سيطرة العرب المسلمين ، فقد انشئت فيها ادارة عسكرية خاصة هي دائماً في حالة تأهب للحرب ، تحت ادارة قائد عسكري مباشر ، يراقب ، عن كثب ، أعمال الكونتية ويخضعهم لاوامره . وهذه الاعفاءات التي اعطيت لعدد كبير من المؤسسات الدينية ، في عهد الدولة الميروفنجية ، جرى توسيعها . فمنذ القرن التاسع ، اخذنا نرى أملاك الاساقفة ، ورؤساء الاديار خارجة عن سلطة الكونتية ، ومداخلات معاونيهم ، وبذلك أصبح صاحب المركز الديني ، في نظر الرجال الاحرار ، القاطنين على املاك هذه العقارات ، الممثل الوحيد للسلطة الملكية . فهو الذي يقودهم للجيش ، والذي يقتص من مخالفتهم ، ويقدم للحاكم الملكية ، المجرمين الذين اقترفوا جرائم كبرى . وهكذا اخذ الاحبار ورؤساء الاديار يمارسون ، بالنظر لما يتمتعون به من نزاهة ، ومن ولاء للبلاط ، جانباً من الادارة الحكومية في قسم كبير من المملكة . وهكذا نرى ان الميزة الاخيرة التي اتصفت بها النظم والمؤسسات السياسية ، في عهد الدولة الكارولنجية انما كانت الاتحاد الوثيق بين السلطة الملكية والكنيسة .

وبالفعل ، فقد ارتدت السلطة الملكية ، خلال القرن الثامن ، في كل من مملكة الفرنج وبيزنطية والعالم الاسلامي ، صبغة دينية ظاهرة ، أدخلت تغييراً عميقاً على طبيعة السلطة .

ومفهومها . فقد جاء ذلك نتيجة منطقية لحفلة التكريس . فبعد ان يكون الملك مختاراً من الله ، ليمثله على الارض ، اصبح من حقه ان يمارس شيئاً من الكهنوت وواجباته . فلم يعد حاكماً مطلقاً . فقد ترتبت عليه مسؤوليات ، وتحمل واجبات جديدة نحو شعبه ورعيته ، عليه ان يسهر على الكنيسة وان يدافع عن الضعفاء والمساكين وان ينشر على الارض العدل والسلام ، وهما اهم ما يراود خواطر مستشاري الملك من رجال الدين والكنيسة . فاذا ما تحددت سلطته على مثل هذا النحو ، كان لزاماً على رعاياه ، ان يتعاونوا معه وان يبذلوا أقصى ما بيدهم ، لتأمين السلام وتوطيد اركانه . وهكذا تبدو الفكرة الذهنية ، المجردة ، للدولة ، هذه الفكرة التي غامت ككثيراً في عهد الدولة الميروفنجية ، وتتلور على هذا الشكل الشؤون المسيحية العامة لتختلط بشؤون الشعب الذي اصطبغ بالعباد والذي تؤلف الكنيسة فيه ، قوامه الادبي والديني والعنصر الضابط له . قد يشك المرء في ان تكون هذه الفكرة الذهنية لهيكل الدولة السياسي قد وجدت لها صدى قوياً في خواطر الاستقراطية العلمانية ، في عهد شارلمان . فليس بالقليل النافل ان تسمي هذه الفكرة ، التي ظهرت واطلقت علينا في هذا العهد ، الاطار الاساسي لكل النظم الملكية التي عرفتها الاجيال الوسطى . هنالك مراسم او تدابير خاصة ، ليتورجية الطابع ، رآها شارلمان خليفة بان توسط حكمه وتشيد سيادته ، تتمثل في هذا القسم او اليمين المغلظة يؤديها صاحبها ويده على بعض المقدسات . فقد بعث الى الوجود تقليد قديم تنوسي امره ، وذلك عندما اوجب ، عام ٧٨٩ ، على كل رعاياه ، ان يقسموا بالآتي شيئاً إذا ، يسمي الى الملك او يضر به ، ثم فرض ، عام ٨٠٢ ، الالتزام والتقييد فملاً ، بواجباتهم الدينية من حيث تناول الاسرار ، والتعهد بالامتناع عن كل مخالفة للشرائع الكنسية والمدنية ، والعمل على ما فيه مرضاة الله وخدمته . وتحت طائلة تقسيم يؤدونه وايديهم على الانجيل او على ذخائر القديسين ، يضعون بوجه نفوسهم وقواهم تحت تصرف الامبراطور ، اصبح المجتمع في مملكة الفرنج مرتبطاً بالملك ، الملزم ، بحسب التكريس الذي تم له ، بتوجيه شعبه وقيادته الى الخلاص . وهكذا فالشاعر الدينية ، كوونت عضداً ادبياً قوياً شد من أزر القوى المادية العظيمة التي تمت للدولة الكارولنجية .

ومع ذلك ، فهذا التنظيم السياسي للدولة يبقى ، لمعري ، واهناً لمسا هو عليه من طابع بدائي . وبين ٧٨٠ و ٨٣٠ أخضع اصحاب الملكيات الواسعة لشيء من الانضباط والانتظام ، وهو تدبير ضروري لم يكن بدءاً منه ، فلاقى نجاحاً مدهشاً ، اذا ما نظرنا اليه من خلال الاوضاع الاقتصادية والاجتمعية غير الملائمة جداً ، فاصبحت مملكة الفرنج ، اذ ذاك ، اشبه نبيء بمملكة يرفرف فوقها النظام وتنعم بالسلام الداخلي ، مدة نصف قرن ، وهي نمرة بقي ذكرها طويلاً في اذهان الناس وخواطرهم ، وهكذا ، اتاح بمثل السلطة واعادة النظام في البلاد للحياة الدينية وللثقافة ان تحققا الكثير من التطور والازدهار .

الرواد الأوائل لهذه النهضة ، هم المرسلون الانكلوسكسون الذين نشروا الكنيسة الكارولنجية لواء المسيحية فوق ربوع جرمانيا ، بعد ان شدت من ازهم ، سدنة القصر في اوسترازا وجعلوهم يفكرون بان التعاون بين الكنيسة المتجددة بالاصلاح من شأنه ان يوطد سلطتها . وبطلب صادر عن بابن القصير القامة واخيه كارولمان ، قام القديس بونيفاسيو باصلاح شامل عم الكنيسة الفرنجية وتناولها من جميع نواحيها ، وذلك وفقاً للمبادئ والمناهج التي وضعت خلال الهامع الاقليمية الثلاثة المقودة تباعاً ، عام ٧٤٢ و ٧٤٤ ، في اوسترازا ونوستريا وقد تابع عملية الاصلاح هذه ونهض باسبابها ، ملك الفرنج الذي أصبح ، عقب تكريسه ، شخصية كهنوتية الى جانب كونه حليفاً للبابا ، لبصبح ، عام ٨٠٠ ، الامبراطور ، اي رائد المسيحية ومرشدها . وقد تم في مطلع القرن التاسع ، اصلاح كل النظم والمؤسسات الكنسية وتنقيتها من الشوائب اللاصقة بها . وهكذا برزت كنيسة الاجيال الوسطى .

لهذه الكنيسة قانونيتها المميزة . ففي أواخر عهد الدولة الميروفنجية ، كانت قام في شمالي غاليا ، العديد من الأديار التي ، عانت الامرين من الفوضى الضاربة أطنابها ، اذ ذلك ، ومن مداخلات العلمانيين ، واختلاف نهج الحياة الرهبانية لدى الكثير من هذه الرهبانيات التي لم يحافظ عليها اصحابها ، وتوزيع شارل مارتيل جانبا كبيرا من املاك هذه الاديار ، على اتباعه ورعاياه . ومع ذلك فقد كانت هذه الاديار أسلم وأتقى هذه المؤسسات على الاطلاق ، فقد كاد اهتمام القديس بونيفاسيو بها لا يذكر . ولم يتمكن قط من حمل جميع الرهبان على اتباع قانون بندكتوس وفرائضه ، هذا القانون الذي كان على احسن ما يكون تطبيقاً وعملاً به ، في الاديار الجرمانية ، الحديثة النشأة ، ومنها انتقل ، على النمط ذاته ، الى أديار اوسترازا . وفي هذه الاديار ازدهرت الحياة الرهبانية وفقاً للزعات والمناهج الانكلوسكسونية ، اذ لم يكن رؤساء هذه الاديار مجرد مديرين قابضين بين رهبانياتهم ، كما ارادهم ان يكونوا القديس بندكتوس ، بل رسلاً ومبشرين ، النشاط ملء وفاضهم ، يقومون بأعمال الكرازة بالانجيل ، تحت اشراف روما مباشرة . ولم يلبث البحث والدرس ان رجعت كفته في هذه الاديار على كفة الاشغال اليدوية .

وقد حرص كل من بابن وشارلمان على ابقاء هذه الاديار ، في حالة جيدة وعلى مستوى عالٍ ، محاولين مع ذلك استخدامها لسياساتهم الخاصة . فقد استمروا يُنعمون ببعض الاملاك المأخوذة من عقارات الاديار ، ويقطعون بعض انصارهم وخذلهم من العلمانيين الذين ينعمون بالقسب رهبانية ، اطيب املاك الاديار وأجودها . الا انهم حرصوا على ان تنال الاملاك الباقية بين ايدي الرهبان ، احسن عناية وأتمها . وبالفعل فقد تمتعت الجماعات الرهبانية ، في عهدهم ، بجميع اسباب اليسر والراحة . وفي هذا الوقت بالذات برزت الدعوات التي انصرف اصحابها للعلم والدرس ، اذ ان الاشد بالنظام العقاري على النهج المعمول به اذ ذلك ، والسير بأمسلاك الاديار على الطريقة العقارية التي وزعت بموجبها الامسلاك ، حرر الكثيرين من الرهبان من

الانصراف للاموال اليدوية التي يتطلبها تأمين أرواح الحياة . وقد نظر الملوك الى رؤساء هذه الاديار نظرتهم الى موظفي الادارة ومأموري الحكومة ، فراحوا يصطفونهم ويتخيرونهم من نفس الوسط او مستوى الطبقة الاجتماعية التي يختارون منها الكونتية ، او من بين اولاد النبلاء الذين 'نشثوا في البلاط الملكي ، وعهدوا الى هذه النخبة وهم عادة من الشباب الذي يزخر بالنشاط ، بمهات ادارية وسياسية دقيقة . فقد كانت الكنيسة ، بين ٧٥٠ - ٨١٤ ملاذاً لثقافة ، وموئل العلم والفكر ، والبوتقة الاولى التي صاغت وافرغت النهضة الفكرية والغنية التي اخذت تظهر اذ ذاك ، كما كانت بلا منازع ، الاداة المثل والعنصر الفعال ، والعامل الاقوى في تحت الحضارة الفرنجية وافراغها وفقاً للقالب الاقتصادي الذي تحكم بالوضع الاجتماعي ، في هذه الحقبة ، وبذلك كانت الكنيسة السند الاقوى والدعامة الكبرى في هذا الانبعث الذي انطلق في العهد السكارولنجي .

في عهد لويس الورع ، وقع حادث هام يمكن رده لتأثير رئيس احد الاديار هو بندكتوس انيان الاكوييتيني الذي ناقث نفسه للأخذ بتفسير جديد اكثر صرامة ، للفرائض الرهبانية البندكتية . فقد اقلع الامبراطور من جهة ، عن الاغتراف من اموال الاديار واملاكهم ، وهب علانية عدداً منها ، حق انتخاب رؤسائها بكل حرية ، كما ان القانون الذي صدر عام ٨١٧ ، اوجب العمل بفرائض القديس بندكتوس بعد ان اجري فيها تعديلات مهمة ، اذ ابطل الاخذ بالنظرية الانكلوسكسونية للحياة الرهبانية المفتوحة التي تتوزع بين الدرس والتبشير ، واحل محلها نزعات ، تنسجم ، اكثر فاكثر ، مع الحياة الرهبانية المشتركة التي 'عمل بها في دنيا البحر المتوسط ، والتي تتميز بالشدد في عزلة الرهبان ، والاقلال من الدروس ، والاكثار من التمارين الليتورجية . ومنذ ذلك الحين ، اخذ عمل الاديار التبشيري بالتضاؤل شيئاً فشيئاً ، واخذت الاسقفية تلعب في الكنيسة الدور الاول في هذا المضمار .

كانت الرتبة الاسقفية قد بلغ منها الانحطاط كل مبلغ ، في مطلع القرن الثامن ، مع انها لها المهل الاول والدور الابرز في التنظيم الكنسي . وقد كان اصلاح هذه الرتبة ، الشغل الشاغل للقديس بونيفاسيو الذي اولى جمل اهتمامه اصلاح الناحية المادية للكنائس القائمة في كراسي الابرشيات ، واملاء الكراسي الشاغرة منها باساقفة اكفاء ، واقصاء من كان غير اهل منهم وقطمهم عن شراكة الكنيسة ، وتنظيم الجامعات الكنسية . وقد كان هذا اصلاح عملية شاقة ، بطيئة ، ولم ينته منها الا في عهد الامبراطور شارلمان . فكان الاسقف ، اذ ذاك ، يجري اختياره من بين كهنة البلاط او من بين رؤساء الاديار المتقدمين في السن ، شريطة ان يكونوا من اصحاب الكفاءات ، مشهوداً لهم بالفضل والثقة ، اذ كان الامر يتعلق بتنصيب اسقف راعياً روحياً لمنطقة يقوم مركزه في قاعدة هي على الاجمال ، مدينة رومانية الاصل ، يتولى هو نفسه تدبير الكهنة رعاة الكنائس ، ويتولى امر تربيتهم وتوجيههم في امور الدين ، ومراسم الطقوس الكنسية والمباعدة ، في مدارس خاصة تقوم على مقربة من المقر الاسقفي ، ويشرف

على مملك المؤمنين وتصرفهم ، ويساعد على القيام بواجباتهم الدينية والمدنية على احسن وجه ، وبذلك يهدون السبيل امام الكونت والملك ، لاستتباب الامن والسلام في البلاد ، واشاعة العدل بين الناس وخضع الاساقفة انفسهم لمراقبة شديدة من قبل موقدي الملك ومفتشيه ، وكنوا عرضة للقطع والفصل من مناصبهم ، من قبل مجمع كنسي يجتمع بتوجيه الملك او تحت رئاسته ، كما ان مجالس الاكليروس العامة كانت تزودهم بإرشادات وتعليمات عليهم بالتقيد بها ، وتدرج اهم قراراتها في القوانين الرسمية . فالاساقفة ومصف المطارنة هم اجهزة ضرورية في دولة تتداخل فيها الامور الروحية والزمنية بصورة لا يمكن انفصالها .. وتمكيناً للاساقفة القيام بخدمة امثل ، واحياءً للتقاليد المعمول بها في الكنيسة ، راح الامبراطور شارلمان في مطلع القرن التاسع ، يعطي انعامات مميزة للمتقدمين من الاساقفة او المتروبوليت الموكل اليهم امر الاشراف على الاساقفة التابعين لهم ، والذين اصبحوا يُعمرّقون ، كما في الكنيسة الانكلوسكسونية ، برؤساء اساقفة . وهكذا بعد ان تم على مثل هذا النحو ، اصلاح الاسقفية ، وتفتيتها من الادران والشواذب التي تسربت اليها ، وبعد ان اُمدّت بالأطر والملاكات اللازمة ، احتل المصف الاسقفي ، في الامبراطورية الكارولنجية ، بعد عام ٨١٤ ، محلا بارزاً ، ورأى نفسه مدعوأ ، كما جاء على لسان يرنان الاورلياني ، في كتابه : « حول النظام الملكي » ، ليس فقط لقيادة الرهبان وتوجيههم ، فحسب ، بل ايضاً العلمانيين والرهبان على السواء ، وعلى السير احسن مما تستطيعه السلطة الملكية الآخذة بالتقهقر ، بجماعة المسيحيين الى معارج الفضيلة والكمال المسيحي .

وهذا الاصلاح الذي تناول الرتبة الاسقفية والمصف الاسقفي ، ادّى ، من جهة ثانية ، الى تقوية الاجهزة والمؤسسات الكنسية والعلمانية السفلى . فقد اخذ الكهنة ، في المدن يعيشون عيشاً مشتركاً ، تحت اشراف ورئاسة المقدم بين الكهنة ، وفقاً للفرائض والقوانين التي سنّها الاسقف كروودغانغ ، مطران مدينة متز ، في منتصف القرن الثامن ، للفيف الكهنة الذين يخدمون في الكاتدرائية الاسقفية . اما الريف ، فقد اخذ بتنظيم كنائسه على اساس راعويات ، وذلك منذ عهد الدولة الميروفنجية . فقد بقي امر خدّام هذه الكنائس الريفية مرتبطاً الى حد بعيد ، بكبير الملاكين ، ولي الكنيسة الاول ، لا سيما وهم على الغالب ، في جهل مدقع لمساهم عليه من تربية سطحية للغاية ، تزداد المخدراً وسوء معاشرتهم اتاساً مخشوشنين ، اجلافاً . ومع ذلك فالتطور جاء عظيماً ، اذ اتاح لهذه المجتمعات الريفية ، المنزلة في هذه المقاطعات المسيحية ، ان تذوب تدريجياً وتندمج معها ، بحيث اصبح تحت تصرف اكثر الجماعات الريفية خشونة ، كاهن يعني بخدمتهم الروحية .

وهكذا بفضل الجهود المشتركة التي بذلها كل من البابا وملك فرنسا ، أمكن توحيد الاعراف الكنسية ومناهج الانضباط بين رجال الكنيسة . فقد تلقى شارلمان من روما ، عام ٧٧٤ ، المجموعة القانونية المسماة *Hudriuna* التي لم تلبث ان اصبحت القانون الذي تمتث عليه كنيسة

الفرنج ، كما تلقى على التوالي ، فيما بعد ، نصوصاً لـ «الليثورجية طقسية منها» (الليثورجية الفرنيورية) التي أحلت الليثورجية الرومانية محل العادات والطقوس الغالية المتباينة

وهذا الإصلاح الكنسي الذي مكّن من تحقيقه ، إعادة السلطة الملكية وتقويتها كان بحق ، النقطة الأساسية التي انطلقت منها نهضة ثقافية وحركة تجديدية تناولت الآداب والاخلاق . وبفضل هذا الإصلاح للاخلاق والآداب الذي تم بفعل ما كان لرجال الاكليريوس من تأثير فعال ، أصبح العلمانيون أسلس قيادة ، واكل خشونة في طباعهم . يجب ألا يذهب المرء للظن ان الناس ، في هذا العصر ، كانوا يسرون بهدي التعاليم الانجيلية بكل دقة . فقد كانت الامور الدينية خارج الأديار ، على جانب كبير من البساطة والسذاجة ، لا يتعرج الناس فيها كثيراً ، ولا يتورعون في ركوب المركب الحشن . الا انه هنالك تطور ملحوظ يبدو بوضوح في الاسرة الملكية . فنذ عهد بابين ، لم يعد القتل السياسي القاعدة المطردة للوصول الى الحكم ، كما ان عادة التسري اخذت في الانتساح من الازهان ، كما ان الاولاد السفاح اصبحوا من الندرة بمكان ، كما انصرف الامبراطور لويس الورع الى اصلاح البلاط منذ ان اعتلى العرش ، وحرص على استئصال الموبقات والمنكرات . وهكذا اخذت الامة الفرنجية تتخلص تدريجياً مما علق بها من شوائب الهمجية .

هنالك ، كذلك ، بعث ثقافي وفكري ، انما على نطاق أضيق واشماع اخف ، ازدهار الآداب افاد منه قلّة من رجال الكنيسة ، وبضعة آلاف من الرهبان وبضع مئات من رجال الدين العلمانيين . ففي نظر رواد هذه النهضة والناهضين بأمرها ، كالقديس بونيفاسيو ومساعديه الاقربين ، فالحياة الدينية يجب ان تسير جنباً الى جنب مع الدرس والبحث والتعلم ، الامر الذي حمل المبشرين على تأسيس مدرسة في كل دير أنشأوه ، في جميع اطراف اوسترازيا . وهكذا جاء اصلاح الديني للكنيسة في الغرب مقروناً ، منذ البدء ، ببعث الحياة الفكرية والثقافية . وهذه الثقافة هي دينية بجمّة تهدف ، في النهاية ، الى خدمة الله والى انتهاج نهج قويم في الحياة ، قواعدها الكبرى : الديارات الرهبانية والكاتدرائيات المتوزعة بين شعب مخشوشن الطباع ، بلبد الذهن ، متبلّد الفهم . وهي كذلك ثقافة لاتينية الطابع ، لغوية في جوهرها ، لم يكن الفرض منها سوى تبسيط فهم نصوص الكتب المقدسة ، كما نقلها الينا مترجمة ابرونيموس ، ومؤلفات آباء الكنيسة في الغرب ، عن طريق دراسة الادب الكلاسيكي اللاتيني . وهي الى هذا كله ، ثقافة من وحي الطقوس الليثورجية ، ساعدت الاماديح والناشيد الفنية الرائعة التي أبدعتها على تحلية وتزويق الكتب التقوية والكنسية والكتاب المقدس .

انطلقت هذه الحركة الاصلاحية من بين المرسلين الانكلوسكسون ، ولم تلبث ان اتجهت الاتجاه السديد في السنوات الاخيرة من القرن الثامن ، عندما وضعت الفتوحات الكارولنجية ، الولايات الفرنجية ، وجهاً لوجه مع البلدان الجنوبية ، حيث كان التراث اللاتيني الروماني اقل اندثاراً ومخطاطاً مما صار اليه امره في البلدان الاخرى ، وعندما اخذ شارلمان نفسه يهتم برفع المستوى

الثقافي بين رجال الاكليروس ، في شمالي غاليا . وفي هذا السبيل ادخل المعامل الفرنجي في بطائنه ، وألحق بمحاشره ، فريقين من اهل الفكر والادب من الاغراب ، أتى بهم من بلاط المباردين ، امثال بطرس البيزي ، وبولين الاكيلي ، والشماس بولس ، كما استقدم بعضهم ، من بين الاسبانيين ، امثال ثيودولف الذي سيم ، فيما بعد ، اسقفاً على مدينة اورليان ، ومن بين الانكليز : الكوينس احد مدرسي مدرسة يورك ، بعد ان اجتمع به اتفاقاً ، في ايطاليا ، واستقدمه الى بلاطه عام ٧٨٢ . وقد كان هؤلاء المثقفون عوناً له وعضداً قوياً اذ كلفهم اعداد الأطر والملاكات اللازمة لتعليم منهجي يعطى بانتظام في مدارس الكنائس الاسقفية ، والديارات الرهبانية او في مدرسة البلاط ، يرادها رجال الاكليروس من أبناء النبلاء وسراة القوم اذ اعتاد الامباطور ان يختار من بينهم ، اساقفة الكنيسة وأخبارها . وقد وضع الكوينس بنوع خاص برنامجاً نموذجياً للدرس آمن ذبوعه وانتشاره في سلاسل من كتب النصوص التي هيأها وأخرجها للناس ، وهو نهج جاء عن طريق مرتيانوس كابيلا ، امتداداً للنهج الذي كان عليه المعول في الادب الكلاسيكي القديم . ويتألف البرنامج المذكور من حلقتين متميزتين ، تُعرف الاولى باسم *Trivium* وتشمل التعليم الاساسي الذي يضم ثلاثة فروع: الصرف والنحو ، مع شروح وتفسير للنصوص الكتابية لتيسير فهم اللغة اللاتينية ، والخطابة او فن الانشاء ، والجدال او فن المنطق . اما الثانية فيعرف باسم *Quadrivium* ، وهو يهدف عن طريق تعلم الحساب والموسيقى و « الهندسة » اي الجغرافية الى تزويد الطالب بدورة موسوعية من المعلومات حول الطبيعة والعالم .

سارت هذه الحركة الهويانية في البدء ، فجاءت نتائجها متواضعة ، اذ لم يكن لدى المفكرين والكتاب المعاصرين لشارلمان ، ومعظمهم اغراب ، باستثناء الراهب سان ريكيهس المجلبرت ، رغبة في وضع مؤلفات اصيلة ، بل كان جل رغبتهم ان يخذوا ، ما استطاعوا ، النماذج والقواعد التي بلغت اليهم من التاريخ القديم . وقد تصرف ، هؤلاء الاساتذة ، تصرف طلاب متواضعين ، ليس لهم من هاجس سوى طلب العلم والسمي اليه . فاهمهم عندهم وضع الادوات والاجهزة الموصلة للعلم ، واعادة النقاء والاصالة اللغوية الى النصوص المسيحية ، وتنقيح نص الكتاب المقدس . وفي هذا السبيل ، وتوفيراً لنصوص واضحة ، مؤثقة ، وتيسيراً لعدد اكبر من النسخ ، طلع علينا طراز جديد من الخط يعرف عندهم بالكاروليني الصغير ، وهو حرف اعتمده على نطاق واسع ، دار النسخ (*Scriptorium*) التي أنشئت في مدينة تورس . وهكذا لم يتجاوزوا كثيراً الدرجة الابتدائية من الحلقة الاولى *Trivium* ، أي درس الصرف والنحو على أساس من الشروح والتعليق التي وضعها دوناتس ، وبريسيانوس . وقد امكن بعد هذا الجهد الطيب ، وبعد عدة قرون من الهمجية والبربرية ربط ما انقطع ، ووصل من انقصم من امور اللاتينية الكلاسيكية ، اذ بفضل ما تحلى به النساخ من الرهبان ، من صبر جميل واحترام لهذه النصوص ، امكن انقاذ القسم الاوفى من تراث روما الادبي والفكري . وهكذا اصبحت اللغة اللاتينية ،

في غالبا ، المنزل التي بلغت اليها في البلاد الانكلوسكسونية : لغة علم وانضباط ودقة ، تتميز جيداً عن اللهجات الشعبية المحكية ، وتسمو فوقها بكثير . ومن الحوادث الاساسية البارزة التي ادت اليها هذه المرحلة الاولى من الانبعاث الكارولنجي ، هو ان اللهجات الرومانية التجهت كل منها ، في اتجاه مفرّد . وهكذا أصبحت البلاد المسيحية ثنائية اللغة ، مزدوجتها .

وهكذا فيض للجيل الذي تخرج على هذه المناهج واخذ ينتج في الحقبة التي عقت وفاة شارلمان ، ان يضي قدماً في مضمار التقدم والرقى . فالحركة الاصلاحية التي قام بها بندكتوس الانبالي الذي خشي من انصراف الرهبان نحو الادب العلماني وانقطاعهم اليه وراح ينقص من الساعات المخصصة للدرس ، في الاديار ، تؤلف دليلاً آخر على الاتساع الذي بلغته حركة البعث الادبي ، بحسب اضافته الى الدليل الآخر القائم في هذه المقاومة التي لقيتها هذه الحركة الاصلاحية ، في الاوساط الكنسية الاكثر تطوراً . فقد جاء يقوياً من هذا التيار فريق من المثقفين الاجانب معظمهم ارلنديون ، هذه المرة ، فرّوا من وجه الغزو السكندينيافي الذي تعرضت له بلادهم ، بينهم سيدوليبوس سكوط ، وجون أريمينا الذي كان على اتصال مباشر بالفكر الفلسفي ، وهو اول فيلسوف لنبغ ، خلال الاجيال الوسطى ، في الغرب تميز بالجوودة والإصالة ، مع ان معظم رجال الفكر اللامين ، في القرن التاسع م من الفرنج . وقد اعرقت ثقافتهم ورسخت ، واتسعت مداركهم ورحبت منها الجنبات تشهد على ذلك رسائل لوديه فاريار . فاذا كانت البعض منهم امثال رابان مورسار على خطى الكويلس ووضع لجيله كتب نصوص للمدارس ، كما وضع نصب عينيه تثقيف الرهبان ورجال الاكليروس ، فالسواد الاعظم بينهم حاول ان يشق طريقه بوضع آثار شخصية تتميز بالاصالة ، رامياً منها الى اربعة اغراض رئيسية . اولها اغناء الليتورجيا والطقوس الكنسية عن طريق وضع اناشيد وتراتيل دينية تأتي مغسجمة مع الروح الموسيقية التي تجددت بعد ان روعي فيها التناغم المسلسل على أساس من الرموز الجديدة . والثاني هو النظر في المؤسسات والنظم السياسية المعمول بها ، اذ قام أحبار واساقفة عرفوا بقوة عارضتهم ومقدرتهم على الجدل والمناقشة ، أمثال اغوبارده ليون وجوناس الاورلياني يحاولان التنسيب والتكييف وتأمين الانسجام بين المجتمع العلماني والمجتمع المسيحي . والثالث هو التاريخ الذي يمثله ، في هذه الحقبة أذجنهارد ، وأرمولد الاسود المعروف ايضاً باسم نيشارد ، اذ في علم التاريخ تتبع ، واقتفاء أثر سير الشعب المسيحي نحو الهدف الذي وضعه نصب عينيه . واخيراً اللاهوت ، وهو الغاية القصوى لكل ثقافة دينية تحاول مع بسكاسيوس رديوتوس ، المتوفى ٨٥٦ ، احكام لاهوتي الفرنج في القرن التاسع ، وغوتسالك ده فولدا تقريب فهم قضايا الايمان الكبرى . صحيح انه يجب الانغلو كثيراً في تقدير هذه الآثار الادبية التي يتغلها ويرزحها كثرة الاستشهادات ، والتي كثيراً ما لتفتقر الى بساطة العفوية والبداهة ، وتبقى تعليمية بحتة ، الا ان ما فيها من زخم وقوة ، يكون برادر اليقظة الفكرية ، في الغرب .

نهضة الفنون كما في الادب والفكر ، كذلك نهضة في الفن ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاصلاح الذي تناول الوضع السياسي والحياة الدينية . وقد جاء هذا الاصلاح اسبق من غيره مما رافقه من وجوه الاصلاح الاخرى ، واكثر اصاله ، وأقل اتكالا وتمويلا على الماضي ، اذ لم يمد الفنانون كالادباء ، مثلاً ، منهمكين باحتذاء النماذج الكلاسيكية ، فتنزى انجازاتهم الفنية ، بنوازع وتيارات فنية بدت طوالها منذ اوآخر القرن السابع ، بين نهري اللوار والرين ، في هذه المنطقة بالذات التي تم فيها التقاء التقاليد القديمة مع العنصر البربري الجديد ، فتمازجا بعضاً ببعض .

وقد تجلّت قدرة الفنانين والرسامين الغالين الفنية ، في هذه الانشاءات الهندسية التي تمت خلال عهد شارلمان ، ممثلة خير تمثيل ، في كنيسة جرميني التي شيدت وجرى تزينها وفقاً للاساليب والمناهج القومية المرعية الاجراء . واذا كان ملك الفرنج الذي بنى كنيسة البلاط في مدينة اكس ، وارادها دليلاً على ان قوته هي من طبيعة قوة اباطرة بيزنطية ، فالمهندس أويد ده متر ، هو أيضاً من مقاطعة اوسترازايا .

فالمعهد الخصب بالانجازات ، هو ، هنا كما في مجال الادب والفكر ، المعهد الذي جاء بمسد عام ٨١٤ ، فالكنائس والمباني الاخرى التي ترجع الى زمن لويس الورع ولوثير ، امثال كاتدرائية ريمس القديمة ، وبزيليكسا سان جرمين دو كسير ، تحوي هندستها المعمارية ، ما يتم جيداً على التجديدات التي جاءت تعبيراً عن حاجات الليتورجيا الجديدة والتي تمهد السبيل مباشرة ، للهندسة الرومانية . ان انتشار عادة تكريم دخائر القديسين ادى الى الحاق البزيليكسا من الطراز القديم ، والتي نرى منها وجهاً في كل من الشرق والغرب ، ببيان جديدة لاستعمال الزوار والهجاج ، اذ يقوم الى الامام ، حنيّة بشكل مفارقة حيث نرى جدّ القديس في صحن من صحن الكنيسة ، يملوه معبد بشكل محدّب ، وفي الداخل اروقة ، قليلة الارتفاع يعلوها منصات ، وكنيسة فرعية يعلوها برج من كل جانب . والشيء الجدير بالملاحظات هنا ، هو هذا التغيير الاساسي الفاصل ، اذ نرى الانشاءات الفرعية ، الضخمة تحمل فيها الاعمدة المتخذة من الحجارة ، محل الاعمدة الرخامية التي ساروا على استعمالها في البزيليكات ، كما حل الخشب محل العقود .

وهذا الفن الكارولنجي يبلغ ذروته في تزويق الكتب والمخطوطات والتوشيات البديعة التي وُشّيت بها انواع الجلود المستعملة لتغليف الكتب ، وهو ازدهار يكاد يكون مفاجئاً ، لم يوطيء له العهد الميروفنجي السابق ، بشيء ، اذ ان زركشة الانجيل المعروف بالانجيل غودسكال تمت قبل قدوم العلماء الاجانب الى بلاط شارلمان . وتجديد الليتورجيا لم يكن بمبدأ عن هذه الانشاءات بعد ان جرى تبني الليتورجيا الرومانية وتجديد نسخ الكتب المقدسة ، كل ذلك تسبب عن إنشاء مدارس خاصة لتعليق المخطوطات وزركشتها بالعاج ، كمدسة سان دنيس وتورس ، ومتر ، وهوتفلر ، وكوربي ، واكس لاشابيل ، وقد اطلعت هذه الورش او المعامل

الفنية كبار الفنانين الذين بعد ان استوحوا الصور والرسوم البشرية المرسومة على الافاريز ، كما هي الحال في مفسارة او كسير ، والنقوش الظاهرة على بعض الاقمشة المستوردة من الشرق ، وحفر المصنوعات الحديدية في منطقة الموزيل ، طلعت علينا بروائع فنية ، كتوراة كنيسة القديس بولس خارج الاسوار ، وكتاب القديس المعروف بكتاب دروغون، ومزامير اوترخت، او توراة شارل الأصل .

رحدة الحضارة في الغرب
هذا هو الوضع الذي بدت عليه الحضارة في الغرب ، بين ٧٨٠ - ٨٣٠ ، في هذه البلدان الواقعة بين نهري اللوار والرين ، وهو وضع اخذت تتأخر به وتتفاعل معه جميع اجزاء الامبراطورية الكارولنجية . واذ كانت هذه الامبراطورية تتجه ، مشبعة الى حد بعيد ، بالعوامل والمؤثرات الدينية ، وكان جميع الذين يقومون بالتوجيه الروحي فيها من رجال الدين ، فليس من عجب ان تتجه افكارهم ، في الدرجة الاولى ، اتجاهاً مسيحياً وان يروا ، كما رأى اغوبارد الليوني ، بان كل النزعات الخاصة يجب ان تنصّب وتتسكب في وحدة شاملة . ولما كانت الولايات التي تشع منها هذه الحضارة هي محور هذه الدولة التي تغطي رقعتها الجغرافية جميع ارجاء الغرب تقريباً ، وملك الفرنج هو المالك للقسم الاكبر من العقارات الواقعة الى الشمال من غالبا ، ورأس الطبقة الارستوقراطية في كل من اوسترازيا ولوستريا ، فقد اصبح الامبراطور الروماني ، والرائد المشارك للبابا ، ولجميع المؤمنين بالسيد المسيح . وقد مهد لانتشار هذه الحضارة الكارولنجية ، العلاقات التي شددت الفكر ورجال الدين بعضاً الى بعض ، شداً محكماً عن طريق الزيارات والرسائل التي يتبادلونها فيما بينهم ، والكتب التي يتعاورونها ، كما ربطت بينها هذه الاجتماعات الدورية التي تعقدتها الارستوقراطية الملمانية بمناسبة الحملات والسرايا العسكرية، والاصل الواحد المشترك الذي يجمع بين مختلف القائمين باعمال الادارة : من اساقفة ورهبان وكونتية ، الذين ، بالرغم من توزيعهم في جميع أنحاء الامبراطورية ، يمدون تقريباً للأسرة الكبيرة الواحدة ، اذ قضوا معاً في البلاط الواحد ، حدائة واحدة مشتركة . صحيح ان الامبراطورية ليست الغرب كله او بكامله ، وانه لا يزال في بعض الاقاليم ، لتقاليد ونزعات محلية قومية . ولهذا لم يكن الاشعاع الحضاري في هذه المدينة الكارولنجية ، على نسبة واحدة ، وبمعدل واحد في جميع أنحاء هذه المناطق على السواء .

عرفت الاقطار الواقعة عبر نهر الرين ، من نهر الإلب حتى جبال الألب ، كيف تنصهر في بوتقة واحدة . فقد قام الكارولنجيون بتحضير جرمانيا في الوقت الذي كانت تجري فيه حروب الفتح ليخضعوا هذه الاقطار لنفوذهم . فبتعيينهم الكونتية في هذه المقاطعات ، وبانشاء الولايات العسكرية على الحدود ، أولتوا ، من حيث يدرون او لا يدرون ، الاقوام المتأرجعة في تحالفها اتجاهاً المرسوم وأطرها السياسية . ان دمج هذه الولايات في صلب المملكة الفرنجية ساعد كثيراً على تشجيع النشاط التجاري على اختلاف وجوهه ، وعلى تمهيد السبل لظهور التجمعات

المدينة الكبرى . ولم يلبث النظام العقاري ان عم الريف وانتشر فيه ، دون ان يبلغ ، مع ذلك ، من التوسع والامتداد ، ما بلغه في القسم الشمالي من غاليا ، اذ بقيت الملكية الصغيرة الحرة معمولاً بها بكثرة ، ورائجة كل الرواج في الولايات الدائرية : في الفريز ، وسكسونيا والمقاطعات الألبية الاخرى . وقد قام المبشرون بنشر الدين والثقافة معاً ، بعد ان أقاموا لها مراكز اشماع واحدة تتمثل ، خير تمثيل ، في هذه الديارات البندكتية ، امثال دير راينخو ، وسان غال وفولدا ، وكو في (كوربي الجديدة) . ولما كان من الواجب لهذه الثقافة اللاتينية ان يتلقفها رهبان ورجال الاكليروس من اصل جرمني ، فقد ساعدت ، عن طريق المعاجم التي أدت الى وضعها وتصنيفها ، الى تثبيت بعض اللهجات الالمانية القومية . وهذه الثقافة التي تغلقت في محيط لا يخشى ان يزاحمها فيه منافس او مزاحم لغوي يفسد عليها نقاء الاصل والمصدر ، لم تأت الحضارة الكارولنجية ، في أي مكان ، بانقى منها في المانيا ، وقبض لها ان تستمر في تطورها الصاعد مدة اطول لم يتم مثلها لأي منطقة اخرى .

وعلى عكس ذلك ، فقد اصطدمت العوامل والمؤثرات الفرنجية ، في الاقاليم الواقعة الى الجنوب من مدينة تورس وشالون على الصون ، وجبال الألب ، بتقاليد وطنية متأصلة في نفوس اصحابها ، لا تلين ولا تقي ، في قليل او كثير . فالجنوب من غاليا كان يؤلف محيطاً شديداً التماسك والتضام ، صعب النفاذ اليه : فلا النظام العقاري المعمول به على نطاق واسع في غير هذه المقاطعات ، ولا أعرف التسمية وتقاليدهما تأصلت فيها او أعقرت في ارضها . فالنظم والمظاهر الثقافية المعمول بها في هذه الاقاليم عانت كثيراً ، وأصابها المزيد من الاذى ، خلال هذه الحملات والغزوات العسكرية التي تعرضت لها تلك الاقطار خلال النصف الاول من القرن الثامن ، والمقاومة العنيفة التي قام بها السكان هناك ، حالت دون تجدها عن طريق المؤثرات الفرنجية المتسربة اليها من الشمال . وهكذا نرى مقاطعتي الاكويتين وبروفانس تؤلفان ، في عهد شارلمان ولويس الورع ، فراغاً في خريطة الغرب الثقافية ، في هذا العصر . وعلى عكس ذلك ، فبقايا الحضارة القديمة في ايطاليا اللباردية وفي المقاطعات النابضة للكرسي الرسولي ، دب اليها النشاط وقاضت بالحياة عندما نعمت بالأمن والسلام الكارولنجي ، والحركة التجارية مع الشرق شقت لها مسالك جديدة عبر شبه الجزيرة الايطالية ، بعد ان تعطلت او تمهلت الاتصالات والمقايضات التجارية في البحر التيريني ، فعادت هذه الحركة بالنشاط على التقاليد المدنية ، وعادت الحياة تزخر من جديد في هذه المدن العريقة ، ولا سيما تلك التي وقمت منها في سهل البو ، امثال ميلانو ، وكومارشيو ، وفراره . وقامت في نفس هذه المدن ثقافة لم تنقطع وشائجها بالثقافة الهيلينية لانها بمنجى عن السيطرة الكنسية . امسا في الفن فتعود الصور والاشكال الرومانية للظهور بشيء من الجمود ، تحت تأثير العوامل البيزنطية ، سواء في محفورات المعاج اللباردية الاصل أو في الصفائح الذهبية التي تغطي كنيسة القديس امبروسوس في ميلانو ، أو في الفسيفساء الرومانية الموجودة في كنيسة القديسة براكسيدس ، أو في تماثيل سيفيدالده فريرول

المختوعة من اللك. وولاية اسبانيا العسكرية هي في الوضع ذاته: فالروح العسكرية الفرنجية قليلة الاثر في هذه المقاطعة التي يأهلها لاجئون من الفيزيغوط ، وهي نقطة عبور ومركز تجاري كثير الاتصال بالعالم الاسلامي .

وهناك اخيراً ، بعض المقاطعات في العالم المسيحي اللاتيني التي لا تخضع للإمبراطورية ، كالممالك الصغيرة التي قامت الى الشمال من اسبانيا او في الجزر البريطانية ، اذ لم تحصل النهضة الكارولنجية من اثر على مملكة أستوريا حيث سيطر التبادل بالنظام النقدي الفرنجي ، وحيث اخذت تدريس الآداب اللاتينية يزدهر وفقاً للمناهج ذاتها ، وحيث راجت بعض نماذج الهندسة المعمارية المعمول بها في الشمال . اما الجزر فبقيت في شبه عزلة . فانكلترا وحدها لما حساب ، اذ ان المقاطعات الكلتية الاخرى التي دّب اليها الاضطراب منذ عهد بعيد ، أي منذ ان تعرضت ، في اواخر القرن الثامن ، لغزوات السكندينافيين ، هي في حالة تضعضع كلي . ومع ان البلدان الانكلوسكسونية لم تقع مباشرة تحت تأثير نفوذ الدولة الكارولنجية الا في ما يتصل بنظامها النقدي ، فالفرق يكاد لا يذكر ، في الوضع الحضاري ، بين الطرفين الواحد والاخر من المانش . فقد اخذت حضارة الغارة ، من انكلترا ، بعض العناصر والمؤثرات الاساسية ، من بينها النظم الكنسية والتعليمية ، فاذا كانت الخطوات التي قطعتها النهضة الفكرية في الدولة الفرنجية اقل بروزاً من العنصر الذي استمدته من ثقافة الجزيرة البريطانية ، فالمدسة الاسقفية في يورك ، لا تقل شأناً ، حتى بعد ان غادرها الكويلس ، عما لمدارس غالبا الشمالية من سطوع وتألق ، ولا شك في انه تمّ في خلال القرن الثامن ، وضع الرائدة الشعرية باللهجة القومية ، المعروفة باسم *Beowulf* . ومن جهة اخرى ، فكلا الطرفين ، مشبعان بالتقاليد الجرمانية الواحدة . ومع ان النظام القضائي المعمول به في المجتمع الانكلوسكسوني ، والنظام الآخر الجاري الاخذ به ، في بلدان الفرنج ، يمتان عن كثير من مواطن القرين وفيها الكثير من الوشائج الوثني ، فالاول هو ، مع ذلك ، اكثر تحرراً لان روابط التبعية فيه ليست من التأسك والترابط في نظاما ما هي عليه في الثانية ، واطواع الأطر التي يتم فيها استثمار الملكية العقارية ليست محكمة الحلقات . فانكلترا افادت كثيراً ، كما افادت غالباً الشمالية ، من ازدياد النشاط في حركة المبادلات والمعايضات التجارية . فتجارها يصدّرون المسوجات الصوفية للاقطار المجاورة لبحر الشمال ، ويبيعون من التجار المسلمين القصدير والمبيسد . كذلك افادت انكلترا ، بين القرنين السابع والتاسع ، من الناحية الادبية ، اذ ان ملكها « أوفتا » تعامل مع شارلمان ، كالند للنسد . وهكذا كانت حضارة الغرب المسيحي ، حوالي عام ٨٠٠ ، لأول مرة منذ انطلاق موجات الغزوات الجرمانية الكبرى ، ذات تأثير بيني ، ومتجانسة كل التجانس ، بالرغم من الفوارق المحلية العارضة .

ومنذ الربع الثاني من القرن التاسع ، اصيبت هذه الوحدة ،
انقسام الامبراطورية الكارولنجية
وهذا الزخم الذي جاشت به المدنية الكارولنجية بصدمتين
هيفتين ، متلازمتين الواحدة مع الاخرى : من جهة : انحطاط الملكية الكارولنجية التي كانت

الركن الركين لهذا البيان السياسي الذي قام في الغرب، ومن جهة أخرى، الغزوات التي تعرضت لها هذه المملكة في وقت واحد من الجنوب والشمال والشرق .

ففي عهد بايين وشارلمان ، وتحت تأثير الانصهار التدريجي للسلطات الروحية والزمنية ، دخل على النظام الملكي الفرنجي عاملان متضادان : الاول عامل بدائي قديم ، يقوم على مبدأ عسكري ، اساسه العنف والحرب والسلب ، وبفضل هذا العامل ، امكن السيطرة على ارستوقراطية الفرنج . اما الثاني فمبدأ ديني اصلاً ، وعنصر جديد رأى ان يقيم السلطة ويُعيد سيادتها على مراسم وانظمة طقسية ، ليتورجية ، اساسها مراسم التكريس الرسمي والقسم الاحتفالي تصبح معها مسؤولية الملك الاولى والحكوى ، المحافظة على السلام وتأمين المصالحة بين الناس ، وتؤمن له مناصرة النخبة الممتازة من رجال الفكر واهل الرأي والثقافة بين رجال الكنيسة . وهذا التوازن الذي قام واستمر ردها من الدهر ، كان واهي الاساس اصلاً ، فلم يتم ان اختل واضطرب . فمذ ان تولى لويس الورع مقاليد الحكم ، افضى تطور النهضة الادبية والفكرية الى المزيد من نفوذ رجال الكنيسة ، فراحوا يُقنئونهون الامبراطور بالتزام حدود واجباته في المحافظة على السلام ، والسهر على اشاعة العدل بين الناس

وهكذا بدا الامبراطور ديمياً ، مسالماً ، وانقطع عن ترأس الحملات والتجريدات العسكرية وقيادتها الى ما وراء الحدود . ومضى المبشرون في دعوتهم للمسيحية والتبشير بتعاليمها ، يحاولون اقناع رؤساء القبائل الوثنية باهتناقهم الدين الجديد . وكان من جراء هذا الموقف والوضع الموصوفين ان فوتت على الملك فرص النهب والسلب التي كانت تتيح لها الغزوات والحملات العسكرية ، اي ان ذلك حرمه من الوسيلة الوحيدة التي كانت تمكثه من بسط عوارفه ، والجلود بانعاماته على رعاياه ، دون ان يمس هذا الكرم والسخاء بشيء ثروته العقارية . ولذا لم تلبث ثروة الكارولنجيين العقارية الضخمة ان ذابت وتطايرت بدداً .

وحاول الملك ان يبرز للناس ، متصفاً بالعدل والعدالة ، وان يتم واجباته بكل دقة ويقوم بالمسؤوليات التي تولاهها في حفلة التكريس الرسمية ، وهذه الواجبات التي فرضتها عليه روابط التبعية التي تشده الى النبلاء . والحال ان حفلة التكريس ، وهذه التسمية ، اللتان زادتا كثيراً من نفوذ الملك الكارولنجي الاول ، ورفعت عالياً من شأنه ، وزادته مهابة ووقاراً ، اخفتا ضمناً ، تحديداً ضيقاً لسلطة الملك .

فحفلة التكريس الرسمية التي كانت تتم بحضور رجال الاكايروس الاعلى ، وتحت اشرافهم ونفوذهم ، لم تلبث ان صاحبها وعد رسمي يقطعه الممسوح باسم الرب ، على نفسه ، بان يضع حدوداً لسلطته وسيادته . فمذ عام ٨٤٣ ، راح الامبراطور شارل الاصلى ، يتمد في كولن ، وهو بحضور كبار رجال الدين والدنيا في مملكته ، ويقسم مغلظاً ، انه سيتصرف وفقاً « بانتضيات المعقل والعدالة » ، وان يهطي لكل واحد : « منها كانت الطبقة التي ينتمي اليها ،

لا يتوقع اي ضررٍ او أذى من سيده . وهكذا ، فالملك كان يتردد في استرجاع الامتيازات والالقب الشرفية التي كان يُنمى بها على رعاياه ، عندما تحين وفاتهم ، او ان يعاقب ، بالمصادرة لهذه الانعامات ، من رعاياه يتهاون او يقبل بما يلطخ هذا الشرف او يشينه . وهكذا كان الملك يفوت عليه فرصة تجديد الموظفين كلما سنحت له ، من وقت الى آخر ، وان يزيدم شعوراً بقيمة الولاء له عن طريق اعطائهم درساً في قصاص مثالي يكون عبوة لمعتبر . وهكذا فالرابطة التي قامت على الولاء اخذت تتحلل شيئاً فشيئاً ، ولم تعد لتؤدي ما يرجى لها من خدمات ومنافع . وهكذا بدا في الثلث الثاني من القرن التاسع ، ان نظام التبعية الذي أحكم وضعه رؤساء الدولة الكارولنجية الأول ، بات اعجز من ان يتيح ، إخضاع عظماء هذه الدولة لسليطان ملك مزدد ، كثير الوسوس والهواجس وهو لم يعد عندهم ، بقائد حرب يقود جيئشه للنصر ، ولا بالواهب الجواد الذي يوزع عوارفه ، وأعطياته بسخاء . اما في اوساط الطبقات الاجتماعية السفلى التي لم تتأثر بعيداً بهذه الافكار والنظريات الكنسية ، فقد عرف هذا النظام ان يبقي محكمة ، الروابط التي شددت ممثلي الأسر الارستوقراطية الدنيا الى رؤساء الأسر الاستوقراطية العليا . وعلى هذا الاساس تألفت تدريجياً ، هيأت سياسية صغيرة ، جاشت نفسها بالنزوع للمزيد من الاستقلال ، التي ، بالرغم مما تم لها من شأن محدود ، وجدت نفسها اكثر اعتماداً للانسجام مع البليان الاقتصادي الذي لم يترك مجالاً واسعاً للعلاقات ، من بعد ، ومع البنيان الاجتماعي الذي كان يؤمن السيطرة والسيادة لكبار الملاكين من اصحاب العقارات الشاسعة . فالسلطة الملكية ، رأت نفسها مشغولة ، لا تبدي ولا تميد ، امام الاعتبارات الادبية المشدودة اليها ، وامام مشاركة المصنف الاسفني ومراتبته ، فاخذت بالانقسام على نفسها تتوازعها اجزاء مملكة الفرنج ، وتتجاذب اطرافها وصلاحياتها ، كل لنفسه .

والذي عجل في هذا الانقسام ، الاختلافات التي مزقت الاسرة الكارولنجية ، عندما رأى لويس الورع ، بعد ان طعن في السن وشاخ ، نفسه تتنازعها الرغبة في الحفاظ على وحدة الامبراطورية والميل الى الاخذ بالتقاليد العائلية القديمة التي كانت توحى بان يوزع امبراطوريته على اولاده بالتساوي . نجم عن هذا الوضع عراك عنيف بين الامبراطور الوالد واولاده ، زاده احتداماً آراء رجال الاكليروس الذين أفتوا بضرورة المحافظة على سلامة الامبراطورية . ثم اشتدت عنفاً بعد موت الاب ، بين الاخوة المتنافسين . وقصد راح كل من هؤلاء ينثر الوعود ويُغدق الأعطيات ، جذباً منه للانصار من ابناء الارستوقراطية ، الذين راحوا بدورهم يديعون ولاءهم بالمزاد ، يرسو على من يدفع أعلى الاثمان واسماها ، بما زادهم ثروة وغنى . واخيراً تم انقسام اوربا الغربية فترزعت الى ممالك متباينة ، وذلك وفقاً لمعاهدة فردان ، المعقودة عام ٨٤٣ ، اما الحدود الفاصلة بين هذه الممالك فخطوط الطول ، بحيث دخل في هذه الممالك واحدة من هذه الدول التي احترم شارلمان استقلالها ، الا وهي الاكويتين ، وبافاريا وايطاليا ، يضاف اليها جزء متساوي من الولايات التي تألفت منها مملكة الفرنج . وهكذا أطلقت علينا مملكة فرنسا

أو فرانكيا ، في الغرب ، وقفت حدودها الشرقية عند نهر الاسكو والموز والصون وجبال
السيفين ؛ ومملكة فرنج الشرق الواقعة ما وراء الرين وجبال الألب ، ودولة ثالثة تتوسطها
امتدت من البحر الشمالي الى ايطاليا في الجنوب ، فضمت المدينتين الامبراطوريتين : روما
واكس لاشابيل ، وهي الحصة التي عادت للامبراطور ، هذه الرتبة المشرفية التي لم تكن تؤمن لحاملها
سوى صدارة اسمية لا غير . أما المملكة الشرقية حيث النظم والمؤسسات الملكية كانت احدث
عهداً ، وأعلق في النفوس ، فقد عرفت السلطة الملكية فيها ان تحافظ ، لمسدة اطول ، على
تمامها ، مع انه اخذت تبرز فيها أكثر فأكثر ، نزعات اقليمية هي تعبير عن نوازع الشعوب
الجرمانية الدفينة . ومقابل ذلك ، رأينا المملكة الوسطى تتناثر اشلاؤها الغربية حيث اخذ
يمثلو السلطة الملكية المهليون ، من مركز وودوق ، الذين كانوا يتولون . إيالات حربية كبيرة ،
ينظرون اليها كأنها اقطاعات عائلية ، دون ان يقطعوا أو ان يصرموا ، على المكشوف ،
روابط التبعية المتخلخة التي كانت تشدهم الى الملك ، فاستطاعوا ان يتحرروا ، بسرعة ، من
كل وصاية أو ولاية ، وان ينشئوا لهم امارات وراثية . وقد راح بعضهم ، بمعد ان اصبح
التكريس ، وليس الدم ، هو الذي يولي الشرعية ، يفتنمون وضع الانحطاط الطبيعي الذي آل
اليه حةفدة احفاد شارلمان ، وانتزعوا منهم ، بالفورة ، الرتبة الملكية عن طريق انتزاعهم من
قبل طبقة الاشراف في الامارة .

ولم يخل ' اقتسام الامبراطورية وقاترها ، كما رأينا ، من أثر سيء على وحدة الكنيسة نفسها .
فقد حاول رؤساء الاساقفة ، في الغرب ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع ، ناهجين في ذلك
نهج المركزية ، بسط سيطرتهم على المطارنة الذين تحت ولايتهم ، كما حاولوا التحرر او التخفيف من
مراقبة الكرسي الرسولي واشرافه ، كما فعل مثلاً ، هنكار ، رئيس أساقفة ريمس (٨٤٥-٨٨٢)
وقد رد الكرسي الرسولي ، بالطبع ، على هذه المحاولة ، متذرعاً بمجموعة من القوانين ، تعرف
في التاريخ باسم *Fuissess Décretules* ، مع انه لم يشك احد في صحتها . وقد اغتم البابا نيقولاوس
الاول فقدان هبة الامبراطور ، وراح يدعي الأولوية الادبية لخليفة القديس بطرس ، ويعلم
بالتالي ، انه القائد الوحيد لجماعة المسيحيين ، كما ادعى لنفسه الحق بحاكمة الملوك والجزم قطعاً
بقضايهم . ولكن هذا الخبر الروماني ، رئيس دولة صغيرة عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، واسقف
روما ، هو ابدأ عرضة لاضطرابات تثيرها في وجهه الارستوقراطية الرومانية والشعب في روما ،
وهو بأشد الحاجة لحماية فعالة من قبل الامبراطور . وهكذا في مطلع القرن العاشر ، والامبراطورية
ليست بعد ، سوى لقب هزيل يتنافس على حمله عظماء سهول لمبرديا ، رأى الكرسي الرسولي نفسه
ينحدر الى أدنى دركات الانحطاط ، دون ان يفقد ، مع ذلك ، سلطته الروحية تماماً ، على
الكنيسة في الغرب .

وهكذا ، في الوقت الذي لم تستطع فيه مملكة مرسيا الاحتفاظ بسيادتها في انكلترا ، جعل

التصدع الذي أصيبت به الذئولة الكارولنجية في القرن التاسع ، اوروبا كلها هدفًا لاطماع الغزاة
يحاولون نهشها وقضمها من جميع الجهات .

العرب والنورمنديون والمجر
تعرضت المسيحية في الغرب ، للهجوم من كل الجهات : فقد
هاجها المسلمون في الجنوب ، فاستطاعت جيوش الفرنج ، في
القرن الثامن ان تصد هجوم العرب وان تحملهم على التراجع والتكوص على أعقابهم الى ما وراء
جبال البرانس . فقد كانت الولاية الواقعة على الحدود الاسبانية ، وهي ولاية عسكرية ، في
الاساس ، درعاً قوياً تولى أمر الدفاع عنها اسرة من القادة العسكريين الاشداء ، وقفت سدأ
منيعاً ضد توسع العرب والمسلمين ، من هذه الناحية . غير ان البحر كان حراً والبلاد الواقعة على
سيفه مكشوفة . فمن اسبانيا الى المغرب ، استطاع قراصنة المسلمين ان يمتلوا الجزر الواقعة الى
الغرب من البحر الابيض المتوسط ، كجزر البليار وكورسكا منذ عام ٨٠٦ ، ثم صقلية التي تم
فتحها تدريجياً بين ٨٢٧ - ٩٠٢ ومن هذه الفتوحات المتقدمة اخذوا يرسلون سراياهم لغزو السواحل
البحرية الواقعة تحت سيطرة المسيحيين ، بقصد السلب والنهب . وهكذا تعرضت لغزواتهم
المتعاقبة مدينة نيس (٨١٠) ومرسيليا (٨٣٨) ، وآرل (٨٤٢) وروما نفسها (٨٤٦) ،
كما ان مقاطعات بويل وكبانيا تعرضتا مراراً لهذه المغازي . وفي السنوات الاخيرة من القرن
التاسع ، أنشأ فريتيق من المسلمين ، في جبال المورس ، الى الجنوب من الالب ، قاعدة لهم ، لمحصروا
فيها ، واخذوا يتسللون منها الى كل جهات الالب ، قاطعين بذلك طرق المواصلات ، بين غاليا
وايطاليا ، فارضين الرسوم الباهظة على التجار ووفود الهجاج ، مدة ثلاثة اجيال .

ومن البحر ايضاً جاء الغزاة يطرقون ابواب غاليا من الشمال ويهزونها بعنف . فالقبائل
الجرمانية المستوطنة حول الاقطار السكنديناافية ، كالنرويج والدانمارك ، كانت بلغت شأواً
بعيداً بفن الملاحة ، واستطاعت ، خلال القرنين السابع والثامن ، ان تحسن كثيراً من بناء السفن
التي تستعملها ، وهي ، على الغالب ، قوارب لا ظهر لها ، متوسطة الحجم ، تسع الواحدة منها
من ٤٠ الى ١٠٠ رجل ، يمكن استخدامها في الملاحة النهرية وبحاري الانهر الخفيفة المياه . ويفضل
ما كان عليه هذا الجيل من تقدم فني وجراة واقسدام ، راح هؤلاء الاقوام الذين اصططح الغرب
على تسميتهم باسم النورمان او النورمنديين (أي رجال الشمال) يهاجمون الامبراطورية مدفوعين
الى ذلك بهوامل عديدة . من ذلك مثلاً ، الضغط الذي تعرضت له البلدان المسيحية ، وازدياد
السكان في سكنديناافيا ، الامر الذي حدا بهم للبحث عن موارد جديدة للعيش . وقد انطلق
النرويجيون افواجاً صغيرة ، يبحثون لهم عن اراض جديدة يعمرونها . وهكذا لم يلبثوا ان
احتلوا ، دون ان يحدث احتلالهم أي ذوي او صدى له في الخارج ، جزر شتلاند وجزر الاوركايدي
وارخبيل هيريدس ، وراحوا ، منذ عام ٨٣٤ يمارلون ، من سواحل لانكشير ، الاستيلاء على
ارلندا واستباحتها ، بينما استطاعوا ، في أواخر القرن التاسع ، ان يمتلوا اسكتلاندا نفسها .
اما قبائل الدانمارك فقامت بسلسلة من الغزوات الجريئة اشتركت بهسا فرق أكبر واوفر عدداً

يتولى قيادتها زعماء من الشعب .

وهذا الايغال يتم هذه المرة ليس على ايدي مزارعين او صيادين، بل على ايدي تجار قراصنة، تعاطوا ، منذ عهد بعيد ، الاتجار مع التجار المسيحيين في البحر الشمالي، وهم يعرفون جيداً ما عليه سكان مناطق المتاخمة ، من غنى وازدهار ، في شمالي غاليا او في المقاطعات الانكلوسكسونية فكلماً أنسوا وجود حامية بوليسية تحافظ على الامن ، في المرافئ التي كانوا يأتونها ، اقتصرت معاملتهم على تأمين الربح الحلال من المقايضات التجارية ، التي يقومون بها . الا انهم عندما كانوا يأنسون مكنناً للضعف او مقاومة خفيفة ، كانوا يتخلون عن التجارة فيقبضون بالقوة والبطش ، على ما في الموانئ التي يؤمونها ، والمدن التي يهبطونها ، من ثروة ومتاع ، ويأخذون السكان عبيداً وارقاء ، ويستولون على ما تقع عليه ايديهم من مال وقضة ، ويروغلون في داخل البلاد بحثاً عن مغنم جديدة . فقد اقتصرت غزواتهم ، في بادئ الامر ، على سواحل الفريز ، منذ عام ٨١٠ ، وسواحل انكلترا والمنطقة الواقعة عند مصب نهر السين ، ثم تحولوا من المانش ، فنهبوا نوارموتيه ، عام ٨٢٠ ، وسواحل النافار ، عام ٨٥٩ ، واخيراً داروا حول شبه الجزيرة الابييرية ، فدخلوا البحر المتوسط ، واذا لم يبق شيء في المناطق الساحلية توغلوا في الداخل على متن سفنهم ، ثم زام يتخلون عنها ويتحولون فرساناً . وليس ما يمثل تغلغلهم مثل قصة جلاء رهبان دين سان فيلبرت ، الذين غادروا ديرهم في نوارموتيه ، قبل عام ٨١٩ ، وراحوا يبحثون عبثاً لهم عن ملاذ يلجأون اليه ، الى ان استقر بهم المطاف في بلدة تورنوس ، على نهر الصون ، عام ٨٧٥ . ومنذ منتصف القرن التاسع اخذت هذه الفرق الدانياركية تستقر في المناطق التي يغزونها ويستبيحونها ويلشثون فيها مستعمرات لهم بعد ان استخدموها قواعد مؤقتة يقضون فيها فصل الشتاء . وهكذا ، فقد انشئت دولة سكنديناافية شملت القسم الشمالي الشرقي من انكلترا، قامت حول يورك . وفي سنة ٩١١، انتزع النورمنديين ، من ملك فرنسا ، الاعتراف رسمياً باحتلالهم المنطقة الواقعة عند مصب نهر السين واقامتهم فيها نهائياً ، فعرفت باسمهم « نورمنديا » .

وبعد ان استتبعت اوربا ونهبت على مثل هذا النحو ، تعرضت ، في النصف الاول من القرن العاشر ، لغزو جديد ، قام به فرسان جاووا من بوادي آسيا ، هم الهنغار يوت أو الهجر . فقد كان استقر بهم المطاف في سهول باونيا . ومن هناك ، قاموا ، قبل عام ٩٠٦ ، بغزوات خاطفة ، بقصد النهب ، باتجاه المانيا الجنوبية ، ومنها يعموا شطر اللورين وكبسارديا ووادي الرون ، وبلغوا مقاطعة بورغونيا ، ومقاطعة برني ، عام ٩٣٥ ، وروما عام ٩٣٧ ، والأكويتين ، عام ٩٥١ ، وهكذا لم تسلم اية مقاطعة في الغرب من ويلات الغزو .

يدهبش المرء عندما يفكر بهذا النجاح البعيد تصيبه غزوات القرصنة نتائج الغزوات الجديدة والنهب والسلب . فالمسيحية اللاتينية لم تكن معبأة لحرب دفاعية . فقد قاد ملوكها حتى الآن ، هم انفسهم ، حملات دائرية ، وجيش الفرنج الذي كان بطيئاً في تحركاته

للحشد والتجميع ، كان مكيفاً لمثل هذه التجريدات العسكرية توجه ضد عدد معين يمكن تحديد موعد الهجوم عليه مسبقاً ، قبل المباشرة بالهجوم بكثير ، وكان دفاعه يرتكز على سلسلة من الحصون ، القلاع تقوم فيها حاميات بمدد واف تستطيع ، كما هي الحال في كتلونيا ومصب نهر الإلب ، الدفاع عن حدود الامبراطورية ضد عدو طارىء يهاجم بوسائل واساليب شبيهة كل الشبه ، بالاساليب والوسائل التي كانت تحت تصرفه . الا ان هذه الترتيبات والتجهيزات برهنت عن عجز تام في مواجهتها غزوات طارئة ، غير متوقعة ، تتجه ، بالاحرى ، ضد السواحل البحرية التي اهلل تحصينها لعدم توقع الهجوم عليها ، أضف الى ذلك عنصر المفاجأة ، وتأثير الفشل الذي لحق بالمداغمين في الاصطدامات الاولى ، فاثارت فيهم عقدة نفسية وشعوراً بالمعجز فت من عضدهم وزادهم ضعفاً واهاناً . لهذه الاسباب مجتمعة ، وقعت اوروبا ، خلال قرن كامل ، فريسة سهلة المنال ، وتآلب عليها من الولايات والذل والهوان ما كان له التأثير السيء في المناطق الواقعة الى الغرب حيث كانت الحدود البحرية مكشوفة في كل من الجزر البريطانية ومملكة الفرنج .

فقد ساعدت هذه الغزوات ، على هلهلة النظم وتفسخ المؤسسات الملكية وانتقصت كثيراً من هيبه الملوك وخفضت من شوكتهم ، بعد ان عجز الجيش عن ردّة غائلة هذه الغزوات ، فحاولوا ، منذ عام ٨٤٥ ، الحد من اعمال النهب ، في غالبا وانكلترا ، عن طريق شراء سلامة بمالكهم بتنظيم جباية خاصة ودفع غرامة سنوية للنورماندين ، وهو حل ليس فيه ما يشرفهم ، كما انه ينقر الشعب ولا يعطي نتائج يمكن الاطمئنان اليها . ومن جهة اخرى ، ات تفاقم اضطراب حبل الامن والشعور بعدم الاطمئنان اضطر الدولة لتوسيع نظام الولايات العسكرية (*Marches*) الى جميع اطراف المملكة والاكثر من القلاع والحصون ، وعلى توزيع الجيش الملكي على نقاط معينة للقيام باعمال السهر على الامن ، وان يتخلطوا عن المبادره في الاعمال العسكرية ، لممثلهم الاقليميين . وهكذا اعدّ الناس وتهبأت افكارهم لقبول فكرة توزيع سلطات القيادة .

وقد سببت هذه الغزوات خسائر مادية جسيمة للغاية . فقد نهب الغزاة اوروبا وسلبوها جانباً كبيراً مما لديها من مخزن المادان الكريمة . واذ لم يحدث فقدان الجواهرات المذخورة في الاديار ، تأثيراً مباشراً على تداول النقد ، بين الناس وعلى الحركة التجارية ، فالامر جساء على عكس ذلك من هذه الفديات والغرامات التي كانت تفرض بانتظام على الممالك والمقاطعات ، اذ حرمت البلاد من كميات كبيرة من العملات المسكوكة . وقد قاست الارياف على الاخص ، كثيراً من هذه الغزوات ، اذ ان سكان المدن كثيراً ما وجدوا لهم مأمناً وملاذاً ضمن الاسوار الحصينة التي ردت عنهم هجوماً مفاجئاً . وهذا التطور الديموغرافي الذي لوحظ في المقاطعات الواقعة الى الشمال من غالبا ، في مطلع القرن التاسع ، توقف فجأة وانقطع بفتة فاقفرت اجزاء البلاد الاكثر تعرضاً لهذه المخاطر ، من جراء ما تعرض له الاهلون من اعمال القتل والمذابح ، والحطوف

والإجلاء ، والفرار ، ونقص المواد الغذائية ، فعادت الأرض بوراً ليس من يعنى بها .

كذلك لحق بالتراث الأدبي والفكري الكثير من الأذى ، إذ إن الغزاة أخذوا يهاجمون على الأخص ، الديارات ، في أرنلندا وانكلترا وشمالى مملكة الفرنج ، للنهب والسلب والحراب ، بينما فر عدد كبير من الرهبان من الأديار الأخرى ، هرباً من الغضب المدام ، حاملين معهم ذخائر القديسين وما خف حمله من الحلى والمجوهرات والأواني الكريمة ، سعيّاً منهم وراء ملجأ يأمنون اليه ويطمئنون الى سكناه ، وقد استهدفوا ، بعد ان انقطعت اسباب العيش للصروف والظروف المريرة التي يخفيها الجلاء المفاجئ ، لمن غضتهم الأقدار بانساب حداد ، فتحلّلوا من فرانضهم الكهنوتية ، واستبيحت مكنباتهم ، وتفرقت محتوياتها من المخطوطات ايدي سبا ، واهملت الدروس ، وانقطعت كل عناية بها . وهكذا قضى على الحركة الفكرية التي كانت اتخذت تزدهر في عهد الدولة الكارولنجية مع ان هذه الحركة لم تتأثر كثيراً من جراء التقهقر الذي بدت بوادره مع المخطاط الدولة المذكورة . وقد انحدر المستوى الثقافى والحضارى بعد ان تغلغت في البلاد وانسرحت فيها عوامل البربرية والهمجية والثنية ، وعمت الفوضى التي يحملها معه البؤس والشقاء ، ومثول الخطر الماحق باستمرار .

صحيح انها رجعة او حركة الى الوراء ، انما حركة محدودة ، موقوتة . أما انها محدودة فلأن كل بلدان أوروبا الغربية لم تتضررّس بدرجة واحدة من الحراب والدمار ، الذي جرتة هذه الموجة من الغزوات على الناس ، كما انها كانت قصيرة المدى ومرت بسرعة باستثناء تلك التي تعرضت لها الجزر البريطانية ، وغاليا الشمالية ، ومقاطعة بروفانس ، فخللها فترات طويلة من الهدوء والسلام ، أمكن رتق الفتق واصلاح ما تعطل او اختل من شؤون الادارة والامن ، ولأنه قام ، في كل مكان تقريباً ، ملاجئ و غابات ومدن حصينة وأديار امكن تسويرها وتحصينها بسرعة ، حيث يمكن التخفي فيها والثوارى وراءها ، عند اول بادرة خطر ، ووضع أثن الأشياء بآمن من عبث الغزاة . وأما انها حركة موقوتة ، فلأن الغزوات توقفت ، وقد أليف الناس ، في الغرب ، شيئاً فشيئاً هذه الاساليب الحربية . فكلما ازدادات أعمال التحصينات حول الصروح والقصور ، قلت ، بالتالى المخاطر التي تنطوي عليها هذه الغزوات ، كما عادت على القائمى بها بكسب اقل . وفي الوقت ذاته ، وقمت في البلدان الاصلية التي خرجت منها هذه الغزوات ، تغييرات جذرية خففت من شوكتها وكسرت من حدتها . فالجهر الرُحّل استقروا نهائياً في سهول هنغاريا حيث انقطعوا للفلاحة والزراعة . والسلطة الملكية ، اشتد منها الساعد وقوي العَضُد في البلدان السكندينية : في النروج ، في اخريات القرن التاسع ، مع الملك هارالد هارفرغ ؛ وفي الدانمارك ، خلال القرن العاشر ، مع الملكين غورم و هارالد ذي السن الزرقاء . وهكذا خفّت وطأة الخطر الى ان توارى تماماً . وآخر مرة استهدفت بلاد الفرنج لخطر جليل ، كانت عندما تعرضت ، عام ٩٢٦ ، لغزو جيش لجنب من الدانماركيين ، والنصر الذي سجله ملك جرمانيا ، عام ٩٥٥ ، عند نهر الليخ ، فوضع حداً نهائياً لخطر الجمر . وعندما سقط ، عام

٩٧٢، المعقل الذي اتخذ منه المسلمون قاعدة لهم في جبال *Maures* من اعمال مقاطعة بروفانس، امكن تطهير منطقة جبال الألب من هؤلاء القراصنة الذين عاثوا فساداً في تلك المنطقة ، مدة طويلة . وهكذا انقضى عهد الغزوات دونما رجعة لتبقى انكلترا تعاني وحدها ، حتى منتصف القرن الحادي عشر ، ضغط قبائل النوروي ، بحيث اصبحت اوروبا البرية في مأمن من اي غزو اجنبي .

ومع هذا ، فالغزوات التي وقعت في القرنين التاسع والعاشر ، لم تحمل في ثناياها ، غير الخراب والدمار . فالاتصالات الجديدة التي ادت اليها ، ساعدت كثيراً على نشر المسيحية وتغلغلها بين هؤلاء الاقوام . هنالك عدد لا بأس به من الفيكنغ ، اقتبسوا مبادئ الديانة المسيحية ونقلوها معهم الى ارجاء سكندينايفيا حيث امتزجت بالعقائد الوثنية واختلطت بها . وهذه الفترة من « الايمان المختلط » مهدت السبيل نهائياً ، لارتداد هؤلاء الاقوام ، الى المسيحية ، بالجملة بعد ان لقوا تشجيعاً حاراً من قبل الملك هارالد ، ملك الدنمارك ، والملك « اولاف » ملك النرويج . وقد كان من اثر هذه الغزوات ان عادت بالنشاط على الحركة التجارية . فالانتقال من مجال القرصنة الى مجال التجارة حركة يكاد لا يشعر بها الانسان . والمخيمات الدائمة للغزاة النورمنديين ، كانت خلال فترة الحروب ، امكنة تقام فيها الاسواق التجارية والمعارض ، والحركة التجارية ، في البحر الشمالي ، التي اصبحت بشيء من التأخر ، خلال الهجومات الاولى العنيفة ، لم تلبث ان عادت سيرتها الاولى من النشاط . واخيراً وليس آخراً ، شهدت بعض المقاطعات استيطان الفيكنغ واستقرارهم نهائياً في ربوعها ، بشق الاشكال والاضلاع ، كصيادي اسماك ، وتجار متجولين بين ارلندا والسواحل البحرية الاخرى ، وبعض وحدات من الممرين الزراعيين في الشمال الشرقي من انكلترا ، وظهور ارستوقراطية عسكرية ، سيطرت على سكان البلاد الاصلين ، عند مصب نهر السين . وهذه المقاطعة « لورمنديا » لم تتم ان اصبحت من انشط المقاطعات التي عرفها الغرب ، تشهد الحركة الزاخرة التي قامت فيها ، على خصب القرية السكندينايفية .

وهكذا بعد ان توقف تطور المدينة في الغرب ، من جراء الاضطرابات وأعمال السلب التي رافقت هذه الغزوات ، لم تلبث الحضارة ان استأنفت سيرها وتبدأ عندما عاد الامن الى نصابه والسلام الى محرابه . صحيح انه لم تعد الى اوروبا وحدتها ، ولكنها احتفظت بخير ما خلفته العصر الكارولنجي . وهذه البذور الطيبة التي هبطت في الارض في العهد الذي احاط بشارلمان وحفّ به لم تلبث ان أتت طليماً شياً ، اختلف طعمه وتباين مذاقه باختلاف الاقطار المسيحية .

انكلترا الكسونية
قاست انكلترا من هذه الغزوات التي تحالفت عليها اهوالاً شداواً ،
مدة طويلة . فاديها التي كانت منائر أشعت على القسرة جماء ،
اصبحت خراباً يباباً . ومدينة يورك ، مسقط الكوبليس ، اشهر علماء زمانه ، اصبحت ، بين
٨٦٧ - ٩٥٤ عاصمة مملكة سكندينايفية وثنية . ومع ذلك ، فالحضارة الانكلوسكسونية

عرفت ان تجتاز المهنة التي نزلت بها ، بسلا ، ولم تلبث ان نهضت بعد ان استجمعت قواها وملتت من شعثها . فاتخذت من مملكة وسكس ، اكثر ممالك الجزيرة الى الغرب ، قاعدة لها ، وعرف ملكها ألفريد الكبير (٨٧١ - ٨٩٩) ان يقاوم ببناد ، الغزاة السكندنافيين وان يسترجع منهم قسماً من الارض التي كانوا اغتصبوها منه ، واستطاع ان يبقى تحت سيطرته وسلطانه كل الاراضي التي فتحها او استرجعها ، بحيث ألّفت كل المقاطعات الانكلوسكسونية مملكة واحدة . وحاول الملك ألفريد ان يعيد الى الثقافة رواها ، فاستقطب حوله في البلاط ، عدداً من العلماء الرهبان استفدهم من القارة ، ولا سيما من مدينة ريمس . ولما كان مقتنعاً بكل الاقتناع ان اسباب المعرفة يجب ان تنتشر بين طبقات المجتمع العلماني ، لم يقصر جهده فقط على نشر الآداب اللاتينية والكلسية . فوضع تحت اشرافه المباشر ترجمة الآثار الكلاسيكية الى اللهجة الشعبية ، من بينها كتاب غريغوريوس الكبير المعنون « *Cura Pastoralis* » او الرسالة الراءوية ، حيث نرى تحديداً واضحاً لمهمة الاسقفية واهدافها ، كما أشرف على ترجمة « التاريخ الكنسي » للطوباوي بيد ، ونقل مؤلفات « بويتوس » و« أروز » وكتاب *Soliloques* للقديس اوغسطينوس ، فساعدت هذه الترجمات والنقول على تقعيد اصول النثر الانكليزي وتوطيدها .

ففي الوقت الذي كان فيه خلفاء الملك ألفريد الكبير : كأدارد القديم و«أولستان» ، يواصلون الجهاد ضد غزاة الدانباركيين وتوصلوا الى تحرير القسم الشمالي الشرقي من انكلترا ، تماماً ، استمرت الثقافة ، في ازدهارها مستمينة على ذلك بالمؤسسات والهيئات الكنسية التي عادت اليها العافية واشذت تتجدد . وعلى نقض الحركة القديمة ، عولت حضارة الجزيرة ، هذه المرة ، على موازنة القارة لها ، وجلب دم جديد لها . به من المراكز الثقافية والحضارية الجرمانية المشبعة باخلص وانقى التقاليد الكارولنجية . فاصلاح الحياة الرهبانية الذي باشر به القديس « دولستان » ، في دير غلاستونبري ، في مقاطعة سمست ، جرى الاخذ به وفقاً للباديء والقواعد التي يسير عليها رهبان دير فلدري سير لوار ، وسان بيار الكبير « واينسيدان » ، يرضى هذه الحركة الاصلاحية كل من الاحبار « إيثالولد » من ونشستر ، واوزوالد من ورسستر ، الذي استفاد الى الدير حيث يعيش ، ليعهد اليه بالتعليم ، الراهب الفرنجي « ارون ده فلوري » . وقد انتهت هذه الحركة الاصلاحية باعلان ما يعرف : « الاتفاق القانوني للامة الانكليزية » ، وذلك في مجمع ونشستر ، الذي انعقد حوالي عام ٩٧٠ . وهذا الاصلاح للحياة الرهبانية في انكلترا ، ساعد كثيراً على ازدهار الحياة الفكرية والفنية فيها ، اذ كانت قاعدتها الأم كاتدرائية ونشستر التي كانت مركزاً ممتازاً للسخ المخطوطات وزخرفتها وتنميقها ، بعد ان استوسحت في عمها الفني هذا النادج الكارولنجية . وقد درج اذ ذاك استعمال الحرف « الكارولينسي الصغير » ، وانتشر في جميع مراكز نساخ المخطوطات في انكلترا ، بينما سارت الكنائس الجديدة التي انشئت اذ ذاك ، في طراز عمارتها ، على الطراز الهندسي المستعمل

في منطقة رينانيا . وقد اخذ النشاط يدب ايضاً ، في اواخر القرن العاشر ، بين هذه المقاطعات الانكلوسكسونية التي ما زالت عرضة للخطر السكندنافي . واشتدت سلطة الملك وقويت هيئته في النفوس ، خلال الحروب التي دارت رحاها لاسترجاع البلاد المفتصبة . غير ان انكلترا فقدت ما كان لها من مركز الصدارة في الاشعاع الحضاري المسيحي . فالسنا الذي طبع مدنيتها ، اذ ذاك ، مكتسب منقول هو ، والنهضة التي نشدها فيها ليست سوى وميض جاءها من تألقت النهضة في القارة .

فرنكيا الغربية في مملكة فرنكيا الغربية ، كما حددتها معاهدة فردان ، بلغ المحلل السلطة السياسية وتدهورها ، في هذه الفترة ، حداً لم تبلغه من قبل . فقد تنازع السلطة الملكية ، طوال القرن العاشر ، خلفاء شارل الأصلع وورثة الماركيز « روبرت القوي » الذي كان تولى امر الدفاع ضد النورمانيين ومقاومتهم ، بعد ان استقر بهم المقام ، بين اللوار والسين . وقد ادت هذه المناقشات بالنتيجة الى المزيد من انقسام السلطة الملكية . فقد اصبحت المملكة عبارة عن امارات مستقلة الواحدة عن الأخرى ، بينها دوقيات : فرنسا ، وبورغونيا ، واكويتانيا ، ونورمانديا ، بمثابة لاهم العناصر العرقية او الاثنوغرافية التي تسكنها ، بعضها امتداد لهذه الدويلات البربرية القديمة ، آخرها الدوقية التي تكونت من استيطان غزاة النورمانيين واستقرارهم فيها ، بينما تألفت امارات اخرى حول كونتيات عديدة ، منها : كونتية الفلاندر ، وفيروماندوا ، وشمبانيا ، وأنجو ، وتولوز ، بعد ان تمكن امراؤها من فرض سيطرتهم وهيئتهم على الطبقة الارستوقراطية المحلية . صحيح ان اسيا هذه الامارات والكونتيات ، يستمرون كالموظفين السكارولنجيين الذين يتحدرون منهم ، على ولائهم للملك انما هو ولاء لا يعني اية تابعة او علاقة خضوع ، او اي ارتباط بالملك . فالناداة بهم التي كانت توليهم حق اصدار الاوامر وفرض القصاص والعقاب - وهو حق كان يناله اسلافهم بانعام خاص من الملك - اصبحت حقاً وراثياً مكتسباً ، يستعملونه دونما رقيب او حسيب . والمحطاط السلطة الملكية والمحلها هو اشد وطأة في جنوبي المملكة حيث لم يُتبع لتقاليد التبعية السكارولنجية ان ترسخ وتمكن بين الناس . ففي السنوات الاخيرة من القرن العاشر ، لم يلبث الكونتية انفسهم ان فقدوا سيطرتهم ، والحقوق الملكية تنقلت لتستقر في المقاطعات والاقضية او في احد الاديار التي تنعم بالاعفاء او بيد القيسم على احدى القلاع او احد الحصون . وامر المناداة بالملك تنوع وتشعب ، واذا بنا يطبل علينا وضع خاص او نظام خاص هو ما يعرف بالاقطاع .

ويتميز هذا الوضع السياسي القائم بالعموض الذي يكتنف معنى السلطة العامة . فكل سلطة ، هي سلطة خاصة . فالذي يتولاها بالارث يرى فيها جزءاً لا يتجزأ مما تم له من ميراث ، فپارس هذه السلطة لما فيه خير ومنفعت الخاصة . فهو يحنثد احرار الرجال دفاعاً عن شؤونه الخاصة ، والرسوم التي يتقاضها الفلاحين لقاء الحماية التي يوليهم اياها ، لا مبرر لها سوى العرف المعمول به ، ولذا راحوا يطلقون عليها اسم « العوائد » . فاذا ما أفتى في امر ، او اصدر حكماً في

قضية ما ، فطعماً منه بما تؤمنه له هذه الاقضية والاحكام ، من منافع خاصة ، كالفرامات والصادرات . طبيعي جداً ان تكون هذه النظرية غيرت كثيراً من مفهوم مؤسسات الدولة الكارولنجية ونظمتها ، ومن قوام المجتمع نفسه . فالجيش الملكي توزع بين المغافر او رابطة وحداته في القصور ، وهذه الهيئات القضائية العامة القديمة المهدي ، استحالت حاشيات خاصة ، ودوائر استشارات الكونتية تحولت ، هي الاخرى ، الى بلاطات اقطاعية يختلف اليها أعضاء الارستوقراطية المحلية ، ومجالس المائة او الالوية اصبحت محاكم تابعة للأمراء تتولى محاكمة الفلاحين التابعين لرب الارض ، سواء منهم الاحرار والارقاء ، وامام السلطة الخاصة التي يتمتع بها ارباب القصور واصحاب الامتيازات ، فلم يلبث التمييز بين الحرية والمبودية عندهم ان زال تدريجياً من اذهان الناس ، بينما اتسعت الهوة بين هؤلاء الفقراء الذين يستثمرون بأنفسهم املاكهم وعقاراتهم ، وبين الأغنياء او السراة من الأثرياء الذين تؤمن لهم أملاكهم الواسعة دخلاً طيباً يستطيعون معه اقتناء حصان للطعان ، وتأمين اسلحة كاملة كنفارس ، والتمرن على مسابقة الفرسان في اوقات فراغهم ، فهم وحدهم يستطيعون ان يلعبوا دوراً له شأنه في المعارك . ففي اواخر القرن العاشر ، في هذه الفترة التي انتسخت فيها كل معالم المنظمات العامة التي عمل بها في عهد الفرنج ، نرى المجتمع العمالي يقسم الى قسمين بارزين : من جهة ، الفلاحون سواء أ كانوا مرابحين او مستأجرين او مشدودين الى ملكية الارض . فهم يخضعون لعدل وعدالة السيد او الرب الذي يعيشون في كنفه واستجار ارضه ، هذا السيد الذي له الولاية على المقاطعة ، او من تعود اليه ملكيتهم بحق وراثي . ومن جهة ثانية ، الفرسان وهم محاربون محترفون مدفون من الضرائب المعمول بها في المنطقة ، والذين لا يرتبطون به الا برابطة الولاء يؤدون طوعاً واختياراً ، والذين تربطهم برئيس الاقطاع روابط وعلاقات خدمة السلاح والاستشارة ، وكلها خدمة محدودة النطاق ، والذين لا يخضعون لأي ضغط او اكراه . من هذه الفئة تطلع النخبة المحدودة لأصحاب الولاء المحلي ، من نسل المساعدين العسكريين في عهد النظام الملكي القديم .

ان استيلاء رؤساء الشرطة المحلية على صلاحيات القيادة لم يكن سوى تطبيق موفق للنظم السياسية والاجتماعية المتبعة في الاقتصار العقاري حيث المواصلات في وضع لا تحسد عليه ، وحيث السلطة الفعلية هي بيد كبار الملاكين . وهذا التقاطع او التوزع للسلطة الذي تهيأت أسبابه منذ عهد بعيد وتأخر تطوره برهة من جراء توحيد السلطة الملكية في عهد الدولة الكارولنجية ، بدا للناس ابان غزوات السكندينايفيين والدانباركيين ، المنظمة الوحيدة التي باستطاعتها المحافظة على السلام والنظام . فلنحاذر من ان نرى في هذا الحادث ، عاملاً من عوامل الاضطراب والاضلال . فالنظام الاقطاعي حقق ، على العكس ، بعض التوازن ، ويبدو انه مهد السبيل جيداً امام انتشار المدنية الغربية . وبالفصل ، ففي الوقت الذي استقر فيه النظام الاقطاعي نهائياً في فرنسا ، في اواخر القرن العاشر ، ظهرت بوضوح وبجلاء بوادر نهضة جديدة .

كان النظام الاقطاعي اقوى وامتن ركن ارتكزت اليه السلطة

الامال المقردة على مجتمع
قوامه النظام الاقطاعي

الملكية . ففي عام ٩٨٧ ، وهي السنة التي تم فيها انتخاب روبرتيان
هوغ كابت ملكاً ، دخل هذا النظام صميم التقاليد المائلية

لمركيزة فرنسا القدماء ، اغنى الامر على الاطلاق في غالبا الشمالية .. فمنذ هذا التاريخ فصاعداً
ليس للملك حقوق مجزأة ، متقطعة ، متناثرة ، بين مجموعة المقاطعات التي تشكلت منها فرنسا ،
اذ ذلك ، من المسير استنارها والانتفاع بها ، بعلم واصول ، بل جملة من الحقوق المتناسكة ،
نواتها وركيزتها الكبرى ، املاك وعقارات ومداخيل مختلفة محشودة حول باريس ولورليان .
والى هذا الاساس العقاري القوي الذي تفوق متانته متانة اقوى الامارات الاقطاعية ، اذ ذلك ،
يجب ان يضاف دعامتين قويتين اوجدهما النظام الملكي الفرنسي ، هما : من جهة حفلة التكريس
الرسمية التي أضفت على شخصية الملك ، هالة رمزية ومهابة في قلوب الجميع ، فجعلت منه بحق ،
المدافع التقليدي عن الكنيسة ، وهو تكريس ، يوليه ، وفقاً للتقاليد الكارولنجية ، حق تقديم
عدد كبير من خيرة رجال الدين والاكليروس لترشيحهم للمناصب الاسقفية ورتاسة بعض
الاديار ، ومن جهة اخرى رابطة التبعية التي تصبغ الاساس الصحيح لعلاقة ادبية ، روحية ،
شدت الى شخصية الملك ، ليس كل ارباب السلطة في المملكة ، على اختلاف مستوياتهم ، اذ ان
سلم الولاة او تسلسله فقد شكله الهرمي ، وتوزع الى وحدات من التبعيات المستقلة ، لا عد لها
ولا حصر ، بل اكثر الدوقية والكونتية سلطة ونفوذاً .

ومن جهة اخرى ، فهذه النهضة الاقتصادية التي ظهرت بوادرها في عهد شارلمان ، اخذت
معالمها تتضح اكثر فاكثر . ففي سنة ٩٥٠ وما اليها ، نرى أدلة بينة تشهد على نشاط العاملين
على احياء موات الارضين ، وتكاثر عددهم في البلاد ، وذلك بفضل تحسين تقني ادخل على
وسائل الفلاحة والزراعة ، استطاع معها الفلاحون والمزارعون ان يعمروا الاراضي الحرجية ،
وان يتعاونوا معاً ويتناهدوا على احياء اراض جديدة للزراعة ، بعد ان اقتصر عملهم من قبل ،
على القطع الجرداء الواقعة في قلب الغابات . فمهدت هذه الورش والمشاريع الزراعية السبيل
لمضاعفة انتاج المواد الغذائية ، وسهلت بالتالي ، الطريق امام تطور ديموغرافي وتكاثر عدد
السكان ، الامر الذي ادّى ، تبعاً الى القضاء على الاراضي البور ، والى تسهيل اتصال الناس بعضهم
ببعض ، فشطت المقايضات التجارية ، وتبايع الناس نبيد حوض باريس ، والملح المستخرج
من سواحل المحيط الاطلسي ، جرى تسويقه وتنفيقه في مناطق الشمال ، بينما نشطت الحرجية
الاقتصادية ، مع اسبانيا الاسلامية ، كما ازداد ، في النصف الثاني من القرن العاشر ، عدد التجار
المنتقلين الذين كانوا ينقلون سلهم من البحر الشمالي ، عبر وادي الموز ، وهضاب مقاطعة شمبانيا
وبورغونيا واوفيرنيا ووادي الرون حتى البلاد الاسلامية .

وعلى طول هذه الطرقات في هذا القسم الشرقي من مملكة فرنسا ، اقرب هذه المقاطعات الى
مراكز الاشعاع الفكري والفني في جرمانيا وايطاليا ، في هذه الولايات بالذات التي لم تتعرض كغيرها

لجزوات قبائل الشمال، والتي كانت ملاذاً لرجال الفن وللعلماء والكتبة، نرى يفسط ويدهر هذا التراث الأدبي والثقافي الذي انتقل اليه من عهد الدولة الكارولنجية . وقد نشطت للعمل بعض المدارس الكاندرائية ، منها مدرسة ريمس ، مثلاً ، التي جرى تجديد بنائها وبمئتها في أواخر القرن التاسع ، على يد رئيس الاساقفة فولك ، ليتولى ادارتها بنجاح ، بعد عام ٩٧٢ ، جربرت دورينك الذي استطاع ان يحصل ، خلال اقامته في روما وفي الولايات المسكرية المتاخمة لاسبانيا ، وان يجمع اكبر قدر من المعارف والمعلومات ، حول الفنون والعلوم التي تؤلف نواة منهاج الـ *Quadrivium* . ولما كان المصنف الاسقفي منهمكاً اذ ذاك ، بالشؤون المادية والدينيوية ، ومنغمساً بالموامرات والدسائس التي كانت تحاك في الاقطاعات والامارات ، ويتسكع ، على العموم ، في وضع زري من الانحطاط ، فالراكز الاكثر نشاطاً وإثماراً ، كانت ، ولا شك الاديار ، أمثال دير فلوري سير لوار، حيث كان علم المنطق والجدل يزدهر على يد الراهب ابون ، احد قلاميذ مدرسة ريمس ، ودير سانت مرسيل ده ليموج المشهور بكونه قاعدة نشيطة لنساخته المخطوطات وتزويقها وتحليلتها ، حيث كانت تبذل عناية خاصة بتطوير الطقوس الليتورجية ، وادخال تحسينات على التراتيل والانشيد الكنسية المتعددة الاصوات ، مهتة السبل لطلوع المسرح الديني . واخيراً دير كوندك ، حيث تم حفر ونقش صندوقة ذخائر القديسة فوا ، فكان اول تمثال تم وضعه في الاجيال الوسطى ، واخيراً « دير كلوني » .

تأسس هذا الدير عام ٩١٠ ، على يد غليوم الاكويتاني ، وتولى ادارته الراهب « برنون » رئيس دير « بوم » ، ودير « جيني » ، وادخلت عليه الفرائض البندكتية ، كما شرحها وفسرها وعلق عليها بندكتوس الأنياني . فبعد ان تخفف الرهبان عملياً ، من كل المهام والاشغال المادية واليدوية ، وعهدوا الى خدام بقضاء حوائجهم وتأمين خدمتهم وأتمنوا كفاف معيشتهم بفضل ايرادات املاكهم الواسعة ، انصرفوا بكليتهم لما فيه مرضاة الله ، والاحتفال بكل ابهة ، بالطقوس الليتورجية . وكان الدير ، وفقاً لارادة مؤسسه ، بمعزل من كل تدخل علماني بشؤونه ، يربط مباشرة بالكرسي الرسولي في روما ، ونال في اواخر القرن العاشر انعام الاعفاء الذي يجعله خارج نطاق اشراف اسقف الهلة او البلدة . وساعدت الحياة الرهبانية المثالية التي سار عليها جمهور الرهبان والآباء ، على اذاعة شهرة هذا الدير ورفع اسمه في العالم المسيحي ، فتدفقت عليه الهبات والأعطيات . وعهد الى رؤسائه « أودون » ، و « أيامرد » ، و « مايول » ، وكلهم من رجال التقى ، مشهود لهم بالفضل والعلم وحسن السريرة ، التفرغ بهمة قعساء ، لاصلاح بعض المؤسسات الرهبانية ، كما عهد اليهم بقيادة هذه الاديار التي تولوا اصلاحها ورئاستها . وهكذا ، اطلت علينا الرهينة الكلونية التي ضمت عدداً من الاديار ، تعمل تحت رئاسة رئيس عام ، اخذت تمتد وتنتشر باتجاه مقاطعة الاوفيرني وشواطئ البحر المتوسط ، كما قام لها اديار تناثرت حباتها على طول الطرقات التجارية

وكانت هذه الطرق تقضي بسالكها الى مشارف اسبانيا الاسلامية . اما الولايات المسيحية الواقعة على هذه الحدود، كملكة استوريا، مثلاً فقد كانت ملاذاً لعدد كبير من مسيحيي اسبانيا نجحوا بانفسهم من حكم خلفاء قرطبة حاملين معهم اساليب هندسية معمارية جديدة ، وعناصر محلية وزر كشة مستمدة من الفن الشرقي . وقد قام في هذه الولاية الاسبانية اديار مزدهرة كان لها من الشهرة وبعد الصيت ما جذب اليها جريبت دورياك ، ليدرس فيها الرياضيات والعلوم العربية . وقد اصبحت هذه الاديار مراكز ثقافية عرفت بنشاطها وعملت على اغناء الثقافة الاوروبية . ومع ذلك فقد كان الجانب الشرقي من الامبراطورية الكارولنجية القديمة ، في النصف الثاني من القرن العاشر ، المركز الاكبر لهذا الاشعاع الفكري الديني في الغرب .

جرمانيا وامبراطورية اوتون فكما ان تأسيس الدولة الكارولنجية ارتكز ، في القرن الثامن ، واتخذ قاعدة له اقل المقاطعات الفرنجية تطوراً ، وابعدها إيفالاً في الروح الممجيبة ، هكذا تمّ تجميع القوى السياسية وتوحيدها ، في القسم الشرقي من اوروبا ، في قطر هو اسحدث الاقطار الجرمانية عهداً بالمسيحية حيث الاعراف والعادات والتقاليد الجرمانية ، كانت لا تزال محتفظة بحيويتها ونشاطها ، وحيث قام التنظيم العسكري وارتكز على طبقة واسعة من الرجال الاحرار ، هو قطر الساكس الذي انتخب ساحمه الدوق هنري ، عام ٨١٩ ، ملكاً على جرمانيا . فقد اخذ العامل الجديد ينظر الى السلطة التي تمت له ، نظرة بدائية وصرف جعله للدفاع عن ولايته غير ان ابنه اوتون الكبير (٩٣٦ - ٩٧٣) جهد نفسه ليمعد للملكية سينايتها وهيبتها باحياء التقاليد الكارولنجية وبعثها من جديد . فقد جرى تتويجه في احتفال رسمي علني ، وجرى تكريسه ودهنه بالزيت المقدس في مدينة اكس لا شابل . وحاول ان يحد تدريجياً ، دون ان يلغي رتبة الدوقية ، من استقلال حاملي هذا اللقب من امراء البلاد ، وان يحملهم على الاعتراف بمقوق الملك داخل الدوقيات الوطنية ، وان يقيم علاقات مباشرة مع الكونتية أنفسهم . وراح يطبق اخيراً الأساليب التي سار عليها الاوائل من ملوك الدولة الكارولنجية ، محاولاً ان يجعل من رجال الاكليروس الذين يتولى هو نفسه ترشيحهم للمصف الاسقفي ، ويقدم لقب كونت يحملونه في المنطقة التي يقع فيها الكرسي الاسقفي ، معاونه ومستشاريه في الادارة ويثق بهم كل الثقة . وهكذا تمكن من الحد من امتيازات الامارات المحلية ، وان يؤمن السيادة وحق الصدارة للملك الذي هو وحده المدافع الاول ، والمناضل الاكبر عن السلام ، ومقيم العدل بين الناس ، وموزع العدالة في كل ارجاء المملكة الجرمانية ، دون ان يفلو في استعمال حقوق التسيمة وآصرة الولا التي له عليهم . وهكذا لم يتمكن صفار الرؤساء المحليين من ان يفتصبوا ، كما فعلوا في فرنسا ، السلطة الملكية ، اذ بقي الناس في المقاطعات الجرمانية يشعرون عميقاً بوجود جيش وبوجود هيئة للسلطة العامة . وهكذا بقي حياً في النفوس الشعوب بالحرية ، هذا الشعور الذي جعل الناس يحسون انفسهم مرتبطين رأساً بأعراف وتقاليد ملكية .

وهذه الانتصارات يحققها الامبراطور اوتون الكبير على الصقالبة والجر ، زادت مهابة في النفوس واحتراماً عندهم ، فاستطاع ان يتابع الرسالة التي قام بها الكارولنجيون بنشر الديانة المسيحية وحملها ابعده الى الشرق والشمال ، واصبحت مدينة ميمبورغ في عهده ، قاعدة للكنائس السكندرية الحديثة العهد ، ومرجعاً رئيسياً لها . وفي سنة ٩٦٢ ، انشئ في مجدبورغ كرسي اسقفي ، واخذ نفوذ ملك المانيا يمتد الى البلدان المسيحية المجاورة لجرمانيا ، كما كان الملك الحكيم الفصّل في هذه الاختلافات والمنافسات العائلية التي نشبت في فرنسا ، بين الكارولنجيين وانصار روبرت كابت ، واخضع عام ٩٤٠ ، مقاطعة لوثرنجيا لسلطانه ، وأتاه ، عام ٩٤٢ ، ولاء ملك بورغونيا ، واخيراً اعترف به ملكاً عام ٩٥١ ، وفي عام ٩٦١ نودي به ملكاً على ايطاليا ، وولاه البابا يوحنا الثاني عشر ، رتبة الامبراطورية ، وهو شرف عادي حقاً وشرعاً لمن له حق الصدارة في لبرديا . إلا ان الشيء الوحيد الذي أضفى أهمية كبرى على تتويج الامبراطور ، عام ٩٦٢ ، هو انه ، لأول مرة منذ اواسط القرن التاسع ، وجد الامبراطور نفسه ، اقوى سلطة ، وأشد سطوة من أي امير قام في الغرب ، اذ كان باستطاعته ان يؤمّن ، بالفعل ، توجيه المسام المسيحي وقيادته . وخير دليل ، وأقوى شاهد على ما نقول ، هو ان الامبراطور اوتون ، غيرته منه على الدور السياسي الخطير الذي أسنده للأسقفية الجرمانية ، وأولاه مهمة اصلاح الكرسي الرسولي وانقاذه الارستوقراطية الرومانية من الدسائس التي تحط من شأنها . فقد خلع البسبا يوحنا ، في مجمع عقد تحت رئاسته ، واستبدله ببابا آخر . فقد كان اوتو الكبير ، بحق ، شارلمان ثانياً ، وكان لتتويجه بالتاج الامبراطوري ، المدلول الذي يعني انه الباعث الجديد للامبراطورية الرومانية .

وهذا البعث ، وهذا التجديد للامبراطورية الرومانية طال واستمر ، اذ حصر الامبراطور هذه المرتبة في اسرته ، ففي الوقت الذي جرى فيه تكريسه ، تم تكريس زوجته امبراطوزة ، كما توج ابنه مسبقاً ، باسم اوتون الثاني ، عام ٩٦٧ . وبعد ان أمّن هذا المنصب بالوراثة ، تلبّست الامبراطورية معنى اقوى وادوم في النفس ، كما راحت هيبتها تمكن في عقول الناس وترسخ في نفوسهم تمشياً مع النظرية البيزنطية في هذا المجال ، وهي نظرية عميد على نشرها والدعوة لها رجال الاكليروس في روما والاميرة اليونانية ثيوفانو زوجة اوتون الثاني . وكان من الامبراطور الجرمانى الثالث ، اوتون الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢) ان امر بنقل كرسي ملكه الى روما . وبالاتفاق التام ، رأياً وروحاً ، مع الكرسي الرسولي الذي شغله اذ ذاك تحت اسم سلفسترس الثاني ، صديقه الحميم العالم جربرت دوريتاك ، رغب ، على شاكلة الامبراطور قسطنطين الكبير ، من قبل ، ان يجعل من وظيفة الامبراطور ، بعد ان يستبدل تدريجياً كل اشكال السلطات السياسية التي تقاسمت اذ ذاك ، المسيحية اللاتينية ، رئاسة هي في الصميم : ادبية ، مسكونية ومسألة . فكأنه كبر شأنه وزاد مهابة بعد ان قننتها نظريات الرهبان الاكثر ثقافة الذين تألفت منهم بطانة الامبراطور لويس الورع ، وسياسة الملاينة التي اتخذها تجاه الاستقلالات

القومية ، ساعدت كثيراً على ربح الشعوب التي اعتنقت المسيحية حديثاً ، في جماعة المسيحيين الكبرى ، كالدوق البولوني « ماسكو » ، والملك اسطفانوس الهجري اللذين اعترفا برئاسة البابا الامبراطور رئيساً اعلى لها .

والى الشرق من الحدود التي جعلتها معاهدة فردان حداً للملكة فرنسا ، رافق اعادة الامبراطورية ازدهار واسع في الحياة الروحية والنشاط الفكري والفني ، هذا الازدهار الذي جاء تمة للنهضة التي تمت في عهد الامبراطورية الكارولنجية ، وفقاً للأطر والتوجيهات التي وضعتها له الكنيسة ، والتي اتخذت عماداً لها ، تطوير المؤسسات الدينية برعاية هؤلاء الملوك ومؤازرتهم الشديدة ، اذ ان هذه المؤسسات نفسها ، ألفت ، هنا ، كما ألفت ، في عهد شارلمان ، سنداً قوياً للدولة الجديدة ، وأيداً قوياً شدة من ازرها ووطد من شأنها .

كذلك ، انطلقت الحركة ، في كل من انكلترا وبورغونيا ، باصلاح شامل للحياة الرهبانية ، في القرن العاشر ، راعي ، ولو بعيد ، وضع الكنيسة المختلف في كل من شبه الجزيرة الايطالية واللورين . وانصرف على بحث الحياة الروحية ، في ايطاليا ، فريق من الزهاد والنسك ، تأثروا الى حد بعيد ، بنسك الصحاري والقفار ، امثال القديس نيل الذي رغب الامبراطور اوتو الثالث في استقدامه الى روما ، والقديس « رومالد » ، الذي عرف ان يوحد بين طريقة الرهبان العاشين معاً عيشة مشتركة ، وبين النسك والحياة ، في رهبانيات مشتركة تتألف من رهبان وزهاد ، جرى تأسيسها على مقربة من مدينة رافينا ، وفي جبال الابنين ، عرفت فيما بعد برهنة « كامالدول » . وعلى عكس ذلك ، كان القائمون بالاصلاح في اللورين عديدين ، اولهم « جيرارد بروني » ، فراحوا يحاولون اصلاح فرائض القديس بندكتوس لارجاعها الى نقاشها الاول . واكثر هذا الفريق نشاطاً وحاسة ، موخنا فندير ، الذي انتخب ، عام ٩٥٩ ، رئيساً عاماً لدير « غورز » في ابرشية متر ، وفرض على الرهبان قانوناً صارماً ، وافصح مجالاً واسعاً للطفوس الليتورجية ، وشدد ، بعكس دير كلوني ، على التقيد بفرائض التنسك واعمال التقشف ، وفرض على الرهبان ، العودة الى الشغل اليدوي والاتصال الدائم بالاساقفة . فلا عجب ان يحدث هذا الاصلاح للحياة الرهبانية الذي تم تحت رعاية الامبراطور وانتشر في جرمانيا ، تأثيراً بعيداً على رجال الاكليروس العلمانيين ، وساعد على تكوين احبار لهم قيمتهم الادبية العالية ، امثال نوتجورده ليج ، و« برنار هلدشام » ، الذين انقطعوا لنشر الثقافة ، وتأمين ازدهار الآداب والفنون .

وهذه المطالب الثقافية العالية ، تفهمها الامبراطور اوتون وتبناها ، وراح ، تشبهاً بشارلمان وللأسباب ذاتها ، ينشئ مدرسة في قصره ويلحقها ببلاطه ، واستدنى اليه عدداً من علماء زمانه وحلة الثقافة ، فاستقدم من اللورين : « روثيه ده لوبس » ، وعدداً كبيراً من ايطاليا ، بينهم « لاون ده فرسايل » و « ليوتبراند الكريموني » ، اللذين انشأوا في مراكز التعليم

الكبرى ، في لمبرديا ، المعروفة بتمسكها بالتقاليد الادبية والبيانية الرومانية . ففي كل مكان من هذه الامبراطورية التي عمها الاصلاح ، سارت الحركة الادبية والفنية ، في النهج الذي انطلقت منه في اواخر القرن الثامن ، وهو نهج اخذ ينمو ويزداد متأثراً بالروح والاهداف الواحدة ، اذ كانت زطاة الفزوات خفيفة عليه ، فلم تحدث فيه اي انحراف عن الصدد ، او اي انقطاع عن السير . والمراكز الرئيسية لهذه الثقافة هي هذه الادياب البندكتية الكبرى التي تأسست في مطلع الامبراطورية الكارولنجية ، امثال كورفاي ، في مقاطعة الساكس ، ورايخنو ، وسان غال ، في مقاطعة « الصواب » . فهي التي غذت المراكز الاخرى القائمة في منطقة الموزيل ، وذلك عن طريق العلاقات الثقافية التي ربطت بين مناطق الشمال وسهل البو في ايطاليا ، فامتد اثرها نحو الشرق البيزنطي عبر البندكتية ، التي كانت في ابان ازدهارها .

فالحالة هي أشبه ما تكون بالوضع الذي تهباً في مطلع القرن التاسع : فأم وجوه النشاط لرجال الفكر هو درس الصرف والنحو وتأليف كتب في التاريخ ، منها مثلاً : « تاريخ السكون » الذي وضعه « فيتوكند » ، والاهتمام بدرس الليتورجيا وتهذيبها عن طريق وضع اناشيد والحن موسيقيه دينية ، كالانجازات التي حققها في هذا المضمار هو كبالده سان امان ، ونوتكر او توتيلوده سان غال ، ولا تزال الآثار التي وضعوها حية الى يومنا هذا بصيغتها وروحها . واذا كانت وضعت القصائد الشعرية المسماة *Waltharius* كالتي وضعا أكثره ده سان غال ، او ان الاساطير الجرمانية القديمة قد نقلت شعراً الى اللاتينية ، فقد تلقحت بفكار وموضوعات جديدة جدت منها الشكل وبعثت فيها روحاً جديدة ، الا انها كانت على الاجمال ، محاولات تقليد ومحاكاة لآثار كلاسيكية ، كهذه الهزليات والمهيات التي وضعتها الراهبة الرئيسة « هرُوسوثا ده غندرشام » محتدة فيها حذو الشاعر اللاتيني تيرانس . وعندما اراد المهندسون ان يشيدوا الكنائس الكبرى من غير عقود مزدوجة الحنايا ، كالكنيسة القائمة في دير جيرنرود ، راحوا يستلمون المباني الضخمة التي انشئت في عهد لويس الورع . واستمرار الاساليب الفنية ورسوم الديكور والتعليق التي راجت في العهد الكارولنجي ، يبدو واضحاً في الفنون التي اعتادوا ان يسموها الصغرى ، كما نرى ذلك في بدايات هالدشابم البروتزية ، وفي قطع العاج الموجودة في كنائس كولونيا وامتز أو في الجوهرات الموجودة في مدينة تريف وراتيون ، وفي منمنمات «اخترناك» المزوقة ، ورايخنو ، أو في افاريز غولداخ واوربرزيل . « فالنهضة التي رافقت عهد الاباطرة أوتون ، هي بالفعل المصير الذي انتهت اليه جهود الكويفس ، والمهندس « أويده متر » والفنان الذين تولى تميم مخطوطة الزامير في اورترنحت .

والجدير بالنظر والملاحظة في معالم الحضارة الغربية ، في اواخر القرن العاشر هو التأثير البالغ للعهد الكارولنجي . فارووبا برمتها ، بما لها وفيها من حدود ونحوم ، وماهي عليه من نظم ومؤسسات سياسية ، ومن نظام التسمية وعادة تكريس الملوك ومسحهم بالدهن ، وبعث

الامبراطورية ، ومؤسساتها الاقتصادية ، والسيادة الاقطاعية ، والنظام المالي ، وما الى ذلك من مؤسسات دينية ، وما يجيش فيها من روح وفن ، كل ذلك اخذ شكلا واضحا في هذه الفترة التي نعمت فيها هذه البلاد بالامن والوحدة ، وهي هذه الحقبة البالغة النصف القرن تقريبا التي احاطت بسنة ٨٠٠ ، فالمسيحية اللاتينية ، اذ اتخذت ها مثل هذا الزمن الوطيد اصبحت بنأى عن الفزوات ، وبمعزل عن الطوارئ المفاجئة ، وتجددت كلياً عن طريق المبادلات وازدياد السكان ، هي في أتم ازدهار وعلى احسن ما تكون استعداداً للانطلاق .

الفصل التاسع

الشرق الأدنى : ازدهاره وأزماته (القرنان التاسع والعاشر)

عرف العالم الاسلامي ، بين منتصف القرن التاسع ومطلع القرن الحادي عشر ، كيف يفيد الى حد بعيد ، من هذه النهضة الروحية وهذا الازدهار المادي اللذين تهيأت أسبابها في القرنين السابقين ، وهما نهضة وازدهار تحالف عليهما من الازمات والضائقات الاجتماعية والسياسية والدينية ما افقدهما الكثير من الرواء ، وازهد عنها الكثير من مباهج النماء . ففي هذا الوقت بالذات ، راحت الامبراطورية البيزنطية ، تعلم ما تشمت من احوالها ، وما تفكك من اوصالها ، وتقوم ، هي الاخرى ، باصلاح شامل لاوضاعها ، لاقى هو الآخر ، مشاكل وصعوبات اجتماعية تجاوبت اصداؤها في جميع ارجاء الامبراطورية . فنحن أمام امبراطوريتين تتعادل فيهما كفتتا ميزان القدر ، في وقت كان كل منهما يحاول ان يطبع مصير المدنية ويُفرغ أحداث الدهر بما يتفق وطاقته على البناء والتكوين والانشاء . ومهما بلغ بينها الخصام والمعاداة ، واشتدت بين الجانبين النفرة والجفاء حتى راحتا تستمطران السماء اللعنات الواحدة على الاخرى ، فلم يكن لهما بد من ان يقوم بينهما شيء هو اشبه ما يكون بالتعايش السلمي ، خال معه كل منهما ذاته خالداً ابد الدهر ، فهما على شيء قريب أو شبيه ، بما تمّ لهما من نظم اجتماعية وحياة فكرية وادبية لمن هو في عمر واحد من الزمن مع الآخر . فاذا ما تشاجرا وتراشقا الضربات واللكات ، ففي اوضاع ومصطلحات مشتركة يفهما جيداً كلا الفريقين ، لانهما على صعيد سوي واحد .

فالصعوبة القائمة في وضع رسم بياني للمجتمع الاسلامي المترامي الاطراف : من جبال الاطلس ومشارف الاوقيانوس غرباً ، حتى نهر الهندوس شرقاً ، هي نفسها الصعوبة يلاقيها من يرسم مثل هذا الشكل البياني للمجتمع الاوروبي ، الممتد من نهر العبر (في اسبانيا) الى جبال الاورال . فلن نقف ، والحالة هذه ، الا عند القسمة البارزة ، والملاحم المميزة ، والمفارقات المشتركة ، والاحداث الكبرى الثالثة .

التجارة فالعلم الاسلامي والمجتمع البيزنطي ، كلاهما ، من الوجهة التقنية ، في حدود المستوى القديم تقريباً : فلم يحدث في اي من الجانبين ، اي اختراع واكتشاف جديد استطاع ان يغير أو ان يبدل من الاوضاع السياسية التي احاقت بالانتاج والمبادلات التجارية . فالتجارة واوضاع الحياة في المدينة ينعمان بمرکز ممتاز اذا ما قيسا بالوضع الذي كان عليه الغرب في هذا العصر المشترك ، وعلى درجة اقل ، اذا ما قيسا بما كان عليه الوضع في التاريخ القديم . ومع ذلك ، فليس هو بالوضع المسيطر أو المتحكم ، اذ ان معظم الاهلين يقطنون خارج المدن ، في الريف ، والزراعة وتربية الماشية هما المعول عليهما بالاكثر لدى الدولة والمجتمع ، ونتائج التجارة ، تبقى ، منع هذا محدودة . ومع ذلك ، لا بد من التشديد هنا ، على التجارة اذ ان التطورات العظيمة التي خضعت لها ، كان لها تأثير بالغ ، وصدى عميق في القطاعات الاقتصادية الاخرى .

فالتجارة الاسلامية والبيزنطية حركتان متلازمتان متعاقدتان ، لا يمكن فصلها او تصوير الواحدة منهما دون الاخرى . فهذه هي حاصل تلك . غير ان الاولى ، كانت اوسع مجالاً وارحب افقاً من الثانية ، وتتحكم بتجارة السلع الاساسية مع آسيا ، التي اصبح العراق منها اشبه شيء بالفتاح . والخليج الفارسي ، اكثر مما هو البحر الاحمر نفسه ، الطريق الموصل بين المحيط الهندي وبلدان البحر الابيض المتوسط . فمن مرفأ سيراف ، على ساحل ايران ، ومن أبلية والبصرة ، في العراق ، كان التجار ، شأنهم في هذا العصر شأنهم في عصر الساسانيين ، يخرجون حاملين بضائعهم باتجاه اقطار الهند الغربية ، يتجرون مع جواليهم العديدة في هذه الاقطار ، ويلتقون مع التجار الصيليين في طريقهم الى سيلان . وقد قطعت تعديت القرصان ، في القرن الثامن هذه الحركة واوقفتها ، ثم عادت سيرتها الاولى في القرن التاسع ، ونشط التجار فبلغوا معها الصين وشارفوا خان - فو ، الواقعة على مقربة من كينتون ، حيث كانت توجد جالية اسلامية تتمتع بشبه استقلال اداري . ولما كانت الاضطرابات الدامية التي وقعت في الصين ، خلال هذا العصر ، قد سببت خراب هذه الجالية ، انتقلت نقاط تلاقي التجار ، الى شبه جزيرة الملايو او الى سيلان ، دون ان يكون لهذا التغيير الر يذكر على الحركة التجارية . وقد تركت لنا اخبار الرحالة والوصاف التي وضعوها لنا ، ذكر هذه الاسفار ، منسفاً في القرن الثامن : الرحلة المنسوبة الى سليمان ، وفي القرن العاشر الرحلة التي وضعها سيراقيان بوزروج التي تذكرنا اخباره بخص السندباد البحري . ففي الاسفار التي قاموا بها ، باتجاه اليمن والبحر الاحمر حتى مرفأ جدة ، وافريقيا الشرقية حتى مشارف جزيرة مدغشقر ، تفوق الفرس ، قبل القرن العاشر ، على المصريين ، في هذا المجال .

والطرق البرية كانت تنطلق من العراق متجهة الى اواسط آسيا ماراً بالهند ، في ايران ، للاقامة التجار الصينيين ، بينما اتجهت طرق اخرى نحو سوريا ومصر والامبراطورية البيزنطية ، وكانت آسيا الوسطى ، منذ القديم ، احد مراكز الاشماع التجاري ، اذ كثيراً ما يتم التجار

المسلمون في هذه المنطقة ، الصين والهند وبلاد الفولغا . ويستدل من النقوش التي عثر عليها المنقبون انهم وصلوا الى مناطق بحر البلطيق ، كما ان تجاراً آخرين بلغوا الاقطار الشمالية الغربية التي لا يعرف عنها الرحالة العرب ، شيئاً كبيراً ، ويرى البعض ان هذه اللقطات الوفيرة التي عثر عليها انما هي من بقايا الفدية والاسلاب التي اصابتها « النورمندون » في الغزوات التي بلغوا فيها مشارف بحر قزوين . وقد بلغ هؤلاء التجار في اسفارهم اقوام البلغار في منطقة الفولغا كما تشهد على ذلك رسالة تركها بن فضلان حول وفادة دبلوماسية ، عهد بها اليه احد الخلفاء العباسيين ، اجتاز فيها آسيا الوسطى ، وهي رسالة لها أهمية كبيرة للتعريف بأقطار اصبحت فيما بعد روسية . ولعل هؤلاء المسلمين بلغوا في اسفارهم ، نحو الغرب ، مدينة براغ ، عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، اليوم . وقد يكون من الغلو بمكان ان ننسب أهمية كبرى لهذه الاسفار ، او تأثيراً لا تستحقه على اوربوا الوسطى واوربوا الغربية .

فاذا لم يكن للتجارة المصرية نشاط يذكر في المحيط الهندي ، قبل الدولة الفاطمية ، فقد بلغت قوافل التجار المصريين ، باستثناء الشام والعراق ، الى الحبشة وقلب السودان والمغرب الاقصى . فالازدهار الداخلي الذي عرفته البلدان الاسلامية في الغرب ، واستيلائهم على كبريات الجزر في البحر الابيض المتوسط ، كجزيرة اقريطش (التي احتلها لاجئون اسبانيون) وصقلية ، والقواعد التي اقاموها في شبه الجزيرة الايطالية - ولا سيما باري منها ، منذ القرن التاسع - وسردينيا وكورسكا وجزر البليار ، شجعت كثيراً حركة التجارة في البحر المتوسط ، وأمنت للمسلمين السيطرة التامة على البحار الواقعة الى الغرب ، كما جعلت الطمانينة والسلام يرفرفان على طرق المواصلات بين مصر والمغرب الاقصى . وقد طردت بيزنطية من كل بحر ايجه والبحر الادرياتيكي لما لقيت من تهديد القراصنة السوريين والدلمات ، اضاف الى ذلك ان اسطولها التجاري اصبح في خطر مدام ، من جراء الثورات والانتفاضات التي قامت في البلدان التي تستمد منها حاجتها من البحارة كالثورة التي قام بها نورما الصقلي ، والمراويل التي قامت في وجه التجارة الحرة ، وبعد ان اعيد تنظيم هذا الاسطول في اواخر القرن التاسع ، بقي ، سواءً منه عمارته الحربية وعمارته التجارية ، عاجزاً عن تحقيق ما كان له ، في الماضي ، من سيطرة وسيادة . ولذلك اتجهت الحركة التجارية ، في بلاد النصارى ، الى تجار البندقية ومدينة امالفي ، من رعايا الامبراطورية ، ولو بالاسم ، وقد عرفوا ان يعقدوا ، في هذا المجال ، مع جيرانهم من المسلمين ، عقوداً واتفاقات مجدبة للغاية وسعوا من احكامها فيما بعد ، بحيث دخلت مصر في احكامها ، بعد ان احتلها ملوك الدولة المبيدية الذين جاؤوا من المغرب . والشواطيء المسيحية الممتدة من روما الى برشلونا ، بقيت مقفرة موحشة بعد ان عاث فيها القراصنة المسلمون ، وتوصلوا الى اقامة معاقل لهم في جبال المورس بينما المعقل المعروف بـ *Garde Freinet* . وقامت في اسبانيا حركة تجارية ناشطة ، اتصلت برأ بملكة الفرنج في الغرب ، كان واسطة العقد فيها ، تجاراً من اليهود يقيمون في البلاد المسيحية اكثر منهم تجاراً من المسلمين ، اذ لم يكن يرضون

بالتعامل معهم في المناطق الواقعة جبال البرانس الى الشمال . اما في البحر ، فلم يعد ليرضي التجار المسلمين ، ان يستقبلوا ، قانعين ، التجار القادمين من الشرق مع ما لديهم من السلع والبضائع . وبدون ان نشير هنا الى هذه الجمهورية البحرية الغربية القصيرة الامد التي قامت في بكشينا على مقربة من الماريا والتي بقي عام ٩٠٠ ، نطاق انصالاتها البحرية مقتصرأ على نقطة ضيقة ، فقد كتب ابن خرداذبه أن التجار الاسباليين من اليهود ، كثيراً ما بلغوا ، عن طريق البر أو البحر ، بلدان الشرق الاقصى ، فكانوا بذلك يهيئون قلب الوضع التجاري لصالح الغرب ، لصالح النصارى . اما في المغرب ، فقد كانت أفريقيا (تونس) الملتقى للحركة التجارية في البحر المتوسط ، اذ كانت القوافل التجارية تجتاز الصحراء فلتنتعش لمروهم الواحات القائمة اكثر الى الغرب ، امثال مدينة سلجماسة القائمة على سفح جبال الاطلس الغربي ، والقاعدة الكبرى للخوارج في هذه المنطقة .

وقد ظهرت بيزنطية ، أمام الاسلام ، مظهرأ زريئاً . ولا يعني هذا انها لم تستفد من ازدهار الحركة التجارية الكبرى التي كانت ناشطة ، اذ ذلك ، فالطرق الآسيوية التي تفضي الى سواحل البحر الاسود يجب ان تمر حتماً بالقسطنطينية ، وعلاقتها مع شعوب الدالوب واوركرايا ميسرة . والمشاريع التجارية الايطالية في الشمال من البحر الابيض المتوسط يقابلها قدوم الروس الى القسطنطينية . والمسلمون ايضاً الذين انشأوا لهم فيها جاممأ ، وهي حركة عادت على اباطرة بيزنطية بالربح الوافر من الرسوم التي كانوا يتقاضونها ، كما عادت عليهم بالكثير من النفوذ والمكانة ، دون ان يلاحظوا قط ما تخفي هذه الحركة وراها من خطر في المستقبل بنسبة ما يتخلى رعاياها عن تحكيمهم بالاسواق التجارية وفتح اسواق جديدة لتجارهم .

وهذه الحركة التجارية الناشطة في كل قطر وصقع من بلدان الشرق الادنى ، كانت تدور ، في الدرجة الاولى ، على الخامات والمواد الاولية التي نفي بمطلب الحياة كما تناولت سلماً غالبية التكاليف والاثمان هي ابدأ مطمع العظماء وكبار الاغنياء . وكان التجار المسلمون يستوردون من الشرق الاقصى التوابل والأفاريه (في مقدمتها الفلفل) ، والحجارة الكريمة والعاج من الهند ومن افريقيا ، والذهب من السودان والحريز من الصين الى جانب الحريز الوطني ، والاششاب الشمينة كالمغز والصندل ، من اندونيسيا ، وخشب البناء من آسيا الصغرى واوروبا ، والجلود والفراء ، والعسل والشمع ، من روسيا ، واخيراً العبيد والارقاء : من بين صفالبة دلماتيا على يد تجار ايطاليين ، أو صفالبة من بلدان اوروبا الوسطى ، من سوق النخاسة في براغ ، وراكأ من قبائل الخزر او يأتون بهم من اواسط آسيا ، وزنوج السودان . ومن بين السلع التي كانت تنفق في داخل البلدان الاسلامية : حريز مناطق بحر قزوين ، والقطن والبذور المستورد من البلاد العربية ، والآلء والأسفنج من اطراف عمان ، كما استوردوا كل المعادن التي تفتقر اليها البلاد العربية من ايران وشمال العراق والمغرب والاندلس ، حيث كانت تتوفر بفزارة هذه المعادن على أنواعها . وكانوا يصدرون الى البلاد الواقعة خارج الاسلام السلع والمصنوعات التي تم عن تفوق

مهارات الفن الإسلامي. الصناعية، في مقدمتها المنسوجات والمصنوعات المعدنية. فإذا ما وضعنا تجارة الرق جانباً، نرى ان تجارة بيزنطية كانت تقوم على مثل هذه الاصناف، انما على درجة اخف من التنوع. فالاولوية التي احتفظ بها هذا العالم وذلك، تقوم بان كلاهما كان يصدر للخارج بضائع وسلعاً مشغولة، غاية في الدقة بينما اقتصرتم الحركة التجارية في البلدان الاخرى، على استيراد المواد الاولية.

من الصعب، واما الحق، ان نتبين كيف كان يتم التوازن في هذه الحركة التجارية وتداول النقد، اذ ان كل الوثائق التي لدينا غامضة للغاية. فاستمرار هذا التيار التجاري بين بلدان الشرق الادنى واقطار آسيا النائية، على الاخص، دليل كاف على سلامة اوضاعها، اما ان ينتقل قلب هذه الحركة التجارية، فيما بعد الى مصر، فامر يعود لاسباب ودوافع اخرى. وبعد هذا كله، فقد احتفظت كل من بيزنطية ودول العالم الاسلامي حتى ظهور الحروب الصليبية بنقد من الذهب لم يتم منه للغرب شيء، وهو نقد مستقر، قوي، معتمد دولياً، مع العلم ان كلا من ايران، ومن اسبانيا ابتداءً من القرن العاشر، عولتا بالاكتر، على النقد الابيض، أي الفضة. وكان هذا يتعارض مع ما كانت عليه العلاقات التجارية في الداخل حيث تدنت طاقة النقد الشرائية لأسباب ضرائبية، منذ القرن العاشر. ولا شك عندنا قط في ان هذه الحركة التجارية العالمية كانت أدت الى احداث نقص في النقد المتداول، لو لم تعوض مناجم الفضة والذهب الموجودة في نوبيا والسودان هذا النقص، بيسر. ويقال ان بيزنطية التي كانت تشتري من الشرق اكثر مما تباعه، حققت التوازن في ميزانها التجاري بفضل المشتريات الاوروبية، كما ان توفر النقد في اوروبا الغربية يعود لما كان تصدره الى البلدان الاسلامية، في الشرق والغرب، من سلع وبضائع. ولعل في هذا التأكيد بعض الغلو من حيث تقدير أهمية الحركة التجارية في هذا المثلث الجغرافي. ومها يكن من الامر، فبيزنطية لعبت دور المستهلك أو الوسيط، ولم يكن لها بالحقيقة كبير تأثير على الحركة التجارية العالمية.

قلما قام التجار باسفارهم لوحدهم او منفردين. فالتجارة البحرية، اقله في

التقنية التجارية

ما يتعلق بالحيط الهندي، كانت، تبعاً للرياح الموسمية، تتكيف بها من

حيث مواعيد الذهاب والإياب. وكانت كل سفينة تضم دوماً الى جانب قبطانها، عدداً من التجار. اما في البر، فالى جانب هذه الاساطيل النهرية التي كانت تمخر في النيل ودجلة وغيرها من الانهر، كانت الاسفار البعيدة تتم مع القوافل، فتعتمد الجمال، وطرقاً سالكة لتعذر الرحلة على مسالك غير صالحة.

والتاجر المثالي الذي يجوب الارض مستثمراً ماله ومهارته، هو هذا الذي يصفه لنا كتاب «الف ليلة وليلة». ولكن لم يكن احد ليتجر بماله وحده. فمن طريق اتفاقات يجربها مع غيره من التجار، او بالاشراك برأس مال يتناهد بعضهم على تكوينه بدفع اقساط منه على

المجم معينة ، كان التاجر ينهض لعمله ويمضي في مغامراته على بركة الرحمن ، وهي عادة ترجع باصولها الى الاجيال القديمة . . والاموال المستثمرة على هذا الشكل ، كان يُؤتَى بها من جهات شتى ، فيشارك بها العمال ورجال الادب ، وصغار التجار من جميع طبقات المجتمع ، وكتّاب الملاكين وابناء الارستوقراطية من رجال الجيش . فاذا ما راح التجار يستثمرون بمضامولهم ومكاسبهم في ابتياع الاملاك ، عمد كبار الملاكين الى تشغيل جانب من امولهم ، في المشاريع التجارية ، وهي مشاريع كثيراً ما تهددتها المخاطر والارزاء . الا ان هذه المضاربات كثيراً ما عادت على اصحابها والقائمين بها بالربح الوفير ، وحفزت اصحاب الطبقة الوسطى على الاقبال عليها . وعلاوة على ذلك ، فالدولة كثيراً ما ساهمت من جانبها بهذه التجارة ، اذ لم يكن الملوك والامراء يأتمنون هؤلاء التجار على مبالغ طائلة ، مساهمة منهم بهذه الحركة فحسب ، بل كثيراً ما كان التجار يشاركون بجباية الخراج ويتصرفون ، في تجاراتهم ومضارباتهم باموال لم تكن لتتوفر لهم مهما اقتصدوا واذاً خروا . وكان بيت المال نفسه يستفيد ، هو ، الآخر ، من جباية الرسوم المفروضة على هذه المقايضات ، اذ كان عليهم ان يتقيدوا بدفعها وفقاً للاصول .

وتحسين الاعتماد ، وتوفير النقد لم تكن ابخس فوائد هذه المعاملات التجارية ، فليس فيها من جديد . ومع ذلك ، فقد كانت هذه المعاملات تجري على نطاق لم يبلغ من السعة ما بلغه ، اذ ذاك . فاذا ما حمل التاجر معه نقداً عدداً ، فلم يكن ، على الغالب ، كميات ضخمة او مبالغ كبيرة ، اذ كان لكبار التجار ، في الاسواق التجارية الكبرى ، عملاء او وكلاء معتمدون يسحبون عليهم سندات لشخص ثالث ، فيدفعون له من ضمنهم ، ما يطلب اليهم دفعه ، لقاء فائدة معينة . والعمل بهذه السفاتج (جمع سفتجة ، والكلمة فارسية) كان شيئاً متعارفاً لدى التجار ، اذ ذاك ، كما ان السند او الشيك كان تمهداً بالدفع من قبل موقعه ، اذ ان السند ، كان ييسد حامله ، بمثابة قيمة السند . ولم نرَ تركة او ميراثاً ، مهما بلغت ، لم يذكر المورث ، في جردته ، من السندات المستحقة عليه ، ما يربو على ما يتركه من ثروة نقدية . وكان بيت المال يستوفي حصته من هذه الرسوم ، ويدفع بدوره ما يستحق عليه من ديون . ففي مركز تجاري كبير كالبصرة ، مثلاً ، كانت المبالغ المستحقة على التجار اولهم ، تدفع لاصحابها او تستوفى منهم عن طريق الاعتماد المالي . وكثيراً ما كان التجار المتقلون يستودعون وكلاءهم مبالغ طائلة ، بعد ان يتمهد هؤلاء بمدم مسها او التصرف بها الا بامر صريح منهم . وقد كان القانون يحرم شرعاً ، الربا ايضاً كان ، ومع ذلك فقد كان الربا فاشياً ، في كل مكان ، يتحيسل التجار على القانون لتأمين الكسب غير المشروع .

كانت المعاملات المصرفية وقتاً على كبار التجار . اما الصيارفة فقد تميزوا عنهم بانهم اقتصوا بأعمال الصيرفة الهلية . وكثيراً ما كان هؤلاء الصيارفة ، جهاذة (الكلمة فارسية) أي يُعهد اليهم من قبل بيت المال ، لخبرتهم ، بتمييز الجيد من الزائف ، بين هذه النقود التي تدفع للخراج ، وكانوا يتقاضون عمولة عن خدماتهم هذه ، كما كان باستطاعتهم ان يشاركون ، بالمضاربات المالية

والاعمال التجارية .

وكان من جراء اعتناق سكان البلاد للإسلام واقبال المسلمين على التجارة ان كثر عدد الصيارفه في المدن والمراكز التجارية ، وهي اعمال تماطها النصارى واليهود والمجوس وعدد من المسلمين ، على السواء . فالقوارق الدينية لم تؤلف حاجزاً او حائلاً دون احد لتعاطي مثل هذه الاعمال . وكان كبار التجار ، ولا سيما البزازون بينهم ، يأنفون من التعامل مع التجار بالفرق ، او التجار المتجولين في الاسواق لانشاء معظمهم للطبقات الدنيا .

والتاجر ، سواء أكان مسلماً او غير مسلم ، لم يكن ملازماً بدفع رسوم المكس إلا عندما يمتاز الحدود بين بلد مسيحي وآخر اسلامي . غير ان التجزؤ الجغرافي وقيام الممالك والسلطنات والجنات الكثيرة ، في العالم الاسلامي ، جعل من هذه القاعدة شيئاً وميماً او حبراً على ورق . ومهما يكن ، فقد نشئت في المدن والخواضر الكبرى للتجارة رسوم خزن ومرور ، كثيراً ما ندد بها وانتقد من فرضها ، الفقهاء الذين كثيراً ما خرجوا من الوسط التجاري ذاته ، مع انهم لم يتمرضوا بكلمة نقد ضد ضريبة الخراج . وليزموا التجار دفع هذه الرسوم ، كان عليهم ان يودعوا سلمهم في الفندق الذي كان يقوم عادة ، عند مداخل المدينة ، ثم يمدون الى التصرف بفضائهم وببعضها من تجار الفرق ، اذ كان من المحظور على التاجر ان يبيع بضاعته بالفرادى . وكثيراً ما تقاضى رؤساء القبائل وكبار الاقطاعيين رسوماً خاصة « خوة » يفرضونها على القوافل كرسوم حماية . وكانت حركة التجارة في المدن مستمرة ؛ اما الاسواق القائمة على طريق الحج ، فلم يكن لها شأن يذكر .

وكانت الدولة والهيآت المحلية تستوفي رسوماً عالية من المكوس بلغت ١٠ ٪ على المسلمين ، و ٢٠ ٪ على غيرهم ، ما لم ينعموا باستثناء خاص . وقد يحدث ان تقوم الدولة نفسها بالتجارة ، في بعض الحالات التي تشتد فيها المجاعة ، تأميناً منها للمواد الغذائية . وقد كانت تحتكر في بعض الاحيان الاتجار ببعض الاصناف أو المواد ، كبيع الذهب الخام مثلا . وهذه الاحتكارات كثرت الواعها ، وتمددت مناهجها في مصر . وعلى هذا النهج سارت ايضاً بيزنطية عندما كانت تستورد كميات وافرة من المواد الغذائية ، يحدوها الى ذلك ، الرغبة في تأمين تامين البلاط والمعاصم . اما في البلدان الاسلامية ، فتدخل الحكومة لم يتمدد على ما يظهر ، الاهتمام بخزن مقادير كبيرة تحسباً للطوارئ وفرض رسوم على المواد الغذائية الاساسية كالطحين والخبز عند ارتفاع الاسعار ، وبيع المواد بأسعار مخفضة عند نشوب المجاعة . وفي ما عدا هذه الاستثناءات ، يبدو ان اسعار المواد الاساسية لم تتبدل كثيراً . الا ان الاسعار كانت تختلف اختلافاً بيناً بين قطر وآخر : فالطحين ، في مصر كان سعره ارخص مرة او مرتين بما كان عليه في العراق .

وهكذا نرى ان العالم الاسلامي برمته نظم جيداً اعراف التجارة وآدابها واساليبها التقنية وهي اعراف وآداب واساليب لم تلبث ان انتشرت في جميع أطراف عالم البحر الابيض

المتوسط المسيحي . ولكن من أين لنا ان نعرف ، في هذه الحركة التجارية التي ازدهرت ، في ايطاليا مثلاً ، ما هو ، في هذه الاعراف ، بيزنطي او عربي ، من التراث الماضي القديم أو من الاشياء المستحدثة في الظروف المتشابهة الواحدة ؟ والثابت الاكيد هو ان الحركة التجارية البيزنطية التي تميزت بالسلبية والمحصر في حيز جغرافي ضيق ، لم يتم لها شيء مما تم للحركة التجارية في العالم الاسلامي ، من تنظيم للاعتماد المالي ولا من مرونة الرسوم والحماية .

والصناعة التي كانت دوماً من النوع اليدوي ، لم تكن تتعارض وتشغيل الحرف والمهن عدد كبير من الفعلة والعمال ، في بعض الحالات . نحن نعرف الكثير عن وضع الصناعة في الامبراطورية البيزنطية ، في القرن العاشر ، وذلك بالاعتماد على كتاب مشهور عنوانه : « كتاب الرئيس *Livre des Préfets* . اما معلوماتنا عن الوضع التجاري في العالم الاسلامي ، فهي متوفرة جداً ، ولو جاءت متأخرة عن تلك ، وذلك من الكتب الموضوعة في « الحسبة » والتي يعتمدها « المحتسب » الذي يشرف على تنظيم الاسواق التجارية ويسهر على اسباب الأمن فيها . ففي كلا الوضعين ، فالمظاهر البرانية أو الخارجية والناحية الادارية للمهنة تحظى بعناية اكبر مما يحظى به وصف المهن أو اصحاب الحرفة انفسهم .

لابد من التمييز ، سواء في بيزنطية او في الاسلام ، بين الحرف التي تقوم الدولة بتنظيمها والاشراف عليها ، وبين الحرف الاخرى الخاصة . يدخل في الفئة الاولى ، الى جانب ضرب السكة ودور الصناعة والمصانع الحربية ، مصانع النسيج التي كانت تؤمن صنع الملابس الفخمة اللازمة لرجال الحاشية والبلاط او لديوان الملك ، كالديباج الموشى بالذهب واسلاك الفضة ، او الحرير الملون بالقرمز والارجوان مما تدأب على صنعه دار الطراز ، في الدول الاسلامية ، والـ *Gynécée* ، عند البيزنطيين ، كذلك كانت الدولة تحتكر صناعة البردي في مصر ، الى ان زالت صناعته وماتت عند ظهور صناعة الورق او الكاغد . اما ما تبقى من الصناعات الاخرى فصناعات خاصة ، ولو فرض على بعضها ، كما في بيزنطية مثلاً ، وجوب تأمين بعض الاصناف اللازمة للحكومة ، في الدرجة الاولى ، تبتاعها بالثمن المعين مع الرسم المفروض ، او تستوفي منها عيناً بعض المصنوعات ، كرسم مقطوع ، وهي طريقة ليس عندنا ما يشير الى وجود مثلها في العالم الاسلامي ، اذ ذاك .

وكانت الحرف في التاريخ القديم والاجيال الوسطى تنتظم حلقاتها على اساس نقابي . وهذه النقابة ، هل كانت تشبه لعمرى ، الـ *Collège* في التاريخ المتأخر عند الروم وهو جهاز دولة في الصميم ، ام انها كانت صورة سابقة وانها ، لهذه النقابات التي قامت في الغرب ، فيما بعد ، أو هي مؤسسات ومنظمات خاصة ، في جوهرها ؟ لا شيء من هذا على الاطلاق في بيزنطية . فذهب تدخل الدولة الممول به في بيزنطية والمنتقل اليها في جملة من انتقل من تركا تاريخ الروم المتأخر ، جرى تطبيقه على النقابة او اهل الحرفة الواحدة ، مع الاخذ بعين الاعتبار ان وفرة اليد العاملة

جعل من غير الضروري قط، انتساب العامل للحرفة امراً متوارثاً أباً عن جد، او امراً إلزامياً. وقد خضعت الحياة النقابية والنشاط النقابي، عندم، للقانون محكم، دقيقتي، تضمه الدولة وتشرف عن كسب، على تطبيقه. فالتقابات المهنية في القسطنطينية تقع ادارياً، على رئيس الشرطة الذي يتوجب عليه ان يسجل الاعضاء في الحرفة المعينة ويرخص بانتماء أعضاء جدد إليها. وسرى، فيما بعد، ما هو عليه الوضع النقابي، في العالم الاسلامي. فمع ازدياد الطابيح الديني للدولة في الاسلام، خضعت الحرف والمهن لادارة المحتسب ولاشرافه، وهو المرسول اليه، أصلاً، السهر على التقيد بالفروض والواجبات الدينية، والاعتصام بالآداب العامة، أي انه مشارك للقاضي من بعض الوجوه والصلاحيات، وتقوم الدولة بتعيينه كذلك، دون ان يكون للقاضي أي اشراف فعلي على وظيفة المحتسب. والشعور السائد، مع ذلك هو ان التقابات اجهزة تعمل من ضمن الادارة العامة اكثر مما هي تشكيلات عفوية، اذ ان هنا، كما في بيزنطية، ليست الجمعيات الشعبية التي تنتظم سلك الجماهير، مهنية قط. ولا يبدو قط ان النقابة تكوّن، عند رؤساء الورش، الاطار العادي لحياة « معلم الكار ».

ومها تكن عليه طبيعة هذه التقابات، فالقانون الذي تخضع له يحمل الطابع الاقتصادي الواحد، ويهدف الى غرض واحد، الا وهو الحؤول دون المنافسة وتأمين شيء من الاحتكار للحرفة الواحدة، الامر الذي يفرض القول بوجود سوق ضيقة تملأ بسرعة، ويتعديد الاجور والصفات التي يجب ان تتوفر في صاحب المهنة، تأميناً لمصلحة المستهلكين والمنتجين، على السواء، بعد ان يصبخوا في مآمن من كل مزاحمة أو منافسة. هذا اهم ما جاء من احكام وتوصيات في كتاب *Livre des Préfets* الذي اشرنا اليه اعلاه. اما في الولايات والإرياف، سواء في بيزنطية أم في العالم الاسلامي، فالامر لم يكن على مثل هذه الدقة، اقله فيما يتعلق بالاجور والاسعار، بعد ان يكون المحتسب اخذ على عهدته، تحديد الأجر، وتحرير المكاييل والموازين والسهر عليها من الزيف والتلاعب. وعندما تعمل الصناعة تلبية لحاجة سوق في الخارج، تضفي عليها المراقبة من قبل الادارة، ضماناً أكبر لحسن الانتاج واتقانه.

اما في المدن فالمهنة أو الحرفة لها اختصاصها ومحترفوها. واصحاب المهنة الواحدة يعملون في سوق واحدة أو في حي واحد، وعلى هذه الوتيرة سار الغرب فيما بعد. والروح النقابية هذه تغفلت بعيداً بين الموظفين الاداريين واصحاب المهن الحرة. ويتخضع لرئيس المهنة العمال المتدربون والعمال المياومون، واصحاب المرتبات المعينة، حتى العبيد الارقاء، في بيزنطية، حيث كان يسمح لهم بممارسة بعض المهن، على مسؤولية اسيادهم الذين كانوا يحتفظون لانفسهم، بقسم من اجورهم. وعلى الاجمال، فالعمل اليدوي هو بيد اصحاب الحرف والمهن، سواء في المدن أو في الريف، في كل ما يصون مصالح سيد الارض. واصحاب الحرف لا يشاركون، الا ما ندر، في الاعمال الزراعية، فقد نظر الفلاح الى الرقيق نظره الى ابن المدينة، لا يراه الا عندما يحضر مطالباً، بكل خشونة، بحصة سيده من الثلال. ففي الورش العامة، يؤلف العمال المياومون

القسم الأكبر من اليد العاملة ، بينما لا يكون الأرقاء سوى قلة بينهم ، يتصرف بهم سيدهم وفقاً للحاجة ومقتضيات العمل .

كثيراً ما غصت المدن بثالة السكان تتألف من الأفاتكين ، والشطّار ، والمدن والدجالين والحطّفة والسرقه ، يتحيل الواحد منهم في عيشه على المفلّين ، ويقتاتون من فئات موائد الاغنياء ، كما في روما قديماً ، وكما هو الوضع في بعض مدن الشرق اليوم ، حيث عدد السكان هو اكثر بكثير مما تمّ عليه اهمية الوضع الاقتصادي فيها .

فالمدينة ، في الاسلام ، ابتعدت كثيراً عما عُرف لها من هندسة وتخطيط في عهد اليونان والرومان . فلم تحتفظ بما كانت عليه من شوارع واسعة عريضة تسير في اتجاه واحد مشترك ، ولا بالوسط المحوري الذي كان يؤلف منها قلب الحياة المدنية والاقتصادية . فباستثناء القيسرية ، التي هي سوق الاقمشة والبزازين ، والتي بقيت قائمة في قلب المدينة ، انتقلت الحركة التجارية فيها بالاحرى الى الاطراف ، الى محارجها ، اي ابوابها البرانية . وكثيراً ما قام محل الساحة العامة المكشوفة مسجد كبير . وقام في المدينة الواحدة ، المتفرجة الشوارع والازقة ، احياء عديدة كاد الواحد منها يستقل تقريباً في عزله ويقنع بما يقدم فيه من حركة مها انكشفت معالمها . وتنفّس البيوت في هذه الاحياء من الداخل ، على افنية مكشوفة بينما تدير ظهرها للشارع في جدار أهم لا ثغرة فيه ولا نافذة . ومع ذلك حذار من ان نغفل في تقييم الصورة المرسومة . فالمدينة القديمة التي لم تميز دوماً بتخطيط هندسي مبسّط ، لم تتبدل معالمها بالسرعة المرجوة ، ولا بالقدرة اللازم . فانقسام المدينة الى حارات او احياء لم يحلّ قط دون قيام نشاط جماعي فيها امتد الى جميع اطرافها . فقد لا تقع منا العين على معالم للتجدد جديرة بالذكر او التنويه ، الا انه يبرز في كثير من هذه المدن ، كدمشق وبغداد ، مثلاً ، شبكة متميزة من الاقنية البديمة لجر المياه ، وايصالها الى جميع الاحياء ، والاكثر من سبيل المياه والاسواض فيها ، وبالتالي من الحمامات العمومية .

وهذه التنسيات الادارية التي كانت عليها المدن في عهد الامبراطورية البيزنطية الاعلى ، يبدو لنا انها مثلت دوراً بارزاً في هذه الاضطرابات التي كانت تلشب ، الفينة بعد الاخرى ، في القسطنطينية وتهزها بعنف . وقد عرفت المدن الاسلامية مثل هذه التنظييات والتنسيات التي جاءت استمراراً لما عرفت من امثالها قديماً . فقد قامت في المدن السورية ، منذ القرن العاشر ، منظمات الاحداث يتولى افرادها السهر على الامن والهدوء ، وهي منظمات كثيراً ما قام الاعضاء المنتمون اليها بمحركات انتفاضية هندمسا كلوا يأنسون ضعفاً او تراخياً من جانب صاحب السلطان ، وذلك تعبيراً منهم عن عدم رضو المواطنين ، او عن وجود غليان فكري بين الناس . ومن جهة اخرى ، نرى في عهده كبير من مدن ايران ، وفي بغداد بالذات ، منظمات اكثر تعقيداً في نظمها ، تعرف عندهم باسم « الفتوة » التي لتليد ، من حيث الاشتقاق ، معنى

الاحداث ، وعضاؤها « الفتيان » ، وهي منظمة وعت الكثير من عادات العرب و اخلاقهم قديماً ، كالشجاعة والجرأة والجود والمصيبة او التضامن . فاذا كان المصطلح عربياً ، من حيث الرضع والاشتهاق ، فمدلوله يتم عن تشكيلات يعود اصلها لمهد الدولة الساسانية ، فتقدت الكثير من عربيتها او سماتها العربية . فبمزل عن الاسرة والقبيلة ، يتعاون افرادها على العمل مما ، كما يتعارفون فيما بينهم على كل ما يؤمن لهم الرفاهية والاشراح والترويح عن النفس ، وكلها اهداف لا تم على شيء من الامور الديلية . والى جانب هذه الفئة ، نرى طبقة العيارين ، وهي طبقة تتألف من جهرة البائسين والموزين الذين لا يقوام لهم به ولا سند ، يييمون على وجوههم ويتطفلون على موائد الناس ، وقد يقومون بجرمة سجس من وقت الى آخر ، فتتناقل وطأهم على الاحياء الغنية ، ويطالبون بحلمهم من شرطة المدينة فيعدوا من وطأها . ومع ذلك نرى هؤلاء الفتيان ، يصحبون في القرن التاسع ، نقطة الثقل لتجمع فئة الميارين ، فينظمون انفسهم في وحدات غير قانونية . فالمدلول الادبي لهذا التضامن الذي يدين به الفتيان ، لا يتنافى مع حق او واجب سرقة الاغنياء واستخلاص ما يرضون في استخلاصه من ارزاقهم ، والا فكيف نستطيع ان ندرك او نفهم تصرف هذه الطبقة من اللصوص الاشراف الذين يسرقون لمساعدة غيرهم . وقد عرف الفتيان في القرنين العاشر والحادي عشر ، مواقف سيطروا فيها على الوضع السياسي في البلاد ، اذ كثيراً ما اصبح رئيسهم ، كما هي الحال تماماً عند الاحداث ، رئيس الشرطة ، في المدينة .

حياة الريف في البلاد الاسلامية
وحياة الناس في الريف اصعب إحاطة بها من الحياة في المدينة
التي اصبحت مسادة التاريخ الاسلامي الاول والمعين الاول
لمصادره المختلفة . فالريف هو قوام الحياة منها ، يمدّها بمحاجتها من القمح وبغير ذلك من الغلال والمحاصيل . فهي لا معنى لها بذاتها ، ولا بدون الفلاح او المزارع الذي يصعب مع ذلك تحديد عمله في المجتمع البشري . فبين المدينة والريف ، لا محل لحركة تبادل تجاري . فالتجار يتعاملون الاحمال ، بين مدينة واخرى ، والارباح التي يحصلونها ، يجب ردها ، بمد كل حساب ، الى المنافع التي يجنيها سكان المدن الاغنياء ، من عمل الفلاح والشغل الذي يقوم به . ولحسن مقابل ذلك لا يتلقى الريف شيئاً من المدينة . فالسكن فيه ، والغذاء ، واللبس والادوات ، كلها امور في غابة البساطة ، تدبر محلياً .

فليس من داع بعد هذا ، للتبسط والاستلغاضة في تبين مسا كانت عليه الوسائل الفنية في الزراعة من طابع بدائي ، اذ لم يطرأ عليها اي تطور اساسي منذ التاريخ القديم حتى القرن العشرين . ومع ذلك فقد شجع الاسلام أفضلمة بعض المزروعات ووطنها في اماكن جهلت زراعتها من قبيل . فلقصب السكر ، وزراعة التوت الذي عليه لقتات دودة القز او الحرير ، دخلت فنون زراعتها الى الغرب . والاساليب الفنية التي عولوا عليها في ري الاراضي ، في الشرق ادخلت الى الاندلس وراجت فيها ايمسا رواج . ونمو المدن ، وتكاثر السكان ، زاد من

شدة الطلب على المواد الغذائية . فقد كانت عمارات كثير من السفن تخمر دجلة ناقلة المواد الغذائية الى بغداد . ومع ذلك فلم تؤد هذه الحركة الى اي تحسين بذكر في حياة الفلاح ، وبالتالي في حياة الريف .

فالنشاط الزراعي هو ابدأ رهن بحاجة الاراضي والثاهل للفاه . وكانت مسؤولة الادارة الاولى تأمين الاعمال والاشغال التي تؤمن وصول الماء من الآبار او الانهر ، واسالته الى حيث تشتد الحاجة اليه . واساس الضريبة على الاراضي ونسبة الوسوم المفروضة على المزارع تختلف باختلاف طبيعة الارض ونسبة ما هي عليه من ري طبيعي او سقاية . فالاراضي المشجرة تؤلف طبقة خاصة . وتربية الماشية كانت تجري على نطاق ضيق ، والفلاحة لم يكن يقتضي لها جهداً كبيراً ، بينما أهمل امر تسميد الارض بالاسمدة الطبيعية . والظاهر ان صناعة الالبان ومشتقاتها كانت ، مع الحنطة ، اهم ما يعول عليه الانسان في امور غذائه .

وكانت تربية الماشية جل ما يعتمد عليه البدوي في امور معاشه . فالبدو الرحل منهم اعتمدوا تربية الجمل ، بينما اتخذ البدو الظواعن ، عماداً لهم تربية الاغنام ، يظعنون بها طلباً للكلاً والعشب مع تقلبات فصول السنة . والتعاون المشترك بين البدو والحضر هو من الامور الحيوية في العالم الاسلامي ، وهو في ايران اقل منه في البلاد العربية الاخرى ، قبل هجرة الاتراك الذين وحدوا من مظاهر الحياة في البلاد . فقد قام الجانبان بتبادل محاصيلهم . ففي الازمنة والافطار التي طغت فيها الانقسامات والتحزبات السياسية كثيراً ما فرض البدو على سكان المدن تقديم العوائد المينية . والاملاك الواقعة عند الحدود ، كان استئثارها ينتقل مناوبة وبصورة مطردة ، بين البدو واهتل الحضر ، الا ان اختلاف انظمة الحكم ، والاضطرابات الاجتماعية التي كانت تقع ، كثيراً ما لحقت تغييرات اساسية في نسبة سكان الحضر والبدو ، على السواء ، وبالتالي بين المناطق التي اعتاد البدو ارتيادها والمناطق الاخرى التي كان يستغلها سكان المدن . وكثيراً ما تحول اهل الظعن الى مزارعين ، وهو وضع كثيراً ما نظروا اليه نظرة هزة وازدراء ، واعتبروه محطاً لهم . وعندما يستقر بهم المطاف ، ينزع زعماءهم للسكنى في المدن ، الامر الذي ساعدهم على تعاطي الحياة الريفية دون ان يقوموا ، هم انفسهم ، بامور الفلاحة .

ونود كثيراً ان نعرف فيما اذا كان الازدهار الاقتصادي ادى الى اي تحرر أو تحسين في حياة الريف ، او ادى ، بعكس ذلك ، الى المزيد من ايهاط الحياة وازراحمها . فالجواب الواحد لا يمكن ان يعبر تماماً عن الوضع الذي ساد واستبد في جميع انحاء العالم الاسلامي . ويمكن القول باختصار ، دونما اطلاق او تعميم ، انه حدث ، ولا ريب ، من جراء ذلك ، شيء من تركيز الملكية ، ومن التضييق على الفلاحين ، والى المزيد من الاحراج في وضعهم ، والامعان في البوس . فالمسؤول الاول عن هذا المصير القاتم ، انما هو الطبقة البورجوازية التجارية ، واكثر منها مسؤولة ، الجيش نفسه . فالملكية البورجوازية التي عادت الى عهد بعيد ، سيطرت على

الحدائق والجنان والبساتين الواقعة قرب المدن ، وهي اقطنان عرفت بفنائها وخصبها مع ما هي عليه من ضيق المساحة او الرقعة ، كما انها سيطرت على مساحات عقارية واسعة شملت قرى بكاملها . فلم يكن من النادر قط ، ان نرى هنا وهناك ، في العهد الاول من الدولة العباسية ، الفلاحين يتمتعون بملكية قوية الجانب ، وهي ملكية لم يستطيعوا ان يحافظوا عليها فيما بعد ، الا بشق الانفس . فالظروف التي ساعدت على استمرار المشاركة في مزارعة الارض ، لم تعد تتوفر الا في المقاطعات التي توزعت فيها الملكية العقارية وكلفت تشفيها غالبا ، الا انها كانت تمطي دخلا طيبا ، وتزخر بالسكان ، كما هي الحال في لبنان الماروني مثلا ... اما في غير اماكن ، التي كانت توفرها الاعمال التجارية ، فالارباح قد استخدمت في شراء الاملاك والاقطنان العقارية، وهي ملكيات نمت وازدادت على اساس نظام الجباية الذي عمل به اذذاك . وكان الفلاح عندما يروح فريسة العوامل الطبيعية او يقترض لأي حادث عائلي ، يقترض ، عادة من المالك المجاور له ، وعندما يرى نفسه عاجزا عن الدفع كان يرى من مصلحته الخاصة ، ان يتخلى عن ارضه للذائن واضما نفسه وذويه تحت رعايته وحمايته ، ويعمل مزارعا عنده . ومع ان القانون لم يكن ليقر او ليعترف بآية عبودية تشد الفلاح الى ارضه ، كان الفلاح المسر الذي يمجز عن دفع دينه ، يتعهد بوفاء الدين بالعمل في الارض . فاذا ما حاول الهرب أو التهرب أو التملص ، امكن مطالبته بما عليه ، لا سيما وان جميع سكان القرية كانوا مسؤولين ، جماعيا ، أمام ادارة الجباية ، عن جميع الرسوم المترتبة على قريتهم .

وقد عرف القسم الجنوبي من العراق تغييرات اخرى اخرى قاربنا من عهد الرومانيين . ولكن يجب الاحتراز من القول بتعميمها . كان كبار الملاكين في بغداد يستثمرون الاراضي الخصبة الواقعة على جنبات شط العرب ، ويزرعونها قصب السكر مستخدمين لها عددا كبيرا من الزوج بعد ان تناقص كثيرا عدد الفلاحين ، يأتون بهم باعداد كبيرة من سواحل افريقيا الشرقية . تألف منهم جماعات تسكع افرادها في فقر مدقع والبؤس ، كما يشهد على ذلك كتاب العصر . وقد زاد هذا الوضع الفلاحين بؤسا بعد ان تعذر عليهم مقاومة هذه المنافسة الشديدة التي تعرضوا لها . وقد ادى الوضع المذكور ، في النصف الثاني من القرن التاسع ، الى ثورة الزنج ، فانضم اليهم بدافع من الشعور بالتضامن ، عدد كبير من الفلاحين . وقد امكن ، بعد جهد طويل ، التغلب على هذه الثورة اسوة بثورة الزنج ، في عهد سبارتاكوس ، بعد ان وضعوا الخلافة ادنى من قاب قوسين من هلاكها . الا ان هذه الثورة تركت في الطبقات الشعبية بذورا لم تلبث ان طلعت في انتفاضات عنيفة قامت فيما بعد .

وكان من جراء البؤس الذي غمر الريف ان توافد الناس على المدن ، فقصت سكانها وزخرت ارباضها بالوافدين عليها طلبا للعيش وفرارا من الضيق الخانق الذي اخذ بتلابيبهم ، مما ادى الى اضطراب حبل الأمن في البلاد ، ولا سيما في هذه المناطق التي يألها الاكراد ، اذ كانت اعمال اللصوصية ضاربة اطنائها . فقامت في البلاد عصابات من شذاذ الآفاق تسلب المارة

وتبلس كبار الملاكين ولتتصرم ، واستفحل خطرهما بعد ان انضم الى هذه المصائب عدد كبير من اهل البدو .

الجيش في البلاد الاسلامية
لما كان نظام الجيش مسؤولاً ، الى حد بعيد ، عن المصير المظلم الذي آل اليه الوضع في الريف ، كان لا بد هنا من إلقاء نظرة الى الوراثة لتحل الجيش وتشكيله .

كان هذا الجيش عند الفتوحات الاسلامية الاولى يعني العرب ، يتأمن أوداه من المغانم والاسلاب ، ومن المرتبات والاعطيات التي تدفّع له . غير ان بعض العناصر المقيمة باستمرار على الحدود ، تميزوا بمعض الشيء ، عن اخوة لهم في السلاح توزعوا على الحاميات في المؤخرة . الا ان توقف حروب الفتح ، وعدم الانضباط ، الذي نشأ في صفوف الجيش ، والتفاوت في التدريب المهني والتقني ، بينما كانت الحرب تتطور وترتدي اساليب لم يألها العرب من قبل ، والحاف الموالي بالطلبات ، كل هذه الاسباب وما اليها ، ادت كما رأينا ، مع الانقلاب العباسي ، الى إقصاء العرب واقصاهم على المرتبة الثانية ، لتؤخذ منهم عند الحاجة ، بعض العناصر اللازمة للاعمال السريمة . فالعصر الخراساني اخذ يولف نقطة الثقل في الجيش وقوامه الاول ومادته الاساسية ، تدفع لهم المرتبات السخية . وهذا الجيش نفسه هو الذي شال ورجّح ، في مطلع القرن التاسع ، بعد المارك المتتالية ضد الامويين ، كفة حاكم خراسان ، اذ ذلك ، على اخيه الأمين الذي كان يسانده المنصر العربي في الجيش . وكان من الصعب ، وایم الحسنى ، على الخراسانيين الذين كانوا يشعرون بقوتهم ونفوذهم ، ألا يدلتوا لهذا النفوذ على غيرهم ويهبوا به ، ان يبقوا محافظين على ولايتهم ، نحو الخليفة ، في كل المناسبات ، تاهيك عن ان تجنيد عناصر تم لها الاستعداد اللغوي والمسلكي ، لم يكن دوماً بالامر اليسير ، وهو امر يمكن تكرانه او التشكك فيه ، الا في بلاد البربر حيث كانت طليعة المارك والحروب ، تتطلب الاعتماد على الحياة الثقيلة والتمويل هليها ، مما كان يقتضي له تدريباً اكبر واوسع . وكانوا يحولون ضد صفار القوم للعمل في الجيش من لم تكن لهم طاقة على شراء حاجتهم من الجياد والعتاد .

وفي الربع الثاني من القرن الثالث ، تمت خطوة ثانية ، الى الامام ، وذلك بتدبير من الخليفة المعتمد . فازدهار التجارة ، والجماء حركتها نحو البلدان الشمالية ، سهّل اقتناء الكثير من الارقاء والعبيد ، من سكان هذه البلدان ، ولا سيما من بين الازراك منهم الذين اشتهروا بتفاليدهم الحربية ، حيث كان الاهلون يتخلون بارتياح ورضى عن اولادهم ، رغبة منهم في تأمين مستقبل افضل لهم عن طريق الخدمة في جيش المسلمين ، حتى ان قتالهم كانت تحارب بعضها بعضاً وتتقاتل فيما بينها طمعاً في اسرى يقعون بين ايديهم ، فيبيعونهم ببيع التماج في سوق النخاسة ، كما جرى ذلك من بعد ، لرؤساء القبائل من العبيد في افريقيا . وهكذا ضم جيش الخليفة وحدات من العبيد اخذ عددهم يتكاثر وينمو بما يردفه من الاحداث الارقاء ، بعد ان يتم تدريبهم

في العصر، وتخريجهم في امور الدين والجيش، ويدربوا على اعمال الحرب وفنون الكر والفر. اما ما تبقى من وحدات الجيش فقد كانت تتألف من ابناء البلاد، ولا سيما من بين العناصر الحشنة الطباع، شأنهم شأن العبيد الاثراك، يعملون تحت امره ضباط رؤساء من ابناء جلدتهم. وبعد ان يرقوا المراتب، ويصبحوا في مصف الضباط الاعلى، ينجحون، معتقن كلزائم عبيداً، حياة تختلف كثيراً، بما تم لهم من اسباب الرفاه والقوة والسيطرة، عن حياة معظم احرار الرجال، اذا ما شئنا ان نسقط من كل حساب، العبيد العاملين في الاعمال المنزلية.

والاقطاع والوقف وهذا الجيش الجديد، كان اكثر كلفة ونفقة، بالطبع من الجيش القديم فالخليفة، كالأباطرة الرومان بالنسبة لقائد الولاية، كان جبل اعتماده على الجيش، كما ان مصيره كان يتوقف، الى حد بعيد، على ولاء هذا الجيش له. وكانت معرفة هذه الامور لا تقوت الجيش، ولذا لم يكن ليتورع في مطالبه والتشدد فيها. فبيت المال لم يكن يستطيع الاعتماد على دخل مطرد بحيث يمكن له مواجهة دفع مرتبات عالية. ولهذا كان افراد الجيش يفضلون ان يُعطوا بعض الاطيان التي تدر عليهم مزيداً من الدخل والارباح يطمئنون لها ويموتون عليها اكثر من تمويلهم على مرتبات يقتتر صاحب السلطان في دفعها. ولهذا الاسباب، كان لا بد من خصم بتوزيعات خاصة من الاقطاع، كان الخليفة، الى هذا العهد، يتصرف بها للذين يلاقون عنده حظوة خاصة. ولم يكن هذا التدبير وحده كافياً، اذ ان كمية الاراضي التي امكن للخليفة التصرف بها، كان يحد منها اتساع الاملاك الاميرية، ولم يكن من الممكن انتزاعها من ايدي الذين صارت الى ملكيتهم منذ عهد بعيد، ومنذ بدء القرن العاشر، اخذوا يوزعون على الجنود، تحت اسم اقطاع، الرسوم المستوفاة عن الاملاك الخاصة، ليس فقط عن طريق مرتبات عهد الى مأمور بيت المال، او الى متعهدي الاملاك الاميرية، بدفعها لهم، بل ايضاً بالاعتراف لهم بحق استثمارها واستيفاء رسومها بعد ان تتخلى الادارة عنها لهم. هذا بعض ما كان عليه الوضع، اقلته في سواد العراق وفي غربي ايران. اما المناطق الدائرية الاخرى، فقد سارت الحركة فيها بتسهل كلي، كما اختلف الوضع كذلك في الولايات التي بقي الجيش يعمل في تشكيله، على القبائل التي بقيت تقاليد الحرب فيها قوية، كبلاد البربر، مثلاً.

وعلى كل، فقد آل الامر الى كارثة على الدولة وعلى سكان الريف ممّا. فالدولة فقدت، ان لم يكن بالفعل، فاقله بالاسم، الاشراف الاداري على قسم متزايد من الارض كما فقدت الاشراف على جانب من الفيه. فبعد ان جهل اسباب الارض الجدد ومن يعمل فيها من المزارعين، كل شيء يتعلق بكيفية استثمار الارض والوسائل المساعدة على ذلك، فلم يعد لهم من هم سوى الاثراء بانسرع ما يمكن، سيان عندهم أفقرت الارض أم اجديت، طالما كان بوسمهم استبدالها بقطعة غيرها اكثر عطاء واقل إمساكاً. وبعد ان اصبح الجنود اسباب هذه الاقطاعات، رأوا انفسهم يتمتعون بالثروة والقوة. فقد كان من اليسير على الملاكين البورجوازيين ان يرغبوا صغار

الفلاحين أو متوسطيهم ، على طلب حمايتهم ، وحلهم على التنازل عما يملكون من عقار ، طمعا منهم بحمايتهم ورعايتهم . فاذا ما استطاعت الملكية البورجوازية ، ان تحافظ على شيء من نشاطها في المناطق التي اشتدت فيها حركة تجميل المدن ، فنسب اضطرت للتخلي عن جانب كبير من هذه الاقطان ، لهذه الطبقة الارستوقراطية ، العسكرية والمقارية ، التي طلعت من جديد .

وما هو أنكى من ذلك ، الخطر الذي كان يزرع على كواهل الدولة . فالنظام الاداري الذي حمل به في عهد اوائل الخلفاء العباسيين ، كان ينص ، كما سبق واشترنا الى ذلك من قبل ، على وجود قائد للجيش وحاكم اداري ، في كل ولاية ، يستقل الواحد عن الآخر في ما له من صلاحيات وما يقع عليه من مسؤوليات . فلا يستطيع الأول دفع مرتبات الجند الماملين تحت امرته الا من المدفوعات التي يقدمها له الحاكم المدني ، بينما لا يستطيع هذا الأخير النهوض بمسئولته من خطط الا بالاعتماد على الجيش وقائده ، والدولة في شبه اليقين من ولائها لها . أما الآن ، فقد انجهم كبار القادة في الجيش الجديد ، للسيطرة على الادارة المدنية ، والتصرف بمصلاحتها ، بين تعيين وعزل ومراقبة ، والتصرف على هوامم موارد الدولة بزرعونها على الجند أو يحتفظون بها كما يشاؤون . وهكذا لم يلبث قائد الجيش ، في الولاية ، مهما حافظ على الشكليات ، ان اصبح السيد المطلق . ولم يفت الوضع على الخلفاء ووزرائهم مهما بلغت منهم الفتنة ، فراحوا يحاولون الحد من الامر . ولكن ما ان تندلع ثورة أو تبدر في الولاية حركة انتفاضية حتى يستنجد ذور الامر بصاحب الجيش لاجساد الفتنة ، فيضطروا للتسليم مرغمين ، بسا رفضوا التسليم به من قبل . واذا ما رغبوا في استعادة ما سلموا به ، كان عليهم ان يُنمئوا بذات الامتيازات ، على من يسطفونه ، لاعسادة الامر الى نصابه . وهكذا أطل الخطر على وحدة الامبراطورية من خلال مطامع المسكرين ، ومن هذه النزعات القومية التي كان يتمخض بها سكان البلاد الاصليون .

وبالرغم من الغلبة التي تمت في النهاية للارستوقراطية العسكرية ، بعد ان خففت من شأن القطاع التجاري وجعلته في المرتبة الثانية بالرغم مما كان يمثله من قوة ، والذي كثيراً ما استمان باموال المسكرين لتحقيق ما كانوا يقومون به من اعمال تجارية ، يحمل بنا ان بجانب المفالة في تصوير قوة البورجوازية . فهما بلغ من نشاط هذه الطبقة ومن سيويتها ، فهؤلاء التجار ، سزاء في العالم الاسلامي او في المغرب ، لم يكن نفوذهم ، سها بلغ من قوة ، بالمعامل الاكبر في خلق الامبراطوريات الواسعة .

وبالفعل فقد افضى التخصص المسلخي في الجيش وتشكيله العنصري الى التفريق بين السلطة العسكرية والسلطة الادارية : كسائل التوجيه ، الوظائف الادارية . فقد كان يُمنهذ بهذه ، الى المواطنين الاصليين من سكان البلاد ، وبذلك الى عنصر اجنبي دخيل عليها . وقد حصل محل

النظام الاسلامي القديم نظام احتلال عسكري ، بلغ اشده مع فتوحات الدولة السلجوقية ، الا ان معالم هذا التطور برزت بوضوح ، منذ القرن التاسع .

وفي الوقت ذاته ، برز الى جانب الملكية البورجوازية ، والعسكرية وطلع من تفاعلها ، نوع آخر من الملكية ، كُتِبَ لها ان تلعب ، فيما بعد ، حتى في التاريخ الحديث ، دوراً مزايد الامية ، الا وهو نظام الوقف او الجبوس . وقد كانت نواة هذا النظام ، وهذه الاملاك والاقطان التي صارت ملكيتها الى رجال الدين ، من أبناء الطوائف الاخرى التي لم يمسها الاسلام ولم يُلغنها . غير ان الوقوفات التي كان يجود بها المسلمون تلبست لبوساً شتى ، أفاد منها افراد المجتمع او بعض الهيئات والمؤسسات العامة . ففي الحالة الاولى ، أدت النظام الى حفظ تركة درية خاصة وصيانتها من الضياع ، وان كانت ، اجمالاً ، صغيرة ، لا كبير شأن لها ، وذلك بحجة تأمين اسباب العيش لأسرة فقيرة ، وبذلك يحيل دون توزع التركات . اما في الحالة الثانية ، فقد كان الغرض من الهبة دعم عمل خيري ، او اقامة بناء ديني ، كمسجد ، مثلاً ، او ذات منفعة عامة ، كالحمامات والمستشفيات والخانات ، اذ لم يرد نص قانوني على صيانتها والحفاظة عليها . وقد يفيد من هذه الوقفية اسرة ما من الاسر عندما يعهد اليها بادارة الوقف وباستيفاء ما يدره من عطاء . وقد شاعت عادة الوقف للأفراد وذاع استعمالها ، وهو يتألف ، على الاجمال ، من اطيان وعقارات وأشياء اخرى غير منقولة ، اذ انه كان من المحظور ، على الواقف ، في بدء الامر ، في مصر وغيرها من البلاد الاسلامية ، وقف املاك منقولة . ويبدو ان التبرعات للمؤسسات العامة لم تكن مهمة قبل القرن الحادي عشر . وكان الوقف على الاجمال وضيع الشأن اذ كان في مقدور الملوك والامراء وحدهم ، واصحاب المراتب العليا ، في البلاط ان يقوموا بتبرعات ووقفات لها أهميتها . ومع ذلك ، فلم يلبث ان اصبح للوقف شأن كبير ، كما لحقت ادارته شيء من التشدد والتعرج ، الامر الذي أفسد تحسينه ، من الوجهة الاقتصادية ، فأدى الى اهماله .

وقد اخذ المجتمع البيزنطي يتطور هو الآخر ، متبهماً الاتجاه ذاته الذي
المجتمع البيزنطي
سار عليه التطور في العالم الاسلامي ، وان تميز ببعض الميزات الخاصة به .
فالاملاك والاقطان الخاصة بالبورجوازية التي لم ترتكز على ثروات عينية تجارية ، كما هي الحال في العالم الاسلامي ، لم يكن لها شأن كبير . فالثروة العقارية التي كانت تحت تصرف النبلاء ضوئاً شأنها من جراء الغزوات التي تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية . وهكذا برزت في المرتبة الاولى ، حتى القرن التاسع ، الملكية الكلسية التي حاول الاباطرة الذين قالوا بتعظيم الصور منهم ، حتى نيقولورس الاول ، عهداً ، الحد منها . ولم تلبث الملكية العلمانية ان استأنفت تطورها المساعد بالنسبة التي ضعف فيها شأن طبقة الفلاحين ، في كل من الامبراطورية البيزنطية ، في عهد ما الاعلى ، وفي العالم الاسلامي ، اذ ذلك ، امام تزايد عظماء الدولة شأناً . فقد احدثت موجة الغزوات ، سرقة تراجع وقهرى ، دون ان تلتحق حركة التطور ، أي تغيير او تحويل

يذكر . غير ان اضطراب حبل الامن ، وتراكم الديون ، برباً او بغير ربا ، وجشع عظماء الدولة وطمعهم الاشعي ، كل ذلك وما اليه ، أدّى بالتالي : الى بيع الفلاح التركية المقاربة التي وصلت اليه بالارث ، والى استخذاء المستضعفين والتاسهم عطف الاقوياء ، كما ان المعجز عن الدفع أدتى الى شد الفلاح وربطه بأرضه ، والسلطة التي توفرت للمسكرين ساعدت على توسيع ما لهم من الاملاك الواسعة والاطيان والمقارات ، فلنشأ في قلب آسيا الصغرى ، منطقة اصبحت تنعم تقريباً بالطمأنينة ، إلا انها ما زالت مع ذلك ، المجال الاكبر للجهاد من كلا الجانبين ، وفيها تمت أكبر ملكيات من الاطيان لضباط الجيش الذين كان معظمهم من أبناء البلاد الاصليين ، تغطي الواحدة منها باتساعها ، ولاية برمتها ، كما حصل للأسر الشهيرة من آل فوكاس ، وسكليروس ، وماالينوس وكومينيس ، بحيث استطاعوا ان يقفوا بوجه الامبراطور نفسه .

وقد عاد هذا الوضع بالحيف الكبير على الدولة نفسها ، اذ فقدت الكثير من دخلها وزادتها ، بعد ان عجزت عن إرغام عظماء القوم على دفع ما يترتب عليهم دفعه من رسوم وضرائب مفروضة على الاراضي التي اضطر للتخلي عنها صفار الملاكين ، كما أسقط في يدها عندما ارادتهم على التزام حدود الاحتكارات العامة ، عندما يمدون لتصريف محاصيلهم . كذلك فقدت الدولة كل سلطة لها ، وراح عظماء القوم واكبرهم يتحدون الهاكم في الاقضية التي تصدرها ضدهم . كذلك فقدت وحدات جيشها بعد ان اخذ هذا الجيش يعتمد في تشكيله على طبقة الفلاحين الاحرار . فالوحدات التي كان هؤلاء العظماء يشكلونها من بين الفلاحين التابعين لهم ، لم يكن لها من كثرة العدد ، ولا من الولاء للامبراطور ما كان للجيش قديماً . ولذا جاءت ردة الفعل من قبيل حكومة الامبراطور قوية وسريعة جداً ، طوال القرن العاشر ، ضد تضخم الملكية المقاربة ، كنسية كانت ام علمانية . فقد حظر القانون على كبار الملاكين شراء اراض الفلاحين ، واعداد الى هؤلاء الاملاك التي اختصها منهم منتصبوها بالحيلة او بالعنف والاكراه ، وفرض على العظماء ، في هذه المجتمعات المسؤولة بالتكافل ، امام بيت المال ، الضرائب التي لم يكن في مكنة صفار الملاكين حملها والقيام بها .

كل هذا لم يحد قتيلاً ، فنذ القرن العاشر راح بعض الاباطرة ، امثال نيقوفورس فوكاس ، ويوحنا كزيمينيس ، من الارستوقراطية العسكرية يلمنون باليمين ما يهدمون باليسار . فتجهت تطور السلاح الثقيل ، لم يعودوا يكتفون الا بالملكيات المتوسطة الحجم بيننا ضحوا بالصغيرة منها التي فقدت كل قدرة لها على الاحتال ، والنهوض بما يترتب عليها من واجبات . ففي اواخر القرن المذكور ، أتاحت المناهضات التي نشبت بين العظماء ، وامكانية الحروب مع الخارج ، للامبراطور الشيط . باسيل الثاني ، ان يتغلب على هذه الثورات التي نشبت في عهده ، وان يقوم بمصادرات كثيرة ، فيكبح من جراح الارستوقراطية ، ويشد من شكيمتها . وقد اخذت هذه الحركة تتطور بسرعة أكبر ، في القرن الحادي عشر ، وهي حركة شابهت الحركة التي قامت في العالم الاسلامي ، وان تأخرت عنها قليلاً ، مع فاروق وحيد هو ان الامبراطورية البيزنطية استهدفت ،

لصغرها ، للعديد من محاولات الانقلابات ، يقوم بها العظماء للاستيلاء على الحكم والاستبداد به ، وليس لتوسيع رقعة الامبراطورية او لاقتسامها ، لما كانت عليه من متانة الجانب ، والتضامن العنصري والتباسك الديني ، ولبقاء الجيش معتصماً « بالروح الوطنية » .

الملك والنحل الاسلامية
ادى اشتداد النزعات الاجتماعية في العالم الاسلامي الى استفحال امر الملك والنحل التي تلبست مظاهر دينية اسلامية بينا اخفت في ثناياها مطالب ودعوات قومية مبطنة . واتسعت الفروق بين هذه الملك ، يوماً بعد يوم . فالخوارج لم يحافظوا على كثرة عددهم الا في بلاد البربر حيث استفحل منهم الامر ، واخذ يتلبس شكل دكتاتورية جماعية بزعامة آل رستم الذين ألتفوا ، في اواخر القرن الثامن ، امارة لهم في مقاطعة تباريت (ولاية وهران اليوم ، في الجزائر) وستمهد هذه الفرقة السبيل لظهور الحركة التي قام بها « رجل الحمار » في منتصف القرن العاشر ، ضد الفاطميين . وقد اقتصر عملها ، في البدء ، على بعض الواحات الواقعة في القسم الشمالي من الصحراء ، ثم في مقاطعة المزاب ، ومنها اخذ اتباعها ينتشرون في الجزائر .

اما الشيعة ، فهي التي استقطبت ، في الشرق ، جميع الناقين على الدولة ، بعد ان انقسمت الى عدة فرق ونحل اشدت بينها المنافسات الشخصية ، وبرزت الفوارق العقائدية والمنافسات الاجتماعية العنيفة ، وظاهر الاختلاف انحصر في شخصية الائمة الذين ينحدرون ولا شك ، من سبط علي بن ابي طالب ، الا انهم يختلفون في بنوتهم منه . الا ان سوء سلوك بعض العلويين ، والاختلافات العقائدية التي نشبت فيما بينهم ، اوجدت بين الجماعة شعوراً بان سلسلة الائمة انقطعت عند اختفاء الامام الاخير وتواريه ، دون ان يكون مات ، وسيمعود يوماً بشخص المهدي ، على شاكلة المسيح المرتجى ، في النصوص الكتابية ، قبل انقضاء الدهر ، ليملا العالم عدلاً وسلاماً . ولذا ، لا يمكن ان يقوم على ادارة الجماعة سوى قادة يتولون الامر انتداباً او بالوكالة ، ليحافظوا مع علماء الملة على نقاء العقيدة ، وكلها امور تناقض تماماً ما اجمع عليه اهل السنة . فالثورة عليها لا تجدي قتلاً ، ولا تفضي الا لانهلاك الجماعة . ولذا كان من الافضل التقيد بالعقيدة الرسمية ، والاخذ بالتقية .

قلنا ان فرق الشيعة تباينت فيما بينها . فمنها من رأى ان الامامة الشرعية تقف عند الامام الخامس زيد ، الذي مات سنة ٧٤٠ ، وقام اتباع هذه الفرقة بثورة عارمة ، في منتصف القرن التاسع ، فانشأوا في طبرستان (مازدران) الى الجنوب من بحر قزوين ، كما انشأوا في اليمن ، امارتين لا تزال الثانية منها قائمة الى يومنا هذا . فتعاليمهم وفقهم لا تختلف كثيراً عن عقيدة السنة وفقهها ، الا انهم غلبوا على امرهم امام شيع أخرى .

اما الشيعة الامامية ، فعدد الائمة عندهم ١٢ اماماً آخرهم الامام محمد ، في اواخر القرن السابع ، فهم يتميزون عن السنة بانتظارهم المهدي ، ويقولون ان جوهر الألوهية ، ينصب في

الامام ، كما يختلفون معهم ببعض الاحكام الفقهية كزواج المتعة او الزواج الموقت . وقد انتشرت هذه الشيعة في ايران ، ولا سيما بين الديلم ، وبين العرب من سكان العراق وسوريا الشمالية ، وتغلغلوا على نطاق واسع بين طبقة التجار ، الا انهم بقوا شبه مجهولين في الغرب ، وفي مصر . صحيح ان بعض زعمائهم الدينين قاموا احيانا بثورات لاهبة ، دون ان يفعلوا ذلك باسم تعاليمهم الدينية ، ودون ان يحجروا وراهم اتباعهم . وهكذا بقي اثرهم السياسي ضعيفا .

ويختلف عن الشيعة الامامية ، الشيعة الاسماعيلية التي يقف الائمة عندهم عند الامام السابع اسماعيل بن الصادق ، وهو شقيق الامام موسى الكاظم ، كما هو حسب ترتيب الائمة عند الامامية . فالاسماعيلية التي حافظت ، ولو ظاهريا ، على العقيدة الاسلامية ، اخذت الكثير من تعاليم الافلاطونية الحديثة والقول بالاشراق وهي مبادئ شاعت في بلدان الشرق الادنى ، قبيل الاسلام بقليل . فهي تشرح آي القرآن على اساس من التورية والرمزية ، بحيث ان الاديان لديها كلها سواء تقريبا . فالانتقال من الله الى الانسان ، انما يتم على سبعة ادوار او مراحل : اولها الله ، ثم العقل الكلي الذي تجسد تباعا في سبعة انبياء ، سادسهم محمد ، وسابعهم ابن الامام اسماعيل الذي توارى ، حوالي عام ٨٧٠ . وبين كل نبي ونبي ، سبعة ائمة ، اولهم بعد محمد ، علي ابن ابي طالب ، اما الفاطميون فهم ائمة النبي السابع . وهم يعتقدون ان الامام معصوم ، وهو ملك النفوس كما انه سيد الناس اجمعين . اما الخلاص والجحيم والجنة ، فاشياء لا تعني شيئا كبيرا عند الاسماعيلية ، بعد ان سلوا بتناسخ الارواح او التقمص . وهكذا ابتعدوا عن جادة الاسلام .

يظهر مما تقدم ، ان عددا قليلا جداً من الاتباع والمريدين استطاع فهم هذه التعاليم واستمرارها . فقد كان على المريد ان يمر بسلسلة من التعاليم السرية ، لا يبلغ منها القعة إلا فريق مختار . وتعاليمها تبقى سرية ، ويقوم بالدعوة لها جيش من المبشرين الداعي (جمع دعاء) يجوبون العالم لنشر الدعوة ، ودعوة الناس للاستعداد والتهيؤ ، بعد ان اقترب موعد مجيء المهدي ودنت نهاية العالم . وقد انتشرت تعاليم الاسماعيلية ، بين الطبقات الشعبية ، سواء في المدن او الارياف . وتألفت منها جمعيات مهنية ونقابات على اساس من مبادئها التي كانت محورا لتنظيماتها . وفي الهيئات السرية التي نشأت فيها ، جماعة « اخوان الصفا » التي نعرف الكثير من تنظيماتها عن طريق « رسائلها » . وهذه الرسائل عبارة عن موسوعة للعلوم والفنون في ذلك العصر . ووجدت الاسماعيلية موطناً لها في الهند وبعض الحماة فارس وأفغانستان ، وفي زنجبار وافريقيا الشرقية .

ومن الحركات الهدامة ، في الاسلام ، حركة القرامطة ، وهي لمحة قامت على اساس من المطالب الاجتماعية والتعاليم الدينية ، هزت بما أنته من الحوادث الدامية : الجزيرة العربية ، والشام ، والعراق وايران والهند ، وتركت في اذهان الناس ، ولا سيما المثقفين منهم ، ذكريات مريرة لما جرته على البلاد من ويلات ودمار . وقد امكن كبح جماحها او حصرها في مناطق

ضيقة لا يخشى من شرها . وخوالي عام ٩٠٠ ، اشتعل العراق والتهبت جميع أطرافه بثورة لاهبة قامت بها جماعة الفلاحين بعد ان انضم اليهم من نجوا من ثورة الزنج . وبعد جهود طويلة ووقائع مريرة امكن اخاد الفتنة وانقاذ الخلافة العباسية والحوول دون سقوط بغداد .

ولم تستطع السلطة ان تقضي على اعشاش الثائرين المعتصمين في المستنقعات او في المناطق الصحراوية ، الا بشق الأنفس ، ولا ان تخفف من روع الطبقة الحاكمة الا بعد طول عناء ، كما انها عجزت عن منع الغرامطة من اقامة حكومة مستقلة في جزيرة البحرين في الخليج الفارسي هي اشبه ما تكون بجمهورية شعبية جماعية ، معادية للطبقة الارستوقراطية ، مع انها شجعت اعمال الرق ، فزرعت الخوف في البلاد وروعت مكة بالذات ، بعد ان استولت على الحجر الاسود الذي يتبرك الحجاج بلمسه ، والحقوا اضطراباً في الحركة التجارية بين البصرة وسيراف . وقد الحقت الحروب التي دارت ، اذ ذلك ، الخراب والدمار في طول البلاد وعرضها ، وانتهكت الدولة العباسية ، فالقت بها بين ايدي العسكريين ، وهي ضربة لم تستطع ان تنهض منها . وبعد القضاء على حركة الغرامطة ظهرت الاسماعيلية بشكل سياسي ابرز ، فراحت تؤيد دعوة الفاطميين ومطالبتهم بالاستيلاء على السلطنة ، وهم من سلالة علي بن ابي طالب وابنته فاطمة ، وقد كتب للحركة ، هذه المرة ، نجاحاً تاماً .

وبدون هذه الاضطرابات التي مزقت الاسلام ، كان من الصعاب المحافظة اندسام العالم الاسلامي على هذه الامبراطورية الاسلامية المترامية الاطراف . ان كبح الحركات الانتفاضية كانت تذكى المطالب القومية ، وتحد من رغائب الشعوب التي ألفت ان تحمك نفسها بنفسها . اما الحل الآخر القائم بارسال حاكم عسكري شديد الشكينة ، فانما يعني انشاء امارة جديدة مستقلة . وحركة الانقسام السياسي هذه التي ابتدأت في القرن الثامن ، اخذت تشتد فيما بعد . فبالاضافة الى الدولة الاموية في الاندلس ، ودولة الخوارج في المغرب - نشأت عند البربر الحديثي العمود بالاسلام ، دولة جديدة ، هي الدولة العلوية ، التي لم تكن من دول الشيعة - هي دولة الادارسة التي اسست مدينة فاس وجعلت منها عاصمة امارة مستقلة . ولسكي تكبج الخلافة من شكينة هذه الحركات ، اولت الامر في افريقيا الى دولة وراثية هي دولة الاغالبة في تونس ، التي عرفت ان تحافظ على علاقاتها مع الشرق كما حافظت على نفوذ الخلافة في الغرب .

اما في الولايات الشرقية ، فالوضع كان اكثر اضطراباً منه في الغرب . فايضا القينسا النظر ، رأينسا الانقسام السيامي ضارباً اطنابه على حساب سلطة الخليفة . فالزيديون يسيطرون على اليمن برمتها ، والغرامطة على البحرين وما اليها ، اما مصر التي بقيت ، مدة طويلة ، مسرحاً لاضطرابات دائمية فلبثت محافظة على ولائها للسلطة الشرعية . وقد استطاع ابن طولون ، وهو قائد تركي اوفدته بغداد لارجاع الأمن الى نصابه ، ان يؤلف في البلاد دولة جديدة : هي الدولة

الطولونية ، زالت من الوجود ، في اواخر القرن التاسع امام طلوع الدولة الاخشيدية ، التي عرفت ان تحافظ على علاقتها ببغداد . وفي القرن العاشر ، سقطت سوريا الشمالية وولاية الموصل تحت سيطرة الدولة الحمدانية ، حيث استطاع سيف الدولة ان يكسب مجداً مؤثلاً ، بما حقق من انتصارات في حروبه ضد البيزنطيين ، وبرعايته للادب والادباء .

اما ايران ، فقد شهدت ، خلال القرن العاشر ، قيام عدة دول كردية تقاسمت البلاد من بحر قزوين حتى شطآن دجلة . فقد قام في قلب البلاد ، بين الديلم الحديشي المهد بالاسلام ، دولة قوية ، تولى الامر فيها البويهيون ، من الشيعة الامامية . اما في شرقي ايران ، فقد تألفت في خراسان وبلاد الصغد ، دولة اخرى هي الدولة السامانية التي انحدرت من آل الضحالك ، احدى الاسر الوطنية التي امنت للبلاد ازدهاراً اقتصادياً واشعاعاً ثقافياً عالياً . وهكذا قامت في جميع ارجاء ايران ، دويلات وطنية ، تولى الامر فيها امراء من اهل البلاد . وهذه الفترة القصيرة التي عرفت في التاريخ : « بالفترة الايرانية » . فان لم تستطع ان تحمل شيئاً من هذه المشكلات العارضة فقد ارضت المطامع الوطنية . وبعد فترة وجيزة ، اي حوالي عام ١٠٠٠ ، سقطت الدولة السامانية فريسة لهجوم استهدفت له من الخارج ، ومن الجيش في الداخل ، كلاهما على يد عناصر تركية . وقد تقاسم الغزاة الاسلاب بالسوية : فتمسك العصاة من قادة الجيش من انشاء دولة ضمت الجانب الاكبر من افغانستان ، عاصمتها غزنة ، اشتهرت بالمآتي العظيمة التي قام بها محمود الغزنوي . ولم تلبث ايران بعد ذلك بقليل ، ان وقعت فريسة لغزاة جدد من الاتراك .

وقبل هذا التاريخ بكثير ، كان الانحطاط بلغ من الخلافة العباسية ، كل مبلغ . فقد وقعت بغداد نفسها فريسة لفتن متعددة قام بها العيارون ، ورجال الجيش . وعبئاً حاول بعض الوزراء ، بالرغم من المنافسات الشديدة التي قامت فيما بينهم ، منهم الوزير علي بن عيسى ، وابن الفرات ، ارجاع الامن الى نصابه وانقاذ ما يمكن انقاذه من الادارة العمامة ، ولا سيما ادارة بيت المال . وتعاقب سراعاً على السلطة اذ ذلك ، باسم الخليفة عدد من الامراء عرفوا بـ : « امير الامراء » ما كاد يستتب لهم الامر ، حتى يتهدى بين ايديهم الى الحضيض ليقع بيد أقوى . وفي سنة ٩٤٥ ، سقطت بغداد بين ايدي سلاطين الدولة البويهية ، كما وقع الخلفاء العباسيون تحت سيطرة الديلم الامامية ، ولما كان السواد الاعظم من المسلمين بقي معتصماً بالشرعية ، لم يعمد الفاتحون الى إلغاء الخلافة ، بل حافظوا على ما لها من سلطة روحية كانوا يتسلحون بها لتبرير استئثارهم بالسلطة في نظر السنين .

اما فتح الفاطميين لمصر فقد أخفى في ثناياه ، خطراً

الفاطميون في مصر والايوبيون في الاندلس

أكبر هدد الخلافة العباسية . وبفضل داعيتهم ابي

عبدالله ، الذي لاقى عند الفاطميين المصير السيء الذي لاقاه ابو مسلم الخراساني عند العباسيين ، راح احد الائمة الفاطميين هو عبّيد الله الفاطمي ، يستغل الخلافات الداخلية التي نشبت بين البربر

وتدمرتهم ضد الاغالبه ، يستولي على الامر ، في افريقيا ، في مطلع القرن العاشر ، كما استولى على صقلية والمقاطعات التابعة لامراء آل رستم . وفي سنة ٩٦٩ ، استطاع احد خلفائه هو المعز لدين الله ان يستولي على مصر ، وأسس قائدهم جوهر الصقلي ، على مقربة من القسطنطينية ، مدينة جديدة هي القاهرة ، وتركوا امر تدبير افريقيا لامراء استقلوا بها تحت سلطة الفاطميين . ولم يلبث ان اصبحت الاسماعيليه في مصر العقيدة الرسمية في البلاد ، منع ان الشعب لم يقبل عليها اقبالاً واسعاً ، كما ان الازميين فيها حققوا لهم بعض النفوذ السياسي . إلا ان قيام خلافة فاطمية في القاهرة ، مناهضة للخلافة العباسية في بغداد ، كرّس فصل مصر عن القارة الآسيوية . وقد نشطت الدعوة الاسماعيليه في مصر ، ترعاها السلطات الحاكمة ، تشد من ازرها جامعة الازهر ، وامتدت هذه الدعوة الى الخارج ، بما اقلقت اهل السنة .

ان قيام دولة الفاطميين ، عند مداخل آسيا من الغرب ، لم يهدىء من هيجان العناصر المتطرفة في الاسلام . فقدم تحقيقها أي اصلاح اجتماعي في البلاد ، أفقدها عطف القرامطة . اما الاسماعيليه الذين حلوا دوماً بقيام دولة نصف إلهية ، واعتقدوا دوماً بقرب انتهاء العالم ، فقد شقّ عليهم كثيراً ما شهدوا من الضعف البشري في الخلفاء والحكام . فالخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي اعتلى عرش الدولة حوالي سنة ألف ، والذي عُرف بشذوذه ، تبدى للناس ، هذه الاعتبارات بالذات ، تجسماً للألوهية . وقد لقيت دعوته قبولاً عند بعض سكان سوريا من عرفوا فيما بعد بالدروز نسبة للداعية الذي قام بالدعوة للحاكم في اوساطهم . وفي الوقت ذاته تقريباً ظهرت في شمالي سوريا فرقة النصرية او العلوية، وهي فرقة قد يكون بعض أتباعها من بقايا الاقوام الوثنيين الذين اخذوا بشيء من المسيحية والاسلام ومبادئ الشيعة المتطرفة . فقد رأوا في علي نفسه، الله بالذات، فتمثلوه واحتفلوا بذكراه وفقاً للأساطير الميثولوجية القديمة . اما الخليفة الحاكم فقد راح يضطهد المسيحيين والذميين من رعاياه ، نزولاً منه عند انتفاضة شعبية ، اذ ساء الجماهير ونقصهم كثيراً ما رأوا من حسن معاملة الخلفاء الفاطميين الذين تقدموه للذميين ، وأمر بهدم كنيسة القيامة في القدس الشريف . إلا ان هذه النزوة لم يطل أمدها ، وبقيت برقاً خلبياً . وقد كان لهذه الحركة تأثير كبير على الحجاج المسيحيين الى القدس ، وبقي صدها يتردد بعيداً في الاوساط المسيحية في الغرب ، بعد ذلك بقرن ، فاتخذ منها بعضهم حجة لهم عندما قاموا يدعون للحروب الصليبية .

ولم يستطع الفاطميون ، كالعباسيين منافسهم في الشرق ، ان يؤمنوا الاستقرار السياسي في البلاد . فقد وجدوا انفسهم أسرى جيوشهم من البربر والزنج اضافوا اليها ، تأميناً للتوازن ، وحدات من الاتراك والاكرد والارمن ، بينا راحت افريقيا الشمالية تحاول الانفصال عنهم بعد ان زهدوا بها وتناسوا امرها . ولكي يقتصروا لأنفسهم من الموقف العدائي الذي وقفته ضدهم الدولة الزيرية في تونس ، اطلقوا يد القبائل الهلالية التي كانت تزرع الخوف والفرع في جنبات مصر ووجهوها ، في اواسط القرن الحادي عشر ، ضد افريقيا ، فجزت عليها الخراب والدمار ،

وأزلت بالبلاد ضربة قاصمة ونكبة نكباء لم تعرف البلاد ما يماثلها بين الغزوات التي تألّبت عليها منذ القديم ، وبدلت من معالمها الزراعية وخلخلت نظامها الاقتصادي . فقد جعل الهلاليون من البلاد قفراً يباباً ترادها الركبان والقوافل ، وانتفت منها معالم الزرع والضرع ، وتهدمت شبكة الاقنية التي كانت تؤمن سقاية الارض . ولم يستطع البربر ان يحولوا دون تقدم الهلاليين نحو الغرب . فقد أزلت غزواتهم الخراب في البلاد ، وقد كانوا السبب الاول في هذا الخراب الاقتصادي الذي لا يزال يعاني منهم المغرب الامرين .

ولم يلبث الفاطميون ان تحولوا عن عقيدتهم الاسماعيلية . فقد كان من جراء حرمان الامير نزار ، بكر الخليفة الفاطمي المستنصر ، من حق الخلافة ، في اواخر القرن الحادي عشر ، ان محزّب له فريق من الايرانيين ونهضوا بأمره ، فكان ذلك اول انفصال وقطيعة للفاطميين . وقد عقبه انفصال ثان ، في مطلع القرن الثاني عشر ، عند اختفاء ابن الخليفة الأمر ، الذي ولد بعد موت أبيه وقد رأت فيه اليمن ، الوريث الشرعي للخلافة . وقامت بين الفاطميين فنن وحروب داخلية أفقدتهم ما بقي لهم من شأن ومنزلة في النفوس ، كما زادت من نعمة السنة عليهم . ومنذ وزيرهم بدر الجمالي ، وهو ارمي اعتنق الاسلام (اواخر القرن الحادي عشر) الذي قام باصلاح شامل في البلاد ، صار امر الدولة الى عدد من الوزراء معظمهم من قادة الجيش . فاذا ما استطاع الفاطميون البقاء في الحكم الى عام ١١٧١ ، مع ما كانوا عليه من ضعف وهن ، فالفضل فيه يعود لغيرانهم الضمفاء ، من جهة ؛ ومن جهة اخرى ، لهذه الدولة العازلة التي قامت في الاراضي المقدسة ، مع الصليبيين ، وفصلت بين مصر وبلدان آسيا .

اما في الاندلس ، فقد راح الامير عبد الرحمن الثالث ، في مطلع القرن العاشر ، يعلن نفسه خليفة مستقلاً ويقطع بذلك كل صلة له بالعباسيين والفاطميين على السواء ، بجاءعاً من اسبانيا الاسلامية - الاندلس - ومن سكانها الوطنيين الذين اعتنقوا الاسلام ، منارة العالم الاسلامي اذ ذلك . فالملك المسيحية التي قامت في الشمال الغربي من اسبانيا والتي عرفت ان تحافظ على سيادتها واستقلالها بالرغم من هجمات المسلمين ، والتأثير البالغ الذي كان للاندلس على المغرب الاقصى ، ولا سيما لمصحتها الجميلة قرطبة ، أمّنت للاندلس اشعاعاً ادبياً وفكرياً عظيماً ساهمت فيه جميع عناصر البلاد على اختلاف عقائدها ولحمها . وقد اقبل مسيحيو البلاد على مناصرة الحكم والاسهام بهذا الاشعاع الفكري والروحي الذي عرفته الاندلس اذ ذلك ، مع حرصهم الشديد على استمرار علاقتهم مع اخوانهم في الدين في الشمال ، وهو وضع لا نرى له مثيلاً ، ولو على نطاق اضيق ، إلا عند الأرمن . وقد لعب اليهود دوراً بارزاً اذ ذلك وازدهرت اعمالهم وبرز نفوذهم بحيث ان احدهم المدعو نخسداي بن شبروط ، وزر للخليفة عبد الرحمن ، كما ان احدهم قال الوزارة بعد ذلك بقرن ، وتمتع بنفوذ عريض في احدى دول الطوائف في الاندلس . فلا عجب ان يقوم بين العرب والبربر ، وسكان البلاد الاصليين ، والارقاء - ومعظمهم من الصقالبة - اختلافات واصطدامات لم يكن بد منها ، إلا انها لم تصل يوماً لما وصلت اليه هذه الاصطدامات من عنف في

الشرق ، كما انهم تقضِ قط الى وقوف العسكريين وسكان البلاد الاصليين ، وجهاً لوجه . واذا كان استطاع المذهب المالكي ان يسيطر في كل من الاندلس والمغرب ، فقد تم له ذلك دون ان يترك أية ردة في البلاد او يسبب أي ضغط او اكراه . فقد كانت الاندلس ، حتى القرن الحادي عشر ، مثلاً للتساهل . ومع ذلك فلم تستطع ان تحول دون وصول بعض الشخصيات المدنية والعسكرية الى الحكم واستئثارهم بالسلطة ، على شاكلة سدة القصر عند ملوك الفرنج . وقد اشتهر احدهم حوالي سنة ألف ، هو ابن ابي امير المنصور - المعروف باسم « المنصور » في الملاحم المسماة *Chansons de gestes* . غير ان اولاده لم يستطيعوا الحد من العناصر المتنافسة في الداخل : من بربر وصقالبة ، ووطنيين ، الذين ألفوا عدداً من الامارات المستقلة عرفت باسم ملوك الطوائف لعبت احداها ، أي ملكة اشبيلية ، دوراً بارزاً في الاشعاع الحضاري . وهذا الانقسام والتوزع كان من شأنه ان يهدد الاسلام في الضم ، في الاندلس ، في الوقت الذي راحت فيه المسيحية في الغرب تستفيق من سباتها وتستجمع من قواها .

بعد هذه النظرة الدقيقة في التطور الذي خضع له الاسلام ، لم يعد من الدقة بشيء التحدث او التفتي بوحدة العالم الاسلامي . ومع ذلك ، فبالرغم من هذا التشتت السياسي ، والتباين المتزايد الذي نلاحظه بين العوامل الثقافية والحضارية ، فلا يزال الشعور بالتضامن قوياً بين اقسام هذا العالم . وسيبقى هذا الشعور الميزة التي تطبع العالم الاسلامي بالرغم مما اعتراه من انقسامات سياسية ودينية واجتماعية ، في هذه الالف من السنين التي تعاقبت عليه .

فتجاه عالم الاسلام الذي اخذ في التفتت ، نرى الامبراطورية
 النهضة السياسية في بيزنطية
 البيزنطية ، تقوم في القرن العاشر بحركة اصلاحية تجدد فيها من قوتها ونشاطها ، فلم تعد تعاني ، الا بعد ذلك بزمن طويل ، وعلى نطاق ضيق ، من هذه الانقسامات الدينية التي عانى العالم الاسلامي فيها ما عانى . فالحياة الرهبانية المشتركة تبلغ الذروة ممثلة باديار جبل آتوس التي تؤلف فيما بينها ، تحالفاً دولياً من هؤلاء الرهبان الذين ينتمون الى عدة بلدان من العالم الارثوذكسي ، أضف الى ذلك وحدة الايمان التي تشد من الوحدة الوطنية ويشد منها الساعد عن طريق نشر المسيحية الارثوذكسية بين الشعوب الصقلية ، والدفاع عن امتيازات الكنيسة الارثوذكسية من تدخلات البابوية المستضعفة الجانب . وقد تمثلت الحركتان خير تمثيل في شخص علم من اعلام الكنيسة ، اذ ذلك ، هو فوتيوس . فقد كان من امجاد جامعة القسطنطينية ، رُفع الى الكرسي البطريركي ، عام ٨٥٣ ، في ظروف مشبوهة كانت مدعاة للظنة والجدل ، وراح يقاوم مطالب الكرسي الرسولي الذي لم يعترف بشرطته بطريركاً على القسطنطينية ، كما راح يغذي حركة ارتداد الصقالبة والبلغار الى الديانة المسيحية ، وهي رسالة نشطت للنهوض بها كل من روما والقسطنطينية ، على السواء . وقد نظر الرأي المسلم البيزنطي الى البطريرك فوتيوس نظره الى خير من يمثل المطالب الوطنية ، والى من يعرف ان يحدد من تدخلات روما ويقف في وجهها . فالفوارق ، مهما كانت طفيفة ، التي قامت بين الكنيسة

الشرقية والكنيسة الغربية ، بوزت على حدتها : كاختلاف الطقوس الليتورجية ، اذ ان الكنيسة اللاتينية تستعمل الفطير في الذبيحة الالهية بينما تستعمل الكنيسة الشرقية الخبز ، واختلاف في بعض الانظمة كقص الشعر عند الرهبان في الكنيسة الشرقية لاي طقس انتسبوا ، وهذه الفروق بين الطبقات الدنيا في الاكليروس واصحاب المراتب العليا منهم الذين كان يؤتى بهم من رهبان الأديار ، والعلاقات بين الكنيسة والدولة ، واللغة المستعملة في الليتورجية والطقوس الكنسية ، وبعض قضايا الايمان بعد ان ادخلت روما على قانون الايمان القول بانبشاق الروح القدس من الأب والابن . والانفصال الذي تمّ على يد البطريرك فوتيوس لم يلبث ان امكن رتقه رسمياً ، دون سد الثغرة او الهوة التي شجرت بين الكنيستين الشقيقتين ، وعندما سنحت ، عام ١٠٥٤ ، امام البطريرك ميخائيل كيولاريوس فرصة جديدة للانفصال من جديد ، تمت القطيعة نهائياً بينها ، وهي قطيعة تهيأت ظروفها منذ عهد بعيد .

وفي سنة ٨٦٧ ، صار العرش الامبراطوري ، في شخص الامبراطور باسيل الاول ، الى الاسرة المقدونية ، التي بذلت جهداً طيباً في اصلاح نظم الدولة البيزنطية ومؤسستها العامة ، وفي توطيد دعائم الادارة وهيبة الدولة في قلوب الاهلين . فالجموعات الفقهاء ، والمؤلفات الوصفية التي ظهرت في هذه الحقبة نتيجة طيبة لهذا الاصلاح ، هي خير المصادر التي تمدنا بارتق المعلومات حول النظم والمؤسسات التي راجت في الامبراطورية البيزنطية ، في هذه الحقبة بالذات . ان اعادة النظر بالقانون اليوستنياني وتكلمته باللغة اليونانية ، كل ذلك افضى الى نشر ما يعرف بالقوانين الباسيلية ، التي ظهرت في مطلع القرن العاشر ، في عهد الامبراطور لاون التاسع ، والى هذه المجموعة من القوانين يجب ان نذكر هنا : « كتاب الولاة » الذي جاء ظهوره يكمل سلسلة الكتب الشرعية المعمول بها اذ ذاك . وبعد ذلك بنحو قرن من الزمن ، راح الامبراطور العلامة قسطنطين المتدثر بالارجوان ، يضع عدداً من الرسائل والاجمات تؤلف مجموعة هامة من الوثائق والمصادر الاولى ، تصف لنا العادات والاحتفالات الرسمية التي كانت تجري في البلاط الامبراطوري ، كما تصف بالتفصيل ، الادارة العامة في الامبراطورية ، والعلاقات التي قامت بينها وبين البلدان الاجنبية الاخرى . كذلك ظهر في هذه الفترة بالذات ، كتاب *Taktikon* ، وهو بحث يدور حول تنظيمات الجيش ، تم وضعه في نطاق حاشية الامبراطور العسكري نيقفوروس فوكاس . ومع ان هذه التشريعات ، والقوانين والتنظيمات التي وضعت ، اذ ذاك ، لم تأت اكلها كاملاً ولم تتبلور عملياً عن اعمال ووقائع ذات شأن ، فليس في مكنته احد ان ينتقص من قيمة هذه المحاولة الجبارة او من نتائجها الطيبة ، ولو جاءت منقوصة ، غير مكتملة .

وهكذا نرى الامبراطورية البيزنطية : أكفأ عدة ، وأمضى سلاحاً ، لاستئناس الهجوم ضد العالم الاسلامي المتفكك الاوصال . فقد اقتضى لها قرناً (٨٥٠ - ٩٥٠) لبسط سيطرتها وتأمين سيادتها على قلب آسيا الصغرى ، وهي منطقة جديدة لها ، بعد ان تخلصت من خطر البولسيين

وشوكتهم ، فقتلت منهم من قتلت ، وأجّلت منهم الى مقاطعة تراقيا ، من أجلت وأبعدت . وقد استمادت على الساحل الدائري للبحر الابيض المتوسط ، ما فقدته من املاكها السابقة في ايطاليا الجنوبية باستثناء صقلية ، وحررت جزيرة كريت من سيطرة العرب عليها . وقامت على حدودها الشرقية بسلسلة من الحملات والغزوات ، تلقى ضرباتها وهجومها الامير سيف الدولة الحمداني رحده تقريباً ، واستولت على المقاطعات الواقعة الى ما وراء جبال الطوروس ، كإقليم انطاكية في سوريا الشمالية والحصون الواقعة على الفرات كحلاطية والرها . وبمساعدة الارمن الذين اشتهر عدد كبير منهم على رأس الامبراطورية امثال يوحنا تزيبيسيس الذي خلف نيقوفوروس على كرسي الملك ، حل النفوذ المسيحي في ارمينيا محل النفوذ الاسلامي . وقد جمعت وحسدة المصالح والعداء المشترك ضد اسيايا العراق ، بين البيزنطيين والفاطميين ، بالرغم من الموقف العدائي الذي وقفه الحاكم بأمر الله ، من المسيحيين ، وقاربت الاهداف فيما بينهم فأتاح ذلك للامبراطور ان يأخذ تحت حمايته المسيحيين ، ولا سيما الملكيين بينهم في الاراضي المقدسة . قلما رأينا النفوذ البيزنطي يبلغ ، بعد الفتح العربي ما بلغه من نفوذ في هذا العهد .

وبفضل الوهن الذي نزل بالعالم الاسلامي ، والتفكك الذي آل اليه ، استطاعت ارمينيا ان تسترجع استقلالها السياسي . فهذه البلاد التي لم تنسجم يوماً مع النظام الاداري الاسلامي ولم تأتلف معه ، انقسمت بالرغم مما قام في اطرافها من بعض الحمايات الاسلامية ، الى عدة امارات مسيحية مستقلة ، حيث تولت مقاليد الحكم فيها والتوجيه السياسي ، ارستوقراطية عسكرية وكنيسة عمرت بالحياة اللسكية والرهبانية ، يأتمر بتوجيهاتها ، شجب يعاش من اعمال الفلاحة والزراعة ، مشدود كغيره من طبقة الفلاحين في اماكن اخرى ، أكثر فأكثر ، الى الارض ، وبينهم تجمعات قوية من سكان المدن ، من محترفي المهن والحرف . كل هذه الامارات اعترفت على انساب متفاوتة ، برئاسة « ملك الملوك » من السلالة البغرية التي كانت عاصمتها مدينة آني الواقعة عند منتصف نهر أراكس ، وقامت الى الغرب ، وحدات ارمنية ، في الاراضي البيزنطية كما قام غيرها ، من جهة الشرق في امارات ودول اسلامية . وقد جاشت هذه الوحدات السياسية ، على اختلافها ، بروح وطنية هارمة ، فراحت تتجاوب مع كل معضلة وتنتفاعل بكل جدل طارىء ، وتتوزع احزاباً تميل ، هذه مع النبلاء المتنافسين ، وتلك مع اتباع الكنيسة اليونانية ، فقد رأى الامبراطور باسيل الثاني ، حوالي السنة الألف ، في هذه المناسبة ، فرصة سانحة لبسط سيطرته على بعض هذه الامارات الارمنية ، كما اتاح لخلقاؤه ، عندما أطل عليهم الخطر التركي بعد ذلك بنصف قرن ، بسط سيطرتهم على الامارات الاخرى . وقد راح عدد كبير من الارمن من انقطعوا لامحال الفلاحة والزراعة وتعمير الارض الموات ، ولبعض نبلائهم من اقطعتهم بيزنطية ، بعض الاراضي ، ينزحون الى اواسط آسيا الصغرى ، بعد ان افقرتها الحروب المتتامة ، من سكانها ، كما راح غيرهم يطلب الرزق لهم في ارض مصر . ومنسل ذلك الحين ، لم تعرف ارمينيا في تاريخها المديد قيام دولة موحدة في اراضيها ، باستثناء امارة صغيرة قامت في كيليكيا ، سيأتي الحديث عنها فيما بعد .

فامام هذه الانتصارات التي حققتها بيزنطية ، استطاعت ان تواجه معاً الصقلية والبلغار في البلقان ، بشكل عاد على الامبراطورية بنجاح اكبر مما عادت عليها به حملاتها المتكررة ضد الولايات الشرقية التي افاد منها كبار الاقطاعيين من الرجال العسكريين ، في آسيا الصغرى . فالتوسع الديني ، والديبلوماسية البيزنطية التي عرفت ان تقيم الشعوب بعضاً ضد بعض ، والانتصارات الحربية التي حققتها جيوشها ، كل ذلك ساعد بالتضافر والتضامن ، على تحقيق مثل هذه النهضة ، التي بفضلها عاد النفوذ البيزنطي الى اقطار مرت بتطورات جذرية منذ الغزوات الصقلية الكبرى .

بين القرن التاسع والعاشر اخذت معلوماتنا حول البلدان البلقانية تزداد اكثر البلدان الصقلية فاكثراً ، وضوحاً وتوثيقاً . فايها اجلسنا النظر ، رأينا الاقوام الصقلية تتكون وتنشئ لها امارات مستقلة ، فيتفاعل القائمون منهم في الغرب ، امثال الكروات والسلوفين بنفوذ الكارولنجيين ، بعد ان دخلوا برهة ، في وحدة الامبراطورية التي شكلوها . اما الذين قاموا منهم في الوسط او في الشرق ، كالصرب والمهرسك على الاخص ، فقد ساروا في تطورهم الصاعد ، على نهج مماثل . فالبلغار وحدهم ، بين هذه الشعوب ، يتمتعون بنظم سياسية فامية ، يبرز ما عرف من امثاله عند الشعوب المجاورة . فمنذ منتصف القرن الثامن ، حل محل المعاهدة التي عقدت بين بيزنطية والمملكة التي انشأوها الى الجنوب من الدانوب الاسفل ، سلسلة من الحروب ، لم يكن بد منها ، عادت على « القيصر » كروم ، بعد عام ٨٠٠ بقليل ، بنصر مبین ، استطاع معه البلغار ان يوسعوا شيئاً فشيئاً ، من نفوذهم وسيطرتهم ، على حوض نهر مارتزا الاعلى ، ثم وسعوا من نفوذهم نحو الغرب والجنوب الغربي ، على الاقوام الصقلية المستوطنة في حوضي نهر المورافا والفردار ، اما في الشمال الغربي ، فقد اصطدم نفوذهم بغزوة المجر . وحوالي سنة ٩٠٠ ، نرى القيصر سيمان يسيطر على امبراطورية فعلية امتدت اطرافها من البحر الاسود شرقاً الى البحر الادرياتيكي غرباً ، حيث المنصر البلغار ي اخذ يذوب ، تدريجياً ، بين الاكثرية الصقلية : فالعنصران يعتبران مترادفين ، واللغة السلافية اخذت تدريجياً تحل محل اللهجة البلغارية التركيبية الاصل .

لا نعرف شيئاً يذكر عن صقلية اوروبا الوسطى من قبائل الصوراب ، والبولاوب واليوميرانيين والبولونيين القاطنين ما وراء نهر الإلب ونهر السال ، ممن دخلوا في حروب كثيرة مع الكارولنجيين واباطرة الاسرة الاوتونية . وتملك معلومات اوثق حول المملكة القوية التي انشأها ، في اواسط القرن التاسع ، امراء مورافيا فضمت ، فيما ضمت من اقوام وشعوب ، التشيك والسلفواك . وليس من شك قط ان قامت بين الروس ، وعلى الاراضي الروسية ، نزعات بماثلة وامارات متشابهة . وسيشهد تاريخ هذه الاقوام ، هنا ايضاً ، تطورات جذرية ، اثر تدخل عنصر اجنبي جديد ، يتمثل خير تمثيل في هؤلاء الاسوجيين ، اخوة « النورمنديين » في اوروبا الغربية ، الذين كانوا يجوبون على ظهر سفنهم ، خلال الاراضي الروسية ، متنقلين عبر

الانهر الكبيرة ، حتى بلغوا مشارف بحر قزوين والبحر الاسود . وقد صرفوا نشاطهم بين التجارة والسلب ، كما تشهد على ذلك النقود التي عُثِرَ عليها في مناطق بحر البلطيق ، واسسوا خلال القرن التاسع مواطن مستقرة على طول الطريق التجارية الكبرى الممتدة من البلطيق الى البحر الاسود مروراً بمدينة نوفغورود وكييف ، وبسطوا منها سيطرتهم على الصقالبة . وحوالي عام ٨٥٠ ، قام زعيمهم روريك ، وهو شخصية تحيط بها كثير من الاساطير ، بتوطيد هذه المناطق التي تمر بها هذه الطريق السلطانية ، ووضعها تحت سلطته . وليس ما يؤكد قط ان انظة « روس » ، أطلقت ، اول ما أطلقت على الاسوجيين قبل ان يعم اطلاقها على هذه الطائفة من الصقالبة ، كذلك ليس ما يؤيد قط ان هذه الكلمة أطلقت ، قبل ان تطلق عليهم ، على فريق من الصقالبة خضعوا لسيطرتهم . وقد اصطلح البيزنطيون ، بعد ان استعملوا العديد منهم مرتزقة في جيوشهم ، على تسميتهم بشعوب *Varègues* ، مع انهم لم يجهلوا اسم : « روس » الذي عرفوا به ايضاً . ومهما يكن من الامر ، فليس من يزعم بعد ، ان مملكة كليف لم تقم لها علاقات مع الصقالبة ، ولا تلتق شيئاً من اثر الاسوجيين . فتاريخ هذه المملكة هو بالفعل حبيكة من هذه العوامل والمؤثرات ، ونتيجة منطقية لصلابتها ولاخدها بسرعة ، بالعوامل والعناصر السلافية . وهذه المملكة التي حدها من الشرق ، بصورة عامة مملكة البلغار الواقعة على نهر الفولغا ، ومن الجنوب الشرقي بمملكة الخزر ، ومن الجنوب بمملكة البلغار على نهر الدانوب ، كما فاتحت بعد ذلك بكثير قبائل *Patchanègues* والبحر الاسود ، ومن الغرب اماره بولونيا الناشئة التي كانت دولة قوية حتى منتصف القرن الحادي عشر ، تولى مقدراتها ملوك خلقت اسماء الآداب الشعبية ، منهم أوليغ وإيفور ، وأولغا وفلامير وياروسلاف . والثابت ان احدى اميرات كليف تزوجت بهنري الاول من آل كابت .

وقد استهدف صقالبة الدانوب لضغط قوي من قبيل الجمر ، وهم قوم من العنرق الفيني ، اقتبس الكثير من الطباع والاخلاق التركية . وقد زحزحهم عن مناطق الأورال حيث كانوا يقيمون ، قبائل البتشيستيك ، فاستقروا ، بعد غيرهم من الغزاة الذين سبهم ، في سهول بانوفيا ، وهكذا سيطروا على من فيها من صقالبة ، فصلوا بصورة نهائية ، بين صقالبة الشمال وصقالبة الجنوب . وقبض « ليجر » ان يسيروا في تطورهم على نهج لم يعرف شيئاً منه ، لا شعوب الهونز ولا قبائل الآفار . واستطاع الجمر ان يصمدوا في وجه الشعوب التي جاورتهم ، وان يتغلّبوا عن بذارتهم ، ويتحضرروا ويستقروا في مواطنهم ، ويؤلفوا مجتمعاً تميز بالملكية الجماعية التي سارت جنباً الى جنب والملكية الفردية وكادت تحمل محلها ، وهو مجتمع اخذ في عهد سلالة ارهاد يتماثل مع المجتمعات المجاورة له .

وبقي المجتمع السلافي سواءً في تركيبه تقريباً ، لدى جميع الدول الصقلبية او ذات الاكثريه الصقلبية ، عماده الاكبر وركيزته الكبرى القرية أو الاسرة الكبيرة التي عُرفت في البلقان باسم زدروغا ، كما ان زعماءهم أو امرأهم - وهم حكام الأفضية على الغالب - وقد عرفوا في البلقان

باسم : جوبان ، احتفظوا لانفسهم بحق توزيع الاقطان الخاصة ، على انصارهم وازلامهم الذين اطلقوا عليهم اسم *Boiars* ، يمهدون بفلاحتها وزراعتها لعدد كبير من الارقاء ، من اسرى الحروب . وقد ألف الرق السلعة الكبرى في هذه الحركة التجارية التي اخذت بوادرها تظهر عندهم ، في هذه المبادلات التي اخذوا يقيمونها مع مدينتي تسالونيكى والقسطنطينية . ومن الاصناف التي كانوا يقايضون بها او يبيعونها ، ما كان يقع في ايديهم من حصائل الصيد والقتل وجني العسل ، وكان كبار القوم منهم يستوردون المنسوجات الجميلة والكماليات التي تؤمنها الصناعة في بيزنطية . اما في روسيا ، فالآفاق اخذت تتسع وتنبسط امام الحركة التجارية في مملكة كييف ، فربطت بين البحر البلطقي والبحر الاسود ، وكانت ضعفي تجارة بلغار الفولغا التي اتجهت بالاحرى نحو آسيا الوسطى . ولا شك قط في ان المحاصيل الريفية كانت اساس الاستهلاك المحلي ، وعليها قامت بالاكثر الحركة الاقتصادية في البلاد ، وقد اخذت المدن الكبرى فيها تنمو وتتطور بسرعة بعد ان استحالَت اسواقاً تجارية نشيطة ، ومراكز سياسية وعسكرية لها شأنها ، كمدينة كييف مثلاً ، ونوفورود . وقد كان للملكهم حاشية تشبه الى حد بعيد ، ما كان منها للملوك الجرمان ، إبان غزواتهم على الغرب . من الصعب جداً تحديد السرعة والاساليب التي استحال معها اعضاء هذه الحاشية الى ملاكين اسياد ، كما بدوا لنا منذ القرن الثاني عشر ، وبالتالي يستحيل علينا ان نعرف ، ما هي نسبة الفلاحين *Smerdi* الذين كانوا ، من حيث المبدأ ، احراراً ، انما اخذوا يتحولون تدريجياً الى توابع ، من جراء الديون التي ارهقتهم ، او لاسباب اخرى . وهذا التطور تم على اقدار متفاوتة ، حسبما يكون القوم في وسط المملكة ، او في المقاطعات المكسوة بالاحراج الواقعة عند اطراف البلاد حيث السكان قليلون ، وحيث الناس يتسكعون في فقر مدقع ، في عزلة تامة من كل توجيه او مراقبة ، في جوار بعض الاقوام الفينية المعنة في خشونة الطباع والهجمية .

التبشير بالمسيحية بين الصقالبة
 اخذت المسيحية تتغلغل بين اقوام الصقالبة وتنتشر في اوساطهم الشعبية ، منيرة نظمهم السياسية ، والاجتماعية . فقد رأت بيزنطية في حمل الدعوة المسيحية اليهم بسطاً لنفوذها . وقد لقيت هذه الدعوة نجاحاً كبيراً بين الصقالبة المقيمين في مقدونيا واليونان ودماتيا . وبفضل علاقات الكرواتيين بالامبراطورية الكارولنجية ، اعتنقوا المسيحية اللاتينية ، بينما تولى تنصير الصرب رهبان يونان ومبشرون على الطقس البيزنطي ، وهو اختلاف لا تزال آثاره باقية ، ظاهرة على اشدها حتى يومنا هذا ، بين العنصرين القوميين اللذين يتألف منها الشعب اليوغوسلافي . اما الكرازة بين المورافيين والنجاح العظيم الذي اصابته ، فالفضل فيه كل الفضل يعود : « لرسولي الصقالبة » كيرلس وميثودئوس . فن الانجازات العظيمة التي حققها في هذا المجال ، تزويد الصقالبة بايديه خاصة مستوحاة من الايجدية اليونانية ، استجابة منها للرغائب التي كثيراً ما اعرب عنها المبشرون الذين سبقوهم الى هذه الدعوة ، كما اعدوا نصوصاً بلغتهم مكتوبة بالحرف الجديد ، ونظمتها لهم الطقوس

الليتورجية ، وشكلا كنيسة سلافية ، بحيث يمكن التأكيد هنا من دخول الدين الجديد الى هذه الشعوب الصقلبية ، وآدابهم القومية ، كل ذلك هو من صنعها . فالمسيحية الشرقية التي نشأت وتطورت بين لغات وثقافات مختلفة ، حاولت دوماً ان تكيف الطقوس الدينية وفرائض العبادة وفقاً للسان كل شعب من هذه الشعوب ، وقد ساعد هذا على تفضل الروح الدينية بين الطبقات الشعبية ، الا انها اضعفت من جهة ثانية الشعور بالوحدة المسيحية وارهنت الاتصالات بين الثقافات الام الاخرى . فلا عجب ان تكون روما نظرت الى عمل كيرلس وميثودوس نظرة ملؤها القلق والريبة ، اذ لم يكن عندهما الا كنيسة واحدة ، ولغة واحدة هي اللاتينية . كذلك اثار هذا الوضع الهواجس بين الالمان وحرك حفاظهم ، فعارضوا قيام كنيسة سلافية لا تخضع لسلطة الاكليروس الجرمانى ، وهذا ما يتفق تماماً والقاعدة المرعية في الكنيسة اللاتينية . الا ان دخول المجر مناطق الدانوب جعل الولاء للجرمان امراً لازماً ، وهكذا نرى تاريخ الصقلبية في اوروبا الوسطى عن تاريخ الشرق المسيحي .

فالعمل الكبير لى عرف حركة انكفاء عند البلغار كما لاقى لديهم بحالاً ارحب واخصب ، اذ ان امراءهم لم يلبثوا ان وقعوا تحت تأثير المدينيات المسيحية التي اتصلوا عن كثب بقواعدها الكبرى ، كما انهم لم تفتهم المنافع التي يجنونها من هذه النظريات السياسية التي طلعت بها هذه المدينيات . الا انهم كان عليهم ان يحسبوا حساباً لمعارضة كبار القوم وعظماهم الذين كانوا يرون في المسيحية نظاماً سياسياً مليئاً بالخطر ، وشكلاً يتلبسه التدخل الاجنبي في البلاد . ولذا راح القيصر بوريس (اواسط القرن التاسع) يتشدد في إنشاء كنيسة قومية وطنية في بلاده . فالمساومات التي دارت سوقها اذ ذاك ، كانت ولا شك ، من هذه الاسباب التي ادت الى الرقعة بين القسطنطينية وروما والى الانهصال الذي تم في عهد البطريرك فوتيوس . كل هذا حسداً بالكنيسة البلغارية المستقلة للسير في الاتجاه الذي رسمته لها القسطنطينية ، والمقام في اطار الكنيسة اليونانية ، الامر الذي لم يساعد ، بطبيعة الحال ، على تهدئة خواطر ملوك البلغار امامرضته الاهداف والمرامي السياسية التي دغدعت آمالهم .

وبعد ذلك بنحو قرن ، كان لا بد للروس من ان يعتنقوا النصرانية بقالبها البيزنطي فقد سبق واعتنق بعض امراء العائلة المالكة المسيحية . وقبل عام الف بقليل ، رأى القيصر فلاديمير انشاء كرسي اسقفي في كييف يتربع عليه رئيس اساقفة . وفي الحين نفسه ، اخذ المجر بعنقورن المسيحية ، بعد ان رأوا جميع البلدان المجاورة لهم ، سبقتهم اليها ، فعذبوا حذر ملكهم القديس استبانس ، فأخذوا المسيحية بقالبها اللاتيني . ومنذ ذلك الحين اخذوا يسيرون في فلك الغرب ويهتمون ، أكثر فأكثر ، بامور شعوب الكروات والالمان وغيرهم من الاقوام المجاورة للبحر الادرياتيكي .

فانتصار المسيحية وفوزها النهائي في اوروبا الوسطى ، عنى اكثر من انتصار دين جديد وحضارة جديدة . فقد نتج عنه فكرة جديدة للدولة ، ومعنى جديد لشكلياتها ، وهي فكرة

حلا لرؤساء الدول الصقلية تحقيقها واخراجها الى حيز الوجود ، الا وهي انشاء كنيسة تنتم ، على شاكلة الكنيسة في بيزنطية ، باملاك ووقوفات غنية يرتبط بها فلاحون ومزارعون ، يكون لها اكليروس يؤتى بقسم منه ، أقله في البدء ، من بين الاكليروس اليوناني . فلا عجب قط ان تلاقى مثل هذه النظرة ، حركة مقاومة على الصميدن الاجتماعي والوطني ، كما لاقى في بلغاريا ، في الحال ، دعاوة ناشطة معادية للسيحية ، غذتها وبشتها سموم التعاليم التي نشرتها الجوالي البولسية التي كانت أبعدت الى تراقية ، من قبل ، بتوجيه الداعية بوغوميل زعيم هذه البدعة ورسولها .

الشرق الادنى ومنتاعه المدينة
استهدفت الامبراطورية البلغارية ، أكثر دول البلقان تطوراً
اذ ذلك وأفرها أخذاً بأسباب الحضارة ، لهذه الاسباب بالذات ،
لخطر مداهم ماحق ، كاد يطيح بها . فبالرغم من الانحطاط الذي صارت اليه ، في الداخل ، فقد بقيت مع ذلك خطراً ماثلاً على البيزنطيين يهددهم باستمرار ، اذ كانوا ادنى من قاب قوسين من بلغار الذين امتدت سيطرتهم الى مشارف القسطنطينية . وبعد ان حشدت بيزنطية جيوشها قام باسيل الثاني يهاجم الملك البلغاري صموئيل ويصليه حرباً طويلة لارحمة فيها ولا هوادة ، استطاع معها كثيرون من امارات الصقالبة ، في الغرب ، خضعوا لبلغاريا ، الى ذلك الحين ، التحرر من ربقتها والتنعم باستقلالهم تحت رعاية الامبراطورية البيزنطية ، بينما وقعت بلغاريا نفسها تحت سيطرة بيزنطية واصبحت احدى ولاياتها في الغرب (القرن الحادي عشر) . وكان لا بد من مرور قرنين على الشعب البلغاري يزرع معها تحت نير العبودية ، قبل ان يستعيد حريته من جديد وينعم بشيء من الاستقلال المشروط .

اما مملكة كييف الروسية ، فقد استهدفت ، في هذا الوقت بالذات ، لسلسلة غير منقطعة من الهجمات العنيفة ، شنتها الاقوام الرحل الضاربة في تلك القياي ، بينهم قبائل البلشنيك ، والاوغز والكومان (بولوفتز بالروسية) ، ملحقين البوار بتجارتها ، والحراب باقتصادياتها ، وان عجزوا عن النيل من استقلال البلاد السياسي . واذ عجز خلفاء ياروسلاف عن تأمين سلالة ملكية وراثية ، انشقت المملكة ، في اواسط القرن الحادي عشر ، على نفسها ، اذ راحت كل من نوفورود وكييف ، وهما حواضر البلاد الكبرى ، اذ ذلك ، يتجه الواحد شطراً مغايراً للآخر . فن الطبيعي ان يؤلف هذا الضعف ، تصاب به البلاد ، خطراً عليها .

وقد وقعت بيزنطية نفسها ، في القرن الحادي عشر ، في خطر مماثل ، سببته لها الانتصارات نفسها التي حققها . فقد دخل ضمن حدودها ، من جراء الفتوح التي قامت بها ، شعوب وقوميات مختلفة ، متباينة . من هذه الشعوب ، الارمن مثلاً ، الذين ألفوا الاغلبية الساحقة بين سكان ولايات الامبراطورية الشرقية ، وكانوا حانقين على بيزنطية ، لا يصفون لها عبثاً باستقلالهم الوطني ، كما ان الكنيسة اليونانية التي لم تستند شيئاً ، على ما يظهر ، من عظة الماضي ، راحت

تعاود سيرتها الاولى ، وتتابع اضطهادها للارمن ولأتباع المونوفيزية القائلين بوجود الطبيعة الواحدة في السيد المسيح . اما البلغار ، فقد زادت معارضتهم الاجتماعية للاكليروس اليوناني من الكره لسيطرة الاجنبي وحكمه للبلاد ، وهذا العداء الشديد للاجنبي اوشك ان يحمل من المبادئ التي حملها يوغوميل ، وعمل بها وهم ، الديانة الوطنية في البلاد . ومن بلغاريا ، انتقلت هذه التعاليم والمفاهيم الى الكروات ، ومنهم انتقلت الى فرنسا ، لتطلع ، في القرن الثاني عشر بشكل جديد ، هي الهرطقة المعروفة بـ *Albigetama* او مقالة الالبيجوا .

وفي الوقت ذاته ، تفاقمت المصاعب والمشكلات التي نشأت غيب استفعال امر الارستوقراطية العقارية في البلاد ، بعد ان عرف الاباطرة المسكريون في بيزنطية كيف يوجهونها ويستيرونها . فالملوك الذين تماقبوا على الملك بعد الامبراطور باسيل الثاني ، لم يكونوا على شيء من قوة الشكيمة ، فاستخذوا في الملحقات واستسلموا للامر الواقع ، بعد ان احاطت بهم بطانة من المدنيين اشهدوا باسباب الثقافة وفضلوا الدعة والطمأنينة ، فاستفحل شأن الارستوقراطية العقارية في هذه الولايات ، وراحت تسمى جهدها لانهاك الفلاحين الاحرار وشرايهم . وعندما كان الاباطرة يطلبون من النبلاء التجند وخدمة السلاح ، كانوا يفتدقون عليهم ، من املاكهم الخاصة الاعطيات الوفرة ، كما كانوا يهودون عليهم بانعامات خاصة ، موقنة او يستثمرونها مدى الحياة ، لا تلبث ان تصبح وراثية عندهم ، فتألف من هؤلاء النبلاء وحدات عسكرية لم تكن اكثر ولاء للامبراطور من زميلاتها في الغرب . ولكي يأمن ملوك الروم شر هذه الوحدات ويؤمنوا لهم مساوازيها ، راحوا يشكلون من بين سكان الولايات القريبة من القسطنطينية ، بفضل الموارد الغنية التي امنتها لهم التجارة ، اذ ذلك ، وحدات من المرتزقة ، ازداد عددها فيما بعد ، بازدياد ازدهار التجارة في البلاد ، تألف معظمها من قبائل الفارنج ، الى ان راحوا يستبدلونها ، بعد عام ١٠٥٠ ، بوحدات من النورمنديين في الغرب ، او من قبائل الصقالبة او من الاتراك بعد ان يجري تنصيرهم . وقد دخل الجيش البيزنطي ، فيما بعد ، وحدات من الارمن والبلغار أفقدته وحدته الادبية . ولما كانت هذه الوحدات العسكرية تحتفظ بولائها لغادتها ، فلم يحسن خطرها على الملوك باقل من الخطر الذي اطلت عليهم من تشكيلات النبلاء العسكرية او من الجيوش المرتزقة التي عمل بها في البلاد الاسلامية . فاذا لم يفض الامر الى خلخلة الامبراطورية وانقطاع اوصالها ، فلان الثورات والانفاضات التي تعرضت لها كانت كثيراً ما تنتهي بالقضاء على الفتنة وهي في المهد ، او باستيلاء الثوار على السلطة . وعندما اطلت فيما بعد من الخارج اضطراب ماحقة ، كانت الارستوقراطية تسارع للسيطرة على الامر بالاستيلاء على السلطة .

والحال ، فقد مثلت امامهم هذه الاخطار وكانت منهم ادنى من قاب قوسين ، ممثلة بقبائل التشنك الذين اصبحوا على الدانوب ، وبالأتراك السلجوقيين عند مداخل آسيا الصغرى ، والنورمنديين الذين بعد ان انزعوا ايطالييا الجنوبية من بيزنطية ، وصلية من الاسلام ،

اخذوا يحاولون ان ينشئوا لهم موطىء قدم على سواحل البحر الابيوني الشرقية ، وبفضل حادث مؤسف هيأته الاقدار العابثة ، اتاح الانفصال الذي اعلنه كيرولايوس ، للبابوية المتعالفة مع النورمنديين للاستعانة بهم في الحصومة القائمة بينها وبين الاباطرة الالمان ، ان تسلك نهجاً معادياً لبيزنطية . صحيح ان روما والقسطنطينية وقفنا فيما بعد ، موقفاً اكثر اعتدالاً ساعد على القيام بهذه المفاوضات التي مهّدت للحروب الصليبية ورافقتها ، الا ان الوقعة الكبرى كانت قد وقعت ، هذه المرة ، على يد شعوب جديدة اعتنقت الاسلام حديثاً .

ان استعادة بيزنطية للولايات التي فقدتها من قبل ، والاضطرابات التي شجرت في جميع أنحاء العالم الاسلامي وادت بالتالي الى انقسامه الى امارات ودويلات وسلطنات ، ألحقت تغييراً محسوساً في العلاقات التجارية ، في الشرق الادنى ، خلال القرن الحادي عشر ، وجعلت من اللازم القيام بعملية تنسيب جديدة عسيرة . فالهجرات التركية باتجاه الفلوات الروسية خلخلت كثيراً والحقت اذىً عظيماً بالعلاقات التي ربطت بين البلدان الروسية وبين اقطار آسيا الوسطى والامبراطورية البيزنطية . وكان من جراء هذه التغييرات والتطورات الجذرية التي لحقت بطرق المواصلات التجارية بين آسيا والغرب ، ان حل البحر الأحمر ومصر محل الخليج الفارسي وبلاد ما بين النهرين ، كما راح التجار الايطاليون ينافسون التجار البيزنطيين والتجار الاسلام في علاقتهم مع بلدان البحر المتوسط . وقد ساعد على هذا التطور ، في الشق الاول ، عوامل عدة ، منها : القلاقل والاضطرابات التي شجرت في الطرق ، وقسوة الجيش والاعمال الوحشية التي قام بها بفظاظة لا توصف في عهد العباسيين ، وجشع بيت المال واعمال القرصنة التي قام بها قرامطة العراق والبحرين ، وقيام حدود جديدة فاصلة بين بغداد ومقاطعة انطاكية اثر احتلال البيزنطيين لها ، يقابل ذلك انفصال مصر السياسي عن الخلافة العباسية ، وحركة الاستقطاب التي تمت حول القاهرة ، وسهولة نقل المواد الغذائية وانتشارها بسرعة اكبر في الموانئ القائمة على شواطئ البحر المتوسط . وقد عادت هذه الحركة بالفائدة الكبرى على مدينتي البندقية وامايفي ، الاولى من جراء استعادة بيزنطية للمقاطعة الواقعة الى الجنوب من شبه الجزيرة الايطالية ، وجزيرة كريت ، ومن جراء الانتصارات التي تمت على حساب الكروات التي امنت لها الاتصال بسهولة مع بيزنطية ، اما الثانية ، فبعد ان اقامت لها علاقات طيبة مع الاسلام في افريقيا الشمالية ، راحت توسع من نطاق هذه العلاقات ، الى مصر الفاطمية ، حتى ان غزوة الهلاليين لتونس والخراب الذي زرعه في البلاد ، كل ذلك افاد منه الايطاليون الى اكبر حد . وبعد ان رأى المغاربة الغاضون على سواحل البحر المتوسط الغربي الحيف الذي نزل بهم من جراء انقطاع حركة النقل التجاري ، راحوا يعرضون عن خسارتهم بمبارستهم القرصنة البحرية على السواحل القريبة من فرنسا وكتلونيا وايطاليا الشمالية . وبانتظار رد الفعل المسيحي لاعمال القرصنة هذه التي كانت استعادة صقلية من احدى نتائجها ، فقد افادت البندقية وامايفي ، لحسن موقعهما التجاري من هذه الحركة . ومن جهة اخرى ، لما كان المغرب رأى ثروته من الخشب في

خطير ، وكان عاجزاً عن بناء عمارة من السفن قوية ، كان باستطاعة بيزنطية ، بالطبع ، ان تلبد كثيراً من الوضع الذي كانت عليه الحركة التجارية اذ ذلك ، وقد آثرت ، لاسباب مالية بحتة ، ان تجذب اليها الايطاليين فيهبطون القسطنطينية ، عوضاً من ان تبثت باليونان الى ايطاليا نفسها ، بمد ان عجزت من دفع الايطاليين الاتجار مع المسلمين مباشرة . وهكذا قامت حركة منظمة من التبادل التجاري بين ايطاليا والاسكندرية حلت جزئياً محل الحركة الاخرى التي قامت بين محوري بغداد والقسطنطينية ، وارتبت عليها بكثير . فان لم تنقطع حركة النقل التجاري التي قامت على القوافل في آسيا ، فاننا نلاحظ نقصاً كبيراً في المنقول من البروة المنزلية ، في الشرق الاسلامي كما يشهد على ذلك ، نهوض طبقة جديدة تتألف من المسكرين وكبار الملاكين العقاريين .

في هذا العالم الاسلامي القلق ، الجيئاش بمعطام الاحداث ، وحدة الحضارة الاسلامية وتنوعها والمضطرب في الصميم ، ليس مسايلفت النظر ، ويستبد بالخواطر مثل الرواج الذي بلغته الآداب ، والازدهار الذي آلت اليه الحركة الفكرية . لما من امير الاوقامت حوله حاشية المخروط فيها جماعة من اهل الفكر والحمى ، وما من قاعدة او حاضرة الا وقام فيها للادب والفن اسواق رائجة ، وراح كثيرون من صلتحت احوالهم وبسم لهم الدمر ، كما راح كثيرون من عظماء القوم وعليتهم يتبارون في تشجيع تحملة الادب ورجاله ، ومناصرة اهل الفن والنبوغ ، من اي لون كانوا ، او الى اي مذهب انتسبوا . فاذا حدثت الركبان هن امجاد بغداد والسامانيين ، والبويهيين والحمدانيين في الشرق ، فاضبحار القاهرة والقيروان ، وباليرمو وقرطبة ، في الغرب ، عن الحركة الادبية ، تسلاً بطون الكتب والتاريخ . واتساع هذه الحركة الفكرية التي عمت مشارق المسالم الاسلامي ومناربه ، فتحت الباب على مصراعيه امام التنوع لظهور بحار فكرية عامة وتلغيع الافكار والاذهان في كل مكان بالتالد والطريف من الآثار الادبية .

وقد بلغ من غنى التأليف في العالم الاسلامي ما جعل الناس يشعرون بحاجة ماسة لمن ينهض ويعرف به في فهارس علمية . من ذلك مثلاً ، فهرس ابن النديم ، وكتساب الاغانى لصاحبه ابي الفرج الاصفهاني ، الذي يعد بحق ، من الكنوز الادبية الغالية . وقد ساعد على كثرة التأليف في العالم الاسلامي وفرة الكاغد او الورق الذي اخذ العرب سر صناعته من الصين ، وأدخلوا بعض اجناسه عن طريق سمرقند ، وما ان جاء القرن العاشر حتى انتشرت صناعته في جميع اطراف العالم الاسلامي ، فتلاشت امامه صناعة البردى كما قلت الحاجة الى الدروج والرقوق الجلدية السقي طالما عول عليها النساخ في اديار الغرب . وقامت في بعض حواضر البلاد الاسلامية الكبرى دور للكتب ، غصت بعشرات الالوف من الكتب جرى تفسيرها على نظم فنية خاصة روعي فيها تصنيف العلوم على ابواب ومطالب ، وقام على خدمتها جيش من اللساخ والوراقين ، والخطاطين

والمزوقين والمنمقين . كل هذا كان يفترض عدداً كبيراً من القراء والمطالعين ، وطائفة كبيرة من الكتّاب وحملة الأقلام والمفكرين .

اما نتاج الادب الوجداني ، وادب الخيال او الرواية فقد كان اقل رواجاً من الكتب التي تبحث في الموضوعات الفلسفية ، بنسبة ما يمكن التفريق بين النوعين المذكورين . وقد رعى الامير سيف الدولة الحمداني الادب وقرب الأدباء الى بلاطه ، فراجت دولة للشعر عنده ، وراح الشعراء يتفنون بالحروب التي شنها ضد الروم كما راحوا يدعون للجهاد ، كما نرى خبر ذلك في شعر ابي الطيب المتنبي (٩١٥ - ٩٥٥) . اما في سوريا فقد بلغ الشعر الذروة مع شاعر المحبين : ابي العلاء المعري (٩٧٩ - ١٠٥٨) الذي امتاز بقريحته الوقادة وبما وضع من الكتب التي تفيض سخرية وتهكماً بكثير من امور الأدب والدين والفلسفة . وقد اسهمت الاندلس بهذه الحركة اسهاماً كبيراً . فقد نبغ فيها ، في مطلع القرن العاشر ، الشاعر ابن عبد ربته الذي له حماسة ووضع عدداً من الشعر الاصيل . ثم طلع علينا ابن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) الذي غنى لنا في كتابه « طوق الحمامة » الحب المعذري ، وقام في اسبانيا من راح يقده ، كما لقي كثيراً من الاتباع والمريدين . فليس من ينكر ما كان لهذا النوع من الشعر في ما بعد ، على شعراء الزجل او أهل الطرب ، في جنوبي فرنسا *Troubadours* .

اما في العراق ، فقد كانت العناية شديدة بالثر ، يحاول الكتاب تتبع خطى الجاحظ دون ان يتمكنوا من مجاراته او سبقه في هذا المضار . وقد ازدهر فيه فن القصص وال نوادر الذي برز فيه التنوخي (٩٣٩ - ٩٩٤) ، كما برز فن المقامة وهي نوع من القصة تسير حوادثها حول بطل يستقطب ماجريات القصة ويرويها بشكل من النثر المسجع المليء بالتهكم والسخرية . وأشهر اصحاب المقامات ، الهمداني (٩٦٨ - ١٠٠٧) ومن هذه الفنون التي راجت في هذا العهد ، فن الرسائل الذي امتاز بفصاحة اللفظ وبلاغة المعنى جامعاً بين الايجاز والاعجاز

وفي القرن الثاني للمباسبين برز فن التاريخ والجغرافية وبلغ الأوج من الازدهار . وقد عني اول من عني بسيرة الرسول ، لاتصال هذا البحث بالحديث ، وقد اخذ فن السيرة يتسع ويتنوع محافظاً على وسائل الاعلام والمرض التي كانت له في الاصل . وقد ظهر في منتصف القرن التاسع مؤرخون امثال ابن قتيبة و ابو حنيفة الدينوري واليمقوي الذين وضعوا تواريخ عامة . فبعد ان ارتخوا لعهود الكتب المقدسة ، و « الأيام » عند العرب والفرس ، ولا سيما منذ عهد الاسكندر المقدوني ، نرى غيرهم يتعرض للبحث في الفتوحات العربية كالبلاذري الذي له « فتوح البلدان » . اما واضع علم التاريخ عند العرب ، فهو الطبري (٨٣٩ - ٩٢٣) الذي وضع كذلك تفسيراً للقرآن . فقد كان عالماً ناهياً ، ومؤرخاً وضع كتاباً ضخماً في التاريخ ، يمكن اعتباره موسوعة تاريخية ضم كل ما وضع عن التاريخ القديم والتاريخ الاسلامي على السواء ، وذلك بعبارة واضحة وباسلوب من السرد الاخباري ، وهو نهج هذا حذوه كثيرون ، دون ان يبدي في الموضوع الذي يبحث ، آراء شخصية مما يجعل له قيمة كبيرة لدى النقد الحديث . ومنذ ذلك الحين اصبح

التاريخ اكثر فنون الاداب رواجاً في العالم العربي خلال الأجيال الستة التالية . وقد برز بين المؤرخين ، في القرن التالي ، أي في القرن العاشر ، المسعودي الذي توفي عام ٩٥٦ ، والذي وضع لنا كتاباً ضخماً مختص فيه كتباً لم يبق منها سوى قسم ضئيل ، «مروج الذهب» ضم عدداً كبيراً من سير الخلفاء طواها على فوائد كثيرة . ومن بين هؤلاء المؤرخين ايضاً الصولي ، المتوفى عام ٩٤٦ الذي يحددنا بكثير من الحرارة ، عن ذكرياته كموطن بغدادي عمل في بطانة الخليفة العباسي . وقد راح عدد كبير من المؤرخين لموا بين القرنين العاشر والثاني عشر ، يكملون تاريخ الطبري ، انما في غير النهج الذي سار هو عليه ، منهم هلال الصابى ، المتوفى عام ١٠٥٦ الذي لم يبق من آثاره سوى بعض نتف ، وابن مسكويه المتوفى عام ١٠٣٠ ، صاحب كتاب «تجارب الامم» . وقد برهن كلا المؤرخين الاخيرين عن اطلاع واسع ، ومعرفة دقيقة لشؤون الادارة عند العباسيين والبيهييين وضمننا كتاباتها معلومات جزيلة الفائدة فكانت مميّنة لا ينضب من الفوائد والمعلومات .

وقد كان من جراء الانقسامات السياسية التي مزقت وحدة العالم الاسلامي ، اذ ذلك ان طلعت علينا تواريخ عديدة تبحت في تاريخ المغرب والاندلس ومصر ويران ، ليس في ذكرها هنا كبير فائدة . وقد شارك في حركة التأليف هذه ، عدد من كتّاب التصاري ، كتبوا بالعربية تاريخ بطاركة الاسكندرية (الاقباط) ساهم في اكاله فيما بعد كثيرون . وبين هؤلاء المؤرخين المؤرخ المللكي يحيى الانطاكي الذي سكن انطاكية ، في الربع الثاني من القرن الحادي عشر ، وهي اذ ذلك ، تحت سيطرة البيزنطيين ، وفيها وضع تاريخه المشهور الذي جمع فيه تاريخ العالم الاسلامي ، لاسيا مصر والشام ، وتاريخ بيزنطية . وفي هذه الحقبة بالذات ظهر عدد من كتب التراجم ، وفقاً للبلدان او المدن التي سكنوها ، وتراجم العلماء وفقاً لطبقاتهم : كطبقات الفقهاء والحكماء والشعراء والمحدثين والقضاة . ولم يلبث هذا الفن ان ازدهر فيها بعد ، ازدهاراً عظيماً . اما الجغرافيون العرب ، فقد وضعوا لنا آثاراً حريّة بالذکر ، فكتبوا في للمراحيبات وعلم الفلك ، سيراً منهم على النهج الذي انتحاه بطليموس ، وتركوا لنا اوصافاً حية ، شيقة افادت منها الدوائر الادارية التي كانوا يعملون فيها او تابعين لها ، وهي كتابات تفيض بالمعلومات الدقيقة والفوائد الجزيلة ، دارت حول العالم الاسلامي ، وتناولت وصف الهند والصين وآسيا الوسطى وروسيا ، والقطران الأشيران لا نعرف عنها شيئاً إلا من خلال هذه الكتب .

فالمعلومات التي ضمنوها كتبهم تركت الى نصوص من الوثائق الاصلية ، كما تعتمد ، من جهة ثانية ، على ما نقله عنها الرسالة العرب ، امثال سليمان وابن فضلان . فالكتب التي وضمها ابن خرداذبه في القرن التاسع ، والاصطخري وابن حوقل ، في القرن العاشر ، واخيراً المقدسي ، حوالي سنة الألف ، وهو اوسعهم واحواهم مادة ، على الاطلاق ، اذ عول فيها كتبه ، على من تقدمه في هذا المضمار ، وهي كتب كثيراً ما ضمت خرائط ومصورات جغرافية ، وصل بعضها الينا . وهذه الكتب تذكرنا بالكتب السني جاءت على وصف الادارة الحكومية ، وهي على منتصف الطريق بين الابحاث النظرية التي وضعها بعض الفقهاء ، كأبي يوسف ، والكتب الاخرى السني

ظهرت فيما بعد ، وهي اسهل أخذاً . ولعل أهم هذه الآثار ، على الاطلاق ، كتاب ابن قدامة الذي باشر بوضعه في مطلع القرن العاشر ومات دون ان يتمه . وقد كان المؤلف من كبار فقهاء الادب في عصره .

وما عسانا ان نقول عن ثابغة عصره البيروني (٩٧٣ - ١٠٤٨) المعروف باوروبا باسم *Aliboron* . فقد عالج بنجاح جميع الموضوعات ، وكتب بالعربية والفارسية . فنحن مدينون له بهذه المعلومات الوافرة الدقيقة التي جمعها بعلم ومعرفة ، بفضل وصف الفتوحات والغزوات والعلاقات الديبلوماسية ، التي قام بها السلطان محمود الغزنوي ، في كل ما يتصل بمدنيات آسيا والهند . فهو ، من هذا القبيل ، مؤلف ليس من يعدله في التاريخ الاسلامي ، على الاطلاق .

ونرى بعضاً من كُتّاب المعجم يستعملون تارة البهلوية الهندية ، وطوراً العربية السخيلة على البلاد . والجديد في الامر هو ظهور ادب جديد ، فارسي ، اسلامي في الوقت ذاته . وساعد على ذلك اقتباس الايرانيين للأبجدية العربية . وقد جاءت حركة التأليف هذه على غير استواء في بعض البلدان : قوية ، ناشطة في الدولة السامانية ، البميده عن العالم العربي ، وثيدة ، بطيئة ، متأخرة ، في ايران الغربية . ومع ذلك فستبقى اللغة العربية في ايران مدة طويلة ، الاداة الوحيدة للتعبير في كل ما يتصل ، من قريب او بعيد ، بالقرآن الكريم ، والعلوم الاسلامية والفلسفة . فاجادة العربية وتجويدها أمر لم يكن منه بد في الاوساط المثقفة ، وهي وحدها قادرة على معالجة الموضوعات اللغوية . غير ان ما للغة الايرانية من ميزات ، وما لها من قدرة ظاهرة على معالجة الموضوعات الخيالية تفوق ما للعربية منها ، والرغبة في التأثير على أكبر عدد ممكن من القراء ، كل ذلك جعل من اللغة الايرانية اداة طيبة ، مثلى ، للتعبير عن خيلجات الفكر بفن وجمالية . ويبدو الفرق بعيداً مع الولايات الاسلامية الاخرى التي توارى كل اثر فيها للغات الايرانية والآرامية واللاتينية ، ومع لغة البربر في المغرب ، وما كانت عليه من ضعف ووهن ، جعل منها مجرد لهجة من اللهجات المحكية قلّ من يكتبها او يستعملها اداةً للتعبير عن مكنونات النفس . فالادب الملحمي في الايرانية بلغ الذروة في المحاولة الاولى ، مع « الشاهنامه » (او كتاب الملوك) للشاعر الخالد الفردوسي ، الذي باشر بوضعها في اواخر القرن العاشر ، وهو في بلاط السامانيين ، ولا تزال لليوم اكبر وأكمل ملاحم الايرانيين على الاطلاق ، يقرأون فيها اعجابهم الوطنية قبل الفتح الاسلامي ، بلغة شعرية بديمة . وقام بين الايرانيين من عالّج قبل الفردوسي الفنون الشعرية على نطاق اضيق واعمق . ثم ظهر النثر الايراني في كتب التاريخ ، في بلاط الملوك الأوّل للدولة الغزنوية ، مع البيهقي (حوالي عام ١٠٥٠) وأحياناً في الكُتُب العلمية .

ففي الحين الذي تبرز في ايران وترسخ اللغة الفارسية الوطنية ، يطل علينا في العالم الاسلامي نوع جديد من الأدب الشعبي ، من العسير على المؤرخ تلعبه وتقصي مراحلها لأن الناس تناقلوه شفويًا ، ولم يكتب الا بعد ذلك بمدة طويلة ، بلغ ازدهاره في عهد العباسيين . وهذا الادب الشعبي الجديد ، يتألف اصلاً ، من قصص اخذ بعضها من الآداب القديمة ، كما أستمد البعض الآخر

من تاريخ الاسلام وتاريخ شعوبه الى ذلك الحين ، فيتألف من هذا كله مجموعة قصص تعرف بألف ليلة وليلة ، التي لم يستقر وضعها النهائي الا في اواسط القرن الرابع عشر . وقصص البطولة كقصه عنتر بن شداد مثلا ، تضع أمامنا صوراً ومشاهد من بطولات العرب ، بين قدامى ومحدثين ، بينما تتغنى الاخرى بالبطولات التي شهدتها الثغور الواقعة على الحدود بين المسلمين والبيزنطيين ، فتروي لنا المسكن والدسائس والحيل التي كانت تجري كل يوم حتى ايام الجهاد المقدس ، والملائق الودية التي قامت بين المسلمين والبيزنطيين الذين كانوا اكثر تفهماً للواقع من سادة بغداد والقسطنطينية . من تلك القصص مثلاً الملحمة النصف التاريخية ، بعنوان : « سيد بطال غازي » التي بعد ان تحولت وتطورت اصبحت الملحمة الوطنية الكبرى عند الاتراك ، في آسيا الصغرى . ولما كان الشيء بالشيء يذكر ، لا بد ان ننوه هنا ، ولو بصورة عابرة ، بالقصة البيزنطية التي لم تلبث ان وضعت شعراً ، وهي المعروفة بـ « *Digenis Akritus* » التي تضع أمامنا مشاهد مثيرة من حياة رجال الحرب على الحدود .

اطلع القرن التاسع والعاشر ، أطيّب الآثار العلمية والفلسفية التي عرفها الادب العلم والفلسفة العربي في هذه الحقبة . وقد حاول واضعو هذه الآثار الفكرية ان يبرزوا أمامنا كعلماء محيطين بكل شاردة وواردة ، على شاكلة بيك ده لاميراندول ، في عصر الانبعاث الفني والادبي ، في الغرب . ولذا يصعب تصنيفهم الى فئات معينة . ومع ذلك يمكن ردهم الى قسمين رئيسيين : الفلاسفة المتكلمون أو اهل الكلام ، وهي تسمية اطلقت في الاسلام على الباحثين في شؤون العقل أو الحكمة ، والعلماء وهم هؤلاء الجماعة الذين يعولون على الأيمان فيتخذون من العقل اداة تشد من ايمانهم . فالفلاسفة والعلماء ليسوا على الغالب سوى مظهر واحد للفكر ، اذ كان العقل ينتج دوماً من المشكلات الفلسفية اكثر من تمويل هؤلاء على العلم . اما بين العلم والتكنولوجيا التي تعتمد عليها المهن الاخرى ، فالاتصال يبقى ناقصاً ، اذ ان الملاحظة والتجربة هما المعول عليهما للوصول الى تحديدات وتعريفات واضحة ، ولولم يؤلفا أساس العمل . فسواء عالج العالم المقاييس والوسائل الحسابية التي يلجأ اليها الرياضيون ، واستعان بوسائل النجامة والكيمياء ، فهو يضع نصب اعينه ، اهدافاً عملية ، مع التأكيد ان النتائج لا تتحكم قط بتوجيه العمل وفرضه .

وعلى عكس اهل الكلام الذين نراهم مناشرين في جميع انحاء العالم الاسلامي ، لا نجد الا في الشرق ، ولا سيما في ايران ، علماء يعملون للعلم ، وفي القسم الشمالي الشرقي منها . فالطب يسجل تقدماً محسوساً . فهو يؤلف مهنة او حرفة مغلقة ، او موصدة ، لا تتفتح لاصحابها ومخترفيها ، الا بعد درس ومراس وامتحان عسير ، يجب اجتيازه بنجاح . وهي مهنة ممارستها مباحة للجميع من يهود ومسلمين ومسيحيين ، كما نرى في اسرة آل مجنثشوع السريانية ، التي سيطرت على بيارستان جند يسابور . ومنذ القرن التاسع ، نرى الامراء والحكام ينشرون لهم مستشفيات حرية بكل احترام وتقدير . فالطبيب ، سواء أعمل في البلاط أو في المدنية ، فهو شخصية بارزة لها شأنها واهميتها . وقد اشتهر منهم عدد بما بلغوه من كفاءات وقدرات عالية ،

وان فاتتنا معرفة الكثير من وجوه هذه المقدرة . وليس من يشك قط بالتطور العظيم الذي تحققت على ايديهم ، في مجالات : الكحالة وطب العين والقبالة وفن الاقرباديين ، والاكتشافات العلمية التي حققوها في هذا المضمار ، كالدورة الدموية الصغرى بين القلب والرئة . وقد برز بين اطباء هذه الحقبة طبيبان طبقت شهرتهما الافاق ، هما الرازي المعروف عند الغربيين باسم *Rhazes* الذي برع ايضاً بالكيمياء وقد رأى بالنور في مدينة الري (٨٦٥ - ٩٢٥) ، وابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧) الذي ولد في بخارى ، والذي اشتغل كذلك بالفلسفة ، فكان من اكبر واشهر فلاسفة الاسلام ، في الاجيال الوسطى ، فكان له فضل عميق على الطب ، لا سيما بعد ان وضع كتابه المشهور بـ « القانون » وهو موسوعة طبية ، واسعة ، منهجية . وكتابه هذا كان عليه الممول في الشرق حتى عهدنا هذا فكان القسطاس او النبراس الذي سار عليه الاطباء في الشرق الى هذا العهد ، كما اعتمده الاطباء في الغرب الى عهد موليير ، بعد ان عم نقله الى اللاتينية وطبع في روما لأول مرة ، سنة ١٥٩٣ .

اما علم الهيئة الذي اعتمد كثيراً على علم النجامة ، ففسد حققت تطوراً محسوساً ارتكز من جهة ، الى ترجمة كتاب « الجسطي » لبطليموس ، كما ارتكز ، من جهة اخرى ، على ترجمة مجاميع طبية تعود لعهد الساسانيين والهنود . فنذ مطلع القرن التاسع ، أنشأ الخليفة المأمون مرصداً له في بغداد ، كما انشأ بعده ، غيره من الامراء مراصد اخرى اشهرها على الاطلاق مرصد قرغانة ، كالمرصد الذي بناه شرف الدولة البويهبي ، في اواخر القرن العاشر . والاعمال العلمية التي حققها العرب والمسلمون حول : الإهليلج ، والكسوف والخسوف ، وحركات النجوم السيارة ، وقياس درجة الدائرة الارضية على اساس فرضية استدارة الارض ، وما الى ذلك ، يثير الدهشة والاعجاب ، اذا ما فكرنا في الادوات التي كانت بين ايديهم كالاسطرلاب مثلا ، وغير ذلك من ادوات توارثها العرب في التاريخ القديم ، وعولوا عليها في تحقيق ما حققوه من هذه الكشوف العلمية ، ولا شك ان البتاني (٨٧٧ - ٩١٨) هو اكبر علماء الفلك في زمانه . فقد كان من صابئة حران ، هؤلاء الصابئة ، الذين كانوا يعتمدون على النجامة ورصد النجوم . وبلغت شهرته الغرب حيث عرف باسم *Battennius* .

ومع ان العرب تمهلوا جداً في اقتباس الارقام الهندية ، فقد استعملوها مع الكسور العشرية والصفر ، فنحن في الغرب ، مدينون لهم ، مع ذلك ، بهذه الاعداد التي اخذناها بالفاظها العربية احياناً . واشهر رياضيين العرب ، واقدمهم على الاطلاق ، هو الخوارزمي (٧٨٠ - ٨٥٠) الذي ولد في خوارزم ، بالقرب من بحر آرال ، واليه تعزى الجداول الحسابية المعروفة في الغرب ، باسم *logarithmes* ، مع انه ليس بواضعها الحقيقي ولا عرفها . غير ان كتاباته حول المادلات الجبرية قد جعلته اول من اخترع علم الجبر ووضع اصوله في العالم . وقد عالج غيره من الرياضيين الذين جاؤا بعده ، الهندسة وحساب المثلثات .

اما الكيمياء ، فلن نهم لها بنسبة الاهتمام الذي لفته عند المفكرين في الاجيال الوسطى .

فالأكسير الذي بحث عنه كل الكيميائيين ، في الشرق والغرب ، على السواء ، هو من اشتقاق عربي . واشهر من عالج هذا العلم هو جابر بن حيان ، الذي عرف في الغرب باسم *Geber* ، وعاش في القرن الثامن . والذي وصل الينا باسمه من المؤلفات ، تم وضع بعضه بمعد وفاته بقرنين ، واكثر . وقد كانت اكثر تطبيقاً ، المؤلفات التي وضعها فريق من علماء المعادن وعلماء النبات والفلاحة ، اشهرهم على الاطلاق ابن وحشية الذي ينسب اليه برجة ، كتاب الفلاحة ، من النبطية الى العربية ، والذي لا يخلو مع ذلك من كثير من الاوهام والاساطير والحرافات .

كثيراً ما جمع هؤلاء الفلاسفة بين العلوم والفنون والموسيقى ، فراحوا يستلهمون نظريات ارسطو العلمية والعلوم الكونية والادبية التي قالت بها الافلاطونية الحديثة . واقدم هؤلاء الفلاسفة واعرقهم عروبة هو الكندي الذي لقبوه بفيلسوف العرب ، وقد عاش في القرن التاسع . اما المفكر الكبير والفيلسوف الذي جدد الفلسفة القديمة فهو الفيلسوف التركي المحتد والنسب ، اعظم فلاسفة الاسلام على الاطلاق ، هو ابن سينا الذي عاش في بغداد وحلب ، في القرن العاشر ، وعلى يده تطورت الفلسفة نحو الاشراقية العقلية .

فامام مظاهر هذا التفكير التي جاءت مغايرة للدين ومناقضة لتعاليمه ، ولهذه المهرطقات المدينة ، والتفاسير المخالفة للنصوص القرآنية ، اخذ القلق يساور رجال الفكر الذين تمهم كثيراً امور العقل والوحدة . فقد رأينا كيف ان المعتزلة راحوا يحاولون التوفيق بين الايمان والعقل . فالاشعري (٨٧٤ - ٩٣٥) والماثيريدي الذي توفي عام ٩٤٤ ، حاولوا ان يضعوا في خدمة الايمان ، سلاح القياس الذي عمل المعتزلة على تطويره . ولم تبق هذه الطرق والمناهج ، في بدء الامر قبول الاجماع . الا انها لم تلبث ان انتصرت وانتشرت في القرن الحادي عشر ، واصبحت جزءاً لا يتجزأ من تعليم الامة في الاسلام ، اضيف عليها شيء من التفكير العقلاني والشرعي ، على يد اهل الكلام الذين ظهروا فيما بعد .

ولهذا السبب قامت القطيعة بين موقف هؤلاء المفكرين المؤمنين حتى عندما يدافعون عن الايمان ضد العقل ، وبين فئة المتصوفة ، هؤلاء المؤمنين بقلوبهم الذين كثيراً ما رموهم بالكفر والزندقة . فالهاسبي والجسنيدي ، في القرن التاسع ، يعربان عن رغبتها في الزهد والنقاء الخلقي عند هذه النفوس التي لا تقيم وزناً للقياس ، كالحلاج ، مثلاً (٨٥٨ - ٩٢٢) . الذي قال في بعض تعاليمه : « انا الحقيقة ، وذلك في الوقت الذي احتدمت فيه الحرب ضد القرامطة ، فكفرتوه ورأوا فيه خطراً على الجماعة . فظهوره يعتبر حادثة نادرة في الاسلام ، جرت عليه الموت ، بعد عذابات اليمه ، مبرحة تذكرنا بمأساة المسيح .

ادت محاربة هذه الزندقة الى ادب خاص ، منه نفهم ما كانت عليه هذه الملل والنحل . وقام في الاندلس ، عند مطلع القرن العاشر ، حول ابن مسرّة وأخذه بتعاليم الافلاطونية الحديثة ، شعور بالقلق من جراء استفحال هذه التعاليم ادى الى وضع ابن حزم كتابه المشهور عن الملل

والنحل ، وهو احسن كتاب في الموضوع يصف لنا الفروق التي باعدت فيما بينها . وقد رأينا ما كان لابن حزم من اثر على الشعر في عهده .

الادب المسيحي واليهودي
على تقيض البحث العلمي الذي انفتحت ابوابه امام الجميع ، يبدو ان الفكر الديني لدى الطوائف غير المحمدية ، اختلفت عنده مظاهر الحياة العقلية ، عنها لدى العالم الاسلامي ، مع انه استعمل اللسان العربي ، تمبيراً وتبايناً . فهو يجذب ويتصلب عند المسيحيين فلم يطلع بأبي اثر بارز ، ولا أفسح المجال لطلوع أية مشاقفة دينية مهمة . وقد اقتصر الجدل ، بعد ان تصلب وقساً ، على الامور الكنسية دون العقائدية . اما الفكر اليهودي فقد استيقظ برهة من الدهر ، ونفض عنه الجمود واليبس الذي اعتراه من جراء التعاليم والمذاهب التلمودية . ففي الوقت الذي راح فيه الاشعري يدخل على الاسلام المهاج الفلسفية المعروفة ، عرف رئيس الكهنة ساديا ، في بغداد ، ان يكتسب شهرة واسعة بتجديده الناموس القديم ، وراح يحاول من جهته ، التوفيق بين النصوص الكتابية وتعاليم الربانيين ، أي بين مطلب الايمان ومناهج العقل . ومن كل الجوالي اليهودية في اوربا وآسيا كانوا يقصدون بغداد لاستيحاء تعاليم مدرستها المشهورة . ومن الرسائل المتبادلة بين هذه الجماعات الدينية ، تكونت مجموعة الوثائق المعروفة باسم *Papiers de la Genisah* التي عثر عليها في القاهرة ، منذ نحو خمسين سنة ، وهي مجموعة تمدنا كل يوم بنماذج مثيرة . ومع ذلك ، فازدهار المدارس المسيحية التي قامت في كل من القدس ، والقاهرة ، والقيروان - التي تجاوز اشعاعها ولايات ايطاليا الجنوبية - والاندلس ، يبدي بصورة قاسية ، الصدارة التي احتلها ربانته مدرسة بغداد ، على غير استحقاق او جدارة احياناً ، مع ان الانحطاط اخذ يدب اليها ويتغلغل فيها ، اثر القلاقل والاضطرابات التي نشبت في القرنين العاشر والحادي عشر . واذ ذلك ، انتقلت جذوة النشاط للأدب اليهودي ، الى البلدان الواقعة حول حوض البحر الابيض المتوسط ، وراحت رئاسة الاحبار ورئاسة الربانته تضمحل تدريجياً وتموت . فاذا ما عرفت مدرسة القيروان الضعة والهوان في عهد الهلاليين ، فقد اشتهرت مدرسة الاندلس بأن المنجبت جبريل الملقبي ، احد فلاسفة المدرسة الافلاطونية الحديثة الذي كاد يكون غريباً عن ملته ، كما كان شاعراً مشهوراً ، كما ان بهيا بن باكوري راح يضع كتاباً في مجالدة النفس والزهد ، يبدو غريباً جداً في الادب اليهودي . ومنذ القرن الحادي عشر ، اصبحت الاندلس ، ملاذ الفكر اليهودي ، كما اصبحت مركزاً للاشعاع الثقافي في العالم الاسلامي .

الادب البيزنطي
اذا ما قارنا الادب البيزنطي بما ظهر حوله من آداب اخرى في الشرق او في الغرب ، استطعنا ان نكوّن لنا رأياً معللاً ، وان نبدي حكماً حول قيمته الحقيقية او النسبية . فهو ينعم بعلم اكبر ، وبدقة اوفر ، من الادب في الغرب ، واصاب نجاحات اكبر من التي حققها ، الا انه اقل غناً وتنوعاً من الادب الاسلامي . فقد عرف

الاسلام ان يتمثل آداب الشعوب التي دوخها ، وان يطبعها بميسم الميز ، وان ينميها ويطورها بينما لم تشع. بيزنطية على الشعوب التي خضعت لحكمها وسلطتها الا في المجال الديني ، وفي بعض مظاهر خاصة من مجالات الفن ، مع العلم ان الشعوب التي اخضعتها لنفوذها لم يسمح لها طابعها البربري ان تستمرى عناصر ثقافية اخرى ، كما ان بيزنطية كانت اعجز من ان تعطي الغير شيئاً مما كانت تحرص عليه من تراثها الهليني التليد ، وبذلك جعلت نفسها بمعزل عن كل مؤثر اجنبي يأتيها من الخارج . فقد استطاعت ، وايم الحق ، ان تقنيس ، من الخارج ، بعض العناصر التي شاركت في تكوينها . ولكن ما من شيء جديد في المجال العقلي او الفكري . فلم تكن من القوة بحيث تستطيع ان تستغني ، دون ان تتعرض للخطر ، عن هذه العوامل التي ساعدت في إخصاب ثقافتها واغنائها . وهكذا راحت الثقافة البيزنطية تتطور وتتكامل من الداخل ، وتعمل ضمن حلقة مفرغة ، انمازت بالاخذ والقبس دون ان تكون لها القدرة على العطاء ، وبالتالي على الاشعاع . فقد كانت تحيا وتميش لنفسها ، لا للغير . قد يكون الادب الشعبي هو الشيء الوحيد الذي شذ عن هذه القاعدة ، الا انه ادب مجهول القدر ، منقوص القيمة ، ليس من يشعر به الشعور الذي نعمت به بعض المؤلفات العلمية التي وضعت لنتيجة مختارة من الطبقة الارستوقراطية .

وبالرغم من هذا ، وبعد الركود الادبي الذي طبع العصور الماضية ، وسيراً مع حركة الازدهار والاشعاع الفكري الذي عرفتها الثقافة العربية ، عرفت بيزنطية ، في القرن التاسع ، ازدهاراً عظيماً وتطوراً كبيراً في امور الفكر ، فازدادت فيها المدارس ، ودب النشاط في جامعة القسطنطينية بعد ان اجري فيها البطريرك فوتيوس ، وهو من اشهر تلاميذها ، إصلاحاً جذرياً وسكب فيها دماً جديداً ، وصقلت الاذواق والطباع في كل ما يتعلق بامور الفكر والفن . وبعد قرون من المناقشات البيزنطية الجوفاء حول قضايا دينية او كسنية لا طائل تحتها ، اخذ الناس ، بتأثير من هذه اليقظة الجديدة ، يحفلون بالتراث الحضاري القديم ، ولا سياً بالهليني منه . فبينما راح الاسلام ينقل من هذه الثقافة اليونانية بعض ما يتعلق بالعلم والفلسفة ، انصرفت بيزنطية للجانب الادبي الذي كان من العسير نقله الى العربية لما يتنزه به من الاساطير الوثنية والميثولوجيا ، ولما يستدعي تمثله من ذوق رفيه . وراحت تكمل رسالة مدرسة الاسكندرية ، وان تعثرت منها الخطى واشتط النهج في القيس ، اذ اقتصر على حرفية مرزحة ومقدمة . ففي هذا التطور من تاريخها ، اكدت الثقافة البيزنطية أريجاً من الفكر العلماني لا يتعارض او يتنافى قط مع الايمان ، انما يتميز تماماً عما خلفته العصور السالفة واللاحقة كما يتميز كلياً عن الانتاج الفكري ، في الغرب ، خلال هذه الحقبة . فبالاضافة الى المؤلفات التعليمية الطابع او الموسوعية الهدف ، وكتب النصوص والادلة الموضوعية للحكام الاداريين والخاصة ، كانت كل الفنون الادبية ، من نثر او شعر ، موضوع اهتمام خاص . ويبرز من بين هذا الادب السقيم أهزبل ، بعض قصص ومسرحيات لها قيمتها الفنية . وعلم التاريخ الذي

يرى مادته الاولى تتجدد باستمرار ، ترك لنا ، قبل القرن الحادي عشر ، مؤلفات قوية بقيت على الزمن ، ابتداء من التاريخ الذي وضعه ثيوفانس (غرة القرن التاسع) ، والتواريخ الاخرى التي رأت النور في القرن العاشر ، بتشجيع من الاباطرة امثال لاون السادس ، وقسطنطين المسربل بالارجوان ، وخلفاؤهم من بعدهم ، منها التاريخ الذي وضعه لاون دياكر . وقد اقيمت تراجم القديسين على انواعها ، رواجاً عظيماً لما كان لها من وقع في نفوس افراد الشعب . وجرى بنا ، ان نذكر هنا ، بعض الآثار النقدية التي نحا فيها واضعوها ، نحو لوقيانوس ، وان جاءت الهاكاة حرفية ، وكان علينا ان ننتظر القرن الحادي عشر لنرى آثاراً ذات قيمة ارفع واسمى . ويأتي التاريخ في خدمة هذه الآثار ، منها التاريخ الذي وضعه ميخائيل اثاليات ، ونيقوفورس برين ، وكديريوس ، وسكيلتريس . كذلك علينا ان ننوه عالياً هنا ، بالكتاب الذي وضعه « النبيل » نيكومانوس الذي ضم قصصاً مثيرة وعظمت وارشادات عملية . وقد برزت فوق هذه الحركة ، شخصية بسيلوس ، الذي كان من الطراز الاول : رجل ادارة ، وفيلسوفاً موسوعياً ، ومجدداً للفلسفة الافلاطونية ، وللافلاطونية الحديثة ، كما كان مؤرخاً وسيكولوجياً يخترق اغوار النفس البشرية ، في كتابه الموسوم « كرونوغرافيا » ، والمنظم للتعليم الجامعي بمساعدة الامبراطور قسطنطين مونوماخس (اواسط القرن الحادي عشر) ، والمؤسس لمدرسة الفلسفة ، الى جانب مدرسة الحقوق التي كانت تمد الدولة بما تحتاج اليه من رجال الادارة والحكم .

وبالرغم من هذا النشاط ، فليس ابرز للعين ، من الادب الشعبي الذي امتاز بالاصانة والمعنوية والطبعية . ويمكن ان نضيف الى هذا اللون ، فن كتابة سير القديسين ، والقصص المستوحاة من القصص الشرقي ، امثال قصة برلعمام ويوشافاط . واسوة بما كان عليه الوضع في الغرب ، فالمسرحية ، كالقصص الشعبي في الأجيال اللاحقة ، مزيج من التلاحين والاغاني والسرد القصصي ، تفتش احياناً ، وحيناً تتلى وتقرأ ، ويبقى هذا الفن ناشطاً حتى القرن العاشر . وقد طلع بعد قليل فن تمثيل الاسرار (*Mystères*) ، وهو مسرح ديني عرفه الغرب ، اذ ذلك ، يتألف أصلاً من حوادث يراعى في سردها الليتورجيا . ولعل أشهر هذه الآثار طراً ، وان جعلها العلم مدة طويلة ، هي بلا مرأ ، الملحمة المعروفة بـ *Digenis Akritas* التي استقرت في شكلها النهائي ، في القرن الثاني عشر ، مع ان القسم الاساسي منها يعود لقرن أو قرنين من قبل . وهذه الملحمة تذكرنا بالقصص الحماسية التي ظهرت في العالم الاسلامي ، مما سبق واشترنا اليه من قبل . فهي تصف لنا وضماً حياً ، مثيراً ، مشاهد من حياة جندي يعمل في حاميات التخوم والشعور ، وما تم له من علاقات مع بعض المسلمين ، تارة حربية ، وطوراً سلمية ، نستطيع معها ان نتبين ظروف وصروف الحملات والصوائف التي كانت آسيا الصغرى ملعباً لها ، في القرنين التاسع والعاشر ، كما نتبين ما كانت عليه ، اذ ذلك ، اخلاق القوم الساكنين على الحدود . ولا تزال ذكريات هذه الملحمة حية لليوم في نفوس افراد الشعب في اليونان .

والادب الارمني الذي استوحى قسماً من مقوماته ، من النماذج البيزنطية والسريانية ، ولا

سيا الدينية منها ، اخذ يتحرر أكثر فأكثر ، ويعتمد على نفسه في هذه الآثار التاريخية التي خلفها لنا قوما الارزرومي، واستفانس طارون، وارتستفاس ده لسديفرد وهي آثار جد مفيدة، بالرغم مما هي عليه من تقخم واطناب . وقد ازداد الادب الرهباني إزدهاراً ، خلال عهد الأسرة البغراتية . واكبر شخصية علمية في هذا العهد ، هي شخصية غريغوريوس ماجستروس (النصف الاول من القرن الحادي عشر) ، وهو نبيل ارمني ، وقائد عسكري ، عمل في الجيش البيزنطي ، موسوعي الثقافة ، جوّد اللغتين : الارمنية واليونانية ، وراح يحاول اخراج مواطنيه من العزلة التي وضعتهم فيها لغتهم الأرمنية . صحيح ان الشاعر الصوفي الأرمني غريغوريوس تاريك ، الذي عاش في اوائل القرن العاشر والذي لم يقع تحت اي اثر اجني ، تمتع بين الأرمن ، ولا يزال ، بشهرة اوسع مما تمع لماجستروس . ولما كانت بلاد جيورجيا هي الأخرى ، مفترق طرق ، وملتقى الثقافات البيزنطية والارمنية والارانية ، فقد اخذت تستيقظ تحت تأثير ترجمة الآثار والمؤلفات الكنسية ، وتتفاعل مع الحركة الفكرية في البلدان الصقلية الأخرى التي اخذت تتحرك وتتحرر سياسياً ، لتصل بحد القرن الحادي عشر ، الى آثار تتميز ، أكثر فأكثر ، بالطابع الشخصي .

فنون الشرق الادنى
 في جميع أقطار الشرق الادنى ، المسيحي والاسلامي على السواء ، ينزع الفن نحو التنوع ليقم له مذاهب أو مدارس « وطنية » خاصة ، مع حرصه مع ذلك ، على التمسك بعناصر مشتركة . وبالرغم من الفروق القائمة بين الفن الاسلامي والبيزنطي ، حدود واضحة المعالم والصوى ، بين هذه المذاهب الفنية المعمول بها ، في كلا الجانبين ، فكلاهما يتجاوب وحاجات مجتمعه الخاص الذي استمرضنا ، من قبل ، لتطورات المتوازية ، فيستعمل كل منهما وسائل تقنية مماثلة . ومعنا هنا ان نكشف ، ولو بإيجاز واقتضاب عن العوامل المشتركة التي تولف ما بينها من وحدة ، بحيث نستطيع ان نُظهر ، بصورة محسوسة ، ما في هذه الانجازات التي حققتها هذه الفنون ، من قوة التأثير والاعراء .

نحن نجهد تماماً التكنيك الهندسي الذي يختلف ، هنا وهناك ، باختلاف المادة المستعملة في البناء كالخجر او الآجر او اللبن ، في كل ما يتصل بالمباني العسكرية ، والقلاع والحصون ، الدفاعية ، بالرغم من كثرتها وعددها . للدفاع عن حدود بيزنطية ، او للدفاع عن البلاد الاسلامية ، ضد المشركين ، في آسيا وفي افريقيا ، وهذه الرُبُط التي تقم فيها متطوعة الفزاة الملبين نداء الجهاد المقدس ، ليوطدوا من سلطان الزعماء المحليين ، او لمراقبة المقاطعات الصعبة المرقى ، التي كانت ، في كل من سوريا وكرديستان والمغرب ، شهوداً ناطقة على ما بلغت السلطة المركزية من شدة التفتت ، والانحلال . اما الهندسة المهارية المدنية ، فلم يصل البناء منها شيء يذكر . غير ان الحفرات التي جرت في سامراء العاصمة الموقته للعباسيين ، بعد بغداد ، فقد كشفت عن معالم القصر الخلافي التي تساعدنا كثيراً على تفهم ما كان عليه هذا القصر من اوضاع خاصة ، كما نعرف جيداً ان القصر المقدس الذي شيده اسرة الاباطرة المقدونيين ، في القسطنطينية ،

استوحى خطوطه من الطراز الهندسي الممول به في بغداد . وهو عبارة عن مدينة ضمن مدينة ، أكثر مما هو قصر . فقد ضم العديد من الأبنية : هذه للسكن ، وتلك للتلهي والترفيه ، وأخرى للدفاع ، وأخرى للتموين وخزن المون التي يحتاج إليها الخليفة وحاشيته . كل ذلك يبدي الفارق الكبير بين هذه القصور الفسيحة الأرجاء ، وبين هذه المنازل القذرة التي كانت مأوى السواد الأعظم من سكان المدن .

أما الهندسة المدنية التي 'حفظت مبانيها أكثر من الأولى ، فقد قام فيها فروق بارزة أوجدتها مقتضيات العبادة ، سواء أكانت مساجد أو كنائس . والقضية المشتركة التي كان على المهندسين مواجهتها وحلها والتي هي أحسن ، تنحصر في السقف الواسع الذي كان يجب ان يغطي الردهة الكبرى المعدة لاجتماع المصلين . وهكذا راح المهندسون المعاريون ، في كل من القسطنطينية وإيران ، يتعاونون معاً لإقامة قبّاب وقناطر من الآجر ، بينما استعمل مهندسو أرمينيا وسوريا ، ثم البلقان ، الخشب لسقف كنائسهم المبينة بالحجر . وقد أدى التطور الذي رافق إقامة القبّاب ؛ في كنائس بيزنطية ، إلى جعل السطح بشكل صليب يوناني .

فإذا ما زالت معالم الكنيسة الأولى التي بناها الامبراطور باسيل الأول ، فلا يزال قائماً لليوم ، سواء في القسطنطينية أم في الولايات التابعة لها ، كنائس عديدة متواضعة المظهر ، استعمال بعضها إلى مساجد وجوامع . ان عهد السلالة البغراتية هو بالفعل العصر الذهبي للهندسة المعمارية عند الأرمين ، كما يبدو ذلك في هذه التحفة الفنية الرائعة التي تتمثل على أتمها في كاتدرائية آني ، وما تركته من اثر بين في كنائس جيورجيا ، ولا سيما في كاتدرائية عاصمتها القديمة كوتائيس .

أما المسجد الذي هو عبارة عن بهو أو صالة كبيرة لا مكان فيه لحنية أو هيكل ، فهندسته لم تُثر أية مشكلة أو صعوبة . فمسجد ابن طولون ، في القاهرة (أواخر القرن التاسع) استوحى خطوطه الكبرى من مساجد بغداد العباسية . وبقيت هذه الهندسة مرعية الجانب في عهد الدولة الفاطمية ، كما يظهر ذلك بوضوح ، في مسجد الحاكم الذي استوحيت في هندسته بعض العناصر البنائية المستعملة في الغرب وطبقت في بناء جامعة الأزهر . أما في أفريقيا ، فروائع الفن المعماري الهندسي ، تتمثل في مسجد القيروان الذي تم تشييده في مطلع القرن التاسع ، ودخلت في هندسته عناصر مستوحاة من عمارة المساجد في الشام والعراق . أما في الأندلس ، فتحفة الفن الهندسي فيها ، هي مسجد قرطبة الذي استمر البناء فيه أكثر من قرنين (القرن التاسع والعاشر) . أما في إيران حيث مواد البناء لم تقوَ على مغالبة الزمن وعوامل الفناء ، والهزات الأرضية الكثيرة الوقوع ، فلم يبق لنا شيء يذكر مما سبق بناؤه القرن التاسع ، وهو العهد الذي قام فيه مسجد أصفهان الكبير الذي أدخلت عليه فيما بعد ، تعديلات وإضافات جديدة . ونحن مدينون لإيران بهذه الأضرحة التذكارية الكبيرة التي تنتهي ببرج أو قبة هي التي أُوحت بالطراز الجديد للمساجد

الجنائزية . وبعد ان اضيفت على هذه المساجد ابراج حلزونية الشكل مستوحاة من الفن القديم للمهارة ، في البلاد ، انتهت بظهور هذه المآذن المستديرة التي تنتصب مرتفعة نحو السماء والسقي تختلف كل الاختلاف عن هذه المآذن المربعة الشكل ، ذات الادوار او الطبقات الضخمة السقي شاع استعمالها في مساجد بلدان حوض البحر المتوسط . وبما يلفت الانظار في هذه المساجد ، بعد ان يمتاز المرء الساحة المسورة التي تحيط بها ، وبعد ان يدخل هو الجامع وصحنه ، هو هذه الأعمدة العديدة التي كثيرأ ما تعلوها اقواس او قناطر متنوعة الأشكال ، من هلال الى قنطرة كاملة .

ويوجد بين المهندسين النصراني والمسلمين رغبة قوية في زخرفة المبنى وتحليته (الديكور) . فقد زالت تماماً ، معالم التماثيل والشخوص والنقوش الضخمة ، اتفصح المجال لفيض من الرسوم والزركشة للسطحات عن طريق الألوان او عن طريق نقش الحجارة وتقرينها ، او عن طريق التلبيس او التكلية . وكم سمعنا ورددوا على مسامعنا ان الاسلام حرمّ ويحرمّ تصوير الكائنات الحية في الممايد . فهذا القول لا يخلو من تشدد وهنت ، لا نرى قط الايرانيين يأخذون به او ينزلون عند حدوده . فالمسألة لم تكن لتعني تصوير ذات الجلالة . ههيئة انسان ، او على شكل حيوان مها كان كريماً ، اذ ان الله روح يملو فوق كل مادة وغرض ويخلق ، كما لا يعني تمثيل الكائنات لذاتها . فالفنان المسلم لا يتعرج قط ، ولنا على ذلك امثلة عديدة ، عن تزيين المباني المدنية بكل ما لديه من وسائل التحلية والزينة : من نبات وحيوان وانسان ، اذا كان في هذه الرسوم ، ما ينهض باسباب الفن ، او يزيد من قوة جاذبية التحلية ، في اي المظاهر التي تسدر عليها ، وفي اية حالة من الحالات ، كالصيد والقنص والحرب ، والثابت هو ان الفنان في البلاد السامية ، هم الاول ان يأخذ من الكائنات رمزاً يستعيط منه ما له من معالم حسية لصل منها الى فكرة التجريد ، بما توسيه هذه الهباتك والشجرات والدوائر الهندسية ، والخطوط الكتابية المشابكة التي راجت رواجاً عظيماً في العالم الاسلامي . وهذه النزعة بالذات لم تكن غريبة عن الفنان البيزنطي فتمسه بالقدر الذي يُظن او يذهبون اليه ، صحيح ان هؤلاء الفنانين لا يترددون قط منذ بدعة محطمي الصور والايقونات ، في تصوير القديسين والألوهية نفسها ، في الكنائس . الا انهم على عكس الفنانين في الغرب الذين نزعوا دوماً الى تجسيد او تشبيه قصص الكتاب المقدس ، ليمتروا بذلك ، عن لاهوت مجرد ، بأشكال وصور لا تتميز ولا تتحول ، هي فوق البشر ، لا تمود اليها الحياة الا عندما يستطيعون التصرف بلقنهم بكل حرية .

والفيلساف ، هذا الفن الذي يمكن وصفه بالفن الارستوقراطي والذي طامس اركان اليه الفنانون وعولوا عليه في الاجيال الاولى من تاريخ البيزنطيين والاسلام ، راحت بيزنطية تسبده او تستميط منه بالاكثار من الافاريز التي تكلف ما تكلفه الفيلساف ، من نفقات . فالشواهد المدينة التي وصلت الينا من المباني الواقعة خارج القسطنطينية ، تبدو احياناً فخمة ، كما نرى ذلك في كنيسة القديس مرقس في البندقية (القرن الحادي عشر) ، وفي صقلية النورمندية

(القرن الثاني عشر) ، وفي مدينة كييف (القرن الحادي عشر) ، واكثر بساطة في الكنائس الواقعة في الملحقات ، ككنيسة دفنة في اليونان ، واحياناً كنائس من ذوق شعبي خشن ، ككنائس قبادوقية « الكهفية » التي عثر عليها من عهد قريب . ومع ان العالم الاسلامي عرف استعمال الافاريز ، فقد فضل مع ذلك استعمال القاشاني المغطى بالمينا والذي تفننت مصر كثيراً بصنعه . اما ايران ، فقد اشتهرت بصنع البلاط المربع ذات اللعان المعدني ، فاستعملت مجموعة كبيرة منه في مسجد القيروان . ولكي يستروا المباني المصنوعة من القرميد البسيط ، راح الفنانون ، سواء البيزنطيون منهم او المسلمون ، يغطون السطوح بطلاء متعدد الالوان . اما المرمر ، فقد اقتصروا استعماله على الداخل ، واستعملوا فيه جميع العروق . اما الفنانون في ايران الشرقية فقد حاولوا ان يخلقوا نوعاً من التحلية بمجرد رصف الآجر دون الركون الى الالوان .

اما الزر كشة والتزيين بالحفر فلا يستعمل الا في تيجان الأعمدة والكورنيش . كذلك الجدران المحرمة التي بالنوا في دقة صنمها ، فيكثر استعمالها ، بالاحرى ، تحت القناطر والقباب والسطوح التي لم تكن مرصوفة بالفسيساء . وتكتمل اسباب الزينة بوجود الأرتجة الضخمة والمفروشات والطنافس والسجاد .

فبعد ان زهدت الهندسة المعمارية بالحفر والنقش ، راح هذا الفن يثار لنفسه بسيطرته على الفنون المعروفة بالفنون الصفري . فالأخشاب الثمينة تحفر في العالم الاسلامي وتستخدم فيه على نطاق واسع ، في المساجد وفي المنابر . كذلك التكفيت والترصيع فهو من هذه الفنون التي اختلفت بها الاسلام . واستعمال العاج يبقى رائجاً على نطاق واسع في بيزنطية ، لما كانت الارستوقراطية فيها ، ميسورة ، ثرية ، قادرة على إقتناء الصناديق الخشبية التي تحمل نقوشاً تنبض بالحياة ، وهو فن بقي مستعملاً في جميع ارجاء البحر الابيض المتوسط : في مصر ، وصقلية والاندلس . واشتهرت بيزنطية بالابواب الضخمة المصنوعة من البرونز وبمصنوعاتها الفضية ومجوهراتها المنقوشة والمطعمة . وكنا نرى في العالم الاسلامي الصحان الكبيرة والصواني الواسعة ، والمغاسل النحاسية ، والمصابيح المصنوعة من البرونز ، المستوحاة نماذجها من الفن الساساني ، والتي كانت تصنع كذلك في مصر وفي الاندلس ، كما كانت تصنع في العراق وايران ، فنالت شهرة واسعة لا يزال يفيد منها من راحوا يقلدونها ، حتى في عصرنا هذا . والاسلحة الفنية المصنوعة في الهند اولاً ، ثم في دمشق وقرطبة لم تكن لتقل عنها شهرة . وفي صنيع الحلي والمجوهرات والدمى ، كانت بيزنطية تخضع ، كاوروبا نفسها ، لفن سكان البدو ، الذي لم يُعرف كثيراً في الاسلام .

ومن الفنون الخاصة ببيزنطية والغرب ، تحلية المخطوطات وتزيينها بصور ورسوم دينية ، يضاف اليها احياناً صور بعض الامراء ومشاهد مأخوذة من الحياة اليومية . وفن تزيين

المخطوطات الذي مارسه المسيحيون في البلدان الاسلامية ، لم يلبث ان انتقل الى المسلمين في أقطارهم ، فراحوا يزيدون العديد من الكتب الاسلامية الدينية كالقرآن ، مثلا . ولم يصل اليها نماذج سابقة للقرن الثاني عشر . والتحف الفنية لفن التزييق الايراني التي وضعت بعد هذا العهد بكثير ، جاءت وليدة عوامل ومؤثرات اخرى .

اما الخزفيات التي استعملت على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم الاسلامي ، ولا سيما في مصر وايران ، فأمدتنا بصحائف وصوان واطباق ترفل بمشاهد متنوعة ، وبعضها عطل من كل حلية ، وان وجدت فغاية في البساطة . وقد عرفت بيزنطية هذه الصناعة ، انما على نطاق ضيق . الا انها اشتهرت على الاكثر بصناعة الزجاج ، فلم يبق من مصنوعات سوى عدد قليل يحفظ معظمه بين مجموعة كنيسة القديس مرقس الفنية ، في البندقية ، وهي صناعة تمثلت على اخص وجهه ، في العالم الاسلامي ، سواء في سامراء وفي الغرب وفي مصر ، حيث اضيفت اليها صناعة البلوريات ، وقد عرف الصناع ان يتفننوا كثيرا بمصنوعاتهم ، فلونوها واستعملوا الزجاج مع المعادن . وقد عرفوا كذلك صناعة النوافذ الزجاجية الملونة وان لم يبلغوا فيها مبلغ الصناع المسيحيين في الغرب .

وقد اشتهر الشرق الادنى بصنع الانسجة الفاخرة السقي استعملت في الملابس كما استعملت لأمور الزركشة والتعليق . وقد اطلب الادباء وصفاً بصناعة الديباج والحز ، كما تفنن الصناع في استعمال هذه النسائج في اعمال الزينة ، وهي مصنوعات عرفت في بيزنطية قبل الاسلام ، وقامت لها دور ملكية في بيزنطية ، كما عرفت بغداد والقاهرة وقرطبة دور طراز ، اخرجت لثراء القوم واعيانهم ، منسوجات حريرية مدهشة بسجته بأسلاك الفضة والذهب ، لا يزال باقياً منها لأن نماذج رائعة في بعض الكنائس القديمة في الغرب . اما فن صناعة السجاد الذي اشتهر بها الشرق منذ عهد بعيد ، فلم يصلنا شيء مما تم صنعه قبل اواخر الاجيال الوسطى . كذلك عرفت صناعة الجلود فناً عظيماً جودته الصناع المسدون وألقوه للعناية . فالكلمة الفرنسية *cardouier* (اسكافي) اشتقت من اسم مدينة *Cardou* التي اشتهرت بهذه الصناعة . كما ان صناعة الجلود الثمينة جاءت هي الاخرى من كلمة *Mare* المغرب الذي جود هذه الصناعة .

اما البرابرة ان السلافية التي كانت حضارتها على مستوى أدنى ، فلم تعرف اذ ذاك ، فناً شاملاً بها . صحيح ان الاصنام الخشبية التي وجدت عند صقلية الغرب ، لغتت اذ ذاك ، انظار الرحالة والمسافرين ، كما ان مخلفات قصور الامراء البلغار هي أكبر شاهد ، على انتقال التقاليد السامانية عبر العرقي الصحراوية . كل ذلك ، مخلفات حقيرة ليس لها شأن يذكر ، فليس من عجب ان اعرش عنها العالم المسيحي ، ويذهب فيها . وقد كان من نصيب الفنانيين البيزنطيين ان يحملوا الى القسطنطينية فناً متكاملاً ، لم يلبث انشاء البلاد ان اقبلوا عليه يمشلون ، ويقبسون منه ما شاء لهم

القبس ، بعد ان تتلمذوا عليه .

وهكذا نرى ان الازمات السياسية والاضطرابات الاجتماعية التي هزت الشرق الادنى من اركانها ، كانت اعجز من ان تسبب ، في الحال ، انهيار المدينة . إلا انها مهدت الطريق وأفسحت المجال امام عوامل وقوى جديدة ، لم تلبث ان اثرت تأثيراً عميقاً في هذه المدينة ، وهددتها بخطر ماحق نزل بها في القرن الحادي عشر .

الفصل السابع

الحضارات الآسيوية في الأوج (من القرن السابع حتى الثاني عشر)

في القرون الاولى من تاريخ الاجيال الوسطى التي شهدت في الغرب ، انطواء العالم المسيحي كما شهدت ، في الشرق الادنى ، ظهور الاسلام وانطلاقه كالشهاب الراصد، عرفت البلاد الآسيوية، من جهتها ، درجة رفيعة من الازدهار سجلت معها مدنياتها المختلفة رقماً قياسيماً في جميع هذه البلدان . ففي مطلع هذه الحلقة ، أي في غرة القرن السابع ، كانت الامبراطورية الساسانية على قاب قوسين وادنى من انهيارها وزوالها . أما الهند ، فلم تلبث ان نهضت من كبوتها ، بعد ان بفضت عنها غبار الدمار والحرب الذي انزلته بها الغزوات الماحقة التي قامت بها قبائل الهونز ، وراحت اسرة هارش ده كالوج تسمى ، على مثال اسرة الغوبتا ، لتعيد اليها وحدتها . أما الصين ، فبعد ان تغلبت على غزاتها من الاتراك والمغول بفضل السياسة الرشيدة التي اتبعتها سلالة تانغ الجديدة ، راحت تبسط سيطرتها وسلطانها على التركستان والتونكين ، وشمالى مقاطعة الانشام ، بينما ربطت الاقطار الأخرى الواقعة على سواحل البحار الجنوبية ، بصائرهما بالهند ، فاخذت تتطور وتتكامل تحت حمايتها ورعايتها ، فتمهد بذلك لهذا الازدهار الذي تميز به هذه الروائع الهندسية الفخمة التي تتمثل على احسن وجه في هياكل انككور وبارا بودور ، كما راحت أقطار جديدة تعب ، بل ورثتها ، من الحضارات الآسيوية . فهنا هي التيبث التي اعتنقت البوذية ، لن تلبث ان اصبحت ، على شاكلة الترك ، خصماً عنيداً للصين ، وملاذاً للبوذية الهندية ، وحمى لها توفرها الرعاية والحماية . أما اليابان فقد اخذت ، هي الأخرى ، تستيقظ من سباتها العميق ، وتقتبس بدورها من مقومات الحضارة الصينية ، ولم تعتم ان كملت عملاً هي عليه من الصفات والمناقب التي ان تلبث ان ميزتها وفردتها . وحركة التطور والتكامل التي اخذت الاقطار الآسيوية بأسبابها ، وجدت جذورها الكبرى في الهند والصين . فكلامها استطاع ان يحافظ على مناطق نفوذه التقليدية التي عرف ان يسيطر عليها : الصين في التركستان والتونكين ، والهند في المناطق الهند الصينية واندونيسيا ، كما استطاع كل منهما ان يحتفظ بمناهجه وأساليبه الخاصة ، اذ في الوقت الذي كانت فيه الصين تعتمد على القسوة والبطش في

سياستها وتعمل على توطيد النظم الادارية التي اتقنتها ، واحتفظت الهند ، مع البلدان الدائرة في فلكها ، باحسن العلاقات واطيبها في المجالات التجارية والدينية والثقافية .

عند هذا القدر نقف في هذه الموازنة ، وهذه الايزائية التاريخية التي تقابل التطور الذي اخذت الاقطار الغربية باسبابه والمدنية التي اطلعتها . فلا نرى في آسيا حول هذه المطفة التاريخية التي تكونت من سنة الالف ، شيئاً يمكن مقارنته بهذه اليقظة ، هذا الانبعاث الذي دب في الغرب الآخذ باسباب النظام الاقطاعي ، كما لا نرى شيئاً يمكن ان تقارن به هذا الانقلاب الجذري الذي قلب الشرق الادنى ، رأساً على عقب . صحيح ان الامبراطوريات الاسيوية الكبرى ليست بمنزل او بمنأى عن اي تغيير او تبديل ، ولا مؤسساتها ونظمها متحجرة بحيث لا تقبل التبدل . فهناك اخطار كثيرة تترصدها ، يتحتم علينا تحديدها وتبدل باستمرار من حدودها واطرافها ، قبل ان تحمل اليها الخراب . ومع ذلك فقد استطاعت ان تحافظ على مقوماتها الاساسية مدة اطول وان تصونها من عبث المباشين . فليس من فجوات عميقة بلحظها المؤرخ في تاريخ هذه الامبراطوريات ، قبل طلوع الفتح المغولي الذي اخذت بوادره ترسم منذ فجر القرن الثالث عشر ، فبعد ان عبثنا قليلاً بالترتيب الزمني الذي نحاول ان نرسم ضمنه التطور المتوازي لهذه المدنات البشرية الكبرى ، علينا ان نكشف ، في هذا الفصل ، عن الخصائص المميزة لهذا العالم الاسلامي كما تبنت لنا من خلال تطوره التاريخي حتى السنوات الاخيرة من القرن الثاني عشر او ابعد من ذلك بقليل .

هي نظرة خاطفة ، جريئة نلقينا على تاريخ هذه القارة الشاسعة ، خلال حقبة من الدهر على مثل هذا الاتساع ، والمدى الذي نبت على خمسمائة سنة . هنالك امران يساعداننا في الكشف عن الطابع المميز لوحدة التاريخ هنا ، بالرغم من تلك الاحداث الكثيرة كما يساعداننا على التسامي فوقها ، ما : انتشار البوذية وتوسعها ، في بدء هذه الحقبة ، والنشاط البالغ الذي عرفته الحركة التجارية ، طوال هذه الحقبة بالذات .

انتشار البوذية
في هذا العالم الاسيوي ، كما يبدو لنا في القرن السابع ، الذي ينعم بالاستقرار الموقت والازدهار ، كما يظهر ، تلعب البوذية ، دوراً اساسياً . فالبوذية ، تنعم في الهند رسمياً برعاية الامبراطور هارشا ، والمناطق التي تسيطر عليها كجزيرة سيلان ووادي نهر الغانج ، هي اراضٍ مقدسة . وقد بلغت البلدان الواقعة على سواحل البحار الجنوبية وتغلغلنت بين شعوبها ، واقامت لها في التركستان نفسه ، نقطة ارتكاز قوية ، أشعت منها بعيداً . وقد اغدقت عليها اسرة تانغ ، الصينية ، الانعامات السابغة ، وساعدتها على ايفاد كتائب من المرسلين والمبشرين والحجاج ، الى الهند والبلدان الواقعة الى الشرق من القارة الاسيوية ، وبلغت التثبيت التي كانت بقيت ، الى ذلك الحين ، مغلقة في وجه المؤثرات الاجنبية ، كما دخلت اخيراً كوريا واليابان ، حيث استقرت ، وازدهرت بفضل ما عرفت به من روح

مستكونية ، اذ كانت عنصراً ضمناً ولحمة ربطت بين اشقات المدنيات التي لغحتها وتغلغلنت بين ثناياها . فاينا حلت ونزلت ، ساعدت على بعث مذاهب ونزعات فنية حملت معها ليس تيار المؤثرات المختلفة التي عملت على نشرها فمحسب ، بل ايضاً المبقرية التي ميزت كل قطر من هذه الاقطاره بمفرده .

قام خلال القرن السابع سلسلة متصلة الحلقات من قوافل الحجاج الصينيين بغية زيارة الهند والمراكز البوذية المشهورة في الانسولاند والتركستان ، يبحثون جادين في اثر الوثائق والاسانيد التي كانوا بحاجة اليها ، ويحرصون على جمعها وحفظها . وقامت ركبان اخرى ، في القرون اللاحقة ، تؤم اليابان التي ارسلت بدورها العديد من الوفود الديلية الى الصين . وقد علق البلاط الامبراطوري في الصين ، اهمية كبرى ، على تبادل هذه الرحلات وتنظيم هذه الاسفار ، بين الجانبين ، اذ كثيراً ما اردف الوفود التي كان يرسلها ، بكاهن له شخصية لامعة ، كثيراً ما عهد اليه بمهمات دبلوماسية ، وكان هذا الكاهن موضوع احترام كبير ، كما تم للراهب يي تسنغ ، الذي استقبلته عند رجوعه ، الامبراطورة نفسها ، عند بلوغ البوابة الرئيسية من جهة الشرق ، على قرع الطبول والزمر وتصداح الموسيقى ، على رأس وفود من الرهبان جاؤوا من كل اديار البوذية ومعابدهم في العاصمة ، حاملين الاعلام والمظلات ، سائرين على انغام الاجواق الموسيقية والتراتيل الديلية . ان عدداً كبيراً من هؤلاء الحجاج لم يمودوا قط لبلادهم ، إما لانهم استقروا نهائياً في البلاد التي مبطوا فيها ، او لانهم قضاوا محبهم في طريق عودتهم ، لما تعرضوا له من الاخطار الكثيرة التي هددت حياتهم : من بحار هائجة تمخر عباها سفن تجارية سرية المطب ، او من وقوعهم في ايدي القراصنة الذين كانوا يبعثون بطرق المواصلات البحرية والبرية على السواء ، او من وقوعهم اسرى بين ايدي اللصوص وقطاع الطرق الذين كثيراً ما جردوهم من امتعتهم وملابسهم او قتلوهم ، او المخاطر التي كانوا يصادفونها في الاحوال الجوية والمصاعب البرية كالرمال المائنة التي كان يغوص فيها سالكها ، وغير ذلك من جهد وضنك وعناء عندما يمارون قطع هذه الطرق والمسافات الشاسعة التي تباعد بينها .

فلسي الوقت الذي راحت فيه قوافل الحجاج والوفود الديلية تهرأ بهذه نشاط الحركة التجارية
 المخاطر المديدة التي تعترض طريقهم ، نشطت نشاطاً كبيراً الحركة التجارية التي قامت بين البلدان الواقعة على سواحل بحار الجنوب وبين الاقطار الاخرى في آسيا . فالسفن الصينية الكبيرة التي كان باستطاعتها ان تبحر من ٥٠ - ٦٠ طناً ، كانت تبحر من سجن السوند وتصبض ما طاب لها من مواد ، بيضا كانت سفن العرب تدمج يادع - تشو ، في الوقت الذي كانت فيه سفن جزيرة جافا المصنوعة من الخيزران ، تنجبه غرباً للقاء التجار المسلمين ، صحح ان الاخطار الناجمة عن هذه الملاحة التجارية التي عرفت ان تعتمد على الرياح الموسمية كانت كبيرة لكثرة حوادث الغرق التي طالما ادت اليها ، ولهجوم القراصنة عليها ، او التحول

عن خط السير في الطريق المرسوم لتفادي هيجان البحر ، او بيع البضاعة بسعر بخس جداً عند حراجة الموقف ، مع ان الناس في المرافئ والاسكلة البحرية ، ينتظرون وصولها بفارغ الصبر ، كما ان مستودعات التخزين في المرافئ ، كانت عرضة للحرائق ، عدا عن رسوم الدخولية والباج المترتبة على التجار ، مع العلم ان الصينيين كانوا يدفعون ايهظ الرسوم وأثقلها ، اذ ان وسق سفنهم كان يبز الجميع . ومع ذلك ، فحركة المقايضات التجارية هذه التي وصفها لنا الرحالة العرب بكثير من التفصيل والاسهاب ، كانت تقوم على قواعد راسخة ، ثابتة ، كما نعمت بالازدهار .

وقد بلغت الحركة التجارية هذه مدينة كنتون ، وهاي - تشيو على مصب نهر هواي ، ومدينة يانغ - تشيو على مصب نهر اليانغ تسيو ، كما بلغت مقاطعة فو - كيان . والقناة الكبرى التي تم فتحها بأمر الامبراطور يانغ - تي ، والتي جرى توسيعها فيما بعد بأمر من الامبراطور سواي (٦٠٥ - ٦١٧) ، سهلت وصول الملاحة البحرية والنهرية الى داخل البلاد . وعند بلوغ التجار مرفأ يانغ - تشيو ، وهو مرفأ دولي نشيط الحركة ومزدهر التجارة ، كان وكلاء الامبراطور يتسلمون البضائع ، ويحتفظون بها في العنابر الحكومية لمدة ستة اشهر . وكان البائع يدفع للشاري مبلغاً من المال تأكيداً منه وضماناً لجودة بضاعته ، بينما يأخذ الاخير على عاتقه بعض الاخطار التي قد تتعرض لها البضاعة . وفي نهاية الرياح الموسمية عندما يكون البائع على أهبة مفادرة المرفأ ، تصبح الصفة التجارية قطعية ، اذ يعمد وكلاء الامبراطور الى قبض ثلاثة اعشار البضاعة ، ويسلمون الباقي للشاري . اما اذا كان الامبراطور هو نفسه الشاري ، فيدفع نقداً ضعفي الرسم المفروض ، لا سيما اذا كانت البضاعة كالفوراً . وكان الاجانب الذين يتجولون داخل الصين ينعمون ببعض الحماية . كذلك كان عليهم ان يبرزوا جواز سفرهم والترخيص المسبق لهم ولتجارهم ، والتصريح عن المبالغ التي يحملونها . وكانت هذه الرخص تبرز في كل مركز لجباية الرسوم التي ترمها البضاعة .

وفي الواقع ، فقد آلت الصين ، خلال اجيال سحيقة ، ولا سيما من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر ، سوقاً ممتازة لتجار الخليج الفارسي ، وللتجار المسلمين القادمين من بغداد ، اذ كانت الأسعار مقبولة ، وتدع مجالاً لتحقيق ارباح طائلة عند طرفي المحيط الهندي . وهكذا نشطت حركة تجارية عارمة بين العراق والصين ، على طول المراحل والمحطات العديدة التي تمر كرت في قواعد : كيداح (شبه جزيرة الملايو) وامبراطورية الخمير ، وصومطرة ، وجافا ، بالرغم من تباين العملات التي كانت الصفقات التجارية تتم على اساسها ، سواء اكانت نقداً ذهباً ، ام فضة ، في الهند ، او نقداً من الفضة ، وسبائك النحاس ، في الصين او عبارة عن مقايضات عمينة في بحار الجنوب . والوزن المعمول به في الصين وبلاد الخمير وفي غيرها من البلدان ، كان القبان المعروف بالقبان « الروماني » ، انما يوازن صينية . والنشاط الذي عرفته حركة المقايضات التجارية ، كان تعبيراً عن ازدياد مطالب العالم الآسيوي بأسره وحاجاته المتنوعة ، ولم تكن حاجات الهياكل والاديار دونها جميعاً قلبين عن كتب ، لائحة الاصناف المستهلكة يومياً في

هيكل تا - بزوم ، احد الاديار المهمة في كمبوديا ، في القرن الثاني عشر ، وهي : ٧ اطنان من الارز غير المقشور ، و ٦٤ كيلو غراماً من السمسم ، و ٤٨ كيلو من الفاصوليا ، و ٢٠ كيلو من القمح الاسود ، و ٣ كيلو من سكر القصب ، و ٥ لترات من الزيت ، و ١٢٠٠ غرام من الزبدة المذوبة . والتبرعات الملكية التي يجود بها الملك ، كل سنة ، لم تكن تغل شأنًا عن هذه الكميات ، وهي ٢٦٧٩ طنًا من الارز غير المقشور ، و ٤٠ طنًا من الرصاص ، و ٥٢٦٤ كيلو غراماً من المصنوعات الذهبية ، و ٣٨٦٠ كيلو غراماً من المصنوعات الفضية ، وبضع مئات من الكيلوات من النحاس الاحمر والنحاس الاصفر والقصدير ، و ٣٥ الماسة ، و ٤٠٦٢٠ لؤلؤة ، و ٤٥٢٠ حجرًا كريمًا ، و ٥٢٣ مظلة ، و ٩٦٧ قلوغاً صينيًا ، و ٥١٢ سريرًا من الحرير ، و ٢٣٨٧ بدلة معدة لأكسية التماثيل والاصنام .

وفي الدرجة الاولى بين المواد التي كانوا يتجرون بها ، تأتي المعادن على انواعها . الذهب الذي كان يؤتى به من مناجم صومطرة و كوريا ، والفضة من مناجم شبه جزيرة الملايو ، بالاضافة لما كانوا يسمونه «الرصاص الابيض» ، او الزئبق الذي كانت الصين بمحاجة اليه لتأمين مطاب علمائها ، والنحاس الذي لم يكن بد منه لسك النقد ، والحديد الذي اشتد طلب اندونيسيا عليه بعد ان كانوا يقايضون به جوز الهند ، والنفط اللازم للسفن الصينية . ويأتي بعد ذلك ، الأخشاب الثمينة كالبنغم (*amprache*) الذي كان اكبر انتاج شبه جزيرة الملايو ، والصندال الذي كانت الهند وبلاد الخمير تلتجانه بكثرة ، والخيزران ، والكافور لمنافعه العديدة ، اذ كان يستخرج منه زيت الكافور ، ذات القيمة العالية لدى التجار العرب والصليبيين ولا سيما امپراطورهم على السواء ، وخشب التيك في الهند وكمبوديا وأخيرًا الابنوس . والعمود والطيبون على اصنافها العديدة ، منها : المقر او الصبر الذي كان ينبت اصلاً في مقاطعة أسام والتي كانت اجود اصنافه تأتي ، مع ذلك ، من مقاطعة تشمبا وبلاد الخمير ، والبحور الذي كانت الصين تستورده ، والمسك الذي كان عبارة عن فوح يعطيه بعض الماعز البري الذي كانوا يصطادونه في الصين وفي التيببت بعد برميته بالنبال او نصب الشباك . وأفخره على الاطلاق عند سكان الخليج الفارسي ، النوع الذي كان يؤتى به من التيببت ، عن طريق القوافل البرية ، بينما المسك الصيني والآخر الذي يؤتى به من جزيرة صومطرة ، كان سريع الفساد والتلف عندما يتعرض لرطوبة البحر . ولذا كانوا يعمدون لصره في نوافج ويضعونه في أوعية مقفلة اقفالاً هرمسية . وهذا النوع من المسك كان يؤخذ من بعض الجردان المسكي . وتجارة التوابل والافاربه التي اشتهرت بها الهند وبلدان جنوبي آسيا الشرقية : كالفلفل على أنواعه ، وجوز الطيب ، وكبش القرنفل الذي كان يؤتى به من مقاطعة كيداج ، وحب الهال الذي كان يطلع في بلاد الخمير ، والكبابية او حب العروس ، والصمغرات الذي كان يُصدّر من الهند وكمبوديا ، والقرفة ، يجب الاتسینا تجارة بعض المواد الطمحيبة الغذائية كجوز الهند الذي يستخرج منه الزيت ، وزيت الوردون المستورد من الصين ، وسكر القصب والارز وغير ذلك من الحبوب . وبين المواد الثمينة الاخرى يجب ان نذكر العاج الذي كانت

يؤتى به من الهند ومقاطعة كيداح وبلاد الخير ، والعنبر او التند الذي يؤتى به من الصين ، وحرشيف السلاحف البحرية يؤتى بها من البلاد الواقعة على سواحل بحار الجنوب ، وقرن وحيد القرن من جافا وكبوديا ، وغير ذلك من المواد الثمينة التي كانت تدر على التجار العرب والمسلمين مكاسب طائلة ، اذ زبائنهم من الصينيين كان يهتمم اقتناء سيور يتمنطقون بها ، مرصعة بالحجارة المذهبة او المفضضة وبغير ذلك من الحجارة الكريمة ، والياقوت الاحمر ، والماس واللاقي ، والعقيق التي كانت تصدر من الهند وسيلان وغيرهما من بلدان آسيا الجنوبية الى الصين. والى تجارة المواد الصبغية او الكيماوية المعدة للصبغة ، كالزنجفر الذي تصدره الصين ، والكبريت وملح البارود ، وشنش السوسن ، والسنبذاج المستعمل في صقل المعادن ، وشمع العسل المستورد من بلاد الخير ، يجب ان نضيف الانسجة الثمينة والفراء : كالانسجة النباتية ، والمنحل ، والجوخ والموسلين القطني ، والديباج المزركش بالحرير وأسلاك الذهب . وكلها مواد كانت تصنع في الهند وتصدّر الى الصين ، مع غير ذلك من الحصر وقماش القندب . وكانت الصين تصدر الفراء المصنوع من جلد السمور مع ان البلاد كانت تستهلك منه مقادير كبيرة تستعمل كبطائن لمعاطف الشتاء عند الاغنياء ، حتى ان بعض الحيوانات كانت تصدر للخارج كالبيغاء مثلاً ، يرسلون ببه من المحيط الهندي الى الخليج الفارسي ، وكلاب الصيد ، تصدّر من المقاطعات الشمالية الغربية في الهند ، الى العراق ، بينما كانت الصين تستورد : الماعز والجاموس والثيران . وبالإضافة الى هذه الاصناف والسلع ، هنالك مصنوعات اخرى كانت تصنع في الصين وتنفق في الاسواق الخارجية ، منها القيشانيات الصينية التي كان يراعى في صنعها اذواق الزُّبُن في الخارج ، وأطباق من اللك والنحاس والورق وأمشاط مصنوعة من الخشب ، ومظلات ، وقدور حديدية ، وغرابيل ومناخل وابر ، وبرادع الاحصنة وأحسن أنواع الخفوف وأجملها على الاطلاق تلك التي كانت تصنع في مقاطعة كباي ، في الهند . وكبوديا التي كانت تصدر ريش الرقراق او الورور ، كانت طريقاً لمرور المرايا الزجاجية الزرقاء التي هام الصينيون باقتنائها وكانت تصنع في بلدان الشرق الادنى .

وقد درت هذه التجارة الناشطة على البلدان الواقعة الى الجنوب الشرقي من القارة الآسيوية ربحاً وافراً ، يتوافد اليها الهنود والصينيون لجمع في مايرغبون في جمعه من الذهب والافاوية لكثرتها ، كما ان عدداً كبيراً من بينهم كان يقصد هذه البلدان ويقيم فيها تفادياً للقلقل والاضطرابات والثورات التي كثيراً ما كانوا عرضة لها . وقد عاد ذلك على هذه البلدان بالفتى الوافر ، كما ان الاهلين عرفوا ان يفيدوا من هذه الاتصالات المثمرة ، بحضارات الهند والصين معاً .

والذي كان مسرحاً للحجاج
 البوذيين في القرن السابع يسرحون فيه ويمرحون ، ومرتماً لرحلتهم
 امثال : هوان - تسانغ (٦٣٠ - ٦٤٥) وبني - تسنغ (٦٧٥ - ٦٨٥) لم يكن ليدور في خلد
 الاخطار الخارجية

انسان ، ولم يخطر على بال احد من السكان ، اذ ذاك ، انه على قاب قوسين من الاخطار الخارجية تهدده بأسوأ مصير ، تلتابه الواحد بعد الآخر ، على فترات متلاحقة ، وجرت عليه الخراب والבוوار . هنالك حادثان ثقيلان رزح تحتها تاريخ هذه البلاد : إطلالة الغزاة العرب على ابواب آسيا الشرقية ، و بروز الغزاة المغول ، في الشمال .

ومنذ اوائل القرن الثامن ، اخذت جحافل الغزاة المسلمين تفرع ابواب الهند و قدق مداخلها من الغرب ، بدافع من الجهاد المقدس فيحتلون تدريجياً المواقع الاستراتيجية التي كانت تتمك بالحرارة التجارية مع الهند والصين ، ويدوخون الولايات الشمالية الغربية ك أفغانستان و تركستان وقد زرعت هذه الفتوحات معها الدمار والخراب بما لم نر له مثيلاً منذ عهد الهونز ، فحطموا كل شيء . وقد شهدت البوذية ، اذ ذاك ، تراجعاً قوياً و انكفاء بعد ما لقيت من منافسة الديانة الهندوكية التي كانت آنذاك ، في ايان ازدهارها ، واخذت تتراجع امام الغزاة العرب يوغلون بعيداً حتى بلغوا المنطقة المقدسة في حوض نهر الغانج . وعندما قضي تماماً على آخر ملوك الدولة البوذية في الهند من أسرة بالا - سينا ، كانت البوذية تلفظ في الهند آخر انفاسها ، مع انها البلد الذي اطلع البوذية وشهدا تفرع وتنام وتنتشر . وقد عرفت الهند قبل ذلك بقليل ، كياناً مضطرباً ؛ فبعد الوحدة التي حققها الملك هارشاده كانوج ، في النصف الاول من القرن السابع ، عرفت البلاد عهداً من التفسخ السياسي ، اذ راحت الدول الكبرى فيها تتطاحن فيما بينها في سبيل تحقيق السيطرة التامة ، الامر الذي ادى الى حروب واشتباكات متصلة ، كما ادى ، من جهة اخرى ، الى تشتيت القوى وهدر الجهود ، وانهك المناطق الاكثر عرضة للخطر . والهند الجنوبية التي كانت بنأى عن هذه الغزوات لبعدها ، قامت دويلاتها تتناحر فيما بينها وتتقاتل تحزباً منها مع هذه او تلك من الممالك الكبرى . ومع ذلك ، فقد عرفت البلاد عهداً من الازدهار رعى فيها جانب الفنون والآداب . كما استطاع هذا القسم من الهند ان يحافظ على علائقه مع البلدان الواقعة على شواطئه بحسار الجنوب ، وبذلك امكن المحافظة على معالم الحضارة الهندية فيها .

اما الخطر الثاني الذي كُتِبَ له ان يبدل ويفتت كثيراً ، من معالم آسيا الشرقية ، فقد بدت بوادره تبرز بوضوح ، منذ القرن الثامن . ف منذ عام ٧٤٤ ، اخذ الترك من العرق وبنور ، ينشؤون لهم امبراطورية ، خلقها بعد ذلك بنحو قرن ، امبراطورية اسسها الترك من العرق كيرغز ، فكان ذلك تمهيداً من بعد ، لهذه الامبراطورية الضخمة ، المترامية الاطراف التي اقامها المغول فيها بعد . صحيح ان الخطر ، من هذه الجهة ، كان لا يزال بعيداً ، اذ عملية توحيد الاقوام البدوية الرحل الذين كانوا سخطراً على الصين من الشمال والغرب ، لم تكن اكتملت بعد ، ولن تتم وتكتمل بكل ما كان لها من نتائج الا في سنة ١٢٠٦ ، اي عندما ظهر جنكز خان .

فالحلال الامبراطورية الساسانية ، وانقسام الهند وتقسيمها على بعضها ، والضعف الذي اصاب ملوك تانغ ، والفتوحات التي قامت بها سلالة سونغ ، ثم انكسارهم السريع في الصين

الجنوبية ، واخيراً الاضطراب والقلق الذي أحدثه المغول ، كل هذه الاحداث الجسام وما اليها هي من معالم هذه الحقبة التاريخية التي امتدت خمسة اجيال بكاملها ، مع ما جرت رءاها من بؤس وشقاء ، وقتل ونهب وسلب ، مما تحمله الغزوات في مطاوعها . ومع ذلك ، لا بد من التنويه عالياً هنا ، ان الثقافة البوذية بقيت آخذة في الاتساع والتغلغل طوال هذه الاجيال ، فانشأت في الهند طرازاً فنياً جديداً هو ما يعرف بطراز بالاسينا ، وبطراز تانغ في الصين ، وطراز مدرسة نارا في اليابان ، والطراز الهندي الجاوي الذي سيطر في اواسط جافا ، دون ان تهمل الانتاج الفني الذي ازدهر في تشامبا في القرن التاسع ، وفي امبراطورية الخير ، وفي مملكة الثاي التي قامت في السيام ابتداءً من القرن الحادي عشر . وهذه الثقافة الهندية لم تكن لتقل ازدهاراً في الممالك الاخرى التي قامت في الدكن ، كمملكة آل بلافا ، وآل غالوكيا ، وآل تشولا ، وآل باندايا التي اعطتنا مباني هندسية لم يكن لها مثيل في جبالها . ولذا كان لا بد من استعراض نتائج هذا الازدهار الفني ، بلداً بعد بلد .

تبرز المعلومات التي يدنا بها الحجاج الصليبيون عن الهند ، في القرن
مسائب الهند وريالاتها
السابع ، استمرار التقاليد الهندية وديمومتها ، وتنوع المعاداة التي سار عليها القوم ، اذ ذلك ، وهذا البذخ والجلود الذي تحلى عند حكام البلاد وملوكها . فهي تصف لنا بدقة متنامية نظام الطبقات المعمول به في طول البلاد وعرضها ، والفروق التي باعدت بينها ، كالبراهمان الذين جعلوا قاعدتهم المثلى في الحياة الطهارة الى اقصى حدودها ، والنبلاء *Kshatriya* « الذين كانوا من السلالات الملكية » ، والتجار *Vaishya* والمزارعون والفلاحون *Shudra* ، واخيراً طبقة المنبوذين وهم اهل الطبقة الدنيا *Paria* كالجازرين والصيداين والجلادين ، الذين اجبروا على الإقامة والسكنى ، خارج المدن ، فاذا ما خرجوا من بيوتهم وتنفقوا ، ساروا وحدهم منزولين ، ولزموا اليسار من جانب الطريق او الجادة .

فالمملك او الامبراطور له الدور الاول . فهو يعطي المتل في كل شيء ، كما يختصر في شخصه جميع الفضائل التي يمثلها المهاربون *Kshatriya* . فالامبراطور هارشا هو صورتها الاتم ، ومثلها الاعلى في نظر الحجاج الصليبيين ، وهو المدافع المخلص ، والحامي الفيور للبوذية ، يهتج نهج الغوبتا في البذخ والابهة . ففسد فاز على الاخص ، باعجاب هيوان - تسانغ ، الذي نزل عليه ضيفاً بضعة اسابيع ، فوصله : بانه من ائلف رجال عصره ، واعلام كعباً ، فحرص على ان يعمل من بلاطه ملتقى رجال الفكر والادب ، من شاكلة : ماويرا ، وبانا ، وضع عدداً من القصائد المستطابة والتمثيلية الحية . وكان الى جانب هذا رجل حرب ، كما دلل على ذلك مناسبات عديدة ، وكان رجل دولة ، كما برز خلال الحروب والمفاوضات السياسية التي ساعدته على توحيد شمالي الهند . فاذا لم يلتزم دوماً بجانب الحياد في الامور الدينية ، فقد لحا مع ذلك ، نحو كبار ملوك الهند ومشاهير عظمائهم ، اذ كان متساهلاً ، سموساً مع الديانات الهندية الاخرى ، وسار بعيداً في هذا الطريق بحيث افضى الى مذهب توحيد الاديان .

وباعتباره الوريث الادبي للملك الغوبتا ، فقد نهض الملك هارشا بالمدنية التي خلفوها ، ورفع عالياً مشعل الازدهار الذي حققوه للهند حتى القرن السابع . اما عاصمة ملكه كانيا كويجا او *Kanau* وهو الاسم الذي تحمله اليوم ، فكانت موضوع اعجاب هيوان - تسانغ ، اذ جاءت شبيهة تمام الشبه بعواصم اسلافه :

« كانت على مقربة من نهر الغانج ، يحيط بها سور عال وخندق ماء عميق . يرتفع فيها الى عنان السماء العديد من الابراج الشاهقة ، وتقوم فيها الحدائق الفناء والرياض الفيحاء ، والبرك المائية والاحواض البديعة كأنها صفحة مرآة . اما اسواقها ، فتتنص بالبضائع الاجنبية من كل لون وجنس . يرتع سكانها بالهناء والفنى كما ترفل أسرها بالرفاء . اينما اجلت النظر ، وقعت منك العين على معارض من الزهور والرياحين والفاكهة الذبذبة . وفيها نحو من مائة دير يضم مجموعها اكثر من ١٠٠٠٠٠ راهب ، وفيها نحو من ٢٠٠ معبد لثنت آلهة الهند ، كما يقوم فيها بضعة آلاف من الخواارج على البوذية » .

وهذا الوصف يمكن اطلاقه ايضاً على المدن والقرى والديساكر في الارياف ، اذ كلها ترفل بنعمة الرفاء والثراء ، كما نجد فيها كثافة السكان . وهذا الغنى قوامه الاقتصاد الزراعي ، مع العلم ان التجارة كانت ناشطة للغاية ، كما ان المقايضات التجارية كانت على اشدها مع البحار الجنوبية .

ويفيض الحجاج الصينيون وصفاً وتعريفاً بامور الدين واوضاعه اذ ذاك . فبعد ان شالت الديانة الهندوكية وراجت ، اصبحت كل المراكز البارزة التي سيطر عليها البوذيون من قبل محوطة ببدن ومعابد هندوكية ، فمدينة بيناريس ، احدى المدن المقدسة عند الهندوكيين ، كانت تضم نحواً من ٣٠ ديراً للبوذيين ، و١٠٠ هيكل للبراهمانية ، لم تفقد لليوم شيئاً من ابتها وفخامتها :

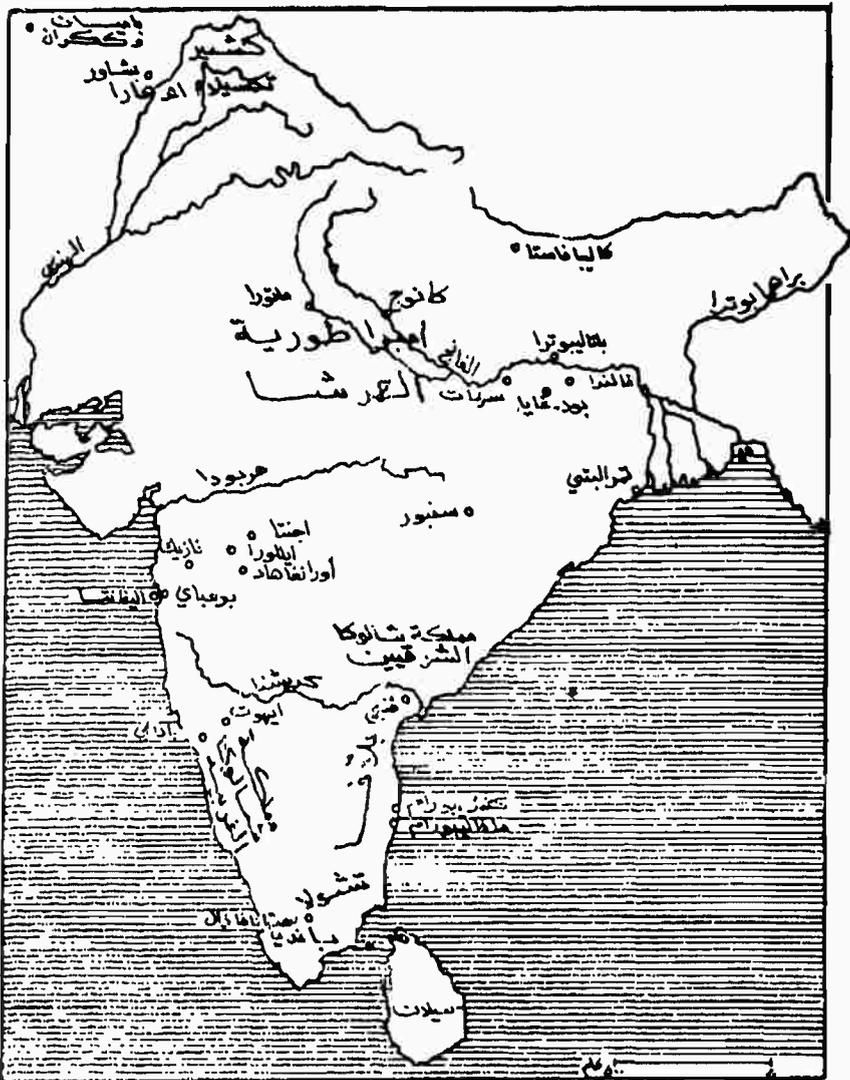
« ترتفع فوقها ابراج من عدة ادوار او طبقات ، ومعابد لها جمال فتان ، صنعت من الحجر المنحوت والحشب بشتى الالوان . وكلها يقع في رياض غضبية ، كثيفة الظل ، يتفرق فيها الماء السلسيل » .

وقد أثار اتباع سيفا اعجاب الحجاج الصينيين ودهشتم :

« اذ ان بعضهم كان حليق الشعر ، بينما احتفظ البعض الآخر بفدائر متدللية فوق أكتافهم ، وهم عرايا الاجسام تماماً ، لا يسترون عريهم بشيء (فرقة الـ *Juina*) والبعض الآخر يأخذ بفرك اجسامهم بالرماد ويخضعون نفوسهم لأصعب العذابات وأشدها ، فتصبح جسامهم دكنا كالحبة . وبينهم من اعتمر ريش الطاروس كما ان بينهم من يفتون اجسامهم ببعض الاعشاب المضفوفة ... وهناك فريق قلعوا شعورهم ، واحفوا شواربهم ، وبينهم من ارخى سوافهم وأعصوا شعورهم فوق رؤوسهم » .

اما المباني البوذية والجماعات التي تختلف اليها ، فشيء آخر تماماً . فالمدينة الرهبانية : فالاندا التي كانت ، اذ ذاك ، في اوج عزها ومجدها - هذه المدينة التي خربها المسلمون ابان القرن الثالث عشر وجعلوها قفراً يباباً - كانت تضم نحواً من عشرة أديار تكون معاً وحدة ، يحيط بها سور من القرميد ، له من جهة الغرب ، رتاج ضخم . وكان الدير عبارة عن قاعة او هو مسقوف ،

مربع الشكل تقريباً . اما الماني فكلنت هي الاخرى ، تصنع من القرميد ، وتتألف الواحدة من ثلاثة او اربعة ادوار ، تضم مساكن الرهبان ، وقاعات للاجتماعات العامة ، واخرى للصلاة ،



الشكل (رقم - ٨) الهند في عصر الملك هارشا ده كلوجا (٦٠٦ - ٦٤٧)

وشرفات . ويفصل بين الدير والدير فسحات واسعة فرشت ببلاط القرميد ، او جرى رصفها بشيء اشبه ما يعرف بالعدسية ، ترك لنا الرحالة يبي - تسنغ وصفاً دقيقاً لصنعها . اما الجدران فنقطة ببلاط مصقول ، مزج بماء الذهب وكسارة الحجارة الكريمة ، وأنشئت فيها ، على مسافات محددة ، مشاكٍ للتأثيل المموهة بالذهب . وهذه الاديوار التي تؤلف معاً مجتمعات زاهرة

و جامعات مُشعّة ، كانت لها املاك واطيان واسعة بينها أكثر من ٢٠٠ قرية تؤمن لها الرزق والمؤن اللازمة . ويرسل عدد كبير من المحسنين يومياً ، لهذه الاديار ، مقادير كبيرة من المواد الغذائية كالارز والسمنة والحليب اللازم لغذاء الرهبان وتلاميذهم ، كما ان الملك نفسه كان يجود عليهم من عوارفه السابقة ، بهبات طائلة . ويدرس في هذه المعاهد الدينية أكبر جهاينة البوذيين ، و اوسم علماء ، فيلقنون العلوم الدينية كما يدرسون العلوم الاخرى ، وهو تعليم ناجح ، رصين ، على مستوى طلاب جامعيين ، بلغوا العشرين من عمرهم ، وقالوا درجات جامعية عديدة . ولا يمر الطالب من صف الى اعلى إلا بعد ان يمتاز بنجاح ، امتحاناً صارماً . ويخضع الطلاب لنظام أسر بني على الحكمة والاختبار البشري . ويتأخر كل دير رئيس يكون عادة المتقدم عليهم سنّاً . والحياة الرهبانية تفرغ على ترتيب دقيق ، وفقاً لسير الساعة المائية ، هذه الساعة التي ترك لنا عنها يمي - تسانغ ، وصفاً دقيقاً في كتابه *Nun - hai - ki* - الفضل الثالث منه ، ولها جرس يقرع في الوقت اللازم ايذاناً بانتهاء عمل ما وحلول عمل جديد : كوقت الاجتماع العام ، او وقت الصلاة ، او وقت تناول الطعام . وعندما يأتي الليل ، تقفل ابواب الدير ، بعد ان تركت مفتوحة على مصراعها طوال النهار ، وتختم ، وتسلم الاختتام والمفاتيح للرئيس . وجماعة الرهبان أنفسهم يقضون في امورهم فيأخذون احكامهم بالاجماع ، كما ان جمهور الرهبان بهياتهم الكاملة هو الذي يقرر كل ما يلائم لادارة الدير وأملاكه الواسعة . فكل سرقة او اختلاس ، يعاقب عليه فاعله بالطرده ، في الحال . وهذه القوانين والانظمة ، يخضع لها المبتدئون انفسهم في السلك الرهباني ، كما يخضع لها الطلاب العلمانيون ، ويجهرون عليها جبراً .

والحياة للعلمانية نفسها تتأثر الى حد بعيد بمنهج حياة الرهبان في الاديار الهندوكية والبوذية . وهذه الاديار هي ملتقى تجمعات وحشود كبيرة تؤمها في بعض الاعياد التذكارية التي يحتفل بها الشعب ، والتي تصبح مظهرأ من مظاهر البذخ والجاه . وكان الملك هارشا ، يقوم في كل سنة بتوزيع المواد الغذائية ، على كل الرهبان في الامبراطورية ، كما كان يعقد ، كل خمس سنوات ، «ندوة الخلاص» ، وذلك في السهل الفسيح الواقع على مقربة من مدينة الله اباد ، عند ملتقى نهري الغانج والحجّتا ، ويقوم ، اذ ذاك ، بتوزيع الصدقات ، على نطاق واسع . وقد حضر هيوانغ - تسانغ ، سنة ٦٤٣ الندوة التي وقعت في تلك السنة ، ضمن سياج من القصب يرفع في الوسط برادفات من القش ، حيث توضع الهدايا على اختلافها : من ذهب ، وفضة ، ولآلئ ثمينة وزجاجيات حمراء؟ وحجارة كريمة ، وألبسة الخبز والديباج والقطن ، ونقود الذهب والفضة . ويمدون في خارج هذه الحظيرة ، غرفة للطعام ، فسيحة الارحاء ، مسقوفة ، وقاعة للاجتماعات تتسع لأكثر من ألف مقعد وكروسي ، يدعى اليها الرهبان واتباع الهندوكية ، والنسك العريان ، والبؤساء ، والمعوزون ، واليتامى ، والاولاد الذين لا سند لهم ولا قوام . ويضرب الامبراطور وحاشيته خيامهم على مقربة من نهر الغانج حيث ترسو عمارة من السفن النهرية ، بينما تأخذ القبيلة والجيش مواقفها المعينة ، في السهل . وكانت عملية التوزيع هذه ، تستمر شهرين ونصف ، اذا ما اخذنا

بأقوال هيوان - تسانغ ، فتبتدىء بالبوذيين المحتشدين امام تمثال بوذا ، وتنتقل بالتوالي ، الى عبدة الشمس حاملين صورة أديتيا ، ثم اتباع سيفا ، ويأتي بعد ذلك اتباع الديانات الهندية الاخرى ، ثم تم مواعب البساك والزهاد المرأة ، ثم مواكب الرهبان والعلمانيين والبؤساء واليتامى . فيوزع الامبراطور كل الاموال التي جمعت في خزينة الدولة خلال السنوات الخمس ، بما في ذلك : « ملابسه الملكية ، واحذيته واقراط الذهب واساوره والاكليل المحيط بتاجه ، والآلىء التي تزين عنقه ، والدرة الثمينة التي تتدلى من عنقه » . فيهب رجال حاشيته للحال لشراء هذه الكنوز ويبيدوها الى الملك هارشا ، وفقاً لتقليد صار عليه جدودهم الأارلون كان بمثابة رسم او ضريبة يتحملونها طوعاً واختياراً . ويزيد هيوانغ - تسانغ على ذلك فيقول : ولكن ما هي إلا بضعة أيام ، فيعود الملك ويهدي هذه الكنوز من جديد ، ويوزعها كما فصل في المرة الاولى .

اما الحياة في مقاطعات الهند الاخرى ، فكانت على مثل هذا النحو المتناقض ، من البذخ والفقر المدقع ، كما كانت عليه في مملكة هارشا . فالسكان ، كأهل الدكن مثلاً ، شديدو السمرة ويتكلمون لهجات مختلفة ، كلهجة تلعو والتامول ، بينما كانت الطبقات الاجتماعية العليا ضالمة بالثقافة السنسكريتية . وقد جعلهم المناخ الاستوائي الذي يعيشون فيه ، على استعداد نفسي للفلو والتطرف : فحول من جهة ، وفيض في الكلام والمطاطفة ، من جهة اخرى . وكانت الهندوكية هي المسيطرة بالفعل ، مع ان البوذية كانت لا تزال قائمة على بعض نشاط . وقد دارت بين الجانبين معارك وحروب طويلة تورطت فيها الأسر الملكية الدرافيدية ، التي عرفت كلها ادواراً زاهية زاهرة من الاشعاع الحضاري . وقد استطاعت احداها ، وهي الاسرة الملكية البلافا ، التي سيطرت على ساحل الدكن الجنوبي الشرقي ، ان تقيم لها حضارة ازدهرت حتى القرن التاسع ، فبنت في القرنين السابع والثامن ، الهياكل المشهورة في مدينة : مافاليبودام ، وشدت من ازرا الآداب والثقافة التامولية التي عرفت ، اذذاك ، عهداً من الازدهار ، لم تسجل مثله من قبل ، كما كان لها اثر كبير على البلدات المستهددة او التي اخذت بالثقافة الهندية : كاهند الصينية وكمبوديا ، وتشامبا . اما دولة تشالوكيا التي سيطرت على سواحل الدكن الغربية الشمالية والتي تمكن احد فروعها من تدويخ مملكة اندراه القديمة وفتحها ، فقد تركت ، هي الاخرى ، آثاراً حرّية بكل تقدير واحترام . فقد كان ملوكها رؤساء شعب مبرات ، وهو شعب حربي ، شجاع ، باسل ، فاخر افراده بقوام البدنية ، وربوا جنودهم ونشأوم على ذلك ، ولذا راحوا يضربون جيوشهم وافيالهم بالحروب ويكويونهم بنيرانها . وقد تركوا ، هم ايضاً ، مباني ضخمة ، تأخذ بمجامع الالباب ، لا يزال بعض هذه المعابر ماثلاً للآن في مدينتي أورا ، وبادامي (القرن الثامن) .

اما مقاطعات الهند الشمالية الغربية ، فقد تخلطت العروق فيها : كالترك واليرانيين والآريين ، وتمازجت المذاهب والعقائد والاديان ، كالديانة الفارسية القديمة ، والمناوية ،

والنسطورية والهندوكية ، والبيانية والاسلام . واستمرت اتصالاتها التجارية ، بجزر مع ايران وبلدان الغرب على اساس من تبادل السلع والبضائع المصنوعة في الخارج ، كالديباج والخز والسجاد والطنافس على انواعها الكثيرة . فكانت هذه المقاطعات ، بالنسبة لموقعها الجغرافي ، اولى الاقطار الهندية ، التي وطأتها سنايك خيل غزاة المسلمين لدي الفتح . ومع ان سكان هذه الاقطار كانت طباعهم الفت الغزوات منذ اكثر من الف سنة وهم يتعرضون لها من الميمنة والميسرة ، اذ كانت كلها تتسع طريقاً واحداً واعادت رؤية الفاتحين يدقون منها الابواب بعنف وجلبة ، فقد هبوا جميعاً يستمبون في صد الغازي الجديد ويبدلون ارواحهم في سيل الدفاع عن ديارهم ومنازلهم . ومنذ ذلك الحين نشأت بينهم عادات واعراق ، لا يزال بعضها قائماً حتى يومنا هذا ، كزواج الاولاد منذ الصغر ، مفاولة منهم في محافظتهم على نقاء العرق وصيانتهم ، والحجر على المرأة وفرض الحجاب عليها ، صوتاً لها من عبث الغزاة وشروء نظراتهم الامارة بالسوء . وكان من نتائج الفتح الاسلامي ، لتلك الاقطار ، ان انكفأت الحياة في الهند على نفسها ، وانطوت على ذاتها ، وايقظت ، في النفوس النزعات القومية الغافية بين الاجناس والملل والنحل ، واولقت تطورها وحجرتة . وبعد محاولة اولى نحو المصالحة ، من آثارها هذه المساجد الهندية الطراز الماثلة اليوم في مدن غوجارات وكتياوار ، عادت مقاومة الاهلين تتصلب من جديد . وبذلك طلع على الهند عهد قائم ، حالك ، اضاعت معه هذه البلاد استقلالها ، كما استنزفت فيه كل قواها . وهذا السبات العميق الذي استسلمت اليه ، لم تفرق منه الاماماً ، في انتفاضات محلية ابدتها مقاومة الاقوام الوطنية . وكان من فضل هذه الردة ان صانت لنا ، سالماً صحيحاً حتى اليوم ، التركيب الاجتماعي الذي عُرفَت به الهند ، وهذه التقاليد الدينية والفلسفية ، وهذه المناقبية التي ميزت شعوب الهند ، والتي لا تزال لليوم ، في كثير من امورها واحوالها ، ما كانت عليه في القرنين السابع والثامن .

يتذكر القارئ الكريم كيف ان في السنوات الاولى من القرن السادس ،

امبراطورية الخير

هوت الى الحضيض ، بملكة فو - نان ، اقوى الدول المستهندة الواقعة على بحار الجنوب ، وانشطها طراً منذ عهد بعيد ، وذلك تحت الضربات القاصمة التي انهالت عليها من ملك تشان - لا (منطقة بساك اليوم) ، احد الملوك التابع لها الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لامبراطورية الخير . وقد ازدهرت هذه الامبراطورية طيلة قرن من الزمن ، وعاش ملكها ، في مقاطعة *Sumbor Prei Kuk* اولاً ، ثم في مقاطعة انفور بوراي ثانية ، عيشة ملوك زمانه ، محوطاً بجيش لجب من رجال بطانته وكبار موظفي دولته ، يستقبل بكل أهبة وبهاء ، ثلاث مرات في الاسبوع ، من يطعم بشرف المشول بين يديه .

اما الموظفون فهم على مراتب متسلسلة تسلسلاً آسراً ، وفقاً لوظائفهم التي نعرف القاب حاملها اكثر من معرفتنا لحقيقة او ماهية الخدمة التي يؤديها . وقد عاشت معظم الطوائف الدينية الهندية الاصل ، معاً في ظل هذا النظام الواحد ، كما نستدل على ذلك من هذه الرقم والنقاش الحجرية ، وكلها بلغة سنسكريتية ، شعرية صحيحة ، ثم بلغة الخمير ، منذ مطلع

القرن السابع . كل هذه المصادر تنوه عالياً كيف ان هذه البلاد تمثلت حضارة الهند السنسكريتية . والجدير بالذكر هنا ، طلوع عبادة خاصة هي عبادة الـ *Linga* (وهو الـ *Phallos* عند الاغريق) وهو رمز الخصب والاختصاص عند الاله سيفا ، التي كادت تصبح ديانة الدولة الرسمية . ومن الاهمية بمكان التنويه هنا بهذه الظاهرة ، كما سنرى بعد حين .

كان القرن التاسع في تاريخ البلدان الواقعة الى الجنوب الشرقي من آسيا ، عصر اختار ونُضج . فلم تلبث الدولة الجديدة التي ظهرت ان امتصت دولتين « هنديتين » قامتاً معاً في مقاطعة تشامبا ، التي ابتلعت تدريجياً مملكة لين - بي القديس ، فكوّنت حوالي منتصف القرن التاسع مملكة تشامبا الموحدة . اما مملكة شريفيايا التي تألفت في الجنوب الشرقي من جزيرة صومطرة وضمت قسماً من الملايو . بها ، والتي برزت للعمل بنشاط منذ عهد قريب ، فقد اخذت تمتد الى اطراف شبه الجزيرة الهند الصينية والتونكين وتشامبا ، في الشمال ، واضعة منذ انطلاقتها الاولى ، الاسس التي قامت عليها سيادتها وسيطرتها على البحار ولا سيما مضائق تلك المنطقة . وفي الوقت ذاته ، ظهر في جزيرة جافا ، مملكة جديدة هي مملكة سيلانندرا ، أي مملكة الجبل ، وهو تعبير هندي للمقائد الاندونيسية التي كانت تجمل من الجبال مهبطاً للآلهة تستقر عليها ، كما انه لقب حاكي ، الى حد بعيد ، اللقب الذي كان يحمله ملوك فو - نان قديماً . فبأحياهم هذا اللقب ، رمز ملوك جافا الى الدوافع التي جالت في أفكارهم ، والاهداف التي نشدوها من اقامة سلطة شاملة . وقد يكون في تكتسيهم بهذه الكنية ما قد يشير الى حقوقهم المكتسبة على فو - نان . وقد وقعت في الوقت ذاته حوادث مهمة جداً زرعت الفوضى في مملكة الخمير وجعلتها تنقسم على نفسها الى مملكتين هما : تشان - لا البرية (ضمت جنوبي اللاس والقسام الاوسط منه) ، وتشان - لا المائية (ضمت حوض نهر الميكونغ) . وهنالك من الدلائل ما يشير الى ان جافا حاولت ان تفيد من هذا الظرف بالذات لتخضع كمبوديا لسيطرتها وتضعها تحت نفوذها . ومع ان المقاطعة الاخيرة كانت تحتجاز عهداً مظلماً ، فقد عرفت ان تحافظ على استمرار الانتاج الفني فيها . اما جافا ، فقد عرفت ، هي الاخرى ، ان وصول سلالة سيلانندرا للحكم يتفق في الزمن مع الوقت الذي عرفت فيه الوسيلة الكبرى للبوذية ، ازدهاراً كبيراً في البنغال الغربي ، والاتصال الذي تم بينها وبينها وجامعة نالاندا ، واستنهاد كل الادارة الرسمية للبلاد ، كاتخاذها مثلاً لأسماء مشابهة لأسماء الهند ، وتبني اللغة السنسكريتية المعمول بها في شمالي الهند . وغصت جافا اذ ذلك ، بالمباني والعمائر البوذية برز بينها الأثر المشهور المسمى *'handikalusan* ، الذي شيد ، سنة ٧٧٨ ، وبواسطته نستطيع ان نضع ترتيباً زمنياً للآثار المعمارية الاخرى . ولعل اهم هذه الآثار وأجملها على الاطلاق هو البارابودور ، اذ في نقوشه البارزة الحفر ، ما يشير الى بعض النصوص البوذية الهندية . فبعد ان سيطرت البوذية على اواسط جافا ، دفعت أمامها ، الى اطراف الجزيرة الشرقية ، العناصر الموالية للهندوكية ، حيث نرى ، منذ عام ٧٦٧ ، بعض آثار لعبادة شارة الخصب الملوكية .

وفي مطلع القرن التاسع ، وقع حادث عظيم في مملكة كمبوديا ، وذلك عندما رجع امير من

سلالة ملوك الخمير ، من جزيرة جافا ، وراح يحمر المملكة من نير الاستعباد لجافا ، وأسس عام ٨٠٢ عبادة الإله ، الملك ، في هيكل شيدته ، هو نفسه ، على قمة رابية هو جبل كولين الذي يطل على سهل انفكور . وهذا الحادث كان لا يخلو من مغزى كبير . فلتحرر كلياً من عبودية ملوك الجبل ، في جافا ، كان لا بد له من الاحتفاظ باللقب ذاته الذي بعثها الى الوجود وأقامها هو نفسه ، فيضم اسمه ، وبالتالي شخصه ، الى عبادة الـ *Linga* اوشارة الخصب عند الإله سيفا المعاني ، فهو درع المملكة ، وحامي ذمارها . ولهذا السبب بعينه ، اقام قصره على قمة احدى التلال المرتفعة ، وتسلم من يد احد البراهمة رمز الخصب (*Lingu*) الملوكي الذي رمز به الى قوة ملوك الخمير وسيطرتهم . واعتمد الراهب البراهماني النصوص الهندية وراح يحتفل بالطبوس الدينية ويعلمها لحاجب الملك الذي كان هو الآخر كاهناً براهمانياً ، وأخذ منذ ذلك الحين يسير في صحبة الإله - الملك ويرافقه في جميع تنقلاته . وهكذا أطل على مملكة كجوديا عهد جديد بولود امبراطورية الخمير ، هذه السلالة الملكية الانفكورية الناجزة الاستقلال .

ففي الحين الذي كانت فيه الصين تواجه عهداً من الاضطراب والفتنة يتفق وآخر عهد سلالة تانغ والسلالات الخمس ، وبينما اخذت سيطرة ملوك سيلانديرا ، من جهة اخرى تنحط لتزول تدريجياً امام بأس مملكة جافا الشرقية ، راحت مملكة الخمير تتجه بخطى ثابتة نحو الازدهار ، وتنحت لها الخصائص التي ميزتها والتي حافظت عليها حتى بدء انجلاها في القرن الرابع عشر .

فالملك هنا ، كما في الهند ، هو محور الدولة وقطب الدائرة فيها . فهو رأس كل سلطة فيها واليه مصيرها . فهو حارس القانون ، والمشرع على النظام ، وحامي الدين ، والمحافظ على النذورات والوقوفات التقوية ، والمناضل في سبيل سلامة البلاد واستقلالها . فهو الإله على الارض . ويجلس الملك للديوان مرتين في النهار ويبرز من خلال نافذة ، مصراعها من الذهب ، حاملاً سيفاً بيده . يعلن عن وصوله بصداح الموسيقى وعن ترؤسه الديوان بالبوق . فان مشى فلبس على الارض العارية ، بل يفرشون دوماً تحت قدميه الطنافس البديعة . فاذا ما غادر قصره فعمل ظهر قبيلته ، فوق هودج فخم . عاصمته صورة مصفرة للعالم ، فالقلب منها هيكل قائم على رابية يشبه جبل ميرو ، هو محور الدنيا ، ونقطة الدائرة ومهبط الإله الملك . ويحرص كل ملك على ان يشيد ، على نسبة امكاناته ، جبلاً معبداً وينصب عليه بكل حفاوة ، محوطاً بالمراسم الرسمية شارة رمز الخصب ملفوفاً بالقمط الملكية دون ان يدري احد ما اذا كان هذا التمثال جديداً او من القرون الماضية .

يتولى الادارة في البلاد ويتحكم بها الطبقة الارستوقراطية : كالبراهمان واعضاء الاسرة المالكة ، واقارب حاجب الملك . والمجتمع نفسه يحمل طابع التسلسل : فبعد الملك يأتي البراهمان توماً ، ومن كان على شاكلتهم من اساتذة الدين واللاهوت و « ارباب المنزل » ، ثم يأتي ولي العهد ، فالوزراء ، فقيادة الجيش ، فاصحاب المقامات العليا والمراتب ، فرجال الحرب الاشداء ، ثم سواد الشعب وليمه من البائسين ومناكيد الحظ . وفي ثقافة المجتمع يأتي المقعدون

والمشوهون ، والحُدُوب والاقزام ، وكبار المجرمين وشذاذ الآفاق ، والبرص ومن لا عذار لهم . فاعضاء الطبقة الاولى وحدهم : من المملك الى المحاربين الابل ، لهم الحق بدخول الهيكل . فالادارة هي كذلك بين يدي موظفين يخضعون لتسلسل دقيق وترايط أسر : من وزراء ، الى قادة جيش ، الى مستشارين ، فولاة ، وحكام اقضية ، ومدراء ناحية ، وبأموري المحازن والمستودعات ، وروساء السخرة الذين يقسمون الى اربعة مراتب يصعب علينا تحديد ماهية كل واحدة منها على حدة . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار الاهمية التي بلغتها السوق التجارية عند الخير ، ظهر لنا كم كان ضخماً عدد التجار في البلاد ، وقد يكون حكمهم حكم الفلاحين وسكان القرى من السلم الاجتماعي ، وهو وضع لا نعرف عنه كبير امر . وجل ما نعرف هو ان عدداً كبيراً منهم كان يعمل في خدمة الهياكل والمعابد ، عرضة لسخرية كبار القوم والتهكم عليهم .

وقد سارت هذه الاقلية ، فترة من الدهر ، تارة مع الهندوكية واخرى مع البوذية ، وراحت تحتفل بالاضافة الى هذا ، بعبادة خاصة ترتبط ولا شك بعبادة الجدود : فالملك والامراء ، واصحاب المراتب العليا ، ورجال الجيش البواسل ، اخذوا يشيدون وهم احياء ، معابد باسمائهم وينصبون فيها تمثال احد الآلهة يسمونه باسم الاله الشفيح . وكان الواقف يحرص جداً على هذه العبادة ويؤمن استمرارها ، اذ كان الناس يهتمون كثيراً بالامر المصير بعد الموت ، كما يبدو من نقيشة محفورة في معبد انفكور - قات ، مكرسة للسما والنجيم على السواء . وهذا النوع من العبادة والتكريس غير مألوف قط في الايقونوغرافيا الهندية .

ففي هذه الدولة التي حسنت ادارتها فسلست امورها ، نعمت المواصلات بشبكة جيدة من الطرق النهرية والبرية ، منها طريق بري مبلت ، تراوح عرضه بين ١٠ و ٢٥ متراً ارتفع نهره فبرزت جادته في تقاطع مستقيم الزوايا ، وتمر فوق الانهر والمجاري المائية الضخمة على جسورة كبيرة . ويقوم على طول الطريق مراحل ومحطات مينة ، يسهر على الاهتمام بها فريق من القرويين ، ويقوم في هذه المحطات باعة متجولون امامهم اطباق شتى يعرضون عليها سلعهم . والنقل يتم بواسطة حاملين يحملون الاثقال على الظهر او الرأس او الكتف . اما المرزح من الاحمال ، فينقل على ظهور الايغال او يعهد بأمره الى عربات النقل ، وهي على عجلين ، يجرها زوج من الثيران او الجاموس تعلوها مظلة من الهشم . اما اصحاب الرئاسات ، فيتنقلون في هوداجهم الخاصة ، بصحبة آهنتهم وما اليها من مقدسات . كذلك نرى عربات كبيرة للنقل بها اربعة او ستة عجلات فوقها مظلة وستائر مدلاة تغطي مستودعات البضائع . ويمخر في الأجر العديد من القوارب التي ترك الحجاج الصينيون وصفاً دقيقاً لها .

فباستثناء الهياكل المبنية كلها من الحجر ، وأجملها على الاطلاق يعود للقرن الثاني عشر ، كمعبد انفكور - قات ، مثلاً ، فبيوت السكن كلها تقريباً تصنع من الخشب وتسقف بالقش ، ما عدا القصر الامبراطوري الذي كان سقفه من القرميد الاحمر . لم يصلنا شيء من هذه المباني الخشبية . وكان في القصر ، على ما يقدر العارفون ، وفقاً للنقائش المحفورة ، جناح خاص بالعامية

من الشعب ، بينما لم يترك احد من الرحالة ، في ذلك العهد ، أي وصف للجناح الخاص بالملك .
ومهما يكن من الامر ، فقد كان فيه قدم خاص بالحريم ، وآخر خاص بسكنى الملك ، يسر
على سلامته حارس خاص .

اما الاثاث ، فكان يتألف من مقاعد واطية ، وغير ذلك من الادوات المختلفة الجميلة النقش
والمنظر ، اضافة الى ذلك شبكة كاملة من السلاح على اختلاف أنواعه بينها مجموعة من السيوف
الهندية ، واخرى من القسي ، والنبال والعمادات التي قلدوا منها المنجنيقات المستعملة في الصين ،
والمظلات ، والمذبات ، والمراوح والألوية ، وآلات الطرب التي كانت تحتفظ في مخازن خاصة ،
اسوة بما كان يجري في الهند . ويبدو المحاربون لابسي دروعهم ومعتمرين حوذهم . اما المدنيون ،
فكانت ملابسهم ترفل بالكثير من الحلي والحجارة الكريمة ، وتتألف اصلاً من سروال طويل
للرجال ، ومن تنورة او قفطان للنساء . وتمر اوقات النهار رتيبة على دقائق الساعة المائية .
ولفت نظر السياح ، كثرة استعمال القوم للخلخال او السواك ، وما عليه القوم ، عادة ، من
نظافة ، ينتهون برؤية مصارعة الديوك بعد ان اعتاد الملك الاستمتاع بهذه الأهمية البرينة يومياً ،
ويراهن عليها ، ويدفع في حال خسارته ، ذهباً . وتلعب المرأة ، في المجتمع ، على ما يبدو ،
دوراً بارزاً . وليس بغريب قط ان يراعى في النظام الوراثي قرابة الرحم ضمن الصلب . والاسر
الكبيرة التي تعد بين افرادها كريمات جميلات ، تهديهن للملك ، فيقمن في بلاطه مع سرايره
وقيانه وراقصاته . وكثيراً ما أدى هذا الوضع بهن الى التدخل بشؤون الدولة ، والى لعب دور
بارز في الحياة الدينية .

فاذا ما عولنا على الوثائق الخطية التي وصلت الينا ، يبدو لنا ان المعابد ومن اليها من خدام
وحشم ، لعبت دوراً هاماً . فالى جانب المعبد يقوم عادة دير يتولى ادارته رئيس عام يؤمن
النظام ويسهر على ضبطه وصيانته بكل دقة ، كما يقوم بتدبير اموره المادية . فالرئيس هو الذي
يؤمن مقرّي الدبائح والمنجمين ، بينما يطلع الحاجب بتأمين مراسم العبادة ، ثم يأتي المراقبون ،
والبراهمة والنسك والكهّان معهم عدد كبير من الحراس : هؤلاء يقومون على حراسة الودائع
الثمينة وكنوز الذهب والفضة ، واولئك يسهرون على النار المقدسة ومشاكي الموتى ، بينما يحرص
البعض منهم الابواب ، والحدائق ، والبعض الآخر الرحي التي تطحن الارز او تحلجه . وبلي
هؤلاء حشود من الاتباع يقيمون ضمن دائرة الهيكل او خارجها يسهرون على تأمين انتظام
الحياة في المعبد وراحة سكانه وخدمته على انواعهم كالمغنيين منهم بضر الزهور والعناية
بالحدائق ، وغير ذلك كالنسوة اللواتي يعملن في تنقيّة الارز او طحنه ، ومتعهدي الماشية ،
وناظري الارقاء والحراس ، وآخرون يعنون بالكتب ونسخها وبالحفوظات وصيانتها . اما
الراقصون والراقصات وأهل الكيف ، فيؤلفون طبقة خاصة بهم . ومعظم هؤلاء الخدم قرويون ،
جاء بهم من القرية القريبة ، ويؤتى منهم باعداد أكبر في فصل الامطار ، وكلهم معفون من
السخرة او مصادرة الحكومة لهم ، ولا يدينون بالطاعة إلا للرئيس الدير . ويحظر عليهم القيام

بأعمال سخرة لغير آلهة لا يعملون في خدمتها . ان مبعداً واحداً هو معبد باكو ، ضم وحده ، في القرن التاسع ٢٢٥٣ شخصاً ، ثلاثاً من العميد الارقاء . وقد بلغ معبدنا - بروم ، في القرن الثاني عشر ، شأنًا اكبر ، اذ كان يعمل في خدمته ٣٦٥ ٧٩ شخصاً ، من بينهم ١٨ من كبار الاحبار ، و ٢٧٤٠ كاهناً ، و ٢٢٠٢ مساعداً و ٦١٥ راقصاً . وهكذا نستطيع ان نكوّن لنا فكرة تقريبية عما كانت هذه الجموع المحشودة تحتاج اليه من المواد الغذائية والكميات الضخمة اللازمة لتأمين عيشها . ولذا فليس من عجب قط ان يبلغ عدد القرى التي يملكها هذا الهيكل والدير القائم الى جنبه ، ٣١٤٠ قرية لوحده وكل هؤلاء الحدام ومن اليهم من 'نظّار' ، وراقين يعملون جميعاً في خدمة المعبد ، جميعهم معفون من الرسوم والضرائب ، إلا انهم يتعرضون لجزاوات قاسية اذا ما أتوا شيئاً يس المعبد او يلحق الاذى والضرر بجمهرة الزهبان ، او يؤلف تعدياً على املاكه ومقتنياته . فاذا ما كان المسيء براهماناً ، فقصاصه الطرد دون أي عقاب او جزاء مادي آخر ، او فرض أية غرامة مالية عليه . ويفرض على كبار القوم ، اذا ما كانوا من المعتدين ، غرامات عينية ، تدفع ذهباً ، يختلف مقدارها باختلاف المراتب التي ينتمون لها : من ولي العهد الى أدنى مأمور . فمن حاول التملص من الدفع ، 'حكيم' عليه بالجلد على ظهره ، مائة جلدة .

ومظاهر الحياة عند الخير التي استمرت خصائصها المميزة في كمبوديا الى وقت حديث ، بقيت معمولاً بها ، دونما تغيير كبير ، بينما اخذ شأن الدولة الإنفكورية ينمو باطراد ، منذ تأسيس انفكور على يد باسوفرمان الملك (٨٨٩ - ٩٠٠) ، الى ان بلغت اوجها في عهد الملك باسوفرمان السابع (١١٨١ - ١٢١٩) الذي كان من اشهر الملوك الذين اعتلوا عرش كمبوديا . ونحن مدينون لهذا الملك الذي كان من معاصري ملك فرنسا فيليب اوغست ، والملك بودوين الرابع ، في المملكة اللاتينية في القدس ، بأشياء كثيرة ، ولا سيما بهذه المباني الكبيرة التي وصلتنا من عهد دولة الخير ، وعلى يده نعمت مدينة انفكور بسور دائري ، طوله ١٢ كيلو متراً ، يحيط به خندق عميق ، وله حسة ابواب ضخمة . وقام خارج السور المعبد الكبير الذي بلغت مساحته ٨٢٠،٠٠٠ متر مربع . وهو يقوم في وسط هذا المجتمع الضخم المسمى بايون ، الذي يملوه عدد من الابراج ذات الاربعة الوجوه . وقد كان الملك جايا فارمان السابع ، بوذياً صادقاً ، يعرّى عبادة الاله الملك ، ولكن ليس على مذهب الـ *Lingga* الخاص بسيفا ، بل وفقاً لتمثال ضخّم لبوذا جالس فوق الثعبان . وقد يكون هذا الملك أصيب بالبرص ، وهذا ما حمله على انشاء ٢٠٠ مستشفى للبرص ، وزعها على جميع انحاء البلاد . وفي عهده بلغت العبادات الشخصية الذروة من الازدهار والاقبال ، انطلاقاً من عبادة الملك نفسه الذي برزت صورته ، ليس على ابراج المجتمع الضخم ، على شكل ملك العالم « وجهه في كل مكان » ، بل ايضاً في ٢٣ مدينة اخرى من مدن الامبراطورية . ومنذ ذلك الحين ، ارتدى المظهر الامبراطوري صبغة دينية عنه . فالعاصمة الملكية والمملكة كلها ليست سوى صورة مصغرة لهذا العالم الألهي ، حيث النظام البشري يبقى صورة طبق الاصل للنظام الالهي او السهاوي .

فاذا كانت امبراطورية الخير هي القطر الوحيد ، بين الاقطار المطلة على بحار الجنوب التي نملك بشأنها معلومات واوصاف دقيقة ، علينا ان نعتبر ، مع ذلك ، ان جميع البلدان التي تألفت منها هذه المنطقة الآسيوية الواقعة الى الجنوب الشرقي ، قد نعتت جميعها بحضارة واحدة ، في هذه الفترة من تاريخها كانت التقاليد والاعراف الهندية نسيج وحدها . فقد كانت هذه البلاد بطريقة ليس هنا محل تفصيلها باسهاب ، تمبيراً واضحاً لاشياء وامور لم يُرمز اليها في الهند إلا تضيئاً وتليحاً . ومن بين المميزات المفردة لهذه البلدان ، اقله لفترة معينة ، العبادة الملكية للـ *Linga* التي كانت رمزاً للسيادة التامة والسيطرة الشاملة .

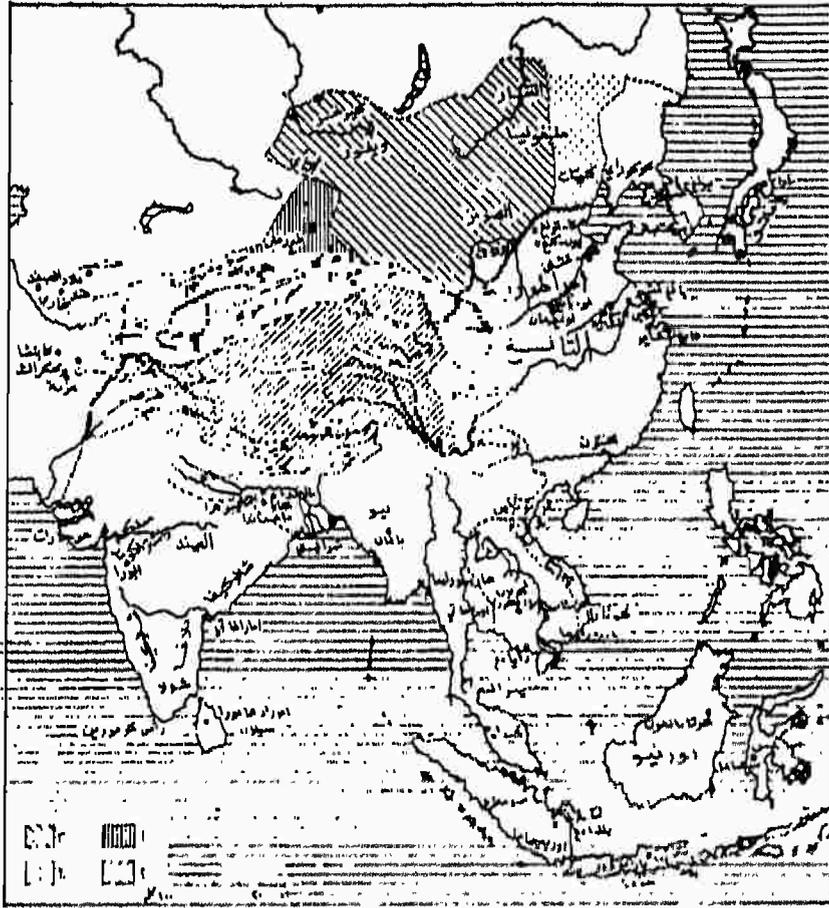
الا ان الحوادث التي تألبت على البلاد فتضرت بها ، وانبعثت العقائد والمعادن القومية ، كل ذلك ذهب بفوائد هذه الوحدة ومنافعها ، وافضى ، بالتالي ، الى تغييرات هامة ، في جغرافية الهند الصينية والانسولاند . ففي الوقت الذي تابعت فيه كمبوديا توسعها الجغرافي باحتلال بعض ولايات تشامبا والسيام ، وراح الاناميون ، من جهتهم ، يستولون على الشمال من مقاطعة تشامبا ويتابعون ، وتبدأ ، تغلغلهم صوب الجنوب ، طلعت قبائل الثاي ، قادمة ولا شك من يو - نان وظهرت في شمالي السيام ، ثم اخذت تنحدر رويداً نحو مصب نهر مينام . ثم ان الانحلال الذي اصيب به ملوك شريفيايا ، مكثن امراء جافا الشرقية ، من بسط سيطرتهم على بلدان ارنخيل الملايو .

وعندما قام ماركو بولو ، حوالي عام ١٢٨٨ ، وتشيو - كاكوان ، عام ١٢٩٦ ، بالرحلة الى الولايات الجنوبية الشرقية ، كانت دولة الخير تودع آخر ايامها ، تحت الضربات التي انهالت عليها من قبائل الثاي التي كانت فرضت سيطرتها ، اذ ذلك ، على الجانب الاكثر من السيام ومع ان التشامبا فقدت نصف اراضيها ، فقد كانت عرفت مع ذلك ، اذ ذلك ، مرحلة من الهدوء جاءت بين عاصفتين : فقد راحت بورما نفسها التي عرفت في القرن الحادي عشر عهداً عجيباً من الازدهار ، ومعها مقاطعة الانام ، فريسة احتلال مغول الصين . كذلك استطاعت جافا الشرقية ان تحافظ على استقلالها وان تستمر المضي في تطورها ، انما في اتجاه جديد ، ملايوي الطابع ، اخذ يطبعها ويفردها ، على حساب التقاليد والاعراف الهندية التي درجت عليها اجيالاً طوالاً واخذت بها حقبة طويلة من الدهر .

* * *

من ستة الى سبعة قرون مضت ، رزحت الصين ، في اواخر عهد الصين في عهد سلالة تانغ دولة سواي ، تحت فوضى قاتلة ، استطاع معها شاب شجاع ، جريء عُرف بكفاءته وبمقدرته ، ان يخلص البلاد مما تعاني ، هو لي - شي - مين . فقد كان هذا الشاب ابن الكونت الذي عمل ، من قبل أباطرة سواي ، حاكماً عسكرياً على احدى المقاطعات وبرهن عن صدق ولائه لهم . وقد نمت لهذا الشاب شخصية بارزة ، فنصب اباه ، عام ٦١٨ ، على العرش

الامبراطوري ، وقام خلال اربع سنوات كاملة ، بعدة حروب وتجزيدات حربية دوتخ فيها جميع اقطار الصين ، ثم اعتلى العرش هو نفسه ، بعد ان بذل ما بذل من الشجاعة والدماء السياسي وحسن التصرف ، وتوج باسم فاي - تسونغ ، في الرابع من ايلول ٦٢٦ . وفي مدة ملكه الذي



الشكل (رقم - ٩) آسيا السبعية حوالي عام ٧٥٠

امتد ٢٣ سنة ، استطاع ان يعيد الى الصين ، ما كان لها من امبراطورية شاسعة ، وما كانت تنعم به من مجد وفخار . قضت اليها مقاطعة منغوليا برمتها (٦٣٠) واخضعت اترك التركستان ، والواحات الهند - الاوروبية في صحراء غربي ، وأنشأت لها من بين هؤلاء الاقوام التي عرفت من قبل ، بعدائها للصين ، انصاراً لها وعبوناً . ولا شك في ان الدسائس التي حيكت في البلاط ، في اعقاب هذا العهد الجيد ، والوهن الذي اصاب بعض الاباطرة ، والفظاظة التي بلغتها بعض السراري والمحظيات اذ زين الفرور لاسدهن ان اعلنت نفسها امبراطوراً ، وهذا الوضع الخزي

الذي استمر نحواً من قرن كامل ، عرف ان يضع له حداً نهائياً ، الامبراطور هيوان تسونغ (٧١٢ - ٧٥٦) لدى اعتلائه العرش . فالسيطرة الصينية التي عرف هذا الامبراطور ان يوطدها ويرسخ من اسبابها ، بلغت اذ ذلك ، ابعد مدى عرفته الصين ، في آسيا ، من قبل . فقد دخلت في حدودها ، من الغرب جبال تيان - شان وجبال بافير ، فأخضعت لها طشقند ، وفرغانة ، وجلجيت ، ووضعت تحت حمايتها كشمير وبلخ وكابول ، وتحالفت ضد المسلمين ، مع بخارى وسمرقند ، وسيطرت على التركستان بكامله ، وحملت قوافلها التجارية كما بسطت دبلوماسيتها ، نحو الجنوب والشرق . وهكذا تم لها التحكم والسيطرة على الممرات والمجازات المفضية الى الهند ومضائق المحيط الهندي . وهكذا عرفت الصين عهداً من الحروب والفتوحات المظفرة تجاوبت أصدائها الانجازات الفنية الصينية ولاسيما ما اتصل برسوم المعارك ورسوم الحيوان . وفي هذه الحقبة استقرت امور الصين ، ولو مؤقتاً ، وبلغت حضارتها واشاعها الفكري عهداً مشرقاً من الازدهار ، كما نشطت المبادلات التجارية والدينية بين الصين والاقطار الآسيوية الاخرى ، وبينها وبين بلدان الشرق الادنى الواقعة تحت السيطرة الاسلامية .

ومع ذلك ، فقد انهار هذا البنيان الشامخ دفعة واحدة ، حوالي عام ٧٧٠ ، عندما راح قائد صيني اخرق ، بمهاجمة اترك طشقند بالرغم مما كانوا عليه من صدق الولاء للصين . واذ ذلك ، شرعت مقاطعة يو - نان ، في أقصى جنوبي الصين ، تتملل وتتحرك في محاولة لها للتحرر من نير الصينيين ، واخذت بمهاجمة القوات الصينية العاملة فيها . واذ كانت الصين استنزفت الكثير من دماء بنيتها في هذه الحروب الدامية التي استمرت اجيالاً وكلفتها زهرة شبابها ، ورغبة منها في اعادة الطمأنينة والهدوء الى البلاد ، استسلمت للتفسيخ الاداري والانقسام السياسي . وعندما زالت سلالة تانغ ، من الوجود ، عام ٩٦٠ ، لم تكن الصين تتألف من غير الولايات الجنوبية ، كما ان عدد السكان فيها كان قد تناقص كثيراً .

فسلالة تانغ الصينية التي امتد عهدها ثلاثمائة سنة ، قامت في بسء ملكها ، بفتوحات هي اوسع ما حققته الصين من فتوح ، الى ذلك العهد . فقد حققت في المجال الفكري ، التأليف التام بين التقاليد الماضية وبذلك رسمت لها نموذجاً ووضعت منهاجاً نسجت على منواله ، الاجيال الصينية الطالعة . فلوك سولاي الذين حققوا وحدة البلاد من جديد ، لم يسفهم الوقت من حل المشكلات التي تأتت عن عملية الوحدة هذه . فباشر ملوك تانغ الامر منذ ان تسلموا الحكم ، فحاولوا ، بادىء ذي بدء ، القيام باصلاح شامل في الادارة العامة . ولكن ايانا والغرور ! فقد جاء هذا الاصلاح نظرياً أكثر منه عملياً او واقعياً ، اذ ان الادارة كانت من التعميد والتشابك بحيث بدا من المستحيل تقريباً ، اجراء أي اصلاح فعلي في البلاد . فالتمسك بالتقليد ، والاخذ بالاعراف المستبدة ، وجهل الموظفين المدنيين للمشكلات التي عانى منها كثيراً سكان الريف وتربصوا بها ، كل هذا يفسر لنا كيف ان الحكومة كانت تضطر الى إلغاء او تعديل القرارات التي كانت تتخذها او تصدرها ، قبل ان تأتي هذه التدابير ثمارها ، او قبل ان تباشر بتطبيقها . فكل سلطة

مصدرها ، مبدئياً ، الامبراطور الذي كان يصدر قراراته عندما يجلس للديوان ، بينما كانت التخلّيات والارشادات تصدر عن الاجهزة الكبرى والمصالح الادارية الرئيسية ، وترسل للموظفين والحكام الاداريين العاملين في الملحقات . وقد تغيرت صلاحياتهم مع الزمن كما سنرى .

الاطر الادارية والمسكرية الوصول الى الرئاسات العليا وبلوغ المراتب الكبرى ، طريقة الامتحان الناجح بين حملة الشهادات العليا ، في مباريات يجتازونها لهذه الغاية : شهادة العالمية التي تحول صاحبها للتقدم للناصب ، ومباريات لاصطفاء خير الموظفين والعمال المدنيين والمسكربين ، واخيراً شهادة تقويم الكفاءات ، تبنى على علامات وترقيات يضمها رئيس الموظفين على طالبي الوظائف والمتقدمين اليها ، ان يكونوا من خريجي الجامعات ، وان يركي ترشيحهم اساتذتهم . فاذا ما كانوا من ابناء الاسر الكبرى ، وهو الوضع السائد لعمرى لدى الجامعيين ، كثيراً ما نالوا المنصب الذي يرومونه ، بأيسر السبل ، بالاستناد الى حسبهم ونسبهم ، وبالنظر لان الاب تولى الوظيفة من قبل ، او لاستطاعة المرشح ان يحصل على الوظيفة المرومة باساليب اخرى . غير ان عدد المراكز كان محدوداً ، الامر الذي اوجب على طالب الوظيفة ان ينتظر طويلاً للحصول عليها . اما المباراة ، فقد كانت تدور ، على الغالب ، حول مواضيع ادبية . وقد يتضمن الامتحان بعض المواضيع الرياضية والفلكية اذا ما اقتضت طبيعة الوظيفة ، من صاحبها ، مثل هذه المعلومات ، مع حفظ بعض النصوص او التعليق عليها أو التفسير لها او كتابة موضوع خاص . وكانت عنايتهم بضبط الحروف واقتان كتابتها تفوق عنايتهم بالترتيب . والنجاح في المباراة كثيراً ما ادى الى اقامة المآدب الرسمية التي لم تلبث ان استحالت عادة رسخت في القوم واستبدت بهم في المناسبات العارضة .

وقد سيطرت ، في العاصمة ، خلال القرن الاول من حكم ملوك تانغ (٦١٨ - ٧٠٥) مركزية شديدة قوية ، أضفت بالتالي اهمية اكبر على ثلاثة اجهزة رئيسية هي : دائرة شؤون الدولة ، والديوان الامبراطوري ، والسكرتيرية العامة . فقد ضم الاول ، مناصب الوزراء الستة وهي : الادارة العامة ، المالية ، الاديان ، الجيش ، العدل ، الاشغال العامة . اما الديوان ، فقد اشتمل ، الى جانب صلاحياته المعروفة ، الاشراف على مدرسة البلاط التي كانت تؤمن مع تدريس الادب ، تعليم اولاد الاسرة الملكية ، بينما دخل في صلاحيات السكرتيرية العامة ، الاشراف على مكتبة القصر والمحفوظات الملكية ، ودائرة المؤرخين ، ودائرة الاقتراع ، وغير ذلك من الدوائر الفرعية . فارتبطت بالبلاط ، مثلاً مجلس الدائرة الفلكية الذي انيط به السهر على ضبط الساعة المائية وتأمين الارصاد الجوية والفلكية ووضع التقاويم المختلفة ، ثم الشؤون المنزلية ، واخيراً تدبير الامور الخاصة بالقصر الموكولة امورها الى فريق الخصيان . ولا بد هنا من ان نذكر ، ولوبصيرة عابرة ، الدوائر التسع التي كانت تشرف على المراسم الرسمية والاحتفالات الدينية ، وكلها تتمتع باختصاصات وصلاحيات لها شأنها تتعلق بادارة المعابد والهياكل والمدافن ، وتأمين الاضاحي والتقادم ، وتنظيم المآدب الامبراطورية ومراسم

التشريفات المتبعة في استقبال ممثلي الدول الاجنبية ورفودها ، كما كانت من اختصاصهم النظر في امور القضاء العليا والزراعة .

وطوال المدة التي سيطرت فيها على البلاد مركزية أسرة ، حتى مطلع القرن الثامن ، لم تعرف الادارة في تقسيماتها الادارية ، دائرة اكبر من الولاية او المحافظة التي كانت تنقسم بدورها الى عدد من الاقضية وهذه الى عدد اكبر من النواحي . وباستثناء بعض الظروف الخاصة ، لم تكن السلطة العليا في الولاية ، تلقى ليد موظف كبير واحد . وكان هنالك مندوبون ملكيون يعهد اليهم الامبراطور بزيارة الولايات ومراقبة سير العمل في الملحقات على اختلاف دوائرها . وقد تراخت هذه المراقبة تدريجياً ، نتيجة محتومة لحركة ارتبطت ، ولا شك ، بالتحلل طبقة الفلاحين من جهة ، ومن جهة اخرى ، بظهور طبقة ارسوقراطية عقارية . ومثل هذا الوضع ، طلع على الخلافة العباسية وفي تشكيلات سياسية اخرى لدى الغرب . ونلاحظ من ناحية اخرى ، بين ٧٠٥ - ٧٥٩ ، ازدياد سلطة الموظفين الاداريين ، في الملحقات ، بالرغم من وجود مفوضين حكوميين ومفتشين اداريين مهمتهم مراقبة الاقضية والمحافظة والولايات الكبرى . واستطاعت معظم الوحدات الادارية الكبرى ان تحقق ، خلال النصف الثاني من القرن الثامن ، وطوال القرن التاسع ، شبه استقلال اداري تحت زعامة حكام جمعوا بين السلطة المدنية والعسكرية . وبمجل القول ، فقد شهدت العاصمة التي تمتعت بالسيطرة التامة في الشطر الاول من هذا العهد ، سيادتها لتتناهبها الولايات الاخرى ، ورأت في هذه السيادة والقوة العسكرية التي سارت في خدمتها شبحاً اخاف السلطة الامبراطورية ، بحيث ان كلا من كبار الحكام في الولايات الكبرى اصبح في القرن العاشر ، دولة ضمن الدولة ، يوقف سلطة الامبراطور عند حدها . وراح اقوام ساعدوا يعلين سقوط العائلة المالكة ويتربع هو مكانها على العرش . وهكذا اطلت علينا ، عام ٩٦٠ ، سلالة سونغ .

فالخطوط الكبرى لهذا التطور تهمنا أكثر من الصلاحيات التي تمتع بها جيش لجب من الموظفين ، موزعين على مراتب ودرجات . وبدلاً من الافاضة في التفصيل والاسترسال في العموميات يكفي ان نعطي بعض الايضاحات التي لا بد منها . فالحكام المدنيون في الولايات كانوا ينتقون من بين اعضاء العائلة الملكية . وكانوا قلما يقيمون في الملحقات ، فيكفون امر الحكم والادارة الى نائب او وكيل يمينونه ويمتمدون عليه في تصريف الامور . ومن هنا نتبين بعض الشيء ، الاهمية التي اخذها الحكام العامون وكبار القواد الذين لم يكن عددهم ليتجاوز الخمسين ، وكان تحت امرتهم وحدات من قوى الجيش يتراوح عدد افراد الوحدة ، عام ٧٤٢ ، بين ٢٠،٠٠٠ و ١٤٥،٠٠٠ ، جندي بينا بلغت القوة العسكرية التي رابطت في ولاية هو - باي ٩١،٠٠٠ ، اذ ان أكثر من ثلثي قوة الجيش كانت ترابط في المقاطعات الحربية الواقعة على الحدود . وقد اضطرتهم الامور العسكرية ، شيئاً فشيئاً ، لأن يسيطروا على كل المصالح الاخرى : على مستودعات وغنابر التموين ، والشؤون المالية ، والاشغال العامة ، وامور القضاء . وكثيراً ما ادت اقامتهم مع

الحكام الاداريين في دار الولاية الى اصطدامات، الى استصفاهم ملء السلطة الفعلية في المقاطعة .
ففي الايلات العسكرية القائمة وراء حدود الصين الخارجية ، كان يقم المفوضون العامون
السبعة ، وهو عدد لم تعرف مثله الصين في ازهر عهودها وفي اعظم امتداد لسيادتها عبر التاريخ ،
وهي ايلات كادت تزول من الوجود ، في اواخر عهد هذه الاسرة بنسبة فقدان الصين السيطرة
على هذه الايلات العسكرية . فرقعة الحمية الواحدة التي يتولون امرها كانت شاسعة ، اذا ان
حمية واحدة ضمت بين أرجائها ما يولف اليوم التركستان الروسي والترستان الصيني وأفغانستان
وكان هؤلاء الحكام يُصنطفون من بين كبار الاداريين المهلين ، ويعمل تحت ادارتهم موظفون
محلون ويمارسون صلاحيات مدنيّة وعسكرية على السواء ، ويقومون بالاشراف على عدة
مقاطعات او عدة ولايات عامة .

فالولاة الذين يرتبطون بالامبراطور شخصياً ، بلغ عددهم عام ٦٣٩ نحواً من ٣٥٨ والياً ، ثم
زل هذا العدد الى ٣٢٨ ، سنة ٦٤٠ ، دون ان تدخل في هذا العدد البلدان التابعة للصين بموجب
موثيق . ويقسم الولاة الى رتب ودرجات مختلف باختلاف عدد السكان في الولاية التي يعملون
فيها ، وهو عدد كان يتحدد دورياً بعملية احصاء تجري في اوقات معينة ، ويتراوح بين ٢٠،٠٠٠
و ٤٠،٠٠٠ هائلة او اسرة . فاذا ما تعادلت ولايتان احداهما في الداخل والاخرى على الحدود ،
بعدد سكانها ، جاءت الثانية في مرتبة اعلى . والنواب الولاة كانوا أثبت عملاء الامبراطور
مركزاً ، تناوح عددهم بين ١٥٢٨ و ١٥٧٣ نائب والي بسين عامي ٦٣٩ و ٦٤٢ ، كما كانوا
اقربهم اتصالاً بالأهلين . وفوق الأسر التي كان رئيسها يتحمل كل مسؤولية ويتعرض وحسده
للجزاء اذا ما اتهم احد اعضاء اسرته بالتقصير ، تأتي القرية التي كانت تتألف عادة من ١٠٠
اسرة ، كما ان خمس قرى كانت تؤلف ناحية . ورئيس القرية هو الشيخ أي المتقدم في السن بين
سكانها ، ويتربط عليه كما يتربط على مدير الناحية ان يمد قائمة بالأفراد الخاضعين في القرية وفي
الناحية ، للضرائب او لأعمال السخرة ، وبذلك يصبح في مقدور نائب الولاية ان يصنف السكان
حسب فئاتهم ، ويشرف على توزيع الاراضي ، ويحافظ على السجلات العقارية وجدول الضرائب
وادارة الجباية ، كما كان باستطاعته ان يحافظ بدقة على نظام البريد ، وعنابر الدولة ومستودعاتها
ويضع تحت اشرافه السير على الطرقات العامة ويؤمن سلامتها الملاحة النهرية . وهو
بوصفه سامي الشعب ، عليه ان يعرض مكارم الاخلاق ويؤمن أودّة العيش للأرامل ، ويضع تحت
جناحه الايتام والبائسين ، وينظر بنفسه في القضاء ويكافح الاوبئة .

والجيش الذي اصبح طيلة عهد اسرة تانغ في الحكم قوام النظام وركنه الركين ، خضع خلال
الاجيال المتعاقبة ، لتطور سار جنباً لجنب والتطور الذي مرت به الادارة . ومع ذلك فتعبثته
بغيت مشكلة مستعصية بحيث ان الانتصارات الحربية التي حققها الدولة في بسده الامر يجب
ردها للمقدرة والكفاءة التي تحل بها قواد الجيش وليس لتنظيمات الجيش . فالى سنة ٧٢٢
تقريباً ، كانت الوحدات العسكرية التي تقدمها كتائب الميليشيا الباسلة تعمل لشهر واحد في

الحرس الامبراطوري ، بينا الوحدات الاخرى التي ترسل للخدمة على الحدود كانت تضي في خدمة الجيش ثلاث سنوات ، بينا الحاميات المرابطة على الحدود الشمالية ، كانت تغذيها امر خاصة فُرِضت عليها الخدمة العسكرية الاجبارية لقاء بعض امتيازات ومنافع خاصة . وكثيراً ما أجبرت الوحدات العاملة في الجيش المرابط في قواعده على الحدود، على تجديد تمهدها بالخدمة دون ان تعطى الحق بالرجوع الى البلاد ، فتؤلف بذلك جيشاً محترفاً مستمراً في الخدمة . ومن المحتمل كثيراً ان تكون وحدات من هذا النوع ، ألفت حرس الامبراطور الخاص او عملت في خدمة بعض كبار الحكام او القادة . اما الوحدات الاضافية الاخرى ، فقد جيء بها من بين الذين صدرت عليهم أحكام قضائية ، فيرسلونهم الى المعسكرات الحربية . وفي القرن الثامن ، كان الحرس الامبراطوري يتألف أفراده من سكان العاصمة وارباضها الذين يُعفون من السخرة ، لقاء خدمتهم في الحرس ، مدة ستة اشهر ، ثم انزلت الى شهرين ، عام ٧٢٥ . وكثر عدد التجار الذين راحوا يتجددون لقاء اعفائهم من الضرائب المترتبة عليهم ، ثم يعمدون الى استبدال أنفسهم بعبيد وأرقاء في خدمتهم . فبينما كانت الجيوش المرابطة في الشمال تتألف بمعظمها على هذا الشكل ، كانت الوحدات المرابطة على التحوم تؤلف جيشاً محترفاً بعد ان برهنت الطرائق الاخرى لتشكيل الجيش التي عمل بها ، عن عدم جدواها . وفي سنة ٧٤٩ صدر مرسوم امبراطوري ألفت بموجبه « الكتائب الباسلة » ، ولم يحتفظ إلا ببعض وحدات للمحافظة على الامن . وهكذا يمكن لنا ان نؤكد بأن الجيش بين ٧٥٦ و ٩٠٧ كان برتمه جيشاً محترفاً .

فقد عرف الصينيون بمقتهم للحروب واعراضهم عن كل ما يسببها او يدعو اليها ، وهو شعور محسوسا به ليس فقط أثر الانكسارات العسكرية العديدة التي منوا بها ، بل ايضاً بعد الصعوبات المتزايدة التي صادفها اباطرة الصين في الداخل . فن علامات الازمنة المميزة : ان الناس ، اذا ما ملئوا القتال وشموا الحروب ، مالوا الى الدعة وطلبوا الهدوء والراحة ، وفضّلوا الاخلاص للسكينة والازواء بعيداً عن صَعَب الدنيا . ولكي يتفادوا داعي الحرب راح الصينيون يشوهون انفسهم . فهستيريا الحرب التي ميزتهم في القرن الاول من عهد سلالة تانغ ، حل محلها روح الاستسلام والمقاومة السلبية ، وكلها امارات تدل على مبلغ تفسخ الامبراطورية . وهذا السأم تردد صدها عالياً على لسان الشعراء ولا سيما تو - فو الذي كتب عام ٧٥٢ قائلاً :

ما يؤسف له جداً فالخسود تتوال ،
في الحامسة عشرة نرسل الى الشمال للدفاع عن النهر الاصفر
وفي الاربعين نجد انفسنا جنوداً نفلح ونزرع ، في غربي البلاد
وكهولاً وبعد ان ابيض منا الشعر ، ندعى للسلاح من جديد بعد عودة قصيرة
تباً لهذه الحياة ، وما أشقها مع الاولاد .

وهذا التحول والتطور نحو سيطرة جيش محترف له ما يبرره ويؤكده في هذه
الثورات والانقلابات الاجتماعية التي جرت البؤس والشقاء على الجماهير الشعبية .

تطور المجتمع

صحيح ان البلاط يستمر كمألوف عاداته ، في هذا البذخ والبطر الذي 'عرف به وشاع عنه من قديم الزمان . واحسن شاهد على ما نقول ، هذه الخزفيات القبرية، الدقيقة الصنع ، العائدة لهذا العهد التي تبرز لنا صوراً من ترف البلاط ، ومواكب الراقصات في غلائلها المثيرة تستر منها الاقدام الناعمة ، ومنظر المحاربين بمتطين صهوات جيادهم ، كل ذلك يتم عن مجتمع فروسى مترف . غير ان الشعب اخذ منذ القرن الثامن يتربص بمشكلات عانى منها الامرين ، كان من بعض نتائجها هذا التناقص الفاضح في عدد السكان . ففي اقل من ٧٥ سنة اي من سنة ٧٥٤ الى ٨٣٩ ، هبط عدد سكان البلاد من ٥٢ مليوناً الى ٣٠ مليوناً ، بعد ان زال في اواسط القرن الثامن كل اثر للملكية القرويين التي كانت الدولة تحافظ عليها ، فرزحت تحت ما توقع عليها من الضرائب واعمال السخرة والخدمة العسكرية والديون المتراكمة ، مما اضطر معه صغار الملاكين الى بيع ما يملكون من عقار والعمل في خدمة كبار الملاكين الذين كانوا في الوقت ذاته من كبار الموظفين . ونسمع صدًى هذا كله في ما كتبه تاونغ - يوان (٧٧٣ - ٨١٩) ، اذ جاء على لسانه :

« تزداد حياة جيراننا من القرويين يوماً بعد يوم . فما امرح ما يستنزفون غلال ارضهم ، ويدفعون الى آخر بارة ما يترتب على اكرامهم من رسوم ، ويأخذون بالبكاء والعميل وهجران اوطانهم ، ويتضورون جوعاً ويموتون عطشاً ، ويمزقون صرعى الى الارض . تتلثمهم الارياح والامطار ويشكون البرد شتاء وحارة القيظ صيفاً ، ويستنشقون السموم الفتالة المهلكة ، وتتراكم على الطرقات جيف الموتى . فمن عشرات الاسر التي عاشت هنا مع جدودي لم تبقى امرة واحدة . وبين الامر العشر التي عاشت هنا مع ابي ، لم يبق سوى اثنتين او ثلاثة ، ومن بين الاسر العشر التي عاشت معي هنا مدة اثنتي عشرة سنة لم يبق سوى اربع او خمس اسر لا غير . فاذا لم تمت كلها ، فقد هاجرت ورحلت عن الديار وبقيت وحدي هنا » .

وإذا اردنا ان نأخذ باقوال الشعراء ، لسان حال هؤلاء الناس والمتكلمون باسمهم ، فالتجارة بارت وماتت هي الاخرى . « فقد كانت الحكومة في ابتزازها لمراقق التجارة كالنمرة في جشمها » . ومع ذلك فقد اخذ التجار يتأهبون ، بكل الوسائل لديهم ، المقايضات التجارية طمعاً بالأرباح التي تدرها ، مع التجار المسلمين والاسواق التجارية في بلدان جنوبي شرقي آسيا ، وهكذا استطاع بعضهم ان يتغلب على ما تعرضوا له من فداحة الرسوم الباهظة التي فرضت عليهم ، واعمال المصادرة والضرائب التي رزحوا تحتها ، بحيث انهم كانوا يدفعون ١٠ في المائة رسماً على الشاي الذي كان قد اصبح ، في هذا العهد ، مشروباً وطنياً .

فانهيار طبقة الفلاحين ، والعراقيل التي سدت سبل التجارة ، وهما عماد الحياة الاقتصادية في الامبراطورية الصينية ، كانا من اكبر الاسباب التي دعت للثورة التي انطلقت في اواخر سنة ٨٧٤ . فالأتراك الذين كانوا استقروا في شمالي الصين وجدوا في الوضع الموصوف ، فرصة سانحة لزحزحة النير الصيني عن اعناقهم . فلم تقو الاسرة المالكة على تحمل الصدمة ، وراح النظام

الاقطاعي الجديد الذي أطل على البلاد من خلال كبار الموظفين ، يسدد لها الضربة القاضية فسقطت وتوارت عن مسرح التاريخ .

الحياة المغلقة والدينية
في هذا العالم الصيني الشاسع الاطراف الذي عرف عهداً من الازدهار في بدء الامر ، وماعتم ان راح فريسة طغيان سلطة ناشزة ، تمتع الناس ببحرية فكرية لم يعرفوا مثلها من قبل ، فارتفعت الاصوات منددة بعيب الارادة الامبراطورية . ولم يكن من الغريب قط ان نسمع في المجال الديني جدلاً صاخباً ، مع البوذية وضدها على السواء . ومع ذلك فقد عرفت البوذية في هذا العهد ازدهاراً انتشرت معه وامتد في واحات التركستان الصيني الذي خضع اذ ذاك ، لاشراف ملوك التانغ الا انهم نظروا اليها ، في بدء الامر ، نظرتهم الى ديانة غريبة ، ولذا ناصبها العداة المكشوف ، المستمسكون بالتقاليد والتعاليم الكونفوشيوسية : « ما بوذا ، بمد هذا كله ، سوى بربري دخيل ، يختلف عن الصيني لغة ولساناً وزياً » . وبالرغم من شدة هذا التقدر وطرافته ، رعى اباطرة التانغ للبوذية عهداً واخذوا بنصرتها ، ورحبوا بتعاليمها وحجاجها . وبدافع من هؤلاء الملوك ، راحت مصانع الحفر والنقش البوذية تعمل بكل نشاط : والى هذا العهد تعود المغاور المشهورة في لونغ - ين وما تحمله من حلي النقوش ، فارتفعت في البلاد معابد وهايكل بوذية كثيرة ، وهذا المدد المعديد من التماثيل والشخص ، وكلها ينم كم كانت البوذية غريبة بالفعل عن الصين ، اذ ان كل هذه الانجازات الفنية كانت من طراز هندي حاول الفن الصيني ان يلطف قليلاً من طابعها ، حيث تطل علينا مثل "وتقاليد جمالية تختلف كثيراً عما عرف في الصين من امثالها . صحيح ان تَطَبُّع البوذية بطابع الصينية في المجالين الفكري والفني تم ببطء كلي ، فاقتربت بالاكتر من التاوية ، سيراً منها مع حركة تطورية اخذت باسبابها قبل مجيء سلالة تانغ بكثير .

وتابعت ديانات اخرى دخلت الصين منذ عدة اجيال ، انتشارها في البلاد . فقد تغلغلت المانوية منها في منغوليا ، وكسبت لها انصاراً ومريدين صادقين لدى اتراك ويغور في تاريخ وشيدت لها معابد وهايكل في معظم المدن الكبرى في الصين . والمسيحية على المقالة النسطورية دخلت ، هي الاخرى ، الصين وشيدت اول بيعة لها في مدينة تشانغ - نغان ، عام ٦٣٨ ، ونعمت فيها برعاية مستمرة . ومنذ عام ٨٤٥ ، تعرضت البوذية فيها لاضطهاد عام اصطلت بنارها ديانات اخرى « دخيلة » . كذلك استهدفت التاوية والبوذية لمهاجمات عنيفة من قبل اقباع الديانة الكونفوشيوسية ، باعتبارها ديانتين كثيرتي التصوف وذات مراسم غريبة . واخذت المهاجمات تشتد ضد الحياة الرهبانية والنسكية ، واللاعمل البوذي ، وضد سلبية التاوية والاعمال السحرية التي اهتمت بها وغير ذلك من التيهم التي الصقوها بها ، كما يجب التسليم ايضاً بان اقباع التاوية والكونفوشيوسية لم يروا اي فائدة من تحالفها ضد البوذية التي عرفت ان تتخلق باخلاق الصين وتتطبع بطابعها بحيث بدت وكأنها ديانة جديدة قالت بوحدانية الوجود ، واخرجت للناس لحظة جديدة تعرف عندهم بنحلة التأمل او التجريد لقيت انتشاراً واسعاً في طول البلاد

وعرضها ، حتى انها بلغت اليابان تحت اسم « زن » ، وهي مذهب روحاني يحرك المشاعر ويحمل الفرد على القيام بمراسم دينية شخصية تحرك العواطف والشفقة في القلوب ، حيث طريق الخلاص مفتوح لاصحاب الشطحات الصوفية .

وعهد دولة تانغ الذي امتاز ، من جهة ، بالبطولة والفروسية ، كما امتاز ، من جهة اخرى ، بروح النقد والسخرية والصوفية ، شهد انتشار صناعة الورق واستعماله أكثر فأكثر فنشط ذلك ظهور الطباعة الخشبية ومهد الطريق امام الطباعة بالحروف المتنقلة ، وذلك بعد التوصل الى حروف متنقلة اتخذت من الدلفان او الفخار (النصف الاول من القرن الحادي عشر) . وقد اتاحت الكشوف العملية التي أمكن تحقيقها ، في هذا المجال ، للثقافة ان تقطع مراحل من الرقي والتقدم خلال حكم التانغ والوصول الى شيء من التأليف في مجالات الفكر والدين والفلسفة كما وصلت عبر الاجيال الماضية .

لا يصح قط ان نجعل او نتجاهل الدور البارز الذي لعبته الهميات الصينية في عهد دولة تانغ
البلدان المجاورة للصين في هذا الطور الحضاري الذي مرت به البلاد في عهد ملوك تانغ . وهذا الدور يبرز على امثله ، من كتابات الرحالة هيوان - تسانغ الذي قام في القرن السابع ، برحلة الى واحات التركستان ، وعرف ان يصفها لنا وصفاً دقيقاً . وكان يقيم في هذه الاقاليم ، بمالك توابع ، تباينت فيها العروق الاثنوغرافية واختلفت اللغة واللهجات ؛ وكانت تمر بها طرق تجارة الحرير ، فتترك فيها حركة ناشطة بالازدهار ، كما كانت مبراً للمؤثرات الحضارية الغربية في تغلفها نحو الصين ، فكانت بالتالي ملتقى حضارة العرب وايران الساسانية كما انتهت اليها معالم الثقافة الهلينية البوذية ، والهند بعد ملوك الغوبتا ، والمناوية حتى والتبت . وعن طريق هذه الواحات بلغت البوذية الصين مع المؤثرات الخارجية الاخرى ، اذ ان المناطق المتاخمة للصين من الجنوب الشرقي ، والتي كانت تقع تحت مراقبتها واشراقها المباشر ، كالانام والتونكين ، كانت قطعت شوطاً بعيداً في تصنيفها بحيث لم تكن قادرة على مدها بعناصر جديدة تجدد من ثقافتها وحضارتها .

وكان سكان هذه الواحات ، ومعظمهم رجال حرب ورعاة ، يعيشون على التجارة والزراعة تحت تبعية الصين وولايتها ، مع محافظتهم على عاداتهم الخاصة وعلاقاتهم الروحية بالهند . فقد كانوا مستمسكين بالبوذية . ويتكلمون لهجات هندو اوروبية ، فقد جعلوا من ممالكهم متاحف للادب والفن البوذي ، وأضافوا على هذا الاخير طابعاً مميّزاً ، هو صيني السميت في الواحات الشرقية ، ايراني الطابع في الشمالية منها ، هندي المظهر في ما وقع منه في الجنوب . وهذه الرسوم والصور التي تغطي جدران المغاور تعطينا صورة صحيحة لما كانت عليه الحياة والنشاط الديني في هذه المناطق من معالم ومظاهر . وهذه الرسوم التاريخية التي تعود لهذا العهد ، قد زالت من الصين وايران ولم تسلم لليوم غير تلك التي كانت في التركستان الصيني ، فوصلت الينا

شاهد عدل على ما كان عليه قادة القوم من ملابس وممشر بثياب على الزبي الهندي او الصيني ،
ممتطين صهوات جيادهم في هجوم على الحصون والقلاع تحت خفقان البيارق ، او سائر الهويناء ،
مرتدين اجمل حللهم وزينتهم . فنحن امام عالم جيتاش ، يعيش على الحدود عيش بذخ واباه
وشمم ، في اطار اجتماعي خاص به . وهو عالم يرجع القهقري ليهوي ويبدأ في البربرية ، خلال
هذه الحقبة التي تمتد من اضمحلال ايران الساسانية وسلالة تانغ في الصين .

الصين في عهد سلالة سونغ
ظهور سلالة تانغ في الصين ، في القرن العاشر حمل معه الى البلاد ،
جواً جديداً ، اتسم بالهدوء والسلام . فبقدر ما حافظت سلالة
تانغ على تقاليد البلاد القديمة ، وخاضت من حروب ، وهدرت من دماء زكية ، وعانت من
المجاعات وتضاريس الحياة بين حلوها ومرها ، احتقر ملوك دولة سونغ العنف والحروب الفتح
والغزو فقد هم ملوك تانغ ، في ايام دولتهم ، ان يشبعوا اذواقهم من الفنون والاشياء الخارجية ،
بميت بدا اشهر شعراء هذا العصر : لي - تايبو اقرب الى الفكر الغربي منه الى نفسية الصينيين
وذهنيتهم . اما في عهد السونغ ، فاننا نشهد ، خلافاً لذلك ، تجديداً للقيم التقليدية ، وراحت
مدنيتهم تبرز ، في كل المجالات ، ما هو صيني الطابع ، في الدرجة الاولى .

فاذا ما رضي ملوك سونغ ان يفقدوا نصف اراضي الصين وان يقنعوا بالقسم الجنوبي منها ،
فما ذلك لضعف فيهم ، او لزهده او عدم اكتراث قط . فقد كان باستطاعة الأوكل من ملوك هذه
السلالة ، بما تم لهم من حزم وعزم وسمو الهمة ، ان يعيدوا الى الصين ، قوتها وبأسها بعد ان
استحكمت الفوضى بجنات البلاد في اواخر عهد تانغ (السلالات الخمس) . فقد وجدوا امامهم
صعوبات جمّة في الداخل والخارج على السواء ، ولا سيما هذا الفقر المدقع الذي كان الريف يتسكع
فيه من بعد ما تكالبت عليه المحن والاحن : كالمجاعة ونزوح السكان ، التي فتت من عضد الصين ،
وقتل فيها كل الرغبة في الحروب وخوض المارك . والاصلاح الزراعي ، هذه المشكلة التي
أقضت مضاجع المسؤولين وأقعدتهم ، ازدادت تازماً بدلاً من ان تلقى الحل المرجحى ، فشلت
ميزانية البلاد وأوقعتها في الفوضى ، بعد ان انعدمت اسباب الجباية ، وتخلخلت انظمتها ،
وزادت تكاليف الحكم والادارة ، وأسقط في يد الدولة بعد ان رأت نفسها في حلقة مفرغة .
وعهداً مؤسسو هذه السلالة ، الى بعض العلماء الكونفوشيوسيين ، من محافظين ومجددين ، بتحقيق
الاصلاح المنشود . ولكي يؤمنوا ما هم باشد الحاجة اليه ، ويمدوا الادارة بموظفين اكفاء ،
اخذوا باصلاح نظام الامتحانات ووضعوها على مناهج واساليب سارت عليها طويلاً . واعادوا
الى الاستعمال النظام الذي جروا عليه من قبل بانشاء احتياطي للقمح حفظوها في حواصل
للحكومة . واعادوا التوازن في ميزانية الدولة بتخفيض النفقات العامة الى ٤٠٪ وقد شجعوا
الانتاج عن طريق التسليف على الغلة ، والفوا نظام السخرة واستبدلوها بضرية على الاعناق
تدفع سنوياً . واعادوا مسح الاراضي من جديد ، واجروا توزيعاً جديداً لها ، وهو اصلاح
قصد منه في الدرجة الاولى ، تحسين الوضع المالي ، اكثر منه اصلاح النظام الاجتماعي ، اذ ان

نظام الملكيات الكبرى بقي معمولاً به ، كما انه كان من الايسر تأمين الضريبة العقارية . كل شيء نُظِّم وفُرضت عليه الرسوم : الزراعة وملكية الارض والتجارة ، حتى البضاعة الموجودة في المستودعات فُرض عليها رسم بلغ ٢٠ في المائة من قيمتها ، يضاف اليه ٢ في المائة اذا لم يتم الدفع في اوانه . وتشجيعاً للاعمال التجارية ، اخذت الدولة بنظام التسليف على الاملاك ، فانشأت لهذا الغرض وكالة خاصة تعطي التجار سلفة لقاء رهن . فاخذت تكاليف العيش تنزل تدريجياً ، واخذ الناس في الريف والمدن يعولون على الارز في معاشهم ، كما تشددت الدولة في ملاحقة المحتكرين .

من المؤسف ان هذا الاصلاح لم يعمر طويلاً . ولكي يتمكن المزارعون من تسديد ما استلفوه على غلالهم راحوا يستدينون من مصادر اخرى : من المرابين بفائدة تبلغ احياناً ٥٠ بالمائة بالاضافة الى ٢٠ بالمائة المستحقة عليهم للدولة . وقد راح التعلعون المعروفون بتحفظهم يرفعون عقيرتهم عالياً ضد الذين قاموا بحركة الاصلاح هذه ، فانقسم الناس على بعضهم في الداخل وعمت الاضطرابات ، وفقد التوازن ، بينا وقعت الصين الشمالية بما فيها العاصمة بكين ، فريسة بيد اقوام الكيتات ، والجرتشات . وبعد محاولات فاشلة قام بها اباطرة الاسرة سونغ ، قر الرأي عندهم ان يقيموا نهائياً في مدينة هانغ - تشيو ، متخليين عن القسم الشمالي من الصين .

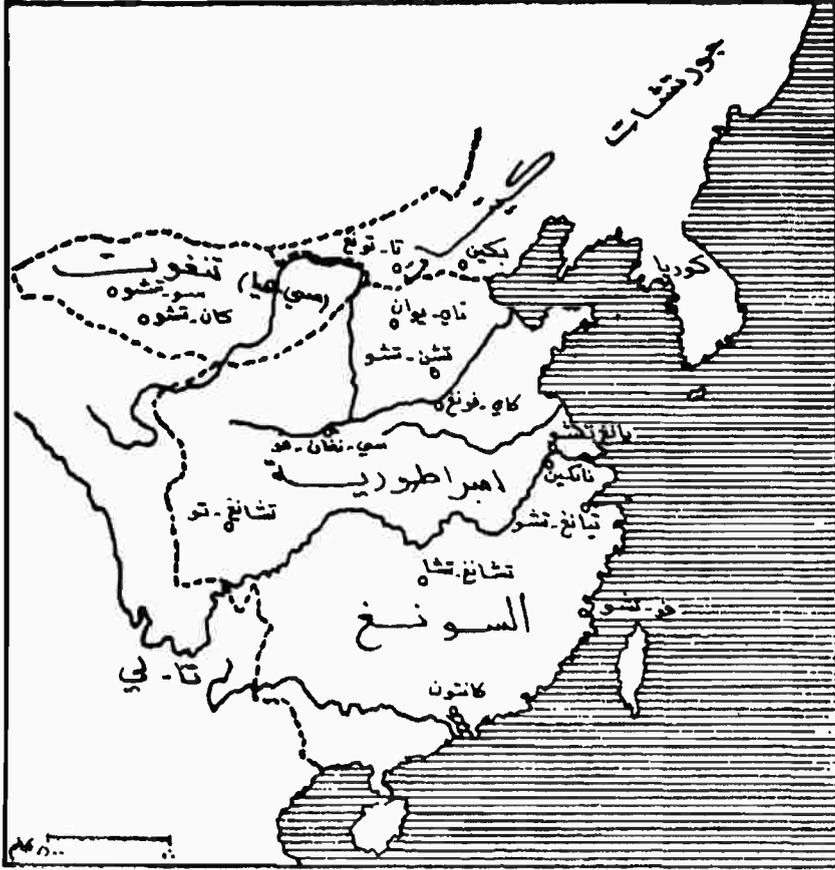
وهكذا بعد ان تحرر المفكرون والمتقفون من ضواغط الروح العسكرية البغيضة راحوا يعملون على تحقيق نزعاتهم السمحاء واهدافهم السامية . فما من عهد حقق في مجال الفكر والفن ما حققه عهد ملوك سونغ في تاريخ الصين . فالاباطرة انفسهم ضربوا بسهم في الثقافة ، لا بل كانوا اثقف من تربع على عرش الصين طراً ، كما يشهد على ذلك الامبراطور هواي - تسونغ (١١٠٠ - ١١٢٥) ، الذي كان ذواقاً ، وعالماً بالآثار وحفياً بها ، جماعاً لها ، وناقداً فنياً وادبياً ، ورساماً في بعض الاحيان . فلا عجب ان تصبح العاصمة الجديدة ، بين ١١٣٢-١٢٦٧ اشبه ما تكون بمدينة متحفة ومقرأ لمحفي الفنون الجميلة ، حَقَل موقعها الجغرافي البديع ، بالمعابد والهياكل ، والقصور والصروح الجميلة في مثل هذا الجو العابق بالسلام ، وفي متعة من العيش المترع ، وفي مثل هذا الاطار الجغرافي البديع المناظر ، اعطت مدرسة الرسم والتصوير في عهد دولة سونغ ، ابهج رواثها الفنية . فبعد ان ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمناهج الفلسفة والشعر الرفيع ، راحت تضع لنا مناظر تعبق بالظلال المترعة بالسحر ، السابجة في غلالة من الندى ، الغارقة في البعيد الرجراج ، القائمة على خطوط شاطحة . وقد رسمت على أرضية من الحرير الشفاف بالحبر الصيني فبدت في قدمها كأنها عنبر ماصع . وقد خضع فن التصوير عندهم لهذه المثالية الصوفية التي آل اليها مفكرون انقطعوا للتجريد والتأمل ، معظمهم من اتباع الديانة التاوية ، فبدت المناظر وكأنها رؤى متحيزة ، عبرت عن النفس برمز ، وورثت عن طبيعة الرسام الفيلسوف برسوم مبهمة وهو تصوير نفساني حاول ، على طريقة الفلسفة ، ومستعينا بالمحسوس ، ان يتلمس جوهر النفس وحقيقتها وان يدوب معها . فاذا كانت الصورة

ذات اللون الوحيد تؤلف وجدها قصيدة، فالقصيدة التي تسبح نسج بردتها ملوك سونغ هي نفسها صورة ناعمة مهففة تفر بالحنس والشعور ، وبكل ما في الطبيعة من حب وهيام .

وقد رافق هذا الازدهار الفني إشعاع ادبي واسع النطاق ، مكّن له اختراع الطباعة فانتشرت الفلسفة الكونفوشيوسية . فاذا كانت البوذية والكونفوشيوسية والتاوية ، لا تزال ماثراً فيما بينها لجدل عنيف ، هو من مميزات هذا العهد المفردة ، فقد وضعت كلها نصب عينيها ، هدفاً واحداً : وحدة الوجود او الكون ، فترد الكون والإنسان الى مادة واحدة لا غير . فاسمع ما يقوله تشاد - يونغ (١٠١١ - ١٠٧٧) بهذا الصدد : « فلإنسان والارض والسماء تؤلف جميعاً وحدة واحدة ، مع كل الكائنات التي كانت في كل الأزمنة والامكنة ، اذ ان ناموس الكون واحد هو ... فبدأ الحياة واحد هو ، وينبض في الجميع ... » ، ويضاف الى هذا عامل تطوري تختلط فيه وتتمازج به اقدم ما عرف به المجتمع الصيني البدائي والنظرات الفلسفية الهندية التي حملتها البوذية الى اطراف الشرق الاقصى . وقد ألبس تشو - هي (١١٣٠ - ١٢٠٠) هذه الفلسفة صبغتها النهائية التي تبرز لنا على أتم وجه ، هذه الفكرة كما تبدت لنا في عهد ملوك سونغ . وبالرغم من متانة هذه النظرية الفلسفية التي وضعها تشو - هي وذهب صداها بعيداً في الارض ، فقد فتحت ، مع ذلك ، الباب على مصراعيه ، أمام التأمل في شبه حلقة مفرغة ، مانعة في المستقبل ، كل انطلاقة ، نحو المذهب الروحي . وهكذا كان السبب في هذا الشلل الذي اصاب الفلسفة الصينية بين القرنين الثالث عشر والعشرين وهو شلل زاده جموداً وقعوداً الفتح المغولي ، وفيما بعد ، الروح المحافظة التي ميزت عهد ملوك مينغ .

منذ اواخر القرن الرابع بلغت الحضارة الصينية كوريا واليابان . كما دخول اليابان الحلبة دخلتها البوذية . وفي سنة ٥٥٢ ، حملت بعثة كورية الى امبراطور اليابان تمثال بوذا ، ومجموعة من الحكم البوذية والكلم المأثور ، وهو حادث كان له تأثير عظيم ودوي كبير تمثل في اعتناق اليابان رسمياً للديانة البوذية . وقد نشبت اذ ذلك ، حركة عنيفة بين المحافظين المشهورين بمعارضتهم للبوذية ، وبين المجددين التقدميين الموالين لها ، بزعامة اسرة سوغا الكبيرة . وعندما تمت الغلبة للفريق الثاني ، تمت معها المناداة بالبوذية ديانة اليابان الرسمية ، مع ارتقاء الامبراطورة سويكو العرش (٥٩٣ - ٦٢٩) ، وهي من اسرة سوغا ، فكانت اول امرأة تجلس فوق عرش اليابان واتخذت مساعداً لها احد امراء سوغا هو اومايادو سوغا الذي عرف منذ ذلك ، باسم شوتوكو تايشي ، الذي كان من اشهر رجال عصره . واذ كان بوذياً مخلصاً وغيوراً ، فقد ادرك سمو الثقافة البوذية وتعاليمها وتساميها فوق ديانة البلاد البدائية المسماة شنتو ، التي لم تستطع ان تعلو فوق الاساطير والخرافات التي علمتها حول مراسم التطهير والرجس ولم تخرج من هذا كله باية نظرية ادبية . واعتماداً منه على الحلقة البوذية ، راح شوتوكو يصدر ، عام ٦٠٤ مرسوماً تألف من ١٧ مادة صح إتحاذه دستوراً لحكومة ذات سيادة تأخذ الناس بالعدل ، بعيداً عن كل استبداد . ومن هذا العهد ارتفعت في البلاد اولى الاديان والمعابد

البوذية ، فقد 'عدّ' منها ٤٦ عام ٦٢٤ ضمت ٨١٦ رابياً ، كما ضمت ٥٦٩ رابية ، وهي مبانٍ من الخشب 'صنّمت' وفقاً للتقاليد اليابانية ، وسهروا على حفظها وصيانتها فوصل معظمها إلينا سالمًا حتى القرن العشرين ، كما كانت تماماً في مظهرها القديم . فليس من فرق جوهرى في



الشكل (رقم - ١٠) الصين في عهد دولة سونغ (حوالي ١١٠٠)

المظهر ، بين المعبد الياباني والهيكل الصيني . فهو يقع في ساحة مربعة الاضلاع تحف به الاروقة كالدير ، ويحيط به افناء واسعة وعدة مبانٍ مخصصة للاعمال الادارية في الدير . ويرقى الى هذه الساحة الفسيحة الارحاء من عدة ابواب ، فيطل علينا الهيكل الذي يشابه الـ Stupa في الهند ، والسرادق المذهب (Kondô) الذي يضم الايكونوستاز حيث لا يسمح للجمهور بالدخول ، ثم قاعة الوعظ والارشاد ، فالمكتبة ، فقبّة الجرس ، فبيت النامة ، وغرفة الطعام ، والمطبخ ، وجناح الحمامات تقوم كلها في الخارج ، الى الشمال من سور الدير . ومن ابرز هياكل هذا المهد

ومن اجملها على الاطلاق ، هيكل هوريوجي ، الذي تأسس عام ٦٠٧ ، والذي اكلت النار احد أفرزته ، في حريق شب فيه عام ١٩٤٩ .

فاذا كانت العلاقات الرسمية المباشرة بين الصين واليابان ابتدأت في سنة ٦٠٧ ، فالعلوم والفنون الصينية كانت دخلت اليابان، قبل ذلك بقليل عن طريق كوريا، منذ اواخر القرن الخامس . فقد احدث دخولها الى اليابان ، بين الطبقات الاجتماعية العليا، حركة تعاطف واقبال قوية للغاية ، بعد ان صدمت بمنظرها الخارجي البسيط ، وباعتقاداتها البدائية ، الرجال الذين تألفت منهم البعثة الصينية . فقد بدا القصر الملوكي كأنه مجموعة من الاكواخ تعلو ابوابها احواض المياه وعقافات عديدة يركن اليها عند شوب النار لهدم المباني ، منعاً لانتشار الالهب واتساع الحرائق . اما الزبي فكان يلبس الجسم لابساً، مع ستره تشبه ما كان مستعملاً من امثالها في كوريا . اما الفتيان ، فكانت شعورهم توزع بين ضفيرتين ، تمقص فوق الاذنين او تمقص فوق الجبين . والوشم الذي يعتبره الاغراب من سمات النبيل والشرف ، فقد اصبح فرضه على الناس ضرباً من القصاص .

وقد اثر الازدهار الذي عرفته الصين في عهد الأول من ملوك تانغ تأثيراً بالغاً على اليابانيين ، فراحوا يقتبسون كل ما هو صيني ، كالكتابة والرسم على الحرير وصنع اقلام التصوير والورق ، وعلم النجامة ، والتقويم ، وحساب تواريخ ايام السنة، وهندسة المناظر، وبناء الجسور . وتشبهاً بالصين ، راح اليابانيون يمحسون من شواطئهم البحرية ، ويلبنون نظام الضرائب ، وسك العملة ، ووضع المراسم في استقبالات البلاط ، والملابس والزين الرسمية في الاستقبالات ، والرتب والمراتب في الوظائف . وقد كانوا اقتبسوا منذ عهد بعيد ، اي منذ عام ٤٠٥ ، الخط الصيني ، اذ قدم الى اليابان ، هذه السنة بالذات كاتب كوري ، لاستخدامه في القصر ، وما انتصف القرن الخامس حتى اقتبست اللغة المحلية في اليابان، الايجدية الصوتية المستعملة في الصين التي كانت تتألف من ٥٠ صوتاً صوروها حروفاً رُتبت على النسق الهندي المعتمد في التعليم . ومنذ ذلك الحين طلعت علينا المحفوظات ، والسجلات ، والاوامر والمراسم المكتوبة ، مرسخة في البلاد لاصول السلطة المركزية الحاكمة وسهلت وضع تاريخين للبلاد هما الـ *Kojiki* والـ *Nihonji* ومجموعة من القصائد (*Munyoshi*) وبيانات طوبوغرافي (*Fûdoki*) كذلك طلعت بوادر يقظة فكرية وذوقية تردد صداها في الموسيقى الوطنية ، اذ ان اليابان تبنت الموسيقى التي راجت في عهد تانغ، وهي صينية الاصل ، وموسيقى *Kan* المستوردة من كوريا ، والنظرية الموسيقية التي حملها معه لن - بي ، وهي هندية الاصل، واكثرها رواجاً، وموسيقى قرا ، من اسم جزيرة قريبة من كوريا . وكل هذه المدارس الموسيقية الاربعة ولا سيما المنسوبة منها الى لن - بي ، تبدو معالمها واضحة من خلال التطور الذي مرت به الموسيقى في اليابان .

كل هذه المؤثرات الفنية والفكرية دخلت اليابان عن طريق الكوريين . فالعديد من رجال الفن والصناعة ، بين مهندسين ورسامين نقاشين ونسّاح وغيرهم من ذوي المواهب الصناعية ،

قدموا من بعيد وسكنوا اليابان، لا سيما ابان الاضطهاد الذي اعلنته الصين ضد البوذية ، في اواخر القرن السادس. ولا بد من التنويه هنا بهذه الحركة التي قامت في العصر التالي فعملت عدداً كبيراً من طلاب العلم يفتدون من اليابان على الصين لاقتباس العلوم ولا سيما الطب منها .

وعندما راحت اليابان تقلد الصين تقليداً حرفياً ، اخذت عنها في جملة ما اخذت ، النظام الاداري الذي عمل به في عهد دولة تانغ ، كما اقتبست اصلاحاتهم ونظمهم الاقتصادية ، دون ان يدركوا جيداً كيف ان الشكل الديمقراطي لهذه السلطة لا يأتلف قط مع التقاليد الارستوقراطية الصرفة المتبعة في الطبقة الموجبة التي تتألف ، في اليابان ، من كبار الملاكين للارض المتوزعين احزاباً والمنتسبين بامتيازات الطبقات الممتازة . فادت الامر في عهد الملك تارا (٧٠٧ - ٧٨١) ، الى نفي من الاتفاق للمتطرف اصبح معه الامبراطور (Tenno) الذي هو في الاساس نظام وراثي ، حاكماً زمنياً وروحياً ، فكان بهذا ، زعيماً وطنياً ، وإلهاً قومياً. فتحت سلطته يعمل جهازان خاصان ، هما الـ *Shinto* ، الذي لا نرى له مثيلاً او مرادفاً ، في الصين ، والآخر هو مجلس شورى الدولة . فالاول يهتم بكل الامور الدينية ولا سيما ما تعلق منها بالمعابدات القديمة ، في اليابان ، بينما الجهاز الثاني يؤلف رأس هرم الادارة العامة الذي يتشعب منحدرأ من الوزراء لينتهي بالدوائر المحلية . فالوظائف لا تعطى لاصحابها والرتب لحاملها ، وفقاً لاستحقاقات خاصة او لنجاح يصيبونه في الامتحانات . فالوظائف والمراتب هي من حظ ابناء الاسر الكبيرة الذين تهيأوا لها واستحقوها بالدروس والعلوم التي تلقوها في الجامعة الامبراطورية . وابناء كبار ارباب البلاد الذين سامحوا من قبل في قيادة المملكة وتوجيهها ، تسند اليهم وظائف تستمر في بيوتهم بالوراثة . ولما كانوا يتقاضون مرتبات ضخمة لقاء هذه المراتب الشرفية التي يحملونها ، فقد ألغوا عبئاً ثقيلاً على خزينة الدولة التي كانت تتغذى من الرسوم المفروضة على المكلفين من غير النبلاء وعلى العميد الارقاء . وقد سببت الضرائب الباهظة خراب الملكية الصغيرة التي فرض على اصحابها من كلا الجنسين ، دفع رسوم ، منذ بلوغهم السادسة من عمرهم . ولما كانت الارض لا تورث ، فقد كانت تعود الى ملكية الدولة عند وفاة صاحبها ، كما كانت الدولة تتمدد الى توزيعها من جديد ، بعد كل ست سنوات ؛ فلا يمكن التنازل عنها لاحد او بيعها من احد ، باستثناء قطع الارض التي تقوم عليها عمائر ومبان ، او فيها اغراس من شجر الملك . وكان افراد الشعب يخضعون لثلاثة انواع من الضرائب : ضريبة على الارز تتناسب واهمية الاراضي المزروعة أرزاً ، وضريبة اخرى تترتب على الرجال وحدهم يدفعونها عيناً : انسجة او محاصيل زراعية محلية ، واخيراً السخرة . والى هذا ، فقد سُمح لحكام الولايات ان يحتفظوا لانفسهم بقسم من الفوائد المترتبة على السلفة التي استلفها المزارعون من الدولة ، فيضطر هؤلاء لدفع فائدة فادحة ، تكون ضريبة اضافية جديدة . ثم ان الخدمة العسكرية الاجبارية ، تلزم رجلاً من اصل ثلاثة ، على قضاء ثلاث سنوات ، في خدمة الجيش بعيداً عن ذويه ودياره ، هذا ان لم تضطره الظروف للبقاء في الخدمة العسكرية الى ما لا حد له ، مع العلم ان على الجندي ان يتكفل بتأمين غذائه

وعده، وان يستمر في دفع الضرائب المترتبة عليه، كما عليه ان يُسهم في التجهيزات العامة . وهو يمضي اكثر اوقاته في اعمال السخرة اكثر منها في خدمة عسكرية فعلية . واليابان مدين لما هو عليه من وبالة الصحة لانه لم يتعرض يوماً للغزو من الخارج ، اذ ان جيشه كان في وضع زري جداً بحيث لم يكن يرجى منه شيء .

صحيح ان طبقة النبلاء رأت أملاكها تنتزع منها ، ولو اسماً ، وتمطى لأعضاء الاسرة الامبراطورية ، إلا انه قبل ان يوضع القانون موضع التنفيذ ، نال رؤساء البيوتات الكبرى تمويضات محسوسة على الاملاك التي انتزعت من ملكيتهم ، كما نالوا مراكز عالية ، وأعفوا من الضرائب والرسوم المفروضة، والسخرة والخدمة العسكرية والمدفوعات العينية، وكلها امتيازات أصبحت وراثية في اسرهم يتوارثونها خلفاً عن سلف . وبموجب المراتب التي أُجريت عليهم ، يحق لهم الحصول على بعض الاتاوة من الأرز وغيره ، وان يفرضوا بعض الرسوم ، وان يتقاضوا فوائد على ما يقرضون . واذا ما أدوا للامبراطور ولحكومته خدمات سنية، نالوا عنها تقديرات محسوسة ومنافع عينية جزيلة . وقد اخذوا يعملون بنازع من النفس ، على توسيع دائرة مقتنياتهم كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً : فيجمعون بين وظائف عديدة عالية ، ويُعترف لهم بحق املاء المناصب السفلى من اتباعهم ومريديهم ، وبذلك فتحوا الباب على مصراعيه امام الرشوة والفساد . وهذه المكاسب والامتيازات المريضة التي كانت تزداد قيمتها بارتفاع المركز وسمو الوظيفة ، تمتع بثلمها وأكثر ، رجال الدين من رؤساء ديانة الشنتو والبوذية .

هذه القوانين التي صدرت عن جماعة مضت بمبدأ في حرصها
النظام الاقطاعي في اليابان
تصيتها وأخذها بأسباب الحضارة الصينية ، وهامت كثيراً
بالمركزية التي سادت البلاد في عهد دولة تانغ ، صدرت لعمري ، عن سلطة مركزية طرية العمود ،
ضعيفة المضل بحيث تستطيع ان تفرض ارادتها على مصالح بعض الخاصة . وجاء توزع
السلطات واقتسامها يخدم الى حد بعيد ، الجشع الذي جاش في صدور ونفوس بعض كبار
الزعماء الذين راحوا ، اماناً منهم في المقامرة ، يمتصون في املاكهم الواسعة او في اقطاعاتهم
Shōen ولم يلبثوا ان نالوا تدريجياً، اعفاءات متزايدة عن اراضيهم كما اعفي المزارعون والفلاحون
العامةون في اراضيهم من السخرة . ولم تلبث هذه الاقطاعات الشاسعة ان أصبحت بمالك مصغرة ،
مستقلة ضمن الامبراطورية . والموظفون الذين كانوا من كبار الملاكين ازدادوا نفوذاً وشأناً : فقد
نعموا ، من جهة ، بأعطيات واسعة اجرتها عليهم الدولة ، كما استطاعوا ، من جهة ثانية ، ان
يستثمروا دونما قيد ، اراضيهم والمزارعين العاملين فيها . وهكذا تمكن كبار الزعماء في البلاد
من استرجاع ما كانوا يتمتعون به من نفوذ وجاء ، واستطاع كبير زعيم هؤلاء الاقطاعيين
الـ (Fujiwara) ان يجمع بين قبضة يديه ، كل مراكز القيادة والتوجيه ، وتوصل عن طريق
أنصاره وأتباعه ومريديه بعد ان اخذ عددهم بالنمو والازدياد ، ان يسيطر على المجلس الاعلى
للنبلاء، والوظائف الكبرى في الدولة، ويقدم للعرش الامبراطوري، الامبراطورات والوصيفات .

وسواءً اعتبرت هذه الاقطاعات *Shiōen* ممتلكات خاصة او انعامات نالها اصحابها للخدمات الجلى التي أدّوها للبلاط، فقد كانت النقطة التي انطلق منها وارتكز عليها النظام الاقطاعي في اليابان. صحيح ان وحداتها اختلفت مساحةً ووضعاً وقواماً. فالتى قطعت منها شوطاً بعيداً في التطور، نزعته الى الانقسام والتفرع الى استثمارات تولى امرها ملتزمون، بينما راحت الاخرى تتسع وتزداد بضم الاراضي المتفرقة بين أفضية مختلفة، ومعظمها يتألف من مزروعات الارز يستغلها مكثرون او مرابعون. اما التي كانت منها ملكاً لمؤسسة دينية، فكان يتولى تشغيلها وكيل فوّضت اليه العناية بها والسهر عليها فكان شبه مالك لها، يتقاضى لحسابه الخاص بعض العائدات التي يجيبها من اصل غلة الارض، بمثابة مرتب له. وكثيراً ما كان صاحب الارض يقدم، هو نفسه، للمزارع ما يحتاج اليه من نصوب ويزار على ان يقدم الفلاح عمله بالجمان وان يسلم كامل المحصول عند تمام المواسم، كما كان عليه ان يقدم، علاوةً على ذلك، عيناً بعض محاصيل الارز وغيرها من نتاج الارض، كثيراً ما اضطر المزارع لشراؤها من اصحاب الاملاك المجاورة. ومن كان من هؤلاء المرابعين والخدم والارقاء صالحاً للخدمة في الجيش، كان عليه ان يقوم بشيء من الخدمة العسكرية عند سيد الارض ليردّ عنه عوادي الغزاة والمهاجرين. اما في الاقطاعات الواسعة، كان الوكيل يتولى ادارة الاقطاع فينظمها على شاكلة الادارة العامة في الدولة، بعد ان كان تحت امرته، عدد كبير من العمال التابع لسيد الارض. وهذا السيد المستقل في اقطاع، كان يخضع، مع ذلك، لرئيس اعلى هو الحارس القانوني لهذه الاقطاعات الذي كان ينتخب عادةً من بين اعضاء مجلس النبلاء الاعلى، فيكون من كبار الاشراف او من الاسرة الامبراطورية، او من بين سراري الامبراطور، او مثلاً لأحد الهياكل الكبرى في البلاد الذي ينعم بنفوذ عظيم. ومقابل هذه الحماية والرعاية التي يؤمنها الحارس، لهذا السيد، يترتب على هذا الاخير، ان يدفع سنوياً مبلغاً معيناً يتناسب والخدمات التي يتلقاها منه عن البلاط.

ان تاريخ اليابان الداخلي طوال هذه الاجيال التي نستعرض هنا لبعض معالمها، ليس سوى سلسلة متصلة الحلقات من خصومات ومواقف بين رجال الاقطاع على اختلافهم وذلك رغبة من السلطة المركزية بتخفيض عدد هذه الاقطاعات، او الغاء بعضها او اخذها بنظام آسر عليه ان تتقيد به؛ ولم تعتم هذه العقارات الكبرى ان استحال تدرجياً الى اقطاعات فاقت بقوتها العسكرية، قوة السلطة المركزية للامبراطور. فالبنيان السياسي الذي حدوا فيه حذو ملوك تانغ في الصين، ساعد على اتخاذ مثل هذا الوضع، اذ كان على رأس الادارة المركزية، موظفون كبار يتوارثون هذه المراكز، لا يمكن عزلهم او رفقتهم، فسدت منهم الاخلاق والاضائر، وماعت نفوسهم. فحيث اخفقت الدولة، استطاع نظام الاقطاع ان ينجح، لأنه عرف ان يساير تطور الشعب الياباني، وان يراعي طبيعته، فتوصل الى حل مشكلة تزايد السكان، وان يرفع يؤمن النظام في الداخل، بعد ان كان الـ *Shiōen* احسن ادارة مما كانت عليه الدولة، وان يرفع من مستوى العيش. واستطاع ان يشكل وحدات عسكرية تفوق كثيراً بنظماها وفعاليتها ما

كان منها لدى الدولة . ففي الوقت الذي كانت فيه الخدمة العسكرية ، لدى الدولة اشبه بسجن يقوم السجين فيه بأشغال شاقة ، كان جنود الاقطاع يجردون في خدمتهم لذة وفخراً .

وبالرغم مما كان عليه هذا الوضع الاجتماعي في اليابان ، من معاناة وغموض ، فقد جاء ، مع ذلك ، وضعاً بناءً ، سجلت الدولة فيه ، خلال القرن الثامن ، ابي في عهد العاصمة نارا ، رقماً قياسياً في تطورها التاريخي . فقد راحت الدولة التي نعمت ببنين سياسي واقتصادي قوي ، ترعى الآداب والفنون وتؤمن لها الازدهار . وقامت الدولة بإصلاحات رمت منها للحد من نفوذ الاسر الاقطاعية القوية والتسيج حول ملكية صغار الملاكين . والبوذية التي اصبحت دين الدولة الرسمي ، عرفت عهداً من الازدهار لم تعرف مثله من قبل ، تمثل بهذه المؤسسات التقوية او الانسانية المعيدة ، التي يفضل ما نعمت به ، تحت اشراف الامبراطور ومراقبته المباشرة ، من ادارة قوية ، صحيحة ، استطاعت ان توسع من نطاق عملها الاجتماعي ، فانشأت المستوصفات ، واهتمت بامر المرضى ، ومدت يداً رفيعة للمعوزين وساعدت رجسال الدين ، ونشرت اسباب المعارف . فالجامعة الحكومية التي قامت في العاصمة نارا ، عرفت ازدهاراً كبيراً عام ٧٠١ ، اذ تألفت من اربع كليات ، هي التاريخ والادب والحقوق والرياضيات ، كما كانت تعلم علم الاصوات والخط . وكان للرهبان البوذيين نفوذ كبير ، فقد ترأسوا الحفلات الدينية ، ونظموا الاعياد الوطنية ، وشقوا الطرقات في البلاد وانشأوا الكثير من الكباري عليها ، وساعدوا على التشجير وزرع الاغراس على جوانب الطريق ، وقاموا بحفر الآبار واقنية صالحة للري . ولم يقل عدد الرهبان اذ ذاك عن ٨٠٠،٠٠٠ راهب وراهبة في بلاد تراوح عدد سكانها بين ٧ و ٩ ملايين نسمة ، ابي بنسبة واحد في المائة من السكان . واستطاع الاباطرة ان يسيطروا تباعاً على الجزر المتاخمة ويحققوا انتصارات 'مدوية' على اقوام الـ *Ainu* الذين ما عثموا ان ذابوا تدريجياً في جسم الامة اليابانية .

كان فن التصوير العنصر الذي وحد بين هذه النزعات على اختلافها ، بالرغم من ان منابعه الكبرى لا تزال بعد صينية ، الا انه اخذ يبرز اكثر فاكثراً ، بطابعه الياباني . وقد التحسّد مادة له عناصر شتى ، منها اللك الناشف المفروش على صحائف من المقوى ، والنحاس المذهب والقوالب المتخذة من الصلصل المزوج بقصاصة القش والتين ، والطلق ، فاتخذ من هذه العناصر التي عاجلها بمهارة المنقوشات الفنية التي امدنا بها . واخذت المصنوعات الثمينة المعدة للاستعمال ترد على البلاد من الصين والتركستان الصيني ، وايران ، حتى ومن اقاصي الهند ، وتحفظ في مبنى *Shōsoin* الذي استمسل متحفاً فكان اقدم متحف في العالم على الاطلاق ، يفتح ابوابه امام الزائرين ، مرة في السنة . وقد انشأت الدولة ، في طول البلاد وعرضها ، مصانع ومعامل ، اهتمت بشؤون الرسم وصناعة الجوهرات ، واللك ، والسلال والحزفيات ، على اختلاف اشكالها وغير ذلك من الصنائع والمهن لا نعرف شيئاً كبيراً عنها . والموسيقى والرقص الايقاعي اللذان ترعرعا تحت رعاية واشراف دائرة الطقوس والمراسم ، استمدا الكثير من موهباتها من الصين

نفسها ، ولا تزال تمتع النظر ، اليوم ، برأى وجوه مصطنعة يعود صنعها الى هذا العهد ، حتى ان الشَّعر نفسه ظهرت له مجموعات من المنتقيات المختارة .

وكلما امعنا السير في هذه الحقبة طالعنا الفتن الكثيرة والدسائس تحيكها الاسر الكبيرة ضد بعضها البعض ، بتعريض مفضوح من الفوجيوارا وحسابهم ، اذ لم يكن احد لينكر ما كان لهم من شأن وشأور ونفوذ عريض . وراحت الدولة من جهتها تنشئ لها جيشاً له قدرة ثابتة على الحرب والكفاح ، تألَّفت وحداته من طبقة رجال الحرب والشفاليه ، هذا الجيش الذي كُتِّبَ له ان يلعب فيما بعد ، دوراً كبيراً في المجتمع الياباني . ومها يكن ، ففي عهد دولة هايابا (٧٨١ - ١١٦٧) ، ولا سيما في الحقبة الاولى منها التي امتدت حتى سنة ٩٦٧ ، بلغ الفوجيوارا القمة من القوة والسؤدد ، كما بلغت اليابان الذروة في هذه الحقبة من اقتباس الحضارة الصينية ، مع ان حركة التعاطف هذه بين الجانبين كانت خفت قليلاً ، كما هو ملحوظ . فالعاصمة الجديدة كيوتو ، بما قام فيها من هياكل ومعابد ، وقصور وصرورح ، وبما بلغه فيها البلاط الملكي من بذخ في العيش ورهافة في الذوق ، برزت بالفعل ، المرأة التي تجلت على اديمها هذه النزعات ، فبعد ان صقلت الازواق لدى طبقة النبلاء ، مالت افكارهم نحو الفنون الصينية الجميلة ، الا انهم اخذوا ، بمد ان وعوا شخصيتهم وشعروا بقيمة الذات ، بتكليف العناصر الدخيلة وفقاً لما يتألف وطبيعة مزاجهم القومي . وهكذا قل ايضاً عن البوذية التي اخذت علاقاتها مع الصين تخف وتتباعد ، بعد ان ارتدت طابعاً قومياً . وهكذا بدت اليابان اكثر اعتماداً من اي وقت مضى ، لتعني ذاتها وتشعر بنبوغها وعبقريتها ، بعد ان اخذ التخطيط ينخر في دولة تانغ الصينية ، فانحطت وزالت من الوجود ، فتراخت بالتالي العلاقات الاقتصادية والروحية التي ربطت طويلاً بين البلدين .

وهكذا بدا البلاط الامبراطوري في اليابان أقل اخذاً بالثقافة الصينية ، كما تلبَّس الشعر سمات اكثر يابانية وقل تقليد أمن قبل ، واكثر طبيعية . وبعد ان تكاملت وسائل الخط والكتابة راحت المرأة اليابانية نفسها تهتم بالأدب وتعنى بالتأليف وأمور الفكر وراحت بعض النساء ينظمن قصائد تفيض عذوبة وتميل اكثر فاكثر الى التجدد . من ذلك مثلاً : « مذكرات مبخدة » التي وضعتها الاديبة اليابانية : ساي شوناغون (٩٨٧ - ١٠١١) . وقد تسبب التعليم الجامعي عن فتح المزيد من الكليات ، فاقبل عليها التلاميذ وهم بعد في سن حداثتهم يدرسون علم الاصوات ، وآثار الصين الكلاسيكية ، والطب ، بنسبة واحد على خمسة طلاب . والفنانون من ابناء البلاد راحوا يمارسون بنجاح كلي الخط وفن التصوير الصيني ، اذ بالرغم من التحرر الذي حققوه ، بقي رجال الادب من اليابانيين ، على اتصال متين بزملاتهم في الصين ، حتى بعد زوال دولة تانغ . رهافة الذوق هذه برزت على اتمها في بلاط الفوجيوارا الذين بزوا بما وصلوا اليه من بذخ ، البلاط الامبراطوري نفسه ، فمارسوا في الدولة دكتاتورية فعلية . فاكثروا من اقامة الولائم في اسواق الادب والحفلات الموسيقية ، والمراقص اليايائية التي كثيراً ما تلهوا بها . فقد ألفوا في فصل الربيع الترفيه عن انفسهم برؤية حدائق الكرز في ابان نورها وزهرها ، واستمتعوا برأى الاشجار تتمرى من اوراقها في الخريف ، وجلوا نواظرم بمنظر الثلج يكسب

قمم الجبال . اما المرأة ، فقد كانت بهجة القصر وعطره ، وشم الحياة وتمتعها .

هذا النظام الاقتصادي والسياسي الذي اقامه في اليابان المتمصبون للثقافة طلوع عهد الشوغونات الصينية والمقتبسون لها ، في القرن السابع ، لم يلبث ان انهار ، عام ٩٦٧ ، في الوقت الذي يضعف فيه نفوذ الفوجيوارا في البلاد بعد ان استكانوا الى الدعة واستسلموا بكليتهم للملاذ . وتضخمت قبيلتهم الى درجة فقدت معها الوحدة ، فانقسمت على نفسها تحت تأثير الدسائس والمؤامرات والاحزاب الداخلية والعصبية التي شدت البطون بعضها الى بعض فلم يستطيعوا الدفاع عن انفسهم ، وعهدوا بامرهم الى رؤساء من المرتزة ، فاضطروا اخيراً للتنازل عن سلطتهم وسيادتهم للنبلاء والبارونات ، القائمين في المقاطعات ، والى اصحاب الاقطاعات الضخمة .

وظل هذه الاقطاعية الريفية جبراً على الشعب موجة من التطير والتشاؤم ، زاد من حدتها هذه الاعتقادات والاهام الشعبية التي راحت تروج وتنتشر ، منذرة بان سنة ١٠٥٢ ، ستحمل معها زوال الناموس البوذي . فبعد ان اثرى الرهبان البوذيون ، واستبحروا في البذخ والجاه ، راحوا يناصرون بعضهم البعض العداء ، ويوغرون صدور بعضهم بالنم والدس والافتراء ، وكلها امور يتبرأ منها الدين . ولذا راح الشعب يبحث له عن ديانة جديدة تحمل معها التمزية والسلوان لمن ذهب فريسة التشكك والارتياب ، فالتفت الى بوذا أميدا ، فاخذت عبادته تزدهر اذ ذاك وتنتشر . وفي الوقت نفسه اخذت اليابان تنكفيء على نفسها وتنطوي على ذاتها ، ولو بصورة مؤقتة ، واقصرت علاقاتها مع الصين على الامور التجارية دون سواها ، وانصرفت لفتح الجزر الواقعة على مقربة منها الى الشمال ، حتى اذا ماتم لها تدوينها ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، عادت اليابان سيرتها من الاتصالات مع الغرب .

فالحقبة القصيرة التي مرت على البلاد في عهد دولة الروكوهارا (١١٦٠ - ١١٨١) ، رأت المنافسات والحروب يشند أوارها بين الاسر الاقطاعية الكبرى التي راحت تتنازع السيادة وتحاول الخفض من جانب الفوجيوارا ، كما اشتدت المنافسة بين قبائل التايرة والميناموتو ، وتحول الاسرة الامبراطورية نحو ساحل البحر الداخلي . وقد تم الامر في سنة ١١٨٤ ، لامير من اسرة ميناموتو ، ان يعيد الامر الى نصابه ، فأنشأ له عاصمة جديدة هي مدينة كاماكورا ، وأقام فيها نظاماً جديداً من الحكم هو ما يعرف عندهم بـ *Shogunai* ، وهو نظام حافظ ، ولو بالاسم ، على سلطة الامبراطور الذي استمر يعيش في بلاطه وبين حاشيته عيشاً سداه العيب ولحمته الغرور ، الذي بعد ان حاول عبثاً إعادة نفوذه والاستقلال بالأمر ، وقع تحت وصاية الشوغون زعيم النظام العسكري الذي جمع في قبضته ملء السلطة . وقد عول في ضبط الامر على رئيس الاركان العام ، وعلى محكمة عليا للاستئناف ، ومجلس تنفيذي . وقد مثله في المقاطعات حاكم عسكري لم يلبث ان جمع بين يديه السلطة المدنية ايضاً . وأخذ على نفسه جباية الرسوم

والضرائب المترتبة واستلام ما يعود للسلطة من غلال الارض . ولكي يحدوا من استغلال كبار الموظفين المحليين، أنشأت الدولة دائرة للتفتيش، وخلقت عدداً من المقررين او الخبراء الاقتصاديين، ومحققين استثنائيين. وهكذا استمرت الآلة الحكومية تسيير ظاهرياً وفقاً للتقاليد المرعية ، بعد ان أدخلت عليها مثل هذه الاصلاحات الجذرية .

وهذا الاصلاح الاداري الذي جاء يسد من خطوات السلطة ويقومها لصالح الشوغون ، لم يلبث ان اعطى اطيب النتائج في المجالين الاقتصادي والاجتماعي . فنشطت التجارة الداخلية والخارجية على السواء ، فزادت حركة المقايضات والمبادلات . وقد نال التجار بعد ان توزعوا الى نقابات محلية ومهنية حق نقل تجارتهم بكل حرية ، بعد ان تمهدوا بدفع رسم سنوي مقطوع ، كما تمهدوا بان يدفعوا للربا كل شئ ، قيمة المبالغ المفروضة عليهم . كذلك اخذ وضع الفلاح بالتحسن ، وسار الرق في طريق الزوال .. والحادث البارز الذي احدث في اواخر القرن الثالث عشر ، دويماً عظيماً في حياة البلاد الاقتصادية . هو ادخال زراعة الشاي الى اليابان . والمرأة نفسها تالت هي الاخرى ، نصيبها في هذا الاصلاح بلبها بعض الحقوق الجديدة .

وفي الوقت الذي كانت فيه الشنتو هي ديانة الطبقة الارستوقراطية في البلاد وانتشرت بين الطبقات الشعبية الديانة المعروفة بـ *Amidisme* ، تلقت اليابان من الصين، مذهباً صوفياً جديداً لقي رواجاً عظيماً في البلاد هو مذهب *Zen* وهو نظرية فلسفية يُعسد ظهورها عطفة في تاريخ الفكر والفن في اليابان ، وساعدت على تحييز النبوغ القومي . ومذهب الـ *Zen* هذا ، الذي هو تأليف للتعالم البوذية والتاوية والهندوسية ، هو تعبير لهذه الحركة الاجتماعية العكسية التي استهدفت محاربة البذخ والبطر لدى الطبقة الموجهة ، وردة فعل ضد صنمية المثقفين وعبادة المتعلمين ، وحركة رجعية موجهة ضد الشكليات التي سارت عليها ديانة الشنتو ، وضد ميوعة العبادات الطقسية التي سار عليها اتباع أميدا ، وضد العصبية الديدية الذميمة التي يمثلها ، على احسن وجه ، نيكيرين (١٢٢٢ - ١٢٨٠) والاساطير الخرافية التي راجت في هذا العصر ومنها انبعثت نظرية جديدة في الهندسة المعمارية الدينية، واستعمال الحجر الصيني في تصوير المناظر، واخيراً الاحتفال بالشاي ، وكلها امور تركت طابعها العميق في الثقافة اليابانية . وفي هذه الحقبة تم حريق الهياكل والمعابد الكبرى التي احتدقت او هدمت اثناء الحروب الاهلية : وقد جاء الصينيون يملون في حركة التجديد والبحث ، وصنع التايل بعد ان اشتد الطلب عليها بكثرة . وبفضل هذا الانبعاث ، راح الشمر يحدد من نشاطه ، كما راح النثر ، بعد ان استقامت الجملة البيانية ، يتحفن بهذه الآثار التاريخية ، اشهرها على الاطلاق *Heike Monogatari* و *Heiji Monogatari* .

وهذه اليابان المتجددة ، ستقوم وحدها ، في القرن الثالث عشر ، بعد تضحيات كثيرة في اقتصادياتها ، وفي روحها الحربية ، بحروب دفاعية مظفرة ، ضد غزو المغول للصين .